بدايات

لكلّ فصول التغيير

فصلية ثقافية فكرية
العدد ١٧ ◆ ٢٠١٧

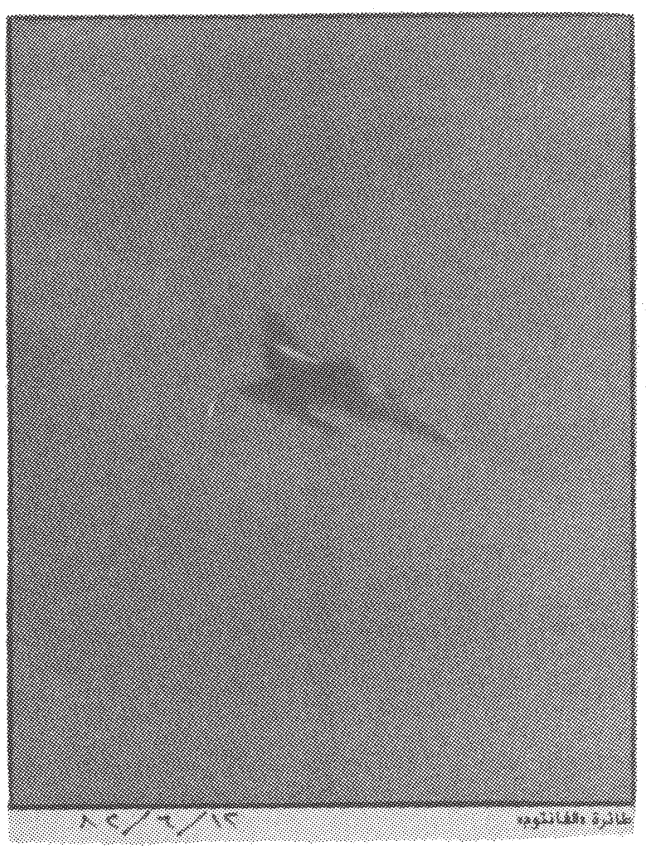

بدايات
رئيس التحرير: فواز طرابلسي
تحرير وترويج: زينب سرور
ادارة فنية: جنى طرابلسي
تصميم واخراج: لين الحوت
أبحاث الصور والرسوم: جمال صالح
تصميم صفحات الأقسام: عماد قعفراني
الموقع الإلكتروني: منصور عزيز
المدير المسؤول: حسّان الزين

مجلس تحرير استشاري
آدم هنيه، الياس خوري، بشرى المقطري، زهير رحال، جلبير أشقر، رشا السلطي، فؤاد م. فؤاد، سحر مندور، سلامة كيلة، سليم تماري، سينثيا كريشاتي، صبحي حديدي، عساف كفوري، غسان عيسى، فاروق مردم بك، كامل مهدي، محمد العطار، ميسون سكرية.

تصدر عن بدايات ش.م.م.
صندوق البريد **٥٧٤٨/١٣**
شوران، بيروت - لبنان
التوزيع: شركة «الناشرون»
لتوزيع الصحف والمطبوعات، ش.م.م.،
بيروت - لبنان

www.bidayatmag.com
info@bidayatmag.com
facebook.com/bidayatmag

المحتويات

العدد ١٧ ◆ ٢٠١٧

٤ **«بدايات» في العام السادس**

٦ **١٩٦٧، ١٩٨٢، ٢٠١٧**
الآلة الجهنمية: من الحروب الوطنية الى الحروب الاهلية
فوّاز طرابلسي

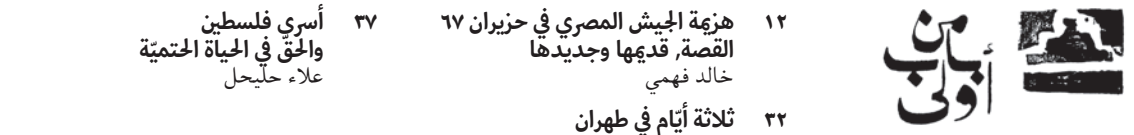

١٢ **هزيمة الجيش المصري في حزيران ٦٧**
القصة, قديمها وجديدها
خالد فهمي

٣٢ **ثلاثة أيّام في طهران**
إرهاب وجاز وساكسُفون
مريم حيدري

٣٧ **أسرى فلسطين**
والحق في الحياة الحتميّة
علاء حليحل

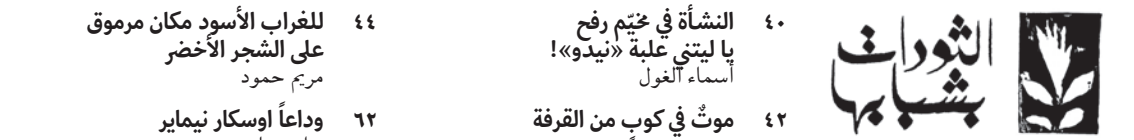

٤٠ **النشأة في مخيّم رفح**
يا ليتني علبة «نيدو»!
أسماء الغول

٤٢ **موتٌ في كوبٍ من القرفة**
زينب سرور

٤٤ **للغراب الأسود مكان مرموق**
على الشجر الأخضر
مريم حمود

٦٢ **وداعاً اوسكار نيماير**
برّاق ريما

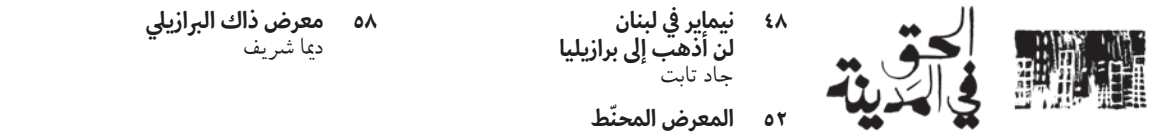

٤٨ **نيماير في لبنان**
لن أذهب إلى برازيليا
جاد تابت

٥٢ **المعرض المحنّط**
جاد تابت

٥٨ **معرض ذاك البرازيلي**
ديما شريف

ملف

٦٨ **رمزي حيدر ومصوّرو الحروب**
أو انتزاع الحقّ في الحياة
زهير هوّاري

٩٤ **عمر أميرالاي في**
«الرجل ذو النعل الذهبيّ»
اللعب المُرّ وإبليس السخرية
حاوره نديم جرجورة

١٠٠ **توفيق صالح:**
عندما تلتزم السينما العربيّة بالواقع
هادي زكّاك

الغلاف ١: الصورة
لرمزي حيدر وتعود
لشهر حزيران / يونيو
من العام ١٩٨٢
الغلاف ٢ و٣: قصاصات
من الصحف، لمصمم مجهول،
لبنان، ١٩٨٢

ذاكرة

١١٢ **جورج البطل، آخر البلاشفة**
مذكرات قائد شيوعي من لبنان
حاوره فوّاز طرابلسي

١٢٣ **فيتنام ١٩٦٦**
في قلب المعارك
رياض الرّيس

١٣٠ **من مذكرات جارالله عمر ٤**
وقف الكفاح المسلّح في الشّمال
حاورته ليزا ودين

١٣٩ **بدايات العمل الفدائي في جنوب لبنان**
حسين بعلبكي

١٤٧ **حلب**
من طريق الحرير إلى البرميل المتفجّر
فؤاد محمد فؤاد

١٥٢ **في انتفاضات حلب ١٧٧٠ - ١٨١٩**
عزيز تبسي

فيما نظر

١٥٨ **فائض الشّباب العربيّ والعنف**
في تقارير التنمية البشرية العربية
ميسون سكرية

١٧٢ **الطائفيّة كثورة مضادّة**
السعوديّة و«الربيع العربيّ»
مضاوي الرشيد

كتاب

١٨٤ **أنا القارئ وهذه كتبي**
ابن خلدون، إمام المؤرّخين
طريف خالدي

١٩٥ **وردة اليازجي**
امرأةٌ صدمت الرّجال
عماد الدين رائف

نهوند

٢٠٢ **نقد نقد الموسيقى في بلاد العرب**
فادي العبد الله

٢٠٧ **المؤلف الموسيقي عبد اللّه المصري**
تجديد سمعي من صميم المزاج العربي
حاوره أكرم الرّيّس

٢٢٢ **أصوات من الضفّة الثانية**
نزار مروة

بدايات

«بدايات» في العام السادس

مع هذا العدد تدخل بدايات عامها السادس.

بدأنا النشر مطلع الانتفاضات الشعبيّة على امتداد العالم العربي. كنّا وما زلنا نعتقد أنّ ما طرحتْه من تحدّيات زاد الحاجة إلى توسيع مساحات التأمّل وتعزيز تبادل الأفكار والتجارب وتعميق جهود البحث والتفكير النّقدي. وكنّا ولا نزال مقتنعين بالردّ على هذه التحدّيات من منظور يساريّ يستلهم قيمتَي الحريّة والمساواة معاً ويلتزم الديمقراطيّة والعدالة الاجتماعيّة.

تفترض «بدايات» أنّ مثل تلك المهمّات تستدعي إعادة الاعتبار لمجهود ثقافيّ وفكريّ لا يقتصر على الوجبات الثقافيّة والفكريّة السريعة والعجولة التي تقدّمها صفحات الرّأي أو الثقافة أو وسائل الاتّصال المجتمعي، وإنّما يتعدّى ذلك بالقلق والجهد اللازمَين لإنتاج المعارف وتحكيم الخيال في البحث عن مسارات الانتقال وطرائق التعبير وابتكار الحلول حيث تكون مطلوبة.

سعينا ونسعى إلى الجمع بين مثْل هذا التطلّب البحثيّ والنقديّ وبين الاحترافيّة الصحافيّة والمتعة الجماليّة، مع الحرص على التوجّه إلى الجمهور العريض قدر توجّهنا إلى الجمهور المتخصّص.

ندرك أنّنا بين قلّة من الدَّوريّات المستقلّة التي تكافح للبقاء على قيد الحياة في لبنان والعالم العربي، بمعزل عن دعم رسميّ أو حكوميّ أو مؤسّسي. نعتمد بالدرجة الأولى على عناد فريق المجلّة التحريريّ والفنّي والتنفيذيّ – إضافة إلى العشرات من الكتّاب والباحثين والفنّانين آمنوا بهذا الجهد وارتضوا الكتابة فيه تطوّعاً، وإلى تشجيع جمهور، ولو محدوداً من القرّاء والأصدقاء.

لم ولن نفْلت من مفاعيل الأزمة التي تعانيها الدوريّات الورقيّة أسبوعيّة وشهريّة وفصليّة وهي السبّاقة إلى أزمة اليوميّات، من حيث التمويل والترويج ومصاعب الاشتراكات والتّوزيع، عدا عقبات الرّقابة. مع ذلك نسعى إلى الوجود في أكبر عدد ممكن من البلدان العربيّة، بما فيها معارض الكتب، والمكتبات العربيّة في الخارج.

قرار الاستقلال مكْلف. لسنا مقتنعين بأنّ البديل من «التمويل السياسيّ» يأتي من طريق تمويل رجال الأعمال والشركات للصحافة أو من خلال آليّات السّوق وعائدات الإعلانات التجاريّة.

موّلنا كلّ عدد بعدده من خلال تبرّعات قلّة من الأفراد لا يتعدّون عدد أصابع اليدين، ومساهماتٍ متفرّقة بين وقت وآخر لتنظيمات مانحة أسهمت في تغطية بعض تكاليف هذا العدد أو ذاك. ولا وهْم لدينا بإمكان تحقيق الاكتفاء الذاتيّ ماليّاً من خلال المبيع والاشتراكات. لكنّنا سوف نظلّ نسعى إلى أكبر قدْر من العائدات من هذا وتلك. يبقى همّنا الأساس هو نشر الموادّ الجديدة

المعاكسة للسّائد والحافزة على البحث والتّفكير في «بدايات لكلّ فصول التّغيير» والوصول إلى أكبر عدد من القرّاء وتوسيع وتعزيز علاقات التّفاعل والتّضامن معهم، نتّكل عليهم في تغذية «بدايات» بالكتابة والمؤازرة والنّقاش والنّقد كما في تأمين استقلالنا الماليّ بالتّرويج والاشتراك والتبرّع.

هي مغامرة. ونحن مستمرّون فيها إلى أنْ تستنفد إمكاناتها المادّيّة، لأنّها لن تستنفد الحاجة إليها وإلى أمثالها ولن يشكو عالم الثّقافة والفكر في بلادنا من كتّاب وقرّاء وأصدقاء يُمدّون مثل هذه الصحافة بجمهورها.

هذا العام هو عام المناسبات والأرقام السحريّة محلّيّاً وعربيّاً وعالميّاً: **١٩١٧، ١٩٤٧، ١٩٦٧، ١٩٨٢**، إلخ. في ذكرى الخامس من حزيران **١٩٦٧** ننشر رواية تنقيحيّة للمؤرّخ خالد فهمي تُلقي أضواء جديدة على العلاقة بين الجيش، كمركز قرار وقوّة، وبين القيادة السياسيّة في النظام الناصريّ بمصر عشيّة حرب حزيران / يونيو **١٩٦٧** وخلالها. ويتساءل المقال الافتتاحيّ عن مدى صلاحيّة ثنائيّة «النّقد الذاتيّ / إلقاء المسؤوليّة على الغير» في فهم الهزائم والنّكسات ومحاكمتها داعياً إلى التّأمّل والتفكير في الآليّات الجهنّميّة التي تحكّمت وتتحكّم في التحوّل من الحروب الوطنيّة إلى الحروب الأهليّة. وبمناسبة ذكرى اجتياح لبنان صيف **١٩٨٢**، نُفرد صفحات «يا عين» لعَين رمزي حيدر، أحد أبرز مصوّري الحروب اللبنانيّة (والعربيّة) يقدّمه زميله زهير هوّاري.

نفتتح في هذا العدد نشر مذكّرات القائد الشيوعيّ اللبناني جورج البطل، في شهادات نادرة وقيّمة تمتدّ على ستة عقود من الزمن وتنهل من تجربة نضاليّة متعدّدة الأوجه تغتني بصراحة جورج المعروفة وحسّه النقديّ، لتشكّل إضافة نوعيّة إلى ذاكرة الحركة الشيوعيّة واليساريّة اللبنانيّة والعربيّة والعالميّة.

تحوي زاوية «فيها نظر» على دراستيْن لمضاوي الرشيد وميسون سكّرية تنتميان إلى النتاج الأكاديميّ والمعرفيّ الجديد الصادر، بغير اللغة العربيّة، عن أبناء الشّتات العربيّ، وعن سواهم من أكاديميّين وباحثين، وقد تعهّدت «بدايات» بالتعريف بهذا النّتاج وتعريبه ووضعه في متناول القرّاء العرب، خصوصاً أنّ القليل منه يجد طريقه إلى النّشر باللغة العربيّة.

أخيراً، سوف نخصّص العدد الآتي (**١٨**) لمئويّة «ثورة أكتوبر» الروسيّة **١٩١٧** هادفين منه إلى تسجيل الأوجه المختلفة للحظة تاريخيّة فارقة - خلال عقد من الزمن - تزاوجتْ فيها الثورة الاجتماعيّة والسياسيّة مع الثورة في الثقافة والمخيّلة والقيَم.

وهي دعوة مفتوحة لكلّ مَن له اهتمام بتلك الفترة إلى الاقتراح والمساهمة.

«بدايات»

١٩٦٧، ١٩٨٢، ٢٠١٧
الآلة الجهنمية: من الحروب الوطنية الى الحروب الاهلية

فوّاز طرابلسي

يصادف هذا الصيف مناسبتين ضاغطتين على الذاكرة العربيّة هما خمسينيّة هزيمة حزيران / يونيو ١٩٦٧ والذكرى الخامسة والثلاثون للغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. ويأتي هذا الصيف في عام سباعيّ يصادف مئويّة سايكس بيكو وإعلان بلفور ١٩١٦-١٩١٧ وذكرى تقسيم فلسطين ١٩٤٧.

ما يتعدّى النّقد الذاتي والمؤامرة

تحكّمت ثنائيّة نقد ذاتي / مؤامرة خارجيّة، أو استبطان الذنب / تحويل الذنب، بالتفسيرات المعطاة لهزيمة ١٩٦٧ ولا تزال تتحكّم بها إلى أبعد حدّ. من المحاولات القليلة لتجاوز تلك الثنائيّة مساهمة الراحل ياسين الحافظ وفْق منظور «الهزيمة الحافز»، في مواجهة ما سمّاه «الأيديولوجيا المهزومة». سعى الحافظ إلى تجاوز النّقد الذاتي السائد الذي يحمّل الهزيمة (العسكريّة) إلى قيَم وأفكار ومعتقدات أو إلى مكوّنات «العقل العربي» أو خِصال «الشخصيّة العربيّة» أو إلى بُنى اجتماعيّة تلمّها كلّها تسمية «التخلّف».

أعاد الحافظ الاعتبار إلى العلاقة بين العوامل الداخليّة والعوامل الخارجيّة لنكسة العام ١٩٦٧ بوضعها في موقعها من الصراع بين شعوب المنطقة وحركات تحرّرها الوطنيّ والديمقراطيّ والاجتماعيّ وبين الأمبرياليّة الأميركيّة وإسرائيل ليحرّر القوى والعوامل الخارجيّة المتدخّلة في النّزاع من صفة المؤامرة ويقدّمها على انها نزاعات ناجمة عن تضارب في المصالح والأهداف والتطلّعات بين الطرفين المتنازعين.

على مسافة نصف قرن من الحدث، يجدر التذكير بأنّ حرب الأيّام الستّة وقعت في فترة كانت فيها الولايات المتحدة الأميركيّة تقود الردّات المضادّة لحركات التحرّر ودول الحياد الإيجابيّ والأنظمة الديمقراطيّة، في امتداد الحرب الباردة ضدّ الاتحاد السوفياتي، على امتداد العالم، ومن محطّاتها القريبة التصفية الدمويّة لنظام سوكارنو والحركة الشيوعيّة في إندونيسيا العام ١٩٦٦ وانقلاب الجنرالات على الديمقراطيّة في اليونان في العام ١٩٦٧. وإنّه لمعبّر جدّاً في تلك المواجهة أنّ عبد النّاصر، فشل في تحييد أميركا في صراعه مع إسرائيل حول مضائق تيران واكتشف في اللحظة الأخيرة الحقيقة التي أعلنها في خطابة الأشهَر «إسرائيل هي أميركا وأميركا هي إسرائيل». وإذا كان جمال عبد النّاصر، ومعه حكّام سورية والأردن، قد خسر الأرض لإسرائيل إلّا أنّه خسر نظامه وثورته لأميركا، أي سياسة الحياد الإيجابي، والتّحالف مع الاتحاد السوفياتي، وتجذير عمليّة البناء الداخليّ، وقتال جيشه إلى جانب الجمهوريّة اليمنيّة ضدّ الهجوم السعوديّ لإسقاطها، وتأييده متعدّد الأشكال للثّورة الجزائريّة إلخ. بعبارة أخرى، حقّقت الولايات المتّحدة بالواسطة الإسرائيليّة العام ١٩٦٧ ما عجزتْ عن تحقيقه بريطانيا وفرنسا بالواسطة ذاتها وبالتدخّل المباشر العام ١٩٥٦. وإنّه لمعبّر جدّاً أن يعلن حاكم مصر، المهزوم في الحرب الوطنيّة، أنّ «الثورة» المصريّة انتهت وأنّ مهمّته باتت الحفاظ على الدّولة.

على صعيد آخر، تميّزت مساهمات ياسين الحافظ، ومعه الراحل إلياس مرقص، بالدفاع عن الجيوش العربيّة والدعوة إلى إعادة تأهيلها في وجه رواج موجة «إسقاط» الجيوش وتقديم العمل الفدائيّ الفلسطينيّ

وأساليب الحروب الغواريّة وحروب التحرير الشعبيّة طويلة المدى بديلاً منها ومن الحروب النظاميّة. فإلى جانب الحجّة البديهيّة عن الحاجة إلى الجيوش للدفاع الوطنيّ، و«تصفية آثار العدوان»، رأى الحافظ الجيوش في بلدان العالم الثالث على أنّها حاضنات الحداثة لما يتطلّبه العلم والتخطيط والقيادة العسكريّة من عقلانيّة وتقانة عالية. بنفس الهمّ الحداثويّ، مارَس الحافظ نقداً جذريّاً لما سمّاه «عمارة المجتمع العربي»، ليضع يده على إحدى وسائل تحويل الهزيمة إلى حافز حضاريّ، داعياً إلى إعلاء قيمة العمل ضدّ عادات وتقاليد الكسل واحتقار العمل اليدويّ، وضدّ التنبلة الاستهلاكيّة.

لم تعرف نكسة حزيران نتاجات لافتة في هذه الذكرى الخمسينيّة. المحاولة الجديرة بالاهتمام هي المساهمة التنقيحيّة للمؤرّخ المصريّ خالد فهمي عن العلاقة بين القيادة العسكريّة والقيادة السياسيّة، ونمط الخطط العسكريّة المعَدّة لاحتمالات الحرب، خلال الأزمة المؤدّية إلى اندلاع حرب الأيّام الستّة (راجعها في هذا العدد). لكنْ لا عجب أن تتراجع ذكرى حرب وطنيّة، على ضخامتها، في غمرة طوفان النزاعات والحروب الأهليّة وحروب التدخّل العسكريّ الإقليميّة والدوليّة. والانتقال من هذا النّمط من الحروب إلى ذاك هو بالتحديد ما ننوي التطرّق له في هذه المقالة.

الموضوع الذي يستحقّ التوقّف عنده والتأمّل وفي هذا العام **٢٠١٧**، هو تحديداً التساؤل عن العلاقة بين نتائج هزيمة **١٩٦٧** وبين اندلاع الحروب الأهليّة العربيّة، أي بين **١٩٦٧** و**١٩٨٢** و**٢٠١١**. كيف انقلبت حروب وطنيّة، والحشد والتعبئة لها، إلى حروب أهليّة؟ كيف جرى الانتقال من قتال العدوّ الآخر إلى القتال ضدّ الأخ، بل إلى قتل الأخ. تسعى هذه المقالة إلى إثارة الموضوع واقتراح بعض نقاط استدلال عليه.

غلبة الجيوستراتيجيا

قلبتْ نكسة صيف **١٩٦٧** ميزان القوى في المنطقة على نحو جذريّ لصالح أوليغارشيّات النّفط وعلى رأسها العربيّة السعوديّة ومعها الأنظمة الموالية للغرب. وما لبث هذا الانقلاب أن تعزّز بالفورة النفطيّة مطلع السبعينيّات مفتتحاً دور العربيّة السعوديّة الإقليمي متعدّد الأوجه المدعّم بقوّة المال وبالدّعم الأميركيّ: التدخّل في اليمن بشطريه، تمويل انقلاب أنور السّادات على النظام الناصريّ وعلى التّحالف المصريّ - السوفياتيّ، تزويد النّظام السوريّ بالريوع السياسيّة تعويضاً على خسارة الجولان، التدخّل في الحرب الأهليّة اللبنانيّة، تمويل الردّات المضادّة للثّورات وصولاً إلى أميركا اللاتينيّة، وغيرها. إلى ذلك سوف تفتتح فترة ما بعد **١٩٦٧** عهدا جديداً في تسييس الإسلام واستنباط وتشجيع الحركات الإسلاميّة الجهاديّة على امتداد العالم، بدعم وتشجيع أميركيّين هنا أيضاً، بدأ بتمويل السعوديّة الجهاديّين العرب في حرب أفغانستان، بالتّعاون مع السي آي إي، ولم ينته فصولاً إلى الآن.

في المقابل، كرّست نكسة **١٩٦٧** الطابع العسكريّ للسّلطات القائمة في مصر وسورية والعراق وما التحق بها وماثَلَها (في ليبيا والسودان واليمن). باسم «إزالة آثار العدوان» أعيد تأهيل الجيوش وتوسعتها حتى باتت تبتلع حصصاً متزايدة من الموازنات الوطنيّة، وفرضت الخدمة العسكريّة الإلزاميّة، رافقتها عسكرة التعليم والشباب، وأطبقتْ أجهزة الاستخبارات والأمن المتورّمة والمتكاثرة على الحياة الخاصّة والعامّة للمواطنين إذ انتقل الوزن الأكبر لدورها من مكافحة التجسّس إلى التجسّس على المواطنين إضافة الى دورها في التجسّس والرقابة داخل الجيوش ذاتها. ولمّا لم يكْف ذلك للسيطرة على الجيوش، أنشأتْ الجيوش الموازية (سرايا الدّفاع وسرايا الصّراع في سورية والحرس الجمهوريّ والحرس الجمهوريّ الخاصّ في العراق، إلخ).

تزامن هذا التضْخيم في الطابع العسكريّ للسلطات، في الأقطار المعنيّة أكثر من سواها بالنّزاع العربيّ الإسرائيليّ، مغلّبةً العوامل الجيوسياسيّة والجيوستراتيجيّة على حساب العوامل والمصالح الداخليّة، في ظلّ «عمليّة السلام» العربيّ الإسرائيليّ، برعاية الولايات المتحدة الأميركيّة، خصوصاً بعد حرب تشرين **١٩٧٣**. باتت الأدوار الإقليميّة والخارجيّة لتلك الأنظمة، ركناً أساساً في «شرعيّتها» الخارجيّة، تعترف بها الولايات المتحدة والقوى الغربيّة الأخرى بما هي «قوى إقليميّةً»، بديلاً من شرعيّةٍ شعبيّةٍ لم تسعَ إليها أصلاً. بل جرى توظيف تلك الأدوار الخارجيّة، وما تدرّه من مالٍ وسلاحٍ ومساعدات ونفوذ، بما هي قوّة إضافيّة للتسلّط والسيطرة على شعوبها.

مهّدت معادلة هنري كيسنجر الشهيرة «لا حرب بدون مصر ولا سلام بدون سورية» الطريق أمام طرد الخبراء السوفيات من مصر، وتنفيذ المسار الموصل إلى كامب ديفيد والنّزاع على الوصاية على منظّمة التّحرير الفلسطينيّة. وشكّلت المعادلة ذاتُها الأساس في سياسة الممانعة السوريّة، وواسطة استدرار الريع الخليجيّ باسم الجولان، وشرعنَت لحافظ الأسد التدخّل العسكريّ في لبنان العام ١٩٧٦ للإمساك بمنظّمة التحرير الفلسطينيّة، وإعادة التدخّل العام ١٩٨٩ واكتساب تفويضٍ لحلّ الأزمة اللبنانيّة إلى العام ٢٠٠٦. وباسم الدفاع عن نفط الخليج في وجه الثورة الإسلاميّة الإيرانيّة، شنّ صدّام حسين حربه المدمّرة ضدّ إيران قبل أن يتوهّم بأنّ انتصاره في تلك الحرب يخوّله ضَمّ الكويت، يشجّعه غموضُ أميركيّ متواطئٌ لم يلبث أن ارتدّ عليه في حربَين لم تكونا أقلّ ضراوة من سابقتهما، إلخ.

هكذا تبدو الحرب الإسرائيليّة على لبنان صيف ١٩٨٢ كأنّها مرحلة انتقاليّة في هذا المسار المتشابك من زمن الحروب الوطنيّة إلى زمن الحروب الأهليّة. لم يقتصر الأمر على حصار الجيش الإسرائيليّ لعاصمة عربيّة واحتلالها، ولو لأيّام معدودة. جاء الغزو الإسرائيليّ وسط حرب أهليّة استدعت قوى التدخّل الخارجيّة على اختلافها، وأحدث شرخاً في التماسُك الوطنيّ اللبنانيّ حيث قاتل لبنانيّون إلى جانب العدوّ الإسرائيليّ، وارتكبوا بدعمه وتغطيته إحدى أبشع المجازر، والأهمّ أنّه تمّ تنصيب رئيس للجمهوريّة في ظلّ الدّبّابات الإسرائيليّة وبدعمٍ أميركيٍّ وسعوديّ.

من العنف الوطنيّ إلى العنف الأهليّ

بعد مخاضٍ ليس بالقصير أطلقت المجتمعات العربيّة من صلبها كلّ ما كانت تختزنه من احتقانٍ سياسيّ واجتماعيّ ومظلوميّات جَمَعية عبّرت عن نفسها في انتفاضات شعبيّة عارمة، تحملها قوّتان مختلفتان ومتزامنتان، ترمي الأولى إلى تغيير السلطة القائمة باتّجاهٍ حديث ينحو منحى الديمقراطيّة والعدالة الاجتماعيّة، وتتكوّن الثّانية من الإخوان المسلمين خصوصاً، وتعمل على إعادة هيكلة الدولة والمجتمع وفق الشريعة الإسلاميّة. وقد سنح لتلك القوّة الثانية الحكم من خلال الانتخابات (في مصر وتونس والمغرب وفي اليمن). في المقابل، انطلقت ردّات مضادّة للثورة تتراوح بين الأنظمة الساعية إلى الاحتفاظ بسلطاتها وبين حركات ردّة جهاديّة مسلّحة رفدتها ودعمتها كلّ القوى المتدخّلة في المنطقة، مع دورٍ أبرز للعربيّة السعوديّة وقطر وتركيا، تتوّجت بالدولة الإسلاميّة (داعش) ابنة الغزو الأميركيّ للعراق التي نقلت الأمميّة الإرهابيّة لتنظيم القاعدة إلى مهمّة إستراتيجيّة أكثر جذريّة ودمويّة نجحت في احتلال المدن وإقامة حكم الدولة الإسلاميّة عليها في العراق وسورية.

وإذا كان الاحتلال الأميركيّ ارتكب جريمة العصر بحلّ الجيش العراقيّ، فإنّ إعادة بنائه على قواعد مذهبيّة واستشراء الفساد فيه ما لبثت أن أدّت إلى تَفكّكه وانسحابه من الموصل أمام هجوم لبضعة آلاف من مقاتلي داعش. هكذا انطلق جيشٌ موازٍ هو «الحشد الشعبيّ»، أضيف إلى الجيوش الموازية والمليشيات تمثّل جميعها «المكوّن الشيعي» العراقيّ، وإلى المليشيات غير العراقيّة، أبرزها وحدات من الجيش النظاميّ ومن الحرس الثوريّ الإيرانيَّين. من جهة ثانية، تمخّض الغزو الأميركيّ للعراق عن تكوين جيش كرديّ، في إطار إقليم كردستان، ما لبث أن تجاوز حدوده نحو كركوك والموصل في أعقاب احتلال داعش لهذه الأخيرة.

ولقد انكسر الجيش السوريّ عندما قرّر الحاكم استخدامه لقمع تظاهراتٍ سلميّة بدأت بالمطالبة برفع حالة الطوارئ المفروضة من العام ١٩٦٧، ونحّى قائده، وما لبث عجزُ النّظام عن احتواء الانتفاضة المتعسكرة، لجأ إلى استدعاء التدخّل الخارجيّ الإقليميّ والدوليّ وإلى مليشياتٍ عربيّة وغير عربيّة.

وانكسر الجيش اليمنيّ عندما تفاقمت النزاعات داخل الحكم حول نيّة علي عبد الله صالح توريث السلطة لأحد أبنائه، فانشقّ أحد أركان النظام والمرشّحين للوراثة، قائد اللواء الأوّل المدرّع علي محسن الأحمر، وانضمّ إلى الانتفاضة الشعبيّة السلميّة. وما لبثت «المبادرة الخليجيّة» الكسيحة أصلاً أن كرّست انقسام الجيش بين وحدات موالية لحكومة عبد ربّه منصور هادي والرئيس السابق علي عبد الله صالح، وإلى استقطابٍ أهليّ بين مليشيا «أنصار الله» ومليشيات «الحراك الجنوبيّ». وبالمثل، استدعى النزاع اليمنيّ التدخّل العسكريّ الإيرانيّ والسعوديّ والإماراتيّ.

أودّ الخلوص من كلّ ما سبق إلى الآتي:

أوّلاً، انطلقت الانتفاضات من مركّب من العوامل أتى في مقدّمتها تفاقم الطّابع الاستبداديّ العسكريّ الأمنيّ القمعيّ للأنظمة المعنيّة بـ«عمليّة السلام»، مع الاهتراء المتزايد لشرعيّتها وتقلّص قواعدها الاجتماعيّة الداخليّة، جرّاء تخلّيها المتزايد عن التنمية والتوزيع الاجتماعيّ وتفاقم البطالة والفقر والفروقات الطبقيّة والمناطقيّة واحتدام المسائل والنزاعات الطائفيّة والمذهبيّة والإثنيّة.

على أنّ الآليّة التي سمحت، بل أوجبت، هذا التحوّل زمن الحروب الوطنيّة إلى عهد الحروب الأهليّة، هي ابنة التحوّل الجذريّ في بنية السلطة والجيش في البلدان المعنيّة واستخدامه المتزايد في مهمّات القمع والضّبْط الداخليّين، حتى انكسرت الجيوش المعنيّة تحت وطأتهما.

وإنّه لمعبّر أنّ البلديَن اللذين عرفا انتفاضات ثوريّة وسلماً مع ذلك من الاقتتال الأهليّ مصر وتونس هما البَلدان حيث امتنع الجيش فيهما عن التصدّي بالقوّة والعنف للانتفاضات الشعبيّة.

ثانياً، في معمعان تلك النزاعات والحروب، شكّل التحاق الأنظمة المعنيّة بالحرب الكونيّة ضدّ الإرهاب أكبر وسيلة من أجل تجديد شرعيّتها في مواجهة شعوبها العاصية، بقيادة الولايات المتحدة الأميركيّة، بعدما تناوبت جميعاً على استخدام تنظيم القاعدة والنصرة وداعش في حروبها الداخليّة والخارجيّة قبل الارتداد إلى تأجير جيوشها في «الحرب الكونيّة ضدّ الإرهاب» بما استوجبته من معْسٍ لكلّ مصالح ومطالب وتطلّعاتٍ داخليّة ومن دمار وتوظيف المليشيات المذهبيّة المتقابلة فيها.

تدمير المدن

ما يستحقّ النقد والنقد الذاتيّ إذا بقي للأخير من معنى هو هذا الديالكتيك الجهنّمي الذي به نقلب العداء للغرب إلى العداء للأخ، في حين يستمرّ الإصرار على إبراز جرائم ذاك الغرب وإدانتها في مقابل التستّر على ما يرتكبه الأخوة الأعداء واحدهم بالآخر حتى لا نقول تبريرها والتغنّي بها.

بيروت صيف **١٩٨٢**: دمّر الطيران والبحريّة والمدفعيّة الإسرائيليّة أجزاء منها وغطّت قوّات الاحتلال على مجزرةٍ ارتكبها لبنانيّون بحقّ فلسطينيّين (ولبنانيّين) في مخيّمي صبرا وشاتيلا، بعدما تناوب مقاتلو السنوات الأولى من الحرب الأهليّة على تدمير وسطها التجاريّ.

وفي معرض التدمير فقط، أين تدمير / دمار بيروت **١٩٨٢** من دمار / تدمير الموصل، التي اعتبرت أضخم عمليّة حربيّة منذ معركة ستالينغراد في الحرب العالميّة الثانية؟ وأين منه «تحرير حلب»، التي يقدّر البنك الدولي بأنّ عمليّة رفع أنقاضها وحدها سوف تستغرق ستّ سنوات؟ وأين هذا وذاك من تدمير / دمار القصف السعوديّ المتواصل على صنعاء، ومن تدمير / دمار القصف المدفعيّ والصاروخيّ لقوّات علي عبد الله صالح و«أنصار الله» على تعزّ المحاصرة والمجوّعة بدعم من الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة؟ عداك عن تدمير / دمار بنغازي التي أنبئنا أخيراً بـ«تحريرها».

عندما سُئل قائدُ سابق لسلاح الجوّ الإسرائيليّ عن شعوره عندما يقصف مدنيّين بينهم أطفال فلسطينيّون وعرب، قال «أشعر برجفة خفيفة في جناح الطائرة».

كم عدد الطيارين ومساعدي الطيارين والملّاحين الجوّيّين العرب - من السعوديّة والإمارات والعراق وقطر واليمن ومصر وسورية وليبيا وغيرها وغيرها - ممّن شارك في ضرب بنات وأبناء بلدهم أو بلد عربيّ آخر بالقنابل والصواريخ والبراميل المتفجّرة؟ وكم منهم خطر له أن يعبّر عن شعوره تجاه ما فعل، ولو مجرّد تعبير؟

سجونهم وسجوننا

كثيرون منّا أيّدوا بحماسة، وعن كلّ الحقّ، إضراب السجناء الفلسطينيّين عن الطعام وحيّوا انتصارهم الذي حقّقوه بذكاء قيادتهم والتفاف شعبهم وأجزاء حيويّة من الرّأي العامّ العربيّ حولهم. حقيقة الأمر أنّ الأسرى الفلسطينيّين التقطوا إحدى الثغرات في نظام القتل والتبرير الإسرائيليّ. تنازلت السلطات الإسرائيليّة لأنّها لم تنجح بعد في العثور على طريقة تحتمل فيها تساقط سجناء موتى بسبب الإضراب عن الطعام في سجونها والمعتقلات أو تبرّر ذلك تبريراً. أجاز لها المجتمع الدوليّ ودولُه الكبرى والمتوسّطة والصغرى أن تقتل باسم ما تقرر أنّه «يهدّد أمن إسرائيل»، بل أن تقتل استباقاً، ولو كان المهاجِم الفلسطينيّ لجنديّ يحمل سكّين مطبخ يمكن

شلّه واعتقاله وتقديمه للمحاكمة! لكنّ دولة الاحتلال الإسرائيلي لم تنجح إلى الآن في أن تقدّم إضراب سجناء عن الطعام احتجاجاً على ظروف اعتقالهم ومحاكمتهم وشروط الحياة في السجن على أنّه عمل عدوانيّ ضدّ أمن دولة إسرائيل أو أنّه يعرّض حياة جنود جيش الدفاع الإسرائيلي للخطر، ما يبرّر القتل والإعدام الاستباقيّ.

لم يخطر ببال الأخوات والإخوة الفلسطينيّين الأسرى في سجون الاحتلال توجيه ولو تحية تضامن لزميلات وزملاء لهم في السجون العربيّة لا يحظى أعداد منهم بشرف الإضراب عن الطعام لأنّهم يقضون جوعاً. ولا فطن المتضامنون معهم إلى أنّ إخوةً وأخواتٍ لهم يقبعون في سجون بلدهم أو في سجون هذا العالم العربيّ الكبير ويعانون ما هو أبشع وأقسى وأكثر إهانة وإذلالاً وتعذيباً وقتلاً من سجون الاحتلال الإسرائيليّ.

لنعترف: إنّنا نعرف عن حال المعتقلين في سجون العدوّ قدر ما نجهل أو نتجاهل القلّة من الوثائق المصوّرة والتقارير الدامغة عن قتل الآلاف من المعتقلين في السجون السوريّة إعداماً وتعذيباً وتجويعاً.

لنقارن بين ما نعرفه عن التعذيب في سجن أبو غريب ٢، زمن الاحتلال الأميركيّ للعراق، مع ما نعرفه عن سجن أبو غريب ١، زمن صدّام حسين!

ولنقارن بين أصوات الاستنكار والإدانة لاغتصاب المعتقلات العراقيّات على يد سجّانين أميركيّين في سجن أبو غريب مقابل خفوت الحديث أو كتمه أو حتى الخرَس عندما يتعلّق الأمر بمصيرهنّ عند إطلاق سراحهن، حيث تنتظرهنّ، في أحيان كثيرة، سكّين الأخ أو الأب أو العمّ ذبحاً لغسل شرف العائلة.

ولنعترف بأنّ استفتاءً عن اسم السجن الأكثر ألفة لدى قطاع واسع من مستخدمي وسائل الاتّصال الاجتماعيّة سوف يفوز به سجن غوانتنامو الأميركيّ، على الأرض الكوبيّة، أمام أسماء السجون العربيّة في المزّة والحائر وعدرا وذهبان وصيدنايا وأبو غريب وطرّة وأبي زعبل ووادي النطرون وسجن الحوض الجافّ وفرع فلسطين والقنطرة وتزمامرت وسجون دولة الإمارات العربيّة في عدن وحضرموت بجنوب اليمن التي لم نتعرّف بعد على أسمائها والأعداد غير المحصيّة من المعتقلات والسجون السرّية!

أعترفُ بخجل أنّي أعرف أسماء بعض تلك السجون والمعتقلات ولكنّي أنزلت الباقي من على محرّك البحث «غوغل».

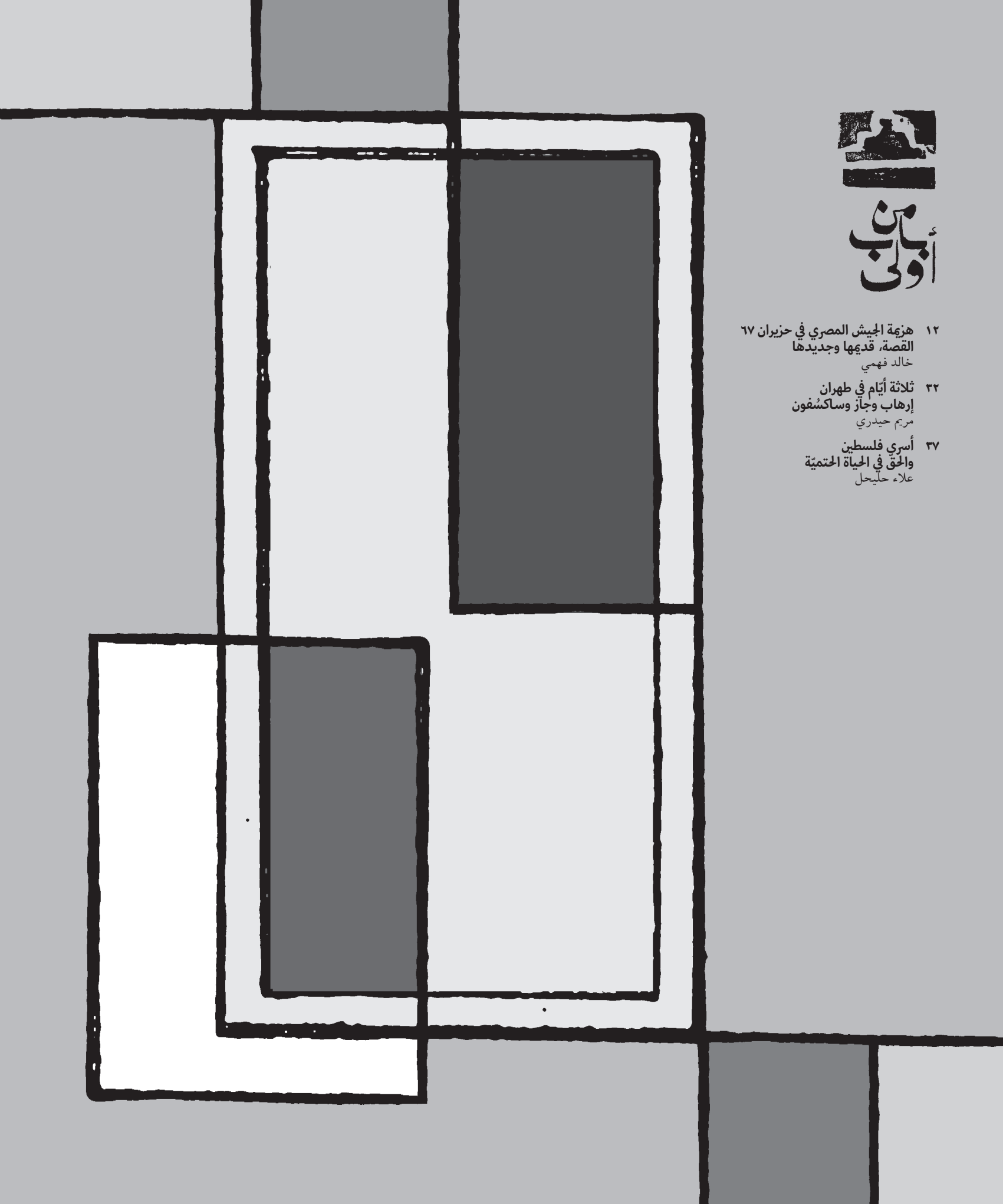

من أبواب أولى

١٢ **هزيمة الجيش المصري في حزيران ٦٧**
القصة، قديمها وجديدها
خالد فهمي

٣٢ **ثلاثة أيّام في طهران**
إرهاب وجاز وساكسُفون
مريم حيدري

٣٧ **أسرى فلسطين**
والحق في الحياة الحتميّة
علاء حليحل

هزيمة الجيش المصري في حزيران ٦٧
القصة، قديمها وجديدها

خالد فهمي

مؤرخ وجامعي مصري، من أعماله «سيرة محمد علي باشا، حاكم مصر»، ٢٠٠٨.

مساهمة في إحياء ذكر الخامس من حزيران / يونيو، ننشر فيما يلي تلخيصاً ومختارات من سلسلة نصوص كتبها المؤرّخ المصري خالد فهمي تسعى لتفسير عوامل هزيمة الجيش المصري من وجوهها العسكريّة بالدّرجة الأولى.

ينطلق خالد فهمي من أنّ البحث في أسباب الهزيمة يتمّ في غياب المحاضر الرسميّة المصريّة التي تصرّ السلطات المصريّة على حجبها. يطالب خالد فهمي بما هو باحث في التّاريخ ومواطن، بالإفراج عن تلك الوثائق والمَحاضر والمراسلات وسجلّات الاتصالات وتقارير الاستخبارات، ليتسنّى لأبناء الشعب المصري على الأقلّ الاطّلاع على حقيقة ما جرى في تلك الأيّام التي لا يزالون يدفعون ثمن الكارثة التي تسبّبت فيها، ومعهم سائر العرب. وممّا يثير الغضب هو أنّ هذه الذّكرى حانت في وقت أقدم فيه الرئيس المصريّ عبد الفتّاح السيسي وقيادة جيشه وبرلمانه ونظامه على خطوة غير مسبوقة في التخلّي عن قطعة من الأرض المصرية كانت وثيقة الصّلة بتلك الحرب، وقد توّجت بتصويت البرلمان المصريّ على تسليم جزيرتي تيران وصنافير للعربيّة السعوديّة.

يمرّ اليومَ خمسون عاماً على بداية الأزمة التي تطوّرت سريعاً وأدّت إلى اندلاع حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧. ورأيت في هذه المناسبة ضرورة تذكيرنا ببعض تفاصيل هذه الحرب اللعينة التي نعاني من آثارها حتّى اليوم، لذا عمدتُ هنا إلى كتابات تناولتُ فيها الأزمة وبعض تفاصيل الحرب، بهدف إلقاء الضوء على جوانب مخفيّة من الهزيمة، وطرح أسئلة بعضها قديمٌ معروف، وبعضها جديدٌ غير مطروح. وكذلك التّعلّم من دروس هذه الهزيمة المروّعة والاعتبار ممّا تظهره عن طبيعة نظامنا السياسيّ وأساليب اتّخاذ القرار فيه.

معلومات سوفييتيّة مغلوطة

في الساعة الحادية عشرة من يوم الأحد ١٤ أيّار / مايو ١٩٦٧ فوجئت القوّات المسلّحة المصريّة بصدور توجيهات نائب القائد الأعلى المشير عبد الحكيم عامر برفع درجة الاستعداد في القوّات من الاستعداد «الدائم» للاستعداد «الكامل». وما هي إلّا ساعةٌ واحدةٌ حتى صدرت تعليماتٌ جديدةٌ بتعبئة القوّات المقرّر حشدها في سيناء، على أن يتمّ ذلك في مدّةٍ تتراوح بين ٤٨ إلى ٧٢ ساعة.

لم يفهم القادة السّبب وراء هذه التّوجيهات المباغتة، إذ من المفترض أن تأتي مثل هذه التوجيهات من القائد الأعلى، أي الرّئيس جمال عبد الناصر، وليس من نائب القائد الأعلى، المشير عامر. كما غاب مجلس الدفاع الوطنيّ عن الصّورة ولم يتبيّن للقادة إن كان هذا المجلس قد شارك في اتّخاذ القرار. ولم تكن هناك أيّ علامات على أنّ القوّات المسلّحة تستعدّ للتعبئة أو للحرب، كانت الأمور تسير بشكلٍ طبيعيّ في الدّولة عموماً، وفي القوّات المسلّحة خصوصاً في تلك الأيّام، أنْ وُجّهت الدّعوة إلى الفيلد مارشال مونتغمري، القائد السابق للجيش الثّامن البريطاني، للحضور إلى مصر للاحتفال بمرور خمسة وعشرين عاماً على معركة العلمَين التي انتصر فيها مونتغمري على غريمه إروين رومل في الحرب العالميّة الثّانية. وقد حضر مونتغمري وألقى كلمة يوم ١٣ أيّار / مايو في أكاديميّة ناصر العسكريّة.

وسرعان ما تبيّن أنّ القرار اتُّخذ بناءً على معلوماتٍ وصلت للقاهرة تفيد بأنّ إسرائيل تحشد قوّاتها على الجبهة السّوريّة، وقد حشدت بالفعل من ١١ إلى ١٣ لواءً مقسّمةً على قسمين: الأوّل جنوب بحيرة طبريّة، والثّاني شمال البحيرة.

وكانت الجبهة السوريّة الإسرائيليّة شهدت مناوشاتٍ خطيرة على مدى الأسابيع القليلة السابقة، والتي وصلتْ ذروتها يوم ٧ نيسان / أبريل عندما اشتبك سلاح الجوّ السّوري مع نظيره الإسرائيليّ في سماء دمشق في معركةٍ حامية كانت نتيجتها إسقاط ستّ طائرات ميغ سوريّة.

بناءً على اتّفاقيّة الدّفاع المشترك الموقّعة بين سورية ومصر في العام ١٩٦٦، وجدت مصر أنّ عليها الدّفاع عن حليفتها سورية. وقد اكتُشف لاحقًا أنّ المعلومات عن الحشود الإسرائيليّة غير صحيحة ومصدرها الاتّحاد السوفييتي، إذ اجتمع في اليوم السابق، السّبت ١٣ مايو / أيّار، السفير السوفييتي ديمتري بوغداييف (Dimitri Pojidaev) مع أحمد حسن الفقي وكيل وزارة الخارجيّة وأبلغه بالمعلومات. ويضيف محمد حسنين هيكل في كتابه الانفجار (ص ٤٤٥) مصدراً ثالثاً لتلك المعلومات المغلوطة هو مندوب الاستخبارات السوفييتيّة في القاهرة وقد زوّد صلاح نصر رئيس الاستخبارات العامّة بتلك المعلومات. لاستطلاع الأمر، سافر المشير عامر ورئيس الأركان محمّد فوزي يوم الأحد ١٤ أيّار / مايو إلى سورية لاستطلاع الأمر فتبيّن له أنّ هذه المعلومات غير صحيحة. لكن على الرّغم من ذلك، لم يُراجع قرار الحشد والتّعبئة بل جرى الإسراع في تنفيذه. وإذا كان سبب إصدار توجيهات الحشد غير واضح وملتبساً (وهناك العديد من الدراسات التي تناولت تلك النّقطة تحديداً، أي الدّافع وراء تبليغ السّوفييت معلومات مغلوطة لمصر) فإنّ الغرض من الحشد أيضاً تحوم حوله الشّبهات ويطرح الكثير من الأسئلة حول الهدف وراء الزّجّ بأكثر من ١٠٠ ألف جندي لسيناء في غضون أيّام قليلة، خصوصاً أنّ القوّات المسلّحة المصريّة لم تمتلك خطّة هجوميّة بل دفاعيّة اسمها «قاهر» صُدّق عليها في كانون الأوّل / ديسمبر ١٩٦٦. فهل كان الغرض من الحشد استدراج إسرائيل لسيناء وتفعيل «قاهر» بغرض تدمير القوات الإسرائيليّة؟ أم كان الغرض الإبقاء على الحال الجديد وعدم تحريك ساكن بعد الحشد؟ أم القيام بهجوم شامل على النقب؟ أم التّمترس داخل سيناء وخوض حرب استنزاف طويلة الأمد لإهلاك إسرائيل استعداداً للهجوم عليها مستقبلاً؟

ندرك أنّ الاستخبارات الإسرائيليّة طرحت هذه الأسئلة على نفسها كما فعل القادة المصريّون الّذين كانوا على علم بأنّ القوّات المسلّحة المصريّة لم تكن مستعدّة في العام ١٩٦٧ لخوض حربٍ مع إسرائيل، خصوصاً مع وجود ثلثي حجم القوّة الضّاربة في اليمن. بل إنّ هيئة عمليّات القوّات المسلّحة «قاهر» أعدّت للقيادة تقريراً عامّاً عن الخطّة وكيفيّة تنفيذها، ورفعتْه في ١٦ كانون الأوّل / ديسمبر حذّرت فيه من القيام بمواجهة عسكريّة مع إسرائيل ولفترة زمنية طويلة قد تدوم ثلاث سنوات بسبب وجود ثلثي القوّات في اليمن وضعف القدرة القتاليّة للتشكيلات والوحدات ونقص الأفراد والمعدّات والتّجهيزات. وبالتالي فإنّ السّؤال الأهمّ حول قرار الحشد ليس ذلك المُتداوَل بين المؤرّخين والمتعلّق بأغراض الرّوس من إشاعة أخبار خاطئة، بل عن سبب اتّخاذ القيادة المصريّة قرار التّعبئة العامّة ورفع درجة الاستعداد مع العلم أنّ القوّات المسلّحة غير قادرة على مواجهة العدوّ الإسرائيلي.

التفسير التقليديّ الّذي اتّخذه أغلب المؤرّخين في تلك الفترة لذاك السّؤال هو أنّ تلك كانت «تظاهرة» عسكريّة غرضُها الرّدع ولم تؤخذ على محمل الجدّ. وبحسب المؤرّخين، حصل هذا التحوّل بعد سحب قوّات حفظ السّلام التّابعة للأمم المتّحدة يوم ١٨ أيّار / مايو، وطبعاً بعد قرار إغلاق مضيق تيران يوم ٢٢ أيّار / مايو. ونتيجة عدم جهوزيّة القوّات المسلّحة للقتال وعدم التّدرّب على التعبئة العامّة، فالطريقة التي جرى بها حشد القوّات لسيناء كانت مأساويّة. صحيحٌ أنّ الكثير من أدبيّات تلك الكارثة يركّز على مشاهد الانسحاب المروّعة يومي ٦ و٧ حزيران / يونيو، إلّا أنّ مشاهد حشد مائة ألف جنديّ على الجبهة من دون خطّة ولا استعداد كانت هي الأخرى فظيعة، وبما أنّ سجلّات هذه الحرب ما زالت حبيسة المخازن، فربّما يسعفنا الأدب في الوقوف على حجم الكارثة التي حلّت بالجنود أثناء الحشد حتى قبل بدء القتال.

مَن اتّخذ قرار التّعبئة؟

يقول هيكل في كتابه الانفجار، إنّ عبد النّاصر استدعى عامر إلى بيته مساء يوم السّبت ١٣ أيّار / مايو لدراسة الوضع (هيكل، الانفجار، ٤٤٧) واتفقا على دعوة أركان حرب القوّات المسلّحة اليوم التالي، الأحد ١٤ أيّار / مايو، إلى اجتماع طارئ لدراسة ما يمكن اتّخاذه من إجراءات. صباح الأحَد وصل عبد النّاصر إلى مكتبه عند السّابعة والرّبع بعد ساعات قصيرة من النّوم المتقطّع وأخذ يحضّر

لاجتماع هيئة الأركان. يضيف هيكل تفاصيل عدّة عن انشغال عبد النّاصر بمناقشات «زملائه» «ومعاونيه»، ومنهم نائب الرّئيس زكريّا محيي الدّين ورئيس الوزراء صدقي سليمان ونائب رئيس الوزراء للشّؤون الخارجيّة محمود فوزي والأمين العام للاتّحاد الاشتراكي على صبري وعدد من أعضاء اللجنة العليا للاتّحاد الاشتراكي.

وعلى الرّغم من أنّ هيكل في سرديّته عن هذه السّاعات الحاسمة قال إنّ هذه المناقشات التي أجراها عبد النّاصر قد تمّت «بعد ذلك»، الأمر الذي قد يعني أنّ عبد الناصر أجراها بعد اجتماع هيئة الأركان، إلّا أنّه يوردها في كتابه بعد وصفه للحظة دخول عبد النّاصر مكتبه في السّاعة السّابعة والرّبع صباح يوم ١٤ أيّار / مايو انتظاراً وتمهيداً لاجتماع هيئة الأركان.

لب الموضوع، أن عبد الناصر لم يذهب للاجتماع الذي ترأسه عامر، أي أن قرار الحشد الذي أدى لاحقا إلى هزيمتنا في الحرب اتخذه عبد الحكيم عامر مع شلته ولم يتخذه جمال عبد الناصر مع معاونيه.

أعتقد أنّ هذه لعبة من ألاعيب هيكل المعتادة والتي قصد منها تشتيت انتباه القارئ لناحية تسلسل الأحداث، لأنّ المحطّة المحوريّة في ذلك اليوم هي عدم اتّصال عامر بعبد النّاصر للتّحضير للاجتماع، بل اتّصل به قرب نهاية الاجتماع، الذي بدأ في غياب عبد النّاصر، ونقَل إليه أنّهم في هيئة الأركان قد توصّلوا إلى إجراءات بتحريك تشكيلات متتالية تتوجّه على الفور إلى سيناء وتحتلّ مراكزها هناك (هيكل، الانفجار، ٤٥١).

ثمّ يقول هيكل «لا أحد يستطيع أن يقطع بتفاصيل ما دار بين الإثنين في هذا الحديث التليفوني، وربّما أنّ الإشارة الوحيدة التي يمكن بالاستنتاج أن تشير إليه هي عدد من الإضافات كتبها عامر بخطّ يده على المشروع الأصليّ لتوجيهاته إلى القوّات المسلّحة». ومرّة أخرى يشتّت هيكل قارئه، فيُفرد صفحتين لنصّ تلك التّوجيهات والتّعديلات التي أحدثها عامر عليها بناءً على حديثه مع عبد النّاصر.

لا أعتقد أنّ هذه التّعديلات أو المناقشات التي أجراها عبد النّاصر مع معاونيه هي لبّ الموضوع، بل لبّه هو أنّ عبد النّاصر لم يذهب للاجتماع الّذي ترأسه عامر، وأنّ قرار التّعبئة اتُخذ من دون استشارة عبد النّاصر الّتي جرت عبر الهاتف قبيل انتهاء الاجتماع، أي أنّ قرار الحشد الّذي أدّى لاحقاً إلى هزيمتنا في الحرب اتّخذه عبد الحكيم عامر مع شلّته ولم يتّخذه جمال عبد النّاصر مع معاونيه.

بمعنى آخر، المشكلة تكمن في قرار الحشد التعبويّ الذي كان بداية الأزمة التي أدّت إلى هزيمتنا في حرب ٦٧، فكيف ولماذا سمح جمال عبد النّاصر لعبد الحكيم عامر بأن يأخذ هذه القرار منفرداً؟

الهزيمة: مشاهداتٌ وأسئلة

لم تكن هزيمة ٦٧ عادية، وهي لم تُصب الجيش فقط. إنّها هزيمة نظام سياسيّ واجتماعيّ وفكريّ، وهزيمة رؤيتنا للعالم ولمكاننا فيه. وبالتّالي لا ينبغي أن ينحصر تفسير الهزيمة في النّواحي العسكريّة. ولكنْ إذا أردنا البدء بالشّكل العسكريّ للهزيمة، نرى أنّها تطرح أسئلة صعبة لا أظنّ أنّنا تمكّنّا بعد من الإجابة عليها.

فعلى مدار سنوات قيل لنا أنّنا نملك أقوى جيش في الشرق الأوسط، وفي الذّكرى الرّابعة عشرة للثّورة، أي في ٢٣ تموز / يوليو ١٩٦٦، أقيم عرض عسكريّ مبهر شهده عبد النّاصر مع قادة الجيش، وعندما بدأت عمليّة التعبئة في العام التّالي وقد شاهد الملايين من سكّان القاهرة قوّات الجيش وهي تخترق شوارع العاصمة في طريقها للجبهة في مشهد أقرب إلى استعراض عسكريّ منه إلى حشد تعبوي. كان مشهد الجيش مبهراً، وكان يحقّ للمصريّين أن يفتخروا بأنّ جيشهم من أكبر جيوش المنطقة. فالجيش امتلك أكثر من ١٣٠٠ دبابة (إسرائيل كانت تمتلك ١٠٠٠)، وأكثر من ١٠٠٠ مدرّعة حاملة للجنود (إسرائيل: ١٥٠٠)، و٩٥٠ بطاريّة مضادّة للطّائرات (إسرائيل: ٥٥٠)، و٤٣١ طائرة مقاتلة (إسرائيل: ٢٨٦). ودأبتْ وسائل الإعلام كلّها في كلّ شهر على نقل أخبار الانتصارات التي كان يحقّقها الجيش بالفعل في اليمن، وكانت تتوعّد بالهزائم التي سيوقعها حتماً جيشنا الجرّار بإسرائيل في المعركة المرتقبة.

وفي يوم ١ حزيران / يونيو صدحت أمّ كلثوم بأغنية «راجعين بقوّة السلاح» في سينما قصر النّيل. وكان الثّنائي صلاح جاهين ورياض السّنباطي قد فرغا لتوّهما من الأغنية ولم يتسنَّ لأمّ كلثوم أن تحفظها، لذا نراها هنا ووراءها ملقّنٌ يذكّرها بالكلمات.

وفي صباح ٥ حزيران / يونيو، يوم بدء القتال، عنونت صحيفة «الأخبار»: «بعد انضمام العراق إلى اتّفاق الدّفاع المشترك مع الأردن عبد النّاصر يعلن للعالم والأمّة العربيّة: إنّنا ننتظر المعركة على أحرّ من الجمر».

ولكن عند التّاسعة إلّا ربعاً من صباح هذا اليوم المشؤوم، ضرب الطّيران الإسرائيلي عدداً من المطارات، وكان من نتاج الغارات الإسرائيليّة المتتالية أن دُمر ٨٥ في المئة من سلاح الجوّ المصري، وأصبح ١٠٠ ألف جندي في سيناء بلا غطاء جوّي.

وما هي إلّا ٣٦ ساعة حتّى أصدر نائب القائد الأعلى للقوّات المسلّحة قرار الانسحاب المشؤوم. وطوال يوم ٧ أخذ سكّان القاهرة يشاهدون فلول الجيش زاحفين عليها في البداية ثمّ على شوارع وميادين العاصمة، الشوارع والميادين نفسها التي استعرضوا فيها قوّتهم منذ أيام قليلة خلَتْ. وعلى الرّغم من ذلك، كان المصريّون يسمعون عبد الحليم حافظ يغنّي «يا أهلاً بالمعارك»، وأحمد سعيد في صوت العرب يبشّرهم بأنّ طلائع الجيش على أبواب تلّ أبيب. وقد بشّرت صحيفة «المساء» المصريّين بأنّ النّصر أمسى قاب قوسين أو أدنى.

وبحلول يوم ٨ حزيران / يونيو كان قد سقط من الجيش العربيّ الزّاحف نحو تلّ أبيب عشرة آلاف جنديّ، أي عُشر عدد جنوده الذين حشدوا للجبهة، و١٥٠٠ ضابط. كما وقع في الأسر خمسة آلاف جنديّ و٥٠٠ ضابط (بناءً على ما جاء في خطاب عبد النّاصر الذي ألقاه يوم ٢٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧).

وبالإضافة إلى تدمير سلاح الطّيران، فقد ترك الجنود وراءهم ٨٥ في المئة من عتاد الجيش، من دبّابات ومدرّعات ومدافع. وأمسى الطّريق للقاهرة مفتوحاً، والبلد بلا جيش يحميه.

أشهر تفسيرات الهزيمة

وفي ما يلي عرض مختصر لأشهر تفسيرات الهزيمة.

في خطاب التّنحّي الشّهير، يقول عبد النّاصر: «في صباح يوم الإثنين الماضي الخامس من حزيران / يونيو جاءت ضربة العدوّ. وإذا كنّا نقول الآن بأنّها جاءت بأكثر ممّا توقّعناه، فلا بدّ أن نقول فى نفس الوقت وبثقة أكيدة إنّها جاءت بأكبر ممّا يملكه، ممّا أوضح منذ اللحظة الأولى أنّ هناك قوى أخرى وراء العدوّ، جاءت لتصفّي حساباتها مع حركة القوميّة العربيّة. ولقد كانت هناك مفاجآت تلفت النّظر، أوّلها: أنّ العدوّ الذي كنّا نتوقّعه من الشّرق ومن الشّمال جاء من الغرب، الأمر الذي يقطع بأنّ هناك تسهيلات تفوق مقدرته، وتتعدّى المدى المحسوب لقوّته، قد أعطيتْ له».

والردّ على ذلك هو أنّ العدوّ جاء بالفعل من الغرب، لكنّ هذا لم يكن نتيجة معونة تلقّاها العدوّ من حلفائه بل نتيجة المسار الذي سلكتْه الطّائرات الإسرائيليّة في الإغارة على المطارات المصريّة في العمق (عكس مطارات سيناء والقناة).

في خلفيّة كلّ محاولات عبد النّاصر لتفسير المصيبة كانت تجربة ١٩٥٦ مسيطرة بقوّة على تفكيره ومهيمنة على تحليلاته. أمّا الجورنالجي (الصّحافي) الأشهر، هيكل فقد كتب كتاباً من أكثر من ألف صفحة يكاد يؤكّد في كلّ صفحة من صفحاته أنّ هزيمة ٦٧، التي غطّى على فداحتها بوصفها أنّها مجرّد نكسة، ما هي إلّا مؤامرة لاصطياد «الدّيك الرومي»، أي الإيقاع بعبد النّاصر، بسبب مواقفه التقدميّة المناهضة للاستعمار والمناوئة للهيمنة الغربيّة على المنطقة.

وإن كان صحيحاً أنّ الغرب كان بالفعل متربّصاً بعبد النّاصر، فالصّحيح أيضاً أنّ عبد النّاصر كان مدركاً لهذا التّربّص، محذّراً منه، إذ أعاد في أحاديثه التي سبقت الحرب على مستمعيه من الأجانب أنّ جيشه ليس مستعدّاً لها.

أمّا الفريق أوّل فوزي فيقول في كتابه «حرب الثلاث سنوات» إنّ المشير هو المتسبّب الرّئيسي في هذه الهزيمة المروّعة، فشخصيّة عبد الحكيم وخبرته وخلفيّته وشلّته التي أحاط نفسه بها عوامل جعلتْه غير مناسب لقيادة جيش.

ويبقى السّؤال: هل الجيش يُختزَل فيً شخص المشير؟ أليس الجيش مؤسّسة؟ ألا يوجد قادة، وضبّاط أركان حرب، ورئاسة أركان، وهيئة عمليّات؟ وقبل كلّ ذلك، ألا يوجد قائد أعلى؟ لن أطرح سؤال الرّقابة الشعبيّة على الجيش، فلهذا السؤال مقال آخر، ولكن ألم توجد أيّ آليّة للتّقليل من مخاطر قيادة عامر الكارثيّة؟ أم أنّ المشكلة كانت أعمق وأعوص، إذ إنها كانت تتعلّق بعلاقة القائد الأعلى بنائبه؟

الفشل الاستخباراتي

توضح المعلومات القليلة المتاحة لنا عن هزيمة ٦٧، وأنا أؤكّد أنّ ما هو متاح لنا من معلومات لا يرقى بأيّ حال من الأحوال لأهمّيّة الحدث، أنّ جزءاً كبيراً من مسؤوليّة الهزيمة يقع على عاتق المخابرات المصريّة بأجهزتها المختلفة.

في كتابه الجميل «ضباط يونيو يتكلمون»، ينقل لنا عصام درّاز شهادة مأساويّة لأحد الطّيّارين يصف فيها مدى دقّة المعلومات التي استطاعت إدارة المخابرات الحربيّة جمعها عن العدوّ. في يوم ١٤ أيّار / مايو استُدعي الطيّار هشام مصطفى حسن من الاحتياط، وفي أقلّ من ثلاث ساعات كانت طائرة نقل إليوشن تهبط به في مطار العريش. سرعان ما طلب قائد السّرب

❖
فرقة استطلاع
إسرائيلية من وحدة
«شاكيد» في سيناء
خلال الحرب

أن يجتمع به فوراً. يقول الطيّار «قبل أن يبدأ الاجتماع بدقائق تصل طائرةٌ حربيّةٌ أخرى عليها ضابط برتبة كبيرة يحمل مظروفاً مغلقاً ومختوماً بالشّمع الأحمر، ويتنحّى جانباً بقائد السّرب ويتبادلان حديثاً قصيراً والجدّيّة على الوجوه، ويسلّمه المظروف وينصرف في الطّائرة حيث ترتفع بدون أن نعلم من أين أتى، أو إلى أين سيذهب. في حجرة الطوارئ، وحول منضدة كبيرة، يبدأ قائد السّرب في ترتيب صور جوّيّة فوتوغرافيّة غير واضحة المعالم تماماً ويظهر عليها القِدَم. الصور لمدينة إيلات الإسرائيليّة، وقائد السرب يشير بإصبعه إلى هدف ويحدّد التشكيل المطلوب منه تدمير هذا الهدف، وينتقل إلى هدف آخر ويحدّد له تشكيلاً آخر، وهكذا حوالي ستّة أو سبعة أهداف. وسأله أحد الزّملاء الطيّارين عن تاريخ التقاط تلك الصور الجوّيّة، فبان نوع من الألم على وجه قائد السّرب وهو يقول: «سنة **١٩٤٨**. يا إله السماوات!! أنذهب لضرب أهداف كانت موجودة منذ ذلك الحين؟!»».

وللفريق صدقي محمود، قائد القوّات الجوّيّة والدّفاع الجوّي أثناء الحرب، نوادر كثيرة تعبّر عن فشله الذّريع في قيادة هذه السّلاح الهامّ، من أطرفها نادرتان أدلى بهما للجُنة توثيق ثورة **١٩٥٢** التي انعقدت عام **١٩٧٦** بقيادة حسني مبارك. ففي شهادته التي نقلها سليمان مظهر في كتابٍ صدر عام **٢٠٠٠** بعنوان «اعترافات قادة حرب حزيران / يونيو»، يعترف صدقي محمود بأنّ أجهزة الاستخبارات فشلتْ في اكتشاف أنّ سلاح الجوّ الإسرائيلي قد طوّر طائراته بأنْ زوّدها بخزّانات وقود إضافيّة ليتيح لها إطالة مدّة التحليق ونطاقه لتتمكّن من بلوغ العمق المصريّ (ص **١١٩**). أمّا اللواء طيار عبد الحميد الدغيدي، قائد الطيران في المنطقة الشرقيّة، أي في سيناء، فيقول في حديث أدلى به لصحيفة «الأهالي» في **٢٩** حزيران / يونيو **١٩٨٣** إنّ قوّة استطلاعيّة في العريش تَبيّن لها ليلة **٤** حزيران / يونيو **١٩٦٧** أنّ العدوّ بدأ بالفعل تحرّكاته، وأنّ قوّات العدوّ تمكّنت من احتلال الخطّ الواصل بين بيرين ورفح والشيخ زويد، وأنّ العدوّ ينوي الهجوم في صباح اليوم التالي، **٥** حزيران / يونيو. وبالفعل أرسل الدغيدي إشارة بهذا المعنى الساعة العاشرة والنّصف ليلاً لقيادة الجبهة، لكنّ القادة كلّهم كانوا قد تركوا أماكنهم استعداداً لزيارة المشير عامر لمطار بير تمادة المقرّر لها صباح **٥** حزيران / يونيو، وبالتالي لم يؤخذ بها.

عنب إيه وبصل إيه!

غير أنّ أفدح خطأ استخباراتي قد يكون ذلك الذي ينقله الفريق أول محمّد فوزي، رئيس الأ ركان، في كتابه «حرب الثلاث سنوات» وهو يتعلّق بالإشارة التي أرسلها الفريق أوّل عبد المنعم رياض، قائد الجبهة الأردنيّة، من قاعدة عجلون الجوّيّة في الأردن. ففي الساعة **٨:٤٥** صباح **٥** حزيران / يونيو، رأى رياض على شاشات الرادار عشرات القاذفات والمقاتلات الإسرائيليّة تتّجه غرباً، فأرسل على الفور إشارة «عنب عنب عنب» المشفّرة والمتّفق عليها سلفاً. تلقّت القاهرة الإشارة، لكن بسبب قيام ضابط الاتصالات بتغيير مفتاح الشيفرة قبل ذلك بدقائق، لم يتمكّن ضبّاط الاتّصال من فكّ الشيفرة وفهْم الإشارة، الأمر الذي كان في إمكانه تغيير تطوّرات الحرب برمّتها. وكانت هناك فرصة ثانية في أن يقوم ضبّاط الاتّصال في مكتب وزير الحربيّة شمس بدران بفكّ شيفرة الإشارة.

يسرد فوزي الحكاية: «أمّا المحطّة الفرعيّة [....] في مكتب شمس بدران [وزير الحربيّة] في كوبري القبّة فقد استلمت الإشارة، وتحليلها واضح ولا يمكن أن يحدث فيه سوء فهم. إنّه إنذار أكيد ببدء هجوم طيران العدوّ على أراضي مصر...، إلّا أنّ الضّابط المناوب في كوبري القبّة لم يُخطر الوزير لعدم وجوده في مكتبه، [....] وبعد مرور حوالي **٤٠** أو **٤٥** دقيقة من استلام الضّابط المناوب للإنذار، وبالصّدفة خلال مكالمة تليفونيّة عابرة مع زميله بالمحطّة الرئيسة... أراد أن يذكّره بنفس الإشارة، وما فيها من اسم كوديّ يدلّل على طائرات العدوّ المغيرة. فقابله الضّابط المناوب على نفس المحطّة الرئيسة بالتهكم قائلاً: «عنب إيه وبصل إيه؟! دول فوق دماغنا»».

أمّا إسرائيل فقد استطاعت أن تجمع معلومات دقيقة وصحيحة عن أدقّ تفاصيل قوّاتنا المسلّحة، وأن تنشئ نظاماً مكّنها من البناء على هذه المعلومات الدقيقة وأن تضع خططها العسكريّة بناءً عليها. فضرْبة الطيران الساحقة التي وجّهتْها لقوّاتنا الجوّيّة في صباح يوم **٥** حزيران / يونيو كانت نتاج سنوات طويلة من التّدريب المضني، ولكنّها أيضاً كانت نتاج معلومات دقيقة عن قوّاتنا الجوّيّة، فهي امتلكت خرائط أوضحت مواقع جميع المطارات المصريّة وأنواع الطّائرات الرّابضة في كلّ مطار، كما درست عن قرب عادات الطيّارين والضبّاط المصريّين ومواعيد نوباتهم اليوميّة.

قبل اندلاع الحرب بوقت طويل فكّت إسرائيل شفرة الجيش المصريّ، وبالتّالي علمتْ يوم **٦** حزيران / يونيو

بأمر الانسحاب الذي أصدره المشير عامر، واستطاعت أن تستمع لمحادثات عامر مع قادته على الجبهة. وكذلك التقاط المكالمة الهاتفيّة التي جرت بين عبد النّاصر والملك حسين صباح يوم ٦ حزيران / يونيو. وعندما علم رئيس المخابرات الحربيّة الإسرائيليّة، أهارون ياريف، أن أجهزته تمكّنت من تسجيل هذه المكالمة فضّل عدم إذاعتها حتى لا يعرف الزّعماء العرب أنّ إسرائيل تتجسّس على مكالماتهم.

الهوّة الشّاسعة التي فصلت بين أداء جهاز المخابرات الحربيّة الإسرائيلي المعروف باسم «أمان»، ونظيره المصريّ لم تكن ناتجةً من تفوّق الإسرائيليّين بقدر من كانت ناتجةً من انحراف إدارة المخابرات الحربية المصريّة عن غرضها الأساسي، فبدلاً من جمع المعلومات عن العدوّ أصبح «موضوع الأمن هو الموضوع الأوّل الذي يشغل بال المشير عامر والوزير شمس بدران، وزير الحربية».

الهوة الشاسعة التي فصلت بين أداء جهاز المخابرات الحربية الإسرائيلي المعروف باسم «أمان». ونظيره المصري لم تكن ناتجة من تفوق الإسرائيليين بقدر من كانت ناتجة من انحراف إدارة المخابرات الحربية المصرية عن غرضها الأساسي.

ووصل الأمر إلى أن شكّل عبد الحكيم عامر تنظيماً داخل الجيش، اسمه الكودي «التنظيم (س)»، بغرض مراقبة ضبّاط القوّات المسلّحة في الوحدات والتشكيلات، والتعرّف إلى آرائهم ونيّاتهم ونشاطهم من خلال تجنيد عدد من الضبّاط الموثوق بولائهم لضمان أمن القوّات المسلّحة، أي للحيلولة دون قيام الضبّاط بانقلاب على نظام الحكم.

«قعدة» الحرب

- الزمان: الجمعة ٢ حزيران / يونيو ١٩٦٧، الساعة التاسعة مساءً.
- المكان: مكتب المشير عبد الحكيم عامر، نائب القائد الأعلى للقوّات المسلّحة، الدّور السادس، مبني القيادة العامّة بمدينة نصر، القاهرة.
- الحضور: القائد الأعلى للقوّات المسلّحة جمال عبد النّاصر ومعاونوه ومستشاروه، ومنهم: رئيس مجلس الأمّة أنور السادات ونائبا رئيس الجمهوريّة حسين الشافعي وزكريّا محيي الدين والأمين العامّ للاتّحاد الاشتراكي العربيّ وعلي صبري. وكذلك المشير عامر ولفيفٌ من شلّته منهم: وزير الحربيّة شمس الدين بدران وقائد القوّات الجوّية الفريق صدقي محمود ومساعدوه، ومدير الأركان في القيادة العليا اللواء علي عبد الخبير. وحضره أيضاً رئيس أركان القوّات المسلّحة الفريق أوّل محمّد فوزي، ورئيس هيئة العمليّات الفريق أنور القاضي ومدير المخابرات الحربيّة اللواء محمّد صادق ورؤساء الهيئات العسكريّة وبعض مديري الإدارات. وتغيّب عنه قائد القيادة الشرقيّة أي قائد الجيش الميداني الفريق صلاح محسن وقائد الجبهة الشرقيّة الفريق عبد المحسن مرتجى ورئيس أركان القوّات الجويّة الفريق جمال عفيفي. ويتّضح من خلفيّات الحضور الوظيفيّة أنّ المؤتمر كان مؤتمراً سياسيّاً عسكريّاً والغرض الأساسيّ منه توصيل رسالة من السّاسة للعسكر تتعلّق بطريقة إدارة المعركة المقبلة.

من أهمّ الشهادات الحيّة عن هذا المؤتمر شهادة الفريق صدقي محمود، قائد القوّات الجوّيّة، للجُنة تسجيل ثورة ١٩٥٢ التي عقدت عام ١٩٧٦ والتي ترأّسها حسني مبارك، نائب رئيس الجمهورية وقتها. وهي محفوظة في سجلّات «دار المحفوظات المركزيّة للقوّات المسلّحة» ولكن لم يُفرج عنها بعد، إلّا أنّ مقتبسات منها نُشرت في كتاب صدر عام ٢٠٠٠ بتحرير سليمان مظهر وعنوان «اعترافات قادة حرب يونيو: نصوص شهاداتهم أمام لجنة تسجيل الثورة».

يقول صدقي: «أعترض على استعمال كلمة مؤتمر [للإشارة لهذا الاجتماع]، لأني أنا طلبت المشير عبد الحكيم عامر قبل المغرب بالتليفون، قال لي «يا صدقي، إذا كنت فاضي تعالى لنا شوية». ذهبت، وكان معي من الناس الذين يعملون معي في المكتب الرّائد حسين عبد النّاصر [أخو جمال عبد النّاصر]. دخلت مكتب سيادة المشير، وكما تعرف توجد قاعة للمؤتمرات والاجتماعات كبيرة، وعليها كلّ الخرائط. لكن لا. كان الجلوس حول مائدة صغيرة: أنور القاضي، اللواء عبد الخبير، اللواء صادق، وأنا. وبعد فترة حضر شمس بدران. كان الكلام كلاماً عاديّاً وعامّاً عن القوّات البرّيّة وأوضاعها... وفي ذلك الوقت فوجئنا بأنّ الرّئيس الرّاحل جمال عبد النّاصر فتح الباب ودخل، وبدأ يتكلّم كلاماً عاماً، وبعدين قال والله دلوقتي أنا بشوف إن احتمال الحرب بقى كبير قوي».

أيّاً كان توصيف هذا الاجتماع، «قعدة» أم «مؤتمر»، فقد أكّد عبد النّاصر فيه أنّنا قد كسبنا المعركة السياسيّة وأنّ إسرائيل قد خسرتها على طول الخطّ. ولكن من الناحية الأخرى فإنّ الظّروف الدوليّة تحتّم علينا ألّا نتبع إستراتيجيّةً عدوانيّة حتى لا نضحّي بموقف أميركا وباقي الدّول الكبرى منّا.

أكد عبد الناصر أننا قد كسبنا المعركة السياسية وأن إسرائيل قد خسرتها على طول الخط. ولكن من الناحية الأخرى فإن الظروف الدولية تحتم علينا ألا نتبع إستراتيجية عدوانية حتى لا نضحي بموقف أميركا وباقي الدول الكبرى منا.

كما أكّد عبد النّاصر أنّ احتمالات الحرب قد أصبحت محسومة بعد تعيين موشي ديان وزيراً لدفاع إسرائيل وتشكيل حكومة حربٍ هناك. والقوّات العراقيّة يُتوقع وصولها إلى الجبهة الأردنيّة بعد ثلاثة أيام، واستنتج أنّ إسرائيل لن تنتظرَ حتّى تصل القوّات العراقيّة للجبهة بل ستبدأ العمليّات العسكريّة ضدّنا بعد يومين أو ثلاثة، وفي الأغلب ستهجم على مطاراتنا في صباح يوم الإثنين المقبل، ٥ حزيران / يونيو. ومن الملابسات الفريدة أنّ قراراً بنفس هذا المعنى كان قد اتُخذ بالفعل في إسرائيل قبل ذلك بساعات قليلة. ففي الساعة التاسعة صباح اليوم نفسه، الجمعة ٢ حزيران / يونيو، اجتمع السّاسةُ مع العسكر في القدس واستمع الوزراء لتحليل الضبّاط عن الموقف ولخططهم لتدمير القوّات المسلّحة المصريّة عن طريق عمليّة تعرّضية. وحصل تململٌ من بعض السّاسة، وعلى رأسهم رئيس الوزراء ليفي إشكول بأنّ الهجوم على مصر قد يكون متعجّلاً وأنّه يجب عدم استثارة الولايات المتّحدة ببدء الحرب. لكنّ وزير الدّفاع ديان حسم النّقاش بأن قال إنّ أيّ تأخيرٍ في الهجوم قد يساعد المصريّين على استكمال خططهمً الدفاعيّة، ولذا يجب التعجيل بالهجوم. وعندما عُرض القرار على مجلس الوزراء الإسرائيلي بكامله يوم ٤ حزيران / يونيو، أعطي الضّوء الأخضر لبدء القتال بضرب المطارات المصريّة بين السّاعة الثّامنة والسّاعة التّاسعة صباح اليوم التّالي، وكان هذا التّوقيت مبنيّاً على اقتراح قائد القوّات الجوّيّة، موردخاي (موتّي) هود، الذي قال إنّ هذا هو أنسب وقت لأنّ الطّيارين المصريّين من عادتهم تناول إفطارهم في تلك الساعة (The Rabin Memoirs، ص ٩٦ - ٩٩).

الفارق الوحيد بين تقدير عبد النّاصر والقرار الإسرائيلي كان في أنّ عبد النّاصر اعتقد أنّ أوضاع الجبهة الأردنيّة ووصول القوّات العراقيّة سيكون العامل الحاسم في التوقيت، بينما رأى الإسرائيليّون أنّ التطوّرات على الجبهة المصريّة وعدم استعداد القوّات المصريّة هو العامل المحوري. لكنّ المهمّ أنّ تقدير عبد النّاصر كان صائباً ودقيقاً سواء في توقيت الهجوم الإسرائيلي (يوم ٥ حزيران / يونيو) أو طريقته (هجوم منظّم على المطارات).

وبالرّغم من أنّ عبد النّاصر ركّز على أهمّيّة عدم البدء بالقتال حتى لا نستعدي القوى الكبرى، وبالتالي ضرورة تلقّي الضّربة الأولى، الأمر الذي يحتّم أهمّيّة تشديد الدّفاع الجوّيّ وتحصين المطارات، إلّا أنّ أياً من هذه التعليمات لم يُبلغ لقيادات الدّفاع الجوّي في القيادة العليا أو في المطارات، ولم ينته هذا اليوم الدّرامي، يوم الجمعة ٢ حزيران / يونيو، إلّا وقد أمر المشير عامر بتوزيع منشورٍ صادرٍ عن المخابرات الحربيّة المصريّة يتعارض تماماً مع ما جاء في المؤتمر/ القعدة. فقد جاء في هذا التّقرير أنّ «إسرائيل لن تقْدم على عملٍ عسكريّ تعرّضي (أي هجومي)، وأنّ الصّلابة العربيّة الرّاهنة ستجبر العدوّ بلا شكّ على أن يقدّر العواقب المترتّبة على اندلاع شرارة الحرب في المنطقة» (فتحي، مصر من الثورة إلى النكسة، ص ٣٦٣).

ضبّاط في سيّارة أجرة

- الزّمان: يوم الإثنين ٥ حزيران / يونيو ١٩٦٧، الساعة الثامنة والنّصف صباحاً
- المكان: السماء فوق مطار بير تمادا بوسط سيناء
- الحضور: المشير عبد الحكيم عامر، الفريق أوّل صدقي محمود قائد القوّات الجوّية، الفريق أوّل محمّد فوزي رئيس الأركان، الفريق أنور القاضي رئيس هيئة العمليّات، وعدد ضخم من كبار القادة، بالإضافة إلى رجال الإعلام والمصوّرين.

بعد أن دنتْ طائرة المشير من مطار بير تمادا وبدأت بالهبوط، لم يلبث الطيّار أن ميّز الطائرات الإسرائيليّة وهي تقصف المطار، فغيّر اتّجاهه على الفور. وقد شعر الفريق صدقي في الحال بما قام به الطيّار فدخل عليه كابينة القيادة ليعرف السبب، و«لكنّه بعد أن شاهد الطائرات الإسرائيليّة تدكّ المطار المصريّ وتصول وتجول في الجوّ

❖
من التظاهرات
التي عمت شوارع
مصر بعد قرار عبد
الناصر التنحي

دون أدنى مقاومة (والكلمات لصلاح الدين الحديدي)، أمر الطيّار بالعودة إلى مطار القاهرة الدّولي بدلاً من مطار ألماظة». وأرسل إشارةً لاسلكيّة إلى تشكيلاته يأمرها بأن تقوم بهجوم مضادّ وتهجم على المطارات الإسرائيليّة. وبالطبع لم يكن يعرف مدى الخسائر التي لحقتْ بالفعل بتشكيلاته وأنّها لم تعد تستطيع تنفيذ أوامره.

«وصلت طائرة المشير إلى مطار القاهرة الدّولي، ولم يكن هناك بالطبع مستقبلون. استقلّ المشير إحدى سيّارات الأجرة، وكانت الوحيدة الموجودة خارج المطار، ومن نوع عتيق جدّاً يقودها سائقٌ عجوز، إلى مقر القيادة العامّة بمدينة نصر، وصحبه في نفس السيّارة قائد القوّات الجوّيّة وبعض كبار المرافقين. ولا شكّ في أنه كان منظراً فريداً في نوعه لم يسبق له مثيل، إذ انحشر قادة يحملون أكبر الرّتَب العسكريّة، بملابسهم الرسميّة، ونياشينهم المصفوفة على صدورهم داخل سيّارة عتيقة بالكاد تتحرّك، وسائقها المدنيّ الهرِم القادم من مصر العليا ذو النّظّارات السّميكة ترتعد فرائصه خوفاً من القصف الجوّيّ من ناحية، ومن خطورة الشخصيّات التي يُقلّها من ناحية أخرى، وهم يستحثّونه ليصل بهم في أسرع وقت إلى مقرّ القيادة. وما إن وصلوا حتى بدأت إذاعات القاهرة تُصدر البيان تلو البيان عن عدد الطّائرات المعادية التي أُسقطت» (الحديدي، شاهد، ص ١٨٦ - ١٨٧).

وهناك واقعةٌ أخرى حصلت يوم الإثنين ٥ حزيران / يونيو ١٩٦٧، السّاعة التّاسعة صباحاً في مطار أبو صوير بمنطقة فايد جنوب الإسماعيليّة. في الوقت الذي حاولت فيه طائرة المشير أن تهبط في مطار تمادا، كانت هناك طائرة أخرى مماثلة، إليوشن ١٤، تحاول هي الأخرى أن تهبط في مطار أبو صوير. هذه الطّائرة الثّانية كانت تقلّ حسين الشافعي، نائب رئيس الجمهوريّة، بصحبة طاهر يحيى، رئيس الوزراء العراقي الذي أتى لمصر للتّوقيع على اتفاقيّة دفاع مشترك. وبعد أن هبطت الطّائرة بدقيقة أو دقيقتين ظهرتْ الطائرات الإسرائيليّة وأخذت تقصف المطار بالطريقة المنهجيّة نفسها.

وقد شهد هذه الواقعة الطّيّار تحسين زكي الذي أدلى بشهادته لعصام دراز في كتابه «ضباط يونيو يتكلمون»، فلنقرأ نصّ شهادته:

«قفز ركاب طائرة حسين الشافعي منها عندما شاهدوا قصف المطار، واختبأوا خارج الممرّ خلف ساتر. وبعد ذلك هاجمت الطّائرات الإسرائيليّة الطّائرة وهي تقف على الممرّ الفرعي فاحترقت. وبعد انتهاء الضّربة الأولى كلّفتُ طيّاراً اسمه السمري، أن يركب سيّارة جيب ويقوم بإحضار حسين الشافعي ومرافقيه إلى مبنى المطار. وعندما وصل إلى المطار واجهه الطّيّارون وقالوا له «كده كويّس؟! لماذا لم تتركونا نضرب الضّربة الأولى؟». كان الطّيّارون في حالة توتّر وحزْن شديد لتعرّضهم لهذه الضّربة وعدم إتاحة الفرصة لهم بالقيام بالضّربة الأولى».

«قاهر» وهزيمة الجيش البرّي

في الحديث عن معارك حرب ٦٧، يتركّز الكلام على المعركة الجوّيّة التي وقعت في ٥ حزيران / يونيو وتدمير سلاحنا الجوّيّ، لكنّ الحدث الذي لا يقلّ غرابةً هو تدمير جيشٍ قوامُه أكثر من مائه ألف جنديّ في أقلّ من ٣٦ ساعة.

كان جمال عبد النّاصر يتشدّق بهذا الجيش، وكان صديق عمره ورفيق سلاحه وقائد جيشه، عبد الحكيم عامر، يقول عنه إنّه أكبر وأقوى جيش في الشّرق الأوسط. وما هي إلّا أيام قلائل حتى انفرط عقد هذا الجيش تماماً، وسقط من رجاله عشرة آلاف شهيد، أي عُشر القوّة المقاتلة.

يحلو للإسرائيليّين التأكيد على قوّة شكيمة عبد النّاصر وعظمة شخصيّته، ويشيرون في كتاباتهم لخطَبه العنتريّة حتى يؤكّدوا على قدرتهم على هزيمته وإذلاله. كما يحلو لهم أن يعظّموا من شأن الجيش المصري الذي حُشد أمام جبهتهم الجنوبيّة لكي يعظّموا من حنكتهم وعزيمتهم وحُسن تخطيطهم. والأمر كما سنتبيّن، كان خلاف ذلك، فالجيش الذي قاتلوه كان جيشاً مهترئاً ضعيفاً، وكان قادته الميدانيّون هم أوّل مَن اعترف بذلك وحذّر منه. أمّا عبد النّاصر فقد انهزم عسكريّاً، لكنّه لم يرفع سمّاعة الهاتف لكي يعرض الاستسلام ويطلب الصّلح من ديان، كما تمنّى الأخير وقال في حديثٍ شهير بعد أن سكتت المدافع.

وإذا كان تدمير سلاح الجوّ في ثلاث ساعات نتيجةً منطقيّة لقيادة فاشلة فشلت في التخطيط واستهترت بالعدوّ، وتمثّلت في شخص الفريق أوّل صدقي محمود، قائد القوّات الجوّية والدّفاع الجوّي لمدّة خمسة عشر عاماً، فما هي الأسباب التي أدّت إلى هزيمة الجيش البرّي بهذه السّرعة، وبهذا العمق؟

ألقى عبد النّاصر ومعاونوه باللائمة على عامر، نائب القائد الأعلى للقوّات المسلّحة، الذي تربّع على قمّة السّلطة العسكريّة في مصر منذ عُيّن قائداً للجيش عام ١٩٥٤. فبسبب فساد أخلاقه وقلّة خبرته وسوء إدارته تحوّل الجيشُ تحت قيادته إلى دولةٍ داخل الدّولة، وبالتّالي انعدمت الخبرة القتاليّة، وتحوّلت عقيدة الجيش من القتال للاستئثار بمزايا

استثنائيّة للضبّاط وعائلاتهم، وشاع الفساد بين كبار الضّبّاط وصغارهم ووهنت هزيمة القتال بين الرّجال.

وتحديداً، يقول رجال الرّئيس إنّ انهيار المشير وإصداره قرار الانسحاب المشؤوم يوم ٦ حزيران / يونيو هو السّبب الرئيسيّ للمأساة التي حلّت بالجيش. فبدون غطاء جوّيّ أمسى مستقبل الجيش البرّيّ في سيناء سوداويّاً. أمّا شلّة المشير فألقتْ باللائمة على ما سمّته «القيادة السياسيّة»، أي عبد النّاصر وأعوانه، وعلى تدخّل تلك القيادة في مجريات الجيش وتحديداً في الخطط القتاليّة والاستعدادات العسكريّة. وتقول إنّ التّعديلات التي أدخلها عبد النّاصر على الخطط العسكريّة لأسباب سياسيّة هي التي أدّت لهزيمة الجيش.

إنّ الصّراع بين الرّئيس عبد النّاصر والمشير عامر كان له بالتّأكيد دورٌ أساسيّ في الهزيمة، غير أنّه من خلال دراسة الخطط العسكريّة الموضوعة وتتبّع أحوال جيش وأوضاع قوّاته البرّية حتى قبل اندلاع القتال يتّضح أنّ مصير الجيش كان محسوماً سواء بقي سلاح الجوّ أو دُمّر، وسواء قَوي العدوّ أو ضعُف.

يقول الفريق الحديدي في كتابه الهامّ «شاهد على حرب ٦٧» : «إنّ مصر اختطّت لنفسها استراتيجيّة دفاعيّة بحتة إزاء إسرائيل، ولم تفكّر في يوم من الأيّام أنْ تعدّ لعمليّات هجوميّة واسعة». لم تشذ «قاهر» عن هذه القاعدة، فهي خطّة دفاعيّة بالأساس بُنيتْ فكرة الدّفاع فيها على منع العدوّ من الوصول لقناة السّويس وتدمير قوّاته التي تنجح في الاختراق توطئةً للقيام بالهجوم العامّ المضادّ، بالتّعاون مع الاحتياطيّ الاستراتيجيّ للقضاء على العدوّ، بحسب ما جاء في كتاب الفريق أوّل محمّد فوزي، «حرب الثلاث سنوات» (ص ٩٩ - ١٠٠).

كان مبدأ «الولاء قبل الكفاءة» هو الحاكم دائماً في اختيار تنقلات الضباط. الأمر الذي أدى إلى تقلد عدد كبير من القادة غير الأكفاء مناصب قيادية عليا.

وتتكوّن «قاهر» من العناصر الآتية: نطاق أمنيّ ملاصق للحدود ومخصّص له كتائب استطلاع وكتائب صاعقة وأفواج الحدود، بغرض استطلاع تحرّكات العدوّ والتّحذير من أيّ هجوم إسرائيليّ محتمل. وخلف هذا النّطاق الأمنيّ يقبع عمق الدّفاع التكتيكيّ الذي يتكوّن من نطاقين دفاعيّين.

ويحتلّ احتياطيّ المنطقة ثلاثة أماكن: فوج مدرّع شمال نخل، ٢ لواء مشاة بالإضافة إلى قيادة فرقة في منطقة الحسنة، لواء مدرّع على المحور الأوسط غرب أبو عجيلة وبالقرب من جبل لبني.

وخلف هذه القوّات يقبع الاحتياطيّ الاستراتيجيّ، وتكمن الفكرة وراء «قاهر» في تمسّك قوّات النّطاقين الأوّل والثّاني بموقعهما، على أن يستعينا بتعزيزات من الاحتياطيّ الاستراتيجيّ عند الضّرورة، وأن تقوم الفرقة المدرّعة بالتصدّي للعدوّ إن نجح في النفاذ من هذين النّطاقين والقضاء عليه، ثمّ القيام بهجوم مضادّ. ومفتاح هذه العمليّة الدفاعيّة هو التحكّم في المحور الأوسط الواصل بين العوجة وأبو عجيلة والإسماعيليّة.

وبالتالي فإنّ منطق «قاهر» دفاعيٌّ بحت وتكمن فلسفتها في استدراج العدوّ لسيناء، وأن يتمّ توريطه في هجمات قويّة ثمّ تطويقه من الشّمال والجنوب بغرض تدميره.

تعديلات قاتلة

طوال شهر أيّار / مايو أجريت أربعة تعديلات على الخطّة أفرغتها من محتواها وجعلت انهيار الجيش شيئاً محتوماً. أوّلاً، الاعتماد على الاحتياط بشكلٍ أساسيّ حتى وصل الأمر للحدّ الذي صار الاحتياط فيه أكثر من نصف عدد القوّات. ولم «يكن هناك تخطيط واقعيّ لتدريب قوّات الاحتياط دوريّاً بما يضمن وصولها إلى درجة الكفاءة القتاليّة التي تؤهّلها للاشتراك في الحرب في ميدان القتال»، كما يقول الجمسي في مذكّراته (ص ٦٦).

أمّا نائب رئيس الاستخبارات عبد الفتاح أبو الفضل فكتب في «كنت نائباً لرئيس المخابرات» عن قوّات الاحتياط «كان الكلّ في ملابس مدنيّة، ومعظمهم بجلاليبهم الريفيّة ويحملون بنادقهم وليس هناك أيّ زيّ عسكريّ، [....] وشُحنوا في السكك الحديدية كالدوابّ» (ص ٢٧٩).

وإذا انتقلنا إلى التعديل الثّاني فسنجد أنّه، ولدواعي «الأمن» أي الحيلولة دون قيام الجيش بانقلاب على نظام الحكم، كانت تجري بصفة منتظمة حركة تنقّلات بين الضّبّاط، الأمر الذي أثّر في التّدريب تأثيراً بالغاً. وكان من أكبر تلك الحركات حركة تنقّلات صيف ١٩٦٦ التي شملت عدداً كبيراً من الضّبّاط من أعلى الرّتَب إلى أدناها. وكان مبدأ «الولاء قبل الكفاءة» هو الحاكم دائماً في اختيار تنقّلات الضّبّاط، الأمر الذي أدّى إلى تقلّد عدد كبير من القادة غير الأكفّاء مناصب قياديّة عليا. غير أنّ ما أثّر أثراً مباشراً في الخطّة «قاهر» هو الأمر الصّادر بتغيير كلّ قادة

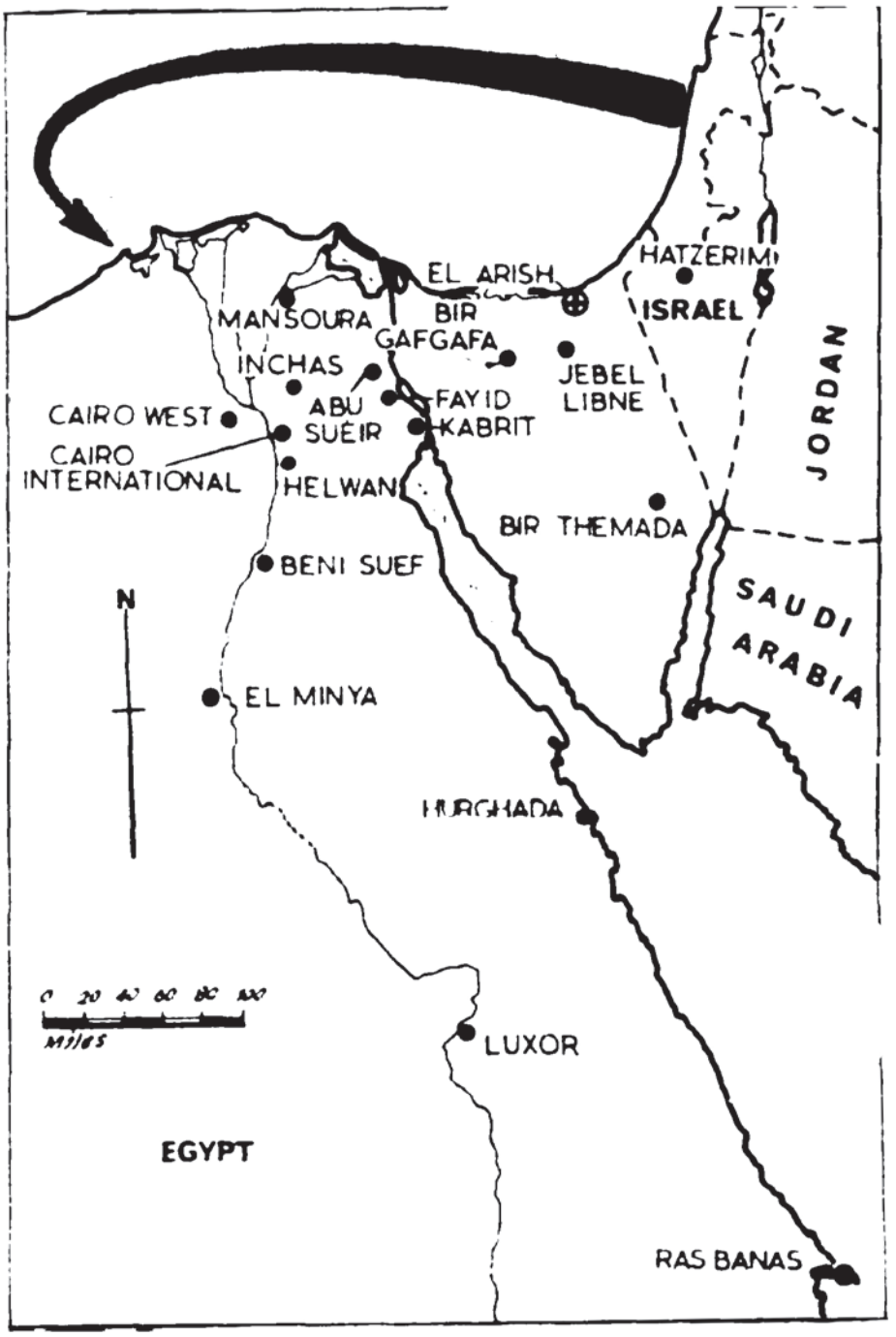

EL ARISH
HATZERIM
ISRAEL
MANSOURA
BIR
GAFGAFA
INCHAS
JEBEL
LIBNE
JORDAN
CAIRO WEST
ABU
SUEIR
FAYID
KABRIT
CAIRO
INTERNATIONAL
HELWAN
BIR THEMADA
BENI SUEF
SAUDI
ARABIA
N
EL MINYA
HURGHADA
0 20 40 60 80 100
Miles
LUXOR
EGYPT
RAS BANAS

العراق ينضم إلى اتفاق الدفاع المشترك مع الأردن

عبد الناصر يعلن لشعبنا والأمة العربية بعد توقيع الاتفاق

إننا ننتظر المعركة على أحر من الجمر

ليعرف العالم أن الجندي العربي هو المقاتل الشجاع الباسل

البيان البحري مقدمة لعمل حربي

وستصطدم الأمة العربية كلها بأي عدوان

قوات الطوارئ لن تعود

إسرائيل قد تبدأ العدوان بعد أيام

عبد الناصر يقول .. هذه الخطوة ستملأ الأمة العربية كلها بالثقة

إسقاط ٤٣ طائرة للعدو

المساء ١٠ مليمات

بدأت المعركة

إسرائيل تبدأ العدوان في الساعة التاسعة من صباح اليوم

لطائرات الإسرائيلية أغارت على القاهرة وأنحاء الجمهورية

طائراتنا وأسلحتنا المضادة للطائرات تتصدى لطائرات العدو

كلنا رجل واحد خلف القائد في المعركة

القتال مستمر

المساء ١٠ مليمات

سنحقق أهدافنا

عبد الناصر يؤكد تصميم الجمهورية العربية المتحدة وجيشها على تحقيق الأهداف العربية المشتركة

اتصالات مستمرة بين القاهرة وعمان وبغداد - الملك حسين يتبادل الرسائل مع المشير عامر والرئيس عارف

الاتحاد السوفيتي يطلب من مجلس الأمن انسحاب القوات الإسرائيلية إلى خطوط هدنة عام ١٩٤٩

الحكومة الأمريكية تعقد اجتماعا لكبرى شركات البترول لبحث نتائج قطع البترول

سوريا تسقط طائرتين للعدو وتأسر طيارا إسرائيليا صباح اليوم

الجيش العربي يزحف إلى تل أبيب

القوات العربية طوقت منطقة النقب وتواصل زحفها

الجيش السوري يدمر مواقع العدوان داخل الأراضي المحتلة تمهيدا للقوات الزاحفة

المساء ٤ صفحات ١٠ مليمات

أمريكا وبريطانيا تشتركان في العدوان

مظلة جوية من طائرات أمريكا وبريطانيا تحمي إسرائيل

الطائرات الأمريكية والبريطانية تقوم بدور فعلي في العمليات ضد الأردن

حاملات الطائرات البريطانية والأمريكية تقوم بنشاط واسع في مساعدة إسرائيل

شبكات الرادار الأردنية تظهر بوضوح اشتراك طائرات الدولتين

الرئيس عبد الناصر والملك حسين يتفقان على إعلان هذا التواطؤ إلى الأمة العربية

قوات السورية تشتبك مع العدو وتقصف مواقعه على طول الجبهة

السعودية تتعهد إرسال المزيد من الطائرات والمدرعات والأسلحة إلى الجهات العربية

القوات العراقية تتوغل في أراضي فلسطين المحتلة

الفرَق الإثنى عشر مع أركان حربهم قبل الحرب بأسبوع أو أسبوعين (George Gawrych, *Key to the Sinai*، ص ٧٧).

وكان ثالث القرارات التي اتخذتها القيادة العليا في الأسابيع القليلة السابقة على الحرب والتي أثّرتْ مباشرةً على «قاهر» إنشاء قيادة جديدة في سيناء، تُدعى «قيادة الجبهة» ومركزها بير تمادا وعهد بها للفريق الأوّل عبد المحسن مرتجى، فـ«قاهر» تفترض وجود قيادة موحّدة للجيش يكون مركزها الإسماعيليّة. أمّا رابع القرارات التي اتُخذتْ في الفترة التحضيريّة السّابقة على الحرب فكان تلك التعديلات التي أدخلت بشكل مباشر على «قاهر» وأفرغتها من محتواها. فكما رأينا، «قاهر» خطة دفاعية بحتة، ومنطقها مبنيّ على الاعتقاد (السليم) بأنّ المحور الذي سيسلكه العدوّ في الأغلب هو المحور الأوسط. على أنه ومن بداية يوم ٢٠ أيّار / مايو اتخُذت العديد من القرارات التي ستخل بهذا الاعتقاد الراسخ، وتجرب تعديلات جوهريّة على أوضاع القوّات التكتيتكية. أوّل هذه القرارات اتخذته القيادة العليا بنقل كتائب من المظلّات إلى شرم الشيخ. وكان هذا القرار صادما لقائد الجبهة، الفريق مرتجى، لأنّ قيادات الجيش اتفقت يوم ١٧ أيّار / مايو على عدم إرسال قوّات إلى شرم الشّيخ ولأنه لم يُخطر به من القيادة العليا بل علِمه صدفة من قيادة القوّات الجوّيّة (مرتجى، الفريق مرتَجى يروي الحقائق، ص ٦٧ - ٧٧).

نتيجة لكثرة التعديلات التي أدخلت على الخطة «قاهر» تهتكت تلك الخطة وتمزقت وفقدت فاعليتها وقدرتها الدفاعية.

ما هي إلّا ثلاثة أيّام حتى صدر الأمر الثّاني المعدّل للخطّة «قاهر»، ففي يوم ٢٠ أيّار / مايو زار المشير عبد الحكيم عامر الجبهة، وأثناء الجولة سأل المشير عن القوّات التي خصّصت للدّفاع عن غزّة. وعندما أبلغه الفريق أوّل مرتجى أنّه ليست هناك قوّات مخصّصة لهذا الغرض حتى قرّر المشير إنشاء مجموعة خفيفة تتمركز ما بين رفح والعريش. وطوال أيام ٢٢ - ٢٥ أيّار / مايو أخذ عامر يفكّر في القيام بأعمال تعرّضيّة داخل فلسطين المحتلّة وتحديداً في النّقب بغرض احتلال إيلات وفصل النّقب الجنوبي. لكن في ٢٥ أيّار / مايو عُقد مؤتمر عسكريّ كبير في القيادة العامّة اعترض فيه عبد النّاصر على ذلك وفضّل وضع خطّة بديلة للدّفاع عن قطاع غزّة. كما أضاف أنّه يجب تقوية الدّفاع عن شرم الشّيخ.

نتيجةً لكثرة التّعديلات التي أدخلت على الخطّة «قاهر» تهتّكت تلك الخطّة وتمزّقت وفقدت فاعليّتها وقدرتها الدّفاعيّة، وانهارت فكرتها الأساسيّة، فوحدات ترسل إلى سيناء بمهامّ لا تلبث وهي في طريقها لتنفيذها أن تأخذ مهامّ أخرى مختلفة، ووحدات ترسَل بدون مرتّبات الحرب بأمل أن تصلها هذه المرتّبات في أماكن تمركزها الجديدة لكنّها لا تصل، وأخرى ينزع من صلب تنظيمها وحداتٌ صغرى على وجه السّرعة ثمّ تستكمل بوحدات صغرى أخرى من قوّات أخرى لا تعرف عنها شيئاً، وعمليّات تعرّضيّة توضع ثمّ تُدخل عليها التّعديلات التي تبعدها عن هدفها الأصليّ.

الخطّة «فجر» الموءودة في الفجر

عند السّابعة صباحاً من يوم ٢٦ أيّار / مايو ١٩٦٧ بتوقيت القاهرة، منتصف الليل بتوقيت واشنطن طلب مساعد وزير الخارجيّة الأميركيّة يوجين روستو مقابلة سفير الجمهوريّة العربيّة المتّحدة مصطفى كامل بصفة مستعجلة. وعندما حضر السّفير لمكتب روستو في وزارة الخارجيّة طلب الأخير من مساعديه ترك الغرفة لينفرد بضيفه كي يبلغه الرسالة الآتية: «إنّ أعداءكم [أي الإسرائيليّين] يعتقدون أنّ مصر وسورية على وشك شنّ هجوم في أيّ لحظة. نحن لا نعتقد أنّ ج.ع.م. يمكن أن تتصرّف بتلك الرّعونة، فهذا النّهج سيكون له بالطّبع نتائج وخيمة. وبالتّالي فنحن ما زلنا نحثّ إسرائيل على ضبط النّفس».

على الفور كتب كامل برقيّة شفريّة للقاهرة بمضمون المقابلة. وفي ٢٦ أيّار / مايو ١٩٦٧ عند السّاعة الخامسة والنّصف مساءً بتوقيت القاهرة، العاشرة والنّصف بتوقيت واشنطن، اجتمع وزير الخارجيّة الإسرائيليّ أبا إيبان، الواصل لتوّه من تلّ أبيب، مع وزير الدّفاع الأميركي روبرت ماكنامارا في مكتبه بوزارة الدّفاع، ليستوضح منه إذا كانت الولايات المتّحدة ما زالت ملتزمة بتعهّداتها التي قطعتْها على نفسها عام ١٩٥٧ بضمان حرّيّة مرور السّفن الإسرائيليّة في خليج العقبة. أثناء المناقشة استُدعي السّفير الإسرائيليّ في واشنطن آفرام هارمان الذي كان حاضراً الاجتماع أيضاً للردّ على مكالمة هاتفيّة من تل أبيب، وعندما عاد بعد دقيقتين قدّم لإيبان ورقة تفيد بأنّ أجهزة الاستخبارات الإسرائيليّة تؤكّد على

قرب قيام ج. ع. م. بالاشتراك مع سورية بشنّ هجوم مباغت على إسرائيل في أيّ لحظة. أكّد ماكنمارا أنّ أجهزة الاستخبارات الأميركيّة المختلفة تختلف مع هذا التّحليل وتؤكّد على أنّ المعلومات الواردة من سيناء توضح أنّ الحشد المصريّ الذي بدأ في ١٤ أيّار / مايو دفاعيّ وليس هجوميّاً. لكنّ إيبان أصرّ على أنّ ما وصله ليس «تحليل معلومات» ولا حتى «معلومات» بل «يقين».

هل كان ما يقلق عبد الناصر أن أمر هذه الخطة قد وصل لإسرائيل عبر طريق ما. تسريب من القيادة أو فك شيفرة. أم أن ما كان يقلقه هو وجود هذه الخطة من الأساس؟

عند الثالثة فجراً من يوم ٢٧ أيّار / مايو ١٩٦٧ داخل منزل عبد النّاصر بمنشيّة البكري، يتلقّى عبد النّاصر اتّصالاً من السّكرتير المناوب القائم بعمل ساعات الليل يخبره فيه بأنّ السّفير السّوفييتي ديمتري بوغداييف على الباب يطلب محادثته في أمر مستعجل. أخرج بوغداييف من جيبه مظروفاً وقرأ رسالة من رئيس وزراء الاتّحاد السّوفييتي أليكسي كوسيغين تفيد بأنّ الرّئيس الأميركي ليندون جونسون اتّصل به لتوّه على الخطّ السّاخن بين البيت الأبيض والكرملين ليخبره أنّ القوّات المصريّة ترتّب لهجوم على إسرائيل، وطلب منه التّدخّل عبر سفيره في القاهرة لمنع هذا الهجوم، وإلّا فالولايات المتّحدة ستعتبر نفسها في حلّ من التعهّدات التي أعطتها للاتّحاد السوفييتي بضبط النّفس. (حسنين هيكل، الانفجار، ص ٥٧٧ - ٥٧٨).

يقول هيكل (الانفجار، ص ٥٧٧) إنّ ما كان يشغل عبد النّاصر ليس الوقوف على حقيقة موقف الاتّحاد السّوفييتي أو إذا كانت الولايات المتّحدة تريد أن تبلّغه رسالة تهديد، بل إنّ هذه المعلومات و«تحذيرات ما بعد منتصف الليل» أوضحت لعبد النّاصر أنّ هناك تسريباً ما، والسؤال الذي يقول هيكل إنّه شغَل عبد النّاصر هو إذا كان هذا التسريب من القيادة، أم أنّ إسرائيل قد حصلت على تفاصيل العمليّة الهجوميّة (التي كان اسمها «فجر» كما هو مشروح أسفل) عن طريق كسر شفرات القوّات المصريّة.

ثمّ يشرح لنا هيكل كيف استدعى عبد النّاصر عبد الحكيم عامر في الصّباح الباكر يوم السبت ٢٧ أيّار / مايو كي يصارحه بهواجسه، «وطلب إليه أن تغيّر القوّات المصريّة شفراتها، وأن تفعل ذلك كلّ ثلاثة أيّام توقّياً لكافّة الاحتمالات. لكنّ الموضوع ظلّ يلحّ على خاطره طوال اليوم وحتى أوى إلى فراشه». (هيكل، الانفجار، ص ٥٧٣ و٥٧٧).

وعن خطورة موضوع كسر الشفرات، يقول موشي ديان في مذكّراته إنّ الاستخبارات الإسرائيليّة استطاعت أن تلتقط أمر القتال المتعلّق بالعمليّة «فجر». (Moshe Dayan, *The Story of my Life*، ص ٣٢٥ - ٣٢٦). ويقول الفريق أوّل عبد المحسن مرتجى في مذكّراته «الفريق مرتجى يروي الحقائق» (ص ٩١ - ٩٢) إنّ عدداً من الضبّاط المصريّين وقعوا في الأسر يوم ٢٨ أيّار / مايو بالقرب من إيلات عندما تخطّت وحدتهم الحدود الدوليّة، وعندها خشيت القيادة العليا من أن يكون أمر الخطّة «فجر» قد افتُضح.

إذا نحّينا جانباً موضوع الشّفرات وكسرها والجواسيس ومغامراتهم، فممّا لا شكّ فيه هو أنّه كانت هناك بالفعل خطّة هجوميّة اسمها «فجر» مختلفة اختلافاً جوهريّاً عن «قاهر» فالفريق أوّل محمّد فوزي يذكر في كتابه، «حرب الثلاث سنوات» (ص ١١٨)، أنّ الخطّة «فجر» صدرت بها توجيهات المشير رقم ١٦ / ١٩٦٧ في ٢٣ أيّار / مايو ١٩٦٧. ولـ«فجر» وجود حقيقيّ وهي ليست من محض افتراءات الجاسوس الإسرائيلي، كما أنّ توقيتها وتفاصيلها متطابقة إلى حدّ بعيد مع ما ذكره الإسرائيليّون وقتها. وبالتّالي فإنّ هيكل على حقّ في قوله إنّ عبد النّاصر ارتاب بالفعل في مصدر الرسالتين اللتين وصلتاه يومَي ٢٦ و٢٧ أيّار / مايو واللتين تفيدان بأنّ إسرائيل قد علمت بالفعل بأمر الخطّة «فجر».

غير أنّ السؤال يبقى: هل كان ما يقلق عبد النّاصر أنّ أمر هذه الخطّة قد وصل لإسرائيل عبر طريق ما، تسريب من القيادة أو فكّ شيفرة، أم أنّ ما كان يقلقه هو وجود هذه الخطّة من الأساس؟

في يوم ٢٥ أيّار / مايو عُقد مؤتمر في القيادة العامّة للقوّات المسلّحة حضره عبد النّاصر، والمشير عامر، وغيرهم. في صفحتَي ٥٧٣ - ٥٧٤ ينقل هيكل عن عبد النّاصر قوله لعامر إنّه قد «لاحظ في الاجتماع أنّ المشير عبد الحكيم عامر يتحدّث بطريقة ظاهرة وبطريقة ضمنيّة عن الضّربة الأولى ومن يوجّهها والضّربة الثّانية ومن يتلقّاها. وكان رأيه [أي رأي عبد النّاصر] أنّ الدّوَران طويلاً حول هذه المسألة من شأنه أن يخلق بلبلة لدى القوّات. فالحرب جهد سياسيّ شامل يدخل القتال كعنصر

من عناصره في وقت من الأوقات». ويضيف هيكل: «ثمّ أشار جمال عبد النّاصر في حديثه مع عبد الحكيم عامر إلى تفاصيل سمعها في اجتماع [القيادة] عن خطّة تعرّضية محدودة تحمل الاسم الرمزي «فجر»، وهي موجّهة إلى ميناء إيلات الإسرائيلي بهدف قطعه عمّا وراءه. وقال إنّه لم يشأ أن يشدّد في الاعتراض عليها في اجتماع القيادة حتى لا يساء فهم اعتراضه. ولم يكن اقتناع عبد الحكيم عامر كاملاً، وإن كان قد قال في نهاية حديثه إنّه سينفّذ الأوامر. والغريب أنّه ظلّ طوال يوم ٢٧ مايو متردّداً في إلغاء «فجر» ثمّ اضطرّ أخيراً إلى تنفيذ الأوامر».

وتتّضح من هذا الاقتباس الهوّة التي فصلتْ بين عبد النّاصر وعامر عن طريقة الاستعداد للمعركة القادمة وإدارتها. ولم يكن هذا الخلاف حول بعض التّفاصيل الدقيقة بل حول التّوجّه العامّ للمعركة.

ولم يظهر هذا الخلاف فجأة في اجتماع القيادة الذي عُقد يوم ٢٥ أيّار / مايو حين اكتشف عبد النّاصر أنّ هناك خطّة تعرّضيّة اسمها «فجر» وُضعت دون علمه.

بل إنّنا إذا رجعنا لكلّ خطوة من خطوات تطوّر الأزمة منذ بدايتها يوم ١٤ أيّار / مايو وحتى يوم اندلاع الحرب يوم ٥ حزيران / يونيو سنجد لهذا الخلاف الجذريّ بين الرّجُلين آثاراً واضحة في كتابات كلّ القادة الذين شهدوا هذه الوقائع وكتبوا عنها.

كانت الخطوة التّالية التي أدّت إلى الحرب هي خطوة طرد قوّات الأمم المتّحدة يوم ١٦ أيّار / مايو. فكان عبد النّاصر يريد إعادة توزيع محدود لتلك القوّات وليس سحبها كليّاً. أمّا عامر فأراد تصعيد الموقف وتسخينه بالإصرار على سحب شامل للقوّات، وليس إعادة تمركز جزئيّ. أمّا الخطوة الثّالثة فكانت قرار إغلاق مضيق تيران أمام الملاحة الإسرائيليّة يوم ٢٢ أيّار / مايو.

وأكّد عبد النّاصر في هذا المؤتمر الذي حضره العديد من الطيّارين أنّه لا يريد تصعيد الأمر إلى درجة تستدعي تدخّل الولايات المتّحدة، ولذا يجب علينا ألّا نبادر بتوجيه الضّربة الأولي لإسرائيل، بل أنْ نتلقّاها. لكن فور انتهاء المؤتمر تكالب الطيّارون حول عامر وطالبوه بأن يصرّح لهم بالقيام بالضّربة الأولى، فردّ عليهم قائلًا «ما تخافوش يا ولاد. والله هنحارب»، وذلك حسب شهادة الطيّار المقاتل ممدوح الملط الذي كان حاضراً المؤتمر.

سرديّة بديلة

على أنّه يمكن تقديم سرديّة أخرى لحزيران / يونيو ٦٧

تبدأ بتسمية الأشياء بأسمائها وتعترف بأنّ ما حصل ليس نكسة بل هزيمة، بل هزيمة منكرة. وكما قلت في بداية المقال لم تكن هزيمة ٦٧ هزيمة عسكريّة فقط بل كانت هزيمة سياسيّة وثقافيّة وحضاريّة. هزيمة رؤية للعالم ولمكاننا فيه.

أفضل مقارنة هزيمتنا في ٦٧ بهزيمة فرنسا في حرب أخرى، حربها مع بروسيا أو هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى هذه الهزائم لم تكن هزائم عسكرية فقط، بل كانت هزائم لنظام اجتماعي وثقافي وحضاري.

أنصار سرديّة النّكسة لا يفضّلون التّفكير عميقاً في الأسباب الهيكليّة التي أدّت بنا لهذه الهزيمة، فهي في رؤيتهم، كما رأينا، لا تعدو كونها نكسة تعافَينا منها. كما يشكّكون فيمن يركّز على الأسباب الهيكليّة للهزيمة، متهمين إيّاهم بالانهزاميّة وبالافتقار للإحساس بالمسؤوليّة. ويذكّرونهم بأنّنا لم نكن أوّل أمّة تُهزم، وأنّ التّاريخ مليء بنماذج لأمم هُزمت ولكنّها نهضت من هزيمتها لأنّها لم تفقد إرادتها. ويشيرون كثيراً إلى حالة فرنسا أثناء الحرب العالميّة الثانية عندما انهارت أمام جحافل النازي، واحتُلت عاصمتها، وخضع أكثر من نصف مساحتها للاحتلال، أمّا النّصف الثاني فكان تحت حكم حكومة عميلة.

غير أنّني أفضّل مقارنة هزيمتنا في ٦٧ بهزيمة فرنسا في حرب أخرى، حربها مع بروسيا عام ١٨٧٠، أو هزيمة ألمانيا في الحرب العالميّة الأولى، أو هزيمة الجنوب في الحرب الأهليّة الأميركيّة. هذه الهزائم لم تكن هزائم عسكريّة فقط، بل كانت هزائم لنظام اجتماعيّ وثقافيّ وحضاريّ. هذه أيضاً كانت هزائم أعقبها إمّا انقلاب قصر، أو ثورة عارمة أو زوال عالم بأكمله بقيَمه ومُثُله وأسلوب حياته.

فإذا كان الأمر كذلك، وإذا صحّت هذه المقارنة، فلماذا إذن لم نشهد انهياراً لعالمنا وقيَمنا ومثلنا، أو ثورة عارمة، أو انقلاب قصر في أعقاب هزيمة حزيران / يونيو ٦٧؟ والإجابة هي أنّنا شهدنا بالفعل انهياراً للقيَم والمثل وثورة وانقلاباً.

أمّا الثّورة فكانت إرهاصاتها تلك المظاهرات التي قام بها شباب الجامعات في القاهرة ثمّ انضمّ إليهم عمّال حلوان بعد أن أُعلنت أحكام محكمة الطيَران التي أدانت الفريق صدقي محمود بالأشغال الشاقّة لمدّة خمسة عشر عاماً وبالبراءة للقادة الآخرين، وهي الأحكام التي رأى فيها المتظاهرون التفافاً على الحقيقة وطرمخة على الهزيمة (وإن كان لفظ «طرمخة» لم يكن مستخدماً وقتها). وقرأ النّظام المظاهرات قراءةً دقيقة وأدرك أنّه يجب أن يقدّم بعض التّنازلات حتى يعيد السيطرة على الجماهير، إذ إنّ تلك كانت المرّة الأولى التي يفقد فيها عبد النّاصر الشّارع. غير أنّ هذه التّنازلات، وكما نعرف، لم تكن سوى تنازلات شكليّة لم تلبّ المطالب الحقيقيّة بانفتاح ديمقراطيّ جذريّ وبفتح المجال السياسي الذي رأى المتظاهرون أنّ إغلاقه كان سبباً أساسيّاً من أسباب الهزيمة. فجاء بيان ٣٠ آذار / مارس هزيلاً ضعيفاً لم يمسّ جوهر الإصلاحات المنشودة.

أمّا الانقلاب فقد خُطّط له بعناية ولكنّه وُئد وخرج منه النظام منتصراً.

ولشرح وقائع هذا الانقلاب يجب البدء بشرح مفردات السرديّة الثانية، السرديّة التي تقوم على شرح الهزيمة هيكليّاً. تبني هذه السرديّة على أدبيّات العلوم السياسيّة وعلى علم الاجتماع السياسي، وتحديداً على فرع من هذين المجالين يُعنى بدراسة العلاقات المدنيّة العسكريّة. وقد تناول الكثير من الأكاديميّين الغربيّين حرب ٦٧، سواء من الجانب المصريّ أو الإسرائيليّ، من هذه الزاوية، زاوية علاقة الساسة بالعسكر. على أنّني أعتبر دراسة حازم قنديل، أستاذ علم الاجتماع السياسي بجامعة كامبريدج، عن النّظام السياسيّ المصريّ من أهمّ هذه الدّراسات.

الصراع بين عبد النّاصر وعبد الحكيم عامر

يسرد حازم قنديل في كتابه تاريخ هذا الثّالوث غير المقدّس من بداية انقلاب تموز / يوليو إلى ثورةكانون الثاني / يناير. ويتناول، بين أشياء كثيرة، علاقة الساسة بالعسكر بدءاً بعلاقة عبد النّاصر بمحمّد نجيب، ثمّ علاقة عبد النّاصر بعبد الحكيم ومحمّد فوزي، ثمّ علاقة السادات بمحمّد صادق والشاذلي والجمسي، ثمّ علاقة مبارك بأبو غزالة وطنطاوي، ثمّ علاقة محمّد مرسي بالسيسي.

وبخصوص حرب ٦٧، يركّز حازم قنديل على أزمة الحكم المتمثّلة بالعلاقة المأزومة بين مؤسّسة الرّئاسة (عبد الناصر) والمؤسّسة العسكريّة (عامر). لا يغفل قنديل الإشارة إلى الطبيعة الشخصيّة لعلاقة عبد النّاصر بعامر، فصداقتهما لم تكن صداقة عاديّة، بل كانت صداقة حميمة، ووُدّ، ومصاهرة، وجيرة (منزلاهما

في المعمورة كانا متلاصقين). وكان عامر بحكم زمالته لعبد النّاصر في الكلّيّة الحربيّة، واشتراكه معه في حرب فلسطين، وتخطيطهما معاً لانقلاب تموز / يوليو - كان لهذه الأسباب مجتمعة من أقرب أعضاء مجلس قيادة الثّورة لعبد النّاصر. وكانت صداقتهما القريبة مصدر حقد وغيرة لباقي أعضاء المجلس.

وكانت هذه الصداقة وثقة عبد النّاصر اللامتناهية هي السّبب وراء إصرار عبد النّاصر على أن يتولّى قيادة الجيش عبد الحكيم عامر، ونجح بالفعل في أن يجبر محمّد نجيب على ترقية عامر من رتبة صاغ لرتبة لواء مرّة واحدة. وكان من نتاج هذا الإصرار أن تقدّم قائد سلاح الطيران، اللواء حسن محمود، باستقالته من القوّات الجوّيّة، ورفَض أن يستمرّ في منصبه احتراماً لرتبة اللواء. وحلّ محلّه الطيّار صدقي محمود الذي ظلّ قابعاً في مركزه كقائد لسلاح الطيران والخادم المخلص لعبد الحكيم حتى هزيمة ٦٧.

وبمرور الوقت استطاع عبد الحكيم أن ينشئ قاعدة لسلطانه داخل القوّات المسلّحة، وأن يبني علاقات وينمّي ارتباطات تقوّي من مركزه على حساب سائر أعضاء مجلس قيادة الثّورة. وسرعان ما ظهرت بوادر صراع خفيّ بينه وبين عبد النّاصر نفسه. ويجمع كلّ المراقبين على أنّ هذا الصراع أخذ ينمو منذ ١٩٥٦ وحتى ١٩٦٧. غير أنّ أهمّ محطّاته كانت رفض عبد الحكيم الانصياع لرغبات عبد النّاصر وزملائه من أعضاء مجلس قيادة الثّورة بضرورة تنحية المسؤولين عن الأداء المخزي للجيش في حرب ١٩٥٦، وخصوصاً صدقي محمود. غير أنّ عامر رفض أيّ تدخّل من الرّئاسة في مجريات الجيش.

وكانت ثاني محطّات الخلاف تلك التي ظهرت بعد انفصال الوحدة مع سورية، واكتشاف أنّ الانقلاب في سورية خُطّط له من داخل مكتب عبد الحكيم عامر شخصيّاً، فرؤي ضرورة إبعاد عامر عن الجيش. ولإدراكه أنّ صديقه لن يرضى التّنازل عن قيادة الجيش الذي أصبح «سبّوبة» يدرّ منه ثروات طائلة حاول عبد النّاصر أن يغري عامر بأنْ يشركه فيما سّماه بمجلس الرئاسة على أن يترك الجيش. وبعد أن وافق عامر في بادئ الأمر، عاد بعد إلحاح من الضّباط زملائه وتمسّك بقيادة الجيش، وأصرّ على حقّه، دون سواه، في تعيين كبار القادة، ومنع عبد النّاصر، فعليّاً، من التّدخّل في أمور الجيش. كلّ ما استطاع عبد النّاصر أن يجنيه من تلك المواجهة التي يشير إليها الكثيرون بـ«الانقلاب الأبيض» أن يحتفظ لنفسه بلقب «القائد الأعلى»، وأن يشار لعبد الحكيم بـ«نائب القائد الأعلى». غير أنّ الجميع كانوا يدركون أنّ المشير كان الآمر النّاهي في أمور الجيش، وأنّ عبد النّاصر لم يكن له سلطان حقيقيّ على الجيش.

وفي عام ١٩٦٤ حاول عبد النّاصر أن يبسط يده على الجيش، فعيّن الفريق أوّل محمّد فوزي رئيس أركان. ولكن سرعان ما أن استطاع عامر تعيين واحد من شلّته، علي عبد الخبير، كـ«مدير أركان» حتى يشلّ فوزي ويحدّ من سلطاته.

ويتتبّع حازم قنديل هذا الصراع المأساوي بين عبد النّاصر وعامر قبل وأثناء حرب حزيران / يونيو، فيشرح كيف كان عامر هو الذي يؤجّج الصدام مع إسرائيل، أوّلاً عن طريق حشد القوّات يوم ١٤ أيّار / مايو، ثمّ عن طريق الإصرار على طرد قوّات الأمم المتّحدة يوم ١٨ أيّار / مايو، ثمّ عن طريق الإصرار على غلق مضيق العقبة يوم ٢٢ أيّار / مايو. وفي كلّ مرحلة من تلك المراحل كان عبد النّاصر يعمل على التهدئة، لكنّ يده كانت مغلولة لسيطرة عبد الحكيم على الجيش.

وإذا سأل سائل، هل معنى ذلك هو تبرئة عبد النّاصر، وأنّ المشير هو المسؤول وحده، فالرّدّ هو: بالطبع كلّا. فعبد النّاصر هو المسؤول أساساً عن وضع لبنات النّظام السياسيّ الذي أفضى به لهذا الحال المختلّ، فهو الذي قضى على الأحزاب، وهو الذي قضى على الإخوان، وهو الذي قضى على الصحافة وأممها، وهو الذي قضى على النّقابات العمّاليّة والمهنيّة، وهو الذي قضى على الحياة الجامعيّة.

وأهمّ من هذا وذلك، عبد النّاصر هو الذي صمّم على أن يعيّن عبد الحكيم عامر قائداً عامّاً على الجيش في نظام انعدمت فيه الحياة السياسيّة، وانعدمت فيه بالتّالي أيّ إمكانيّة لرقابة مجتمعيّة أو مؤسّسية على الجيش. ولم يكن سبب تمسّكه بعامر كقائد للجيش هو إيمانه بقدرات عامر العسكريّة بل ثقته في قدرته على تأمين الجيش، أي الحيلولة دون وقوع انقلاب عليه من داخل الجيش. فعبد الناصر وصل للحكم عن طريق انقلاب، وهو أوّل من كان يعي خطورة قيام الجيش بانقلاب ثان، وبالتّالي كان يدرك ضرورة تسليم الجيش لشخص مؤتمن، فكما قال «من المستحيل أن يوكل أمر الجيش لشخص غريب وليس منّا فيتحكّم في رقابنا» (عبد اللطيف البغدادي، مذكرات، جزء ١، ص ٧٨).

ثلاثة أيّام في طهران
إرهاب وجاز وساكسُفون

مريم حيدري

شاعرة ومترجمة، الأهواز، ايران.

طهران، الأربعاء ٧ حزيران / يونيو ٢٠١٧

«لا تخرجي! أرأيتِ ماذا حدث؟!» لم أزل في الفراش. نمت البارحة في ساعة متأخّرة، واستيقظت متأخّرة. فتحت الرسائل الإلكترونيّة قبل أن أنهض. ليست عادتي، لكنّي أفعلها أحياناً. عيناي نصف مفتوحتين، فتحت الموقع الإخباريّ. أخبار متتالية، ودون انقطاع، عن هجوم إرهابيّ في طهران. هجومان. انتحاريون وتفجيرات في موقعين مهمّين. البرلمان، ومرقد الأمام الخميني.

شعرتُ بالذنب

كتبت وطمأنت أهلي في الأهواز إلى أنّ الأحداث بعيدة عنّي، وكلّ شيء بخير، كي لا تقلق أمّي. تواصلت مع أختي، وقلت لها إنّي طمأنتهم. بكيت على القتلى. تضاعف أعدادهم بعد العثور على جثث أخرى. ومات بعض الجرحى بعد نقلهم إلى المستشفى. أناس يفقدون حياتهم دون أن يشاءوا، ودون أيّ سبب. مباغتة، وهم يواصلون حياتهم اليوميّة.

أعرف أنّ الكثير من النّاس أصبحوا يموتون هكذا اليوم، بل بأشكال مفجعة أكثر من هذا، في الأنحاء المختلفة من العالم. صباحات كثيرة تبدأ بالموت، في السنوات الأخيرة. في بلدان بعيدة، ومجاورة. تألّمت عليها، وفي كثير من الأحيان شعرت بالذنب! لكنّ كلّ شيء قريب جدّاً منّي هذه المرّة. كتب لي أصدقاء وصديقات من بلدان أخرى، يريدون الاطمئنان عليّ. رددت بأنّي غير مصدّقة، وحزينة. كتب لي صديق: «لمَ أنت حزينة؟ فإنك تقولين إنّ الأحداث بعيدة عن منزلك». ردَدت بكلمة غير لبقة قليلاً، واستطردْت: «كيف تقول ذلك؟ هناك أناس يموتون بالقرب منّي، في المدينة التي أعيش. أناس أبرياء. ولا يمكنني أن أفعل أيّ شيء».

لم أتمكّن من الرّدّ على الاتّصالات الهاتفيّة. تتوالى الأخبار، الصّوَر، ومقطع فيديو قصير نشره الإرهابيّون. كتبت للمرّة الثّالثة: «سأتّصل بك بعد قليل». قهوة، وقهوة أخرى. كلّ ما كنت أريد كانت الموسيقى. أن أسمع «شجريان». قد يسعفني «النفرّي». منقذي في كلّ وقت. لكنّي لا أستطيع ولا أرغب في القراءة الآن.

ما معنى «انغماسي»؟

التقيت أختي بعد انتهاء دوامها اليوميّ، كعادتنا كلّ يوم. سألتْني من جديد باستغراب وقلق: «هل رأيت؟ لم أستطع القيام بالعمل اليوم، وقلبي كان يخفق بشدّة». تمشّينا كعادتنا كلّ يوم، وتسوّقنا. في المجمّع التّجاري قالت أختي «إنّي بدأت أنظر إلى النّاس كأنّهم مشتبه فيهم، بعد الإرشادات التي نشرت منذ الصّباح في العالم الافتراضي»، تعلّم كيف التعرّف إلى الانتحاريّين في الأماكن العامّة. نظرنا إلى بعض الزّبائن، وحدّدنا بعض الانتحاريّين بينهم. ضحكنا. لأوّل مرّة ضحكت اليوم.

لم نُطل المشوار. كان عليّ أن أنتظر صديقتي التي انفصلتْ أخيراً عن صديقها. حزينة جدّاً وعليّ أن أجعلها تنسى حزنها، مثلاً! كرّرت لنفسي أنّني لطالما كنت قويّة. الحياة أقوى من كلّ شيء. شعاري الذي شعرت بأنّه يضعف الآن ويَهِن. لكنّني قاومت. بدأت بإعداد «كبّة اليقطين» التي اكتَشفتُها وتعلّمتُها في زيارتي الأخيرة إلى لبنان، وأحببتها جدّاً. كان من المقرّر أن أتّصل بصديق لنا، قادم من أميركا وبريطانيا قبل بضعة أيّام، بعد رحلة بحريّة استغرقت عدّة أشهر، ورحلات جوّية، كي نتّفق على موعد لقاء، فهو يسكن مدينة شماليّة، تبعد ثلاث ساعات عن طهران. اتصلْت. قرّرنا أن تكون السهرة يوم السّبت في بيتي، لكنّه سيأتي إلى طهران غداً، وسنزور

يوم الجمعة معاً بعض الغاليريهات والمعارض التشكيليّة، فأيّام الجمعة هي أيّام افتتاح المعارض عندنا. لم أتحدّث معه عن الأحداث، سوى بجملتين، أو ثلاث. جاءت صديقتي برفقة صديقتها. بدأتُ الحديث معهما عن أحداث اليوم، ثمّ قلت لنفسي: «كفي، وغيّري الموضوع أمام المسكينتين!». اتّفقنا على أن أذهب للمشي اليوميّ، وتذهبا هما ليكملا مشواراً، ثمّ نذهب إلى مقهى. المقاهي لا تفتح في رمضان، إلّا بعد الإفطار. اتّصل صديق آخر وأنا أمشي، سألني: «مريم، سؤال! ما معنى الانغماسي؟ كتبوا في موقعهم أنّ إرهابيّي اليوم كانوا انغماسيّين». أخيراً أصبحتُ خبيرة في المصطلحات الإرهابيّة! ضحكْت معه. واصلت المشي، وعدْتُ أنتظر الصديقتين. في الطريق إلى المقهى اتّصل صديق لي، لم نلتق منذ فترة بعيدة. سألني: «كيف الأحوال؟» - «بخير، وأنت؟» قال: «إرهاب، وتفجيرات». قلت: «أنت الوحيد الذي لم أشأ أن أبدأ حديثي معه عن الإرهاب، لكنّك أنت بدأت». قال: «نعم، منذ الصّباح وأنا كئيب». في المقهى التقيت صديقي المقرّب، الذي كثيراً ما يرتاد هذا المقهى. جلس معنا قليلاً، وتحدّثنا أيضاً عن أحداث اليوم. في الليل كنتُ أهدأ. كتبت لصديقي معتذرة عن كلمة الصباح غير اللبقة. قرأت سطوراً من كتابٍ جديد، يتحدّث من منظور فلسفيّ عن الزوال. لا! ليسَ الوقت وقتَه. فكّرت أن أشاهد تتمّة الفيلم الذي لم أكمل مشاهدته منذ أمس، لكنّ الرغبة السينمائيّة اتّجهتْ نحو «الثّامنة والنّصف».

الخميس ٨ حزيران / يونيو ٢٠١٧

إنّه يوم عطلة أختي في العمل، وعادةً ما يكون لدينا نحن الإثنتين برامجنا ومخطّطاتنا الخاصّة بهذا اليوم منذ الصّباح حتى المساء. استيقظْت باكراً وانتظرتها. خرجنا من أجل مشوار إداريّ خاصّ بها، ثمّ أتينا كعادتنا اليوميّة تقريباً، إلى شارعي للتسوّق والمشي. عدنا إلى البيت لتساعدني في بعض أمور المطبخ من أجل سهرة السّبت. دعوت أيضاً عدداً من صديقاتي وأصدقائي المرموقين، من أدباء، وموسيقيّين، وسينمائيّين. ليست السّهرة شبابيّة، والأطباق عليها أن تكون محترمة، محتشمة. غسلَت لي أختي بعض الخضَر ثمّ وأنا أعدّ قهوةً لنا، قرأتُ بعض الأخبار من هاتفها المحمول. أقوال تتّفق مع بعضها أو تتضارب في عدد القتلى، والجرحى جرّاء العمليّة الإرهابيّة يوم أمس. ونحن قد عدنا إلى حياتنا اليوميّة تقريباً، روَت أختي أخباراً أخرى، وبعض النّكات!

ذهبتُ مساءً إلى مشوار المشي. خلال المشي اتصلْت بمن يجب أن أسأل عن حالهم: صديقي الكبير في العمر، وصديقتي التي انفصلتْ أخيراً، الأوّل كان بخير، والأخرى قالت إنّها أفضل، وطلبت أنْ أحدّد موعداً للقاء خلال هذه الأيّام. ثمّ اتصلتْ أختي سائلة إن كنت في البيت، وكان الأمر أن عادت بعد ساعة برفقة زوجها، ليُعدّا لي التّكييف. الصيف بحرارته المرتفعة قد بدأ عندنا، وأنا ما زلت مصرّة على أنّ الطقس لطيف. قاومتهما: «أنا لا أحبّ التكييف». قالا: «وما ذنب ضيوفك؟» وأخيراً رفعتُ يد الاستسلام.

واصلت العمل على تدقيق نصّ أشتغل عليه هذه الأيّام، تخلّله القيام ببعض الأمور المطبخيّة: نصف عمليّة طبخ «الملوخيّة»، لأوّل مرّة سيأكلها ضيوفي. اكتشفتُ هذه المرّة االملوخيّة المسحوقة بتونس، وجلبْتها. طبختُ، واشتغلتُ حتى ساعة متأخّرة، ثمّ كان الحليب، وطقوس قبل النّوم، والنّوم.

الجمعة ٩ حزيران / يونيو ٢٠١٧

قبل قهوة الصباح اتّصلتْ صديقتي المحبّبة من أستراليا. لفارق الوقت بيننا، عادةً ما تكون محادثاتنا التي تجري بين الحين والآخر، في الصباح الباكر، وفْق توقيت طهران، وعند عودتها من العمل. تحدّثنا عن مجيئها القريب إلى إيران، وخطّطنا لجَولات، ورحلة. سعدت بها كثيراً وفتحتُ الأخبار. يا إلهي! تفجير في كربلاء. أخي هناك. يشتغل منذ فترة، متردّداً بين الأهواز وكربلاء. قلقٌ واضطرابٌ وحزن. اتصلتُ سريعاً بأهلي. سألتُ أختي هناك: «أين هو؟» - في العراق. جرت الاتصالات بينه وبيني وبينهم. عاودَت أختي الاتصال بي لتقول إنّهم هاتفوه وطمأنهم بهدوئه المعتاد أنّ كلّ شيء بخير.

طبخ على صوت بوب مارلي

بدأتُ الطبْخ، وأنا أسمع مطربي المفضّل، «بوب مارلي». لا بدّ للصباح أن يبدأ بالموسيقى! مرّ الصّباح والظّهيرة في المطبخ، الجلوس أمام اللابتوب والكتابة، والحركة في البيت. حسب الموعد، ذهبت لألتقي صديقنا البحّار. التقينا في أحد شوارع شمال طهران الفارهة، حيث توجد بعض المعارض والمحالّ والمطاعم. منذ فترة طويلة لم أزر هذا الشارع. كان هناك الغاليري، وكان المعرض عبارة عن صور اختيرت وأعدّت من أرشيف مصوّر بسيط، يذهب إليه العمّال الأفغان المقيمون في إيران، ليصوّروا أنفسهم عنده، ثمّ يركّبها هو إلى جانب بعض الصّور من عائلاتهم في أفغانستان، ويجعلها على خلفيّة جميلة من الأماكن الشهيرة بجمالها في العالم، من سويسرا وبريطانيا وفرنسا وبلدان أخرى. ها هي عائلة أفغانيّة واقفة أمام جبال الألب، وها هو عامل واقف أمام حقلٍ كبير من أزهار التوليب البنفسجيّة. بعد الخروج، قال صديقنا إنّه سمع أنّ هناك حفلة «جاز وساكسوفون» بغاليري آخر. قال لي إنّنا سنتعشّى الليلة معاً، برفقة صديق وصديقة لنا، في الساعة التاسعة. قال «لنذهب من أجل أن نسأل فقط إن كان ذلك صحيحاً أم لا!» كان الغاليري الثاني في شارع بأقصى شمال طهران. نزلْت من سيّارته لأسأل بسرعة. الجواب: نعم. في الساعة التاسعة. إذن سيبدأون الحفل بعد الإفطار! كانت الساعة قد بلغت السابعة. قال لي: اقترحي ماذا نفعل حتى التاسعة. لا مقهى مفتوحا، ولا المطعم يفتح قبل الإفطار. اقترحتُ أن نزور مشغل صديقتي الرسّامة. من الممكن أن يشاهد لوحاتها، ونشرب معها القهوة. رحّب بالفكرة. اتّصلت بها، رحّبَت هي أيضاً. كنّا عندها خلال ربع ساعة فالطرق فارغة يوم الجمعة. دعوناها إلى اللحاق بنا على العشاء، إلّا أنّني كنت أحتاج لبعض الخضرة من أجل سهرة غد. خرجْنا ونزلنا في شارعها، اشتريت ما كنت أحتاج، وانطلقنا نحو المطعم الذي كان في الشارع الأوّل نفسه، حيث غاليري الصور.

سعدْت جدّاً برؤية صديقتي التي انضمّت إلينا للعشاء، فلم ألتقها منذ فترة. تعشّينا، واقترحت أن نذهب إلى بيتي للتحلية. جاملوني قائلين: «لماذا بيتك كلّ مرّة؟». اتّفقنا في النّهاية على أن نعود كلّنا إلى بيت صديقتي الرسّامة، ونأكل البقلاوة عندها، فكنّا قد رأيناها عندما شربنا القهوة. قلت: «في نهاية الأمر أنا قد قرّرت منذ فترة ألّا آكل الحلويات. إذن، لا فرق بالنسبة إليّ، اخسروا بيتي ولنذهب إلى البقلاوة»! في الطريق بعثَت لي صديقة أخرى رسالة تقول إنّ هناك سهرة في بيتها، وعليّ أن آتي. لم أردّ، وتركت الردّ لوقت آخر. اتصلتْ وأصرّت. قلت لهم «إنّ صديقتي هذه رائعة، وبيتها قريب، وجميل، ما رأيكم أن نأخذ البقلاوة من بيت الرسّامة، ونذهب إليها؟». تمّ الاتّفاق، وذهبنا. كانت السهرة ظلاماً ورقصاً ونشوات، أخذ كلّ واحد حصّته. لم نبْق كثيراً عندها. خرجْت من بيتها، وهي زعلانة منّي كالمعتاد، لأنّي آتي متأخّرة، وأغادر مبكّرة كلّ مرّة. أوصلوني إلى البيت، وكانت الساعة قاربت الثانية بعد منتصف الليل. بدأت بطبْخ «مافن المارتادلا» ليوم غد، فقد مرّ اليومُ دون أن أفعل شيئاً كثيراً من أجل سهرتي غداً. سمعت «شجريان». اكتمل «المافن»، وكان جيّداً. ثمّ ذهبْت لأنام، ومعي مجموعة قصصيّة للكاتب السويسري الذي أحبّه «بيتر شتام».

أسرى فلسطين
والحقّ في الحياة الحتميّة

علاء حليحل

أديب وصحافي فلسطيني مقيم في عكا. صدرت له أخيراً رواية «أورفوار عكا».

في البداية تغضب على مروان البرغوثي لأنّه أكل أثناء إضراب الأسرى المُرتبط باسمه، ثم تغضب لأنّه ضُبط وهو يأكل، لا لمجرّد الأكل، ثمّ تغضب لأنّ الوزير جلعاد أردان ومصلحة السجون نصبا له كميناً، ثمّ تغضب على الحالة الدفاعيّة التي دخل الفلسطينيّون فيها، ما بين مبرّر ومُكذّب، ثمّ تحاول أن تستوعب ما جرى: كسرٌ للرّابط الحتميّ الرّاسخ عند النّاس وهو العلاقة الحتميّة بين البطولة وضرورة الموت.

البطل، ميثولوجيّاً وكشخصيّة دراميّة وتراجيديّة، هو الاستثنائيّ من البشر. لا يهمّ إذا كان سيحقّق مُراده في النهاية، لكنّ البطل التراجيديّ سيموت في النهاية (أنتيغون، ماكبث). استثنائيّته في أنّه الوحيد من بين الآلاف وعشرات الآلاف مَن وقف ضدّ التيّار، وحارب رُغم أنّ نهايته معروفة سلفاً. البطل نصف إله (أخيل، هرقل) ولذلك فهو ليس مثلَنا: لا يجوع ولا يضعف أمام لقمتيْن من الغلوكوز بعد أيّام طويلة من الجوع.

هل من بطولة دون موت حتميّ؟

البطل يموت ويتعذّب لكنّ قضيّته تنتصر. وأعتقد أنّ البلبلة التي أثارها شريط البرغوثي وهو يسترق لقماً في زنزانته العزليّة تنبع من هنا: إذا كان بطلاً حقّاً فلماذا يسترق بعض اللقم كي يظلّ على قيد الحياة؟ هذا لأنّنا (كَبَشر) نعتقد أنّ البطولة في الموت فقط، في دفع الثّمن الأكبر (الحياة نفسها) من أجل القضيّة. لكنْ، هل يمكن تسجيل المواقف البطوليّة من دون موت حتميّ؟ وهل يحقّ للأبطال أن يراوغوا ويناوروا و«يضحكوا على ذقون القتلة»؟

الشجاعة صفة حتميّة ولازمة في كلّ نماذج البطولة التي سجّلتها الشعوب والأفراد. الشجاعة ترتبط بالتغلّب على الخوف والألم والخطر والتهديد، وأساساً مواجهة الضبابيّة والمجهول. المجهول أكثر ما يخيفنا، والإضراب المفتوح عن الطعام يضعك في مواجهة أكبر المخاوف: هل ستصمد كليتاي؟ وكبدي؟ نظري سيبقى كما هو؟ وماذا مع الدوَخان والغثيان والضعف والانكسار؟ هل جسدي بطل؟ هل هو قادر على كلّ هذا الحرمان؟ متى سأقع ضحيّة الهلوسات والأخيلة والغياب عن الوعي؟ هل سأحسّ بموتي عندما أموت؟ الشجاعة تكمن (عموماً) في مواجهة النّفس أوّلًا.

الإضراب عن الطعام هو بطولة ذاتيّة، داخليّة، ينفذها الأسرى من أجل قضيّة عامّة. الإضراب عن الطعام عذابٌ فرديّ وخاصّ، لكلّ جسد ردّات فعله على الجوع ولكلّ نفْس طاقاتها. إنّها معركة فرديّة، خاصّة، رغم أنّها جماعيّةً. تمامًا مثل الموت الجماعيّ الذي يظلّ موتًا فرديًا ووحيدًا، مهما كان عدد الموتى بجانبك.

الموت «كثارزيس» - تطهّر - يَجلي الأخطاء ويغفرها: ياسر عرفات مثلاً. من شخصيّة غير مرغوب فيها بعد «أوسلو» وانهيار مشروع التحرّر الوطنيّ، إلى بطل رمز بعد حصاره وحمله الرشاش على ضوء الشمعة. البطل لا يموت بسبب مرض عابر، البطل يُقتل. يُسمّ أو يُطعن أو يتلقّى رصاصات الغدر (أبو جهاد، غسان كنفاني). الإضراب عن الطعام سَير نحو البطولة، يجب أن يُغمّس بالموت البطيء. وإلّا فنحن في مشكلة. نحن الفلسطينيّين بالأساس.

أسرانا بشرٌ مثلنا

البطولة رحلة من محاولات التغلّب على المعوّقات: البطل ينجح في تذليل العقبات والوصول إلى الحلم المشتهى: التحرّر أو الشهادة. لا مكان للبيْن بيْن. البطل

السائر إلى حتفه ينام على تهاليل الوطن الباكية، ومن يُضبط في لحظة إنسانيّة يثير حنق القبيلة ويثير شماتة العدوّ. من يمسّ بكمال الأغنيات يمسّ بصورتنا عن أنفسنا كما نراها في أبطالنا.

لقمتان من الغلوكوز لا تعنيان شيئاً إلّا أنّ البرغوثي إنسان طال جوعه. إذا كانت هاتان اللقمتان كفيلتيْن بدعمه لمواصلة الإضراب فليكن. أسرانا بشرٌ مثلنا ولا نريد لهم الموت أو العمى أو الإعاقة. تماماً مثلنا. لكنّهم يضربون عن الطعام ونحن لا. لذلك يظلّون استثنائيّين وجديرين بالحياة الحتميّة، لا بالموت الحتميّ.

الثورات بشبابها

٤٠ **النشأة في مخيّم رفح**
يا ليتني علبة «نيدو»!
أسماء الغول

٤٢ **موتٌ في كوبٍ من القرفة**
زينب سرور

٤٤ **للغراب الأسود مكان مرموق**
على الشجر الأخضر
مريم حمود

النشأة في مخيّم رفح
يا ليتني علبة «نيدو»!

أسماء الغول

كاتبة ومدوّنة وناشطة، غزة، فلسطين. آخر أعمالها مع سليم نسيب «الغزّاوية العاصية» *(L'Insoumise de Gaza)*, ٢٠١٦.

أطفالاً كنّا، لعبْنا كثيراً لعبة «يهود وعرب»، البعض يختبئ والآخرون يبحثون عنهم.

غالباً ما كان الفتيان هم اليهود ونحن الفتيات كنّا العرب، لأنّ اليهود أقوى وأشدّ. لم يفكّر أحد منّا ما كان هذا يعنيه! لم نمارس السّياسة كان همّنا اللعب والاستمتاع فقط.

هي لعبتنا المفضّلة، إن لم يكن هناك حظر تجوال، غالباً ما نلعبها في الشّارع.

هنا كبرتُ، في مخيّم رفح.

لا نقول أبداً «الإسرائيليّين» ولا حتّى «الجيش» نقول «اليهود» على سبيل المثال «أجو اليهود»، بالنّسبة لي يهود يعني: الخوف، في الليل، نائمة على فراش قاسٍ كما الأرض، أفكّر في القصف، في الموت، في الطّائرات التي تمرّ مقتلعةً سقوف البيوت.

نظرت إلى علبة صفراء كبيرة لحليب البودرة «نيدو» وُضعتْ في أعلى الخزانة، كانت وقتها أعزّ ما يمكن الحصول عليه في المخيّم، معظم العائلات العاديّة تشرب حليب بدون أيّ اسم أو علامة تجاريّة من الأنروا، مكتب الأمم المتّحدة الذي اهتمّ باللاجئين الفلسطينيّين.

قلت لنفسي: «يا ألله ليش ما خلقتني علبة نيدو!». كان الجميع يحترمها! أُنزلت العلبة لوضع ملعقة صغيرة من حليب البودرة في الشّاي وأرجعْتها لمكانها، كانت تُعامَل بحرصٍ واهتمام شديدين! قضيت أيّامي بعدها أقول لنفسي: « حتْروحي النّار!»، «حتْروحي ع جهنّم!» كنت مقتنعة تماماً أنّي سأحترق في اللهب.

الجنود دائماً ما كانوا يقتحمون منزلنا من الباب الخلفيّ المحاذي لغرفتي. أحياناً أستيقظ فزعةً: «يا ماما، يا ماما! اليهود إجو، أنا سامعة صوت بُسطاراتهم على الأرض».
قالت لي حينها: «لا يا روحي هاي التّكتكة بتاعت السّاعة، يللا نامي... نامي».

طقْطقة قطرات المطر على سقفٍ من صفائح معدنيّة مموّجة، صوت دقّات السّاعة أو المنبّه وصوت خُطى الجنود عند اقتحامهم المنازل، هذه الأصوات الثّلاثة ستبقى مختلطة عندي للأبد. كانت حياتي كلّها حبيسة لحظات الحزن والقلق هذه.

أمّا في السّعادة، فدائماً نترقّب حدثاً ما سعيداً ولكنّه قليلاً ما يأتي فالحزن كان طاغياً. أصبح الحزن ثابتاً أكثر فأكثر، ملائماً لمزاجي ومتناغماً معه.

كبرتُ مع حركة حماس

عند اندلاع الانتفاضة الأولى في **١٩٨٧** لم أكن قد تعدّيت الخامسة لكنّ رائحة الغاز المسيّل للدّموع مازالت حتّى الآن في أنفي.

تأسّست حركة حماس في ذات العام، وأنا كبرتُ معها. كان عالماً حزيناً مستقرّاً إلى حدٍّ ما. أعمامي انتموا إلى حركة حماس، ما جعل الجنود الإسرائيليّين معتادين على الهبوط على منزلنا في منتصف الليالي، ليُدبّوا الرّعب في قلبي.

وبالرّغم من صغري فقد زرت إسرائيل. كان جدّي جمعة والد أبي يعمل في فندقٍ هناك وهذا ما ساعده للحصول على إذن لدخول مستشفى تل أبيب على أثر ظهور مشاكل في القلب. وقد أخذوني معهم لزيارته هناك.

توقّفت الحافلة التي كانت تقلّنا عند محطّة بنزين، حينما بدأ رجُل الخدمات بغسل نوافذ الحافلة بخرطوم مياه، صرخت خائفةً في اللحظة التي اصطدم فيها الماء بالزّجاج فقد جعله متلألئاً كأنّه مكسور.

عندما كنت في المستشفى، ركبْت المصعد لأوّل مرّة في حياتي، دخلنا أنا وجدّتي وفُتح الباب مجدّداً ولكنْ على مكانٍ مختلف تماماً! لم أفهم شيئاً! سألت جدّتي: «احنا سافرنا يا تيتا؟».

«يا تيتا إحنا فعلاً سافرنا جوّاً. هاد...هاد...!!؟؟» لم أعرف حتّى أنّه كان يسمّى مصعداً.

وجدنا أنفسنا بعدها بقليل جالسين على العشب في ساحة المستشفى. اللون الأخضر يحيط بنا من كلّ اتّجاه! لا أصدّق عينيّ! لم أر مثل هذه المساحات الخضراء هناك في المخيّم حيث كبرْت.

راقب جدّي معي تلك السيّدات ممدّدات على العشب حاسرات الرّؤوس برفقة عائلاتهنّ: «هاي السّت هان عندها سرطان... واللي هناك هاد مريض بالقلب... وهدول ولاده بيجوا بيزوروه. دايماً».

في هذه الحديقة اكتشفتُ أنّ اليهود أناسٌ عاديّون جدّاً! لم أصدّق حينها أنّهم كانوا يهوداً فعلاً. ولكنّي سمعتهم يتحدّثون باللغة العبريّة، حينها فقط اقتنعت أنّهم يهود، كنت واثقة تماماً أنّ كلّ اليهود جنودٌ حتى تلك اللحظة فتغيّرتْ نظرتي!

جدّي ويا له من جدّ! كان رجلاً متفتّحاً، علّمني أن أكون متسامحة مع جميع النّاس وجهاً لوجْه. قبل ولادتي قام جدّي بدعوة أبي في العطلة للعمل في إسرائيل، لم يكن يحمل أيّ ضغينة أو كراهية في قلبه، ووجد شيئاً عاديّاً جدّاً أن يتعلّم ابنه العبريّة حتّى صار يتكلّمها بطلاقة. كان يتكلّم عن رئيسه في العمل باحترام بالغ و يقدّر عمله جدّاً كمسؤول عمّال الفندق. رأيت صورةً قديمة له في تل أبيب مع جدّتي أيّام شبابهما، كانت صبيّة تلبس فستاناً جميلاً مع أساور متناسقة معه وخصلات شعرها متطايرة مع الرّيح.

في الحديقة اكتشفت أن اليهود أناس عاديون جدا لم أصدق حينها أنهم كانوا يهودا فعلا. ولكني سمعتهم يتحدثون باللغة العبرية. كنت واثقة تماما أن كل اليهود جنود حتى تلك اللحظة.

بعض أولاده انضمّوا إلى حركة حماس ولكن ليس هو. كان يعيش بين عالَمين متناقضَين: بيْن هؤلاء الجنود الذين يقتحمون منزله من وقت إلى آخر وبين رئيسه في العمل الذي أحبَّه كثيراً.

كان يرجع إلى المنزل ومعه أنواع من الجاتّوه لذيذة جدّاً، بنكهات غريبة وغير معتادة والعديد من الأشياء الأخرى الشهيّة إلى أبعد حدّ. ينقدني طاني، نصف شيكل، الذي كان لطفلة في عمري مبلغاً كبيراً، حيث إنّ فتيات المدرسة عادة ما يحصلْن على مائة أجوره واحدة، وهي عُشر الشّيكل. في ذلك الوقت كان من يعمل في إسرائيل يعتبر من أغنياء البلدة.

كنت أيضاً أُفَضّل جدّي الآخر، من ناحية أمّي، جدي عبدالله، هو أيضاً كان يأخذني معه إلى إسرائيل، إلى مزرعة كبيرة حيث يعمل كمزارع. هذا المكان قد كان من أجمل النّزهات التي حظيتُ بها، العصافير في السّماء لا تحصى، كنّا نغنّي لها أغنية خاصّة في كلّ مرّة نراها محلقّة ومهاجرة في أسراب كثيرة، نركض ضاحكين خلفها منشدين:

عوام الخميس... جابلي قميص

كنّا نقطف أنواع النّباتات لنأخذها إلى البيت. أحببت الخضرة كثيراً. في أحد الأيّام الماطرة في مخيّم رفح، كنّا جالسين تحت شجرة زيتون كبيرة، زرعها جدّي عبدالله، ليغمرني شعورٌ مفاجئ، هو ذاته الشّعور الذي يخالجني عندما كان يجوّد القرآن بصوتٍ عالٍ، ولكن في لحظة مباغتة زرَقَتْ على رأسي حمامة في الأعلى وهذا هو الحال المعتاد معي قال لي جدّي: «ياسِيْدي، هاد حظّ كويّس ما تتضايقي، هاد معناه في أخبار أو إشي حلو جاييلك».

اكتشاف مدينة غزّة

نقول «قطاع غزّة» أو «غزّة» لتحديد أبعاد المنطقة، لكن غزّة أيضاً هي اسم المدينة وتعتبر عاصمة القطاع.

إن كانت إسرائيل عالماً آخر بالنّسبة لنا، نحن اللاجئين في مخيّم رفح، فإنّ مدينة غزّة هي كذلك أيضاً. عند ذهابي إليها لأوّل مرّة أصبْت بالدهشة! لم أتخيّل أنّ المدينة مختلفة إلى هذا الحدّ عن المخيّم الذي يبعد حوالي الأربعين كيلومتراً إلى الجنوب حيث لم يكن هناك شيءٌ آخر!

توغّلت إلى عالمٍ، ويا له من عالمٍ شاسع! لا نستطيع استيعابه تماماً! كانت عمّتي هي التي أخَذتْني في ذلك اليوم إلى حفلة زفاف في حيٍ راقٍ في مدينة غزّة، لم تصدّق عيناي ما تريانه! فيلّا فخمة محاطة بأشجار عالية، مرأباً كبيراً للسيّارات، رجالاً ببدلات داكنة، نساءً أنيقاتٍ جدّاً سافرات. لم أصدّق! اذاً كان هناك مَن هم أغنياء من الفلسطينيّين!

كنت أنا أيضاً أنيقة حينها لأنّ والدي يرسل لي دائماً ملابس جميلة وثمينة من الإمارات حيث كان يعمل. ارتديتُ قبّعة من الزّهور، ولكنّي فجأة أدركت أنّني نسيتها في سيّارة الأجرة الجماعيّة التي أتينا بها! وجدتُ سائق الأجرة، فقلت له غاضبة: «إنت يا حيوان! إنت مشيت وأخدت طقيتي معك!». ذهب المسكين مرتبكاً، مسرعاً لإحضارها لي.

لم أكن تجاوزتُ الخامسة من عمري حينها ولكنّي كنت بالفعل كارثة!

موتٌ في كوبٍ من القرفة

زينب سرور

صحافية وجامعيّة، لبنان.

فيما الأفكارُ تتصارعُ في رأسي، أعدتُ كوب القرفة المعتاد إلى مكانه على الطّاولة فوق رقعة زجاج بيضاء بعد رشفةٍ مستعجلةٍ لدغتْ لساني بشدّة. عليّ الاعتراف بأنّ التّناقضات اجتمعت في ذاك الجزء من الثّانية وكان بإمكانها في الوقت عينه أن ترتفع. تجمّدت الأشياء فطغى الخوف. تسمّرت الكمانات في سيمفونيّة صامويل باربر الثّانية، أو ما تبقّى منها، على جملةٍ حادّةٍ. ليس وقتاً طويلاً ذاك الّذي تمرّدت فيه الكمانات على سياقها المكتوب. أعجز عن تبيان مدّة العصيان. في وجداني، لا يستأهل ما حصل صفة الوقت. في المنطق، يبقى وقتاً أعطاه المكان مبرّر التّسمية، وإن بدا ضعيفاً وغيرَ علميّ تقسيمُ تلك الثّانية إلى جزئيّات. ومع ذلك، مع سرعة ما حصل، أتعبني الصّوت.

إلى خارجي انتقل الجماد. توقّفت يدٌ تسرّح بنعومة فائقة شعراً إلى جانبي عن فعل ذلك، وما عادت ملاحظاتٌ سيّدةٍ مسنّةٍ عن صعوبة علك قطع اللّحم في طبقها تثير حفيظةَ النّادل أو ردّة فعله. لم يُطبق كلب لوحةٍ مستطيلة فكّيه على شرشف الطّاولة ألقاني على الرغم من أنّ سردَ مخيّلتي رسم نهايةً مأساويّةً لمزهريّةٍ تعلو الطّاولة. ربّما جاء ذلك تماشياً مع درجة الحمرة الدّمويّة للشّرشف، أو ربّما لعبت فرضيّة الحتميّة دوراً هنا.

في جزئيّة الجماد تلك استعرَ ما استعر. تضخّمت حبيباتُ القرفة. غاصت حتّى أسفل لساني مستبيحةً المسافة بين فكّي العلوي ورديفه. بدت وقحةً عقابُها الأمثل البصق لكنّني امتنعتُ عن ذلك. كدتُ أرى أمامي سيّدةَ الباص المسنّة تُخرج من صدرها منديلاً أبيضَ وتَعدّ ما بحوزتها من مال غير آبهةٍ لنشّالٍ قد يكون حاضراً في الصّورة. تلاشت اللّقطة لحساب طفلٍ متسوّلٍ يمرغ قطعة حلوى بثيابه. لبكائه طبقة صوتٍ تتناسب مع تسمّر كمانات باربر.

كان موتاً. شبّهتُ اللّحظة الحارقة بالموت. أشياء تتجمّد وأخرى تلتهب. زمنٌ غير مفهوم. سياقاتٌ غير متناسقة. مرحلةٌ لا يهمّ مداها بل نتاجها. لم أجاهر بذلك، فالرّجل عن يميني يتحدّث عن رحلة شيّقةٍ تنتظره في بروكسل. تبلورَ التّوصيف بعد زوال اللّحظة، بعد عودتها إلى نقطة البداية. لحظةَ الاندثار أو تلك الّتي نظّنها كذلك يتّخذ الوعي شكلاً جديداً غير معتادٍ في محسوساتنا. يتغيّر معه التّعبير في المضمون والأدوات.

قبيل الرّشفة المستعجلة لم يكن للموت متّسعٌ كافٍ في زحمة أفكاري. على الرّغم من امتلاء شاشة هاتفي الصّغيرة بالقتلى والضّحايا، انصبّ التّركيز على ديمومة الحياة واستمراريّتها بما يُعين من وسائل. زكزكت الفكرةَ أخبارُ تسليح الأميركيّين لأكراد سورية. مجموعة لها من التّاريخ والعادات والتّقاليد وفرادة اللغة وسبل العيش نصيبٌ وافرٌ تسعى بشتّى الطّرق، مهما خضعت مشروعيّة الأخيرة إلى نقاش، إلى الاستمرار. لا الاندثار. شبح الموت مجدّداً، الفزع من الاضمحلال أو الانصهار فالرّحيل. وإن احتلّوا الواجهة اليوم، لا يتفرّد الأكراد برغبة العيش، هم وجهٌ لها، لكن لا يتفرّدون بها. تتشاطر جميع الإثنيات والأعراق والجماعات الدّينيّة وحتّى القبليّة وغيرها هذه الرّغبة، أو الحاجة.

أنامل جدّتي والكمنجة

جعلت رعشة القرفة شكلَ الموت أكثر وضوحاً في ذهني. شيءٌ مستحيلٌ ومع ذلك حتميّ. من يموتون لا يندثرون. يقول قانونا حفظ المادّة والطّاقة إنّ الأخيرتين في نظام معزول لا تفنيان ولا تستحدثان من العدم لكنّهما تتحوّلان من صورةٍ إلى أخرى. معنى هذا أنّ طاقات ومادّيات جميع الكائنات الميّتة، حيّةً كانت أم غير حيّة،

لا تفنى أو تندثر بل تتحوّل. في تلك اللّحظة، شعرتُ بالكائن الأوّل في هذا الكون حولي. التقطتُ أنفاس جدّي الراحل وجدّه الشّجاع، أحسستُ بحرارة أنامل جدّتي تمرّ بنعومة على يدي. دمعت عيناي وابتسمت. هذا ليس عمل ذاكرةٍ فحسب، للطّاقة والمادّة المتناثرتين نصيبٌ في ذلك. تشبه تلك كمانات برنار التي تمرّدت على النّوتة في جزء الثّانية فحوّلتها إلى أخرى. للموت روحٌ واحدة وإن تعدّدت أشكاله.

المغول والتّتار والصّليبيّون والفراعنة والرّومان والعثمانيّون ومن قبلهم وبعدهم معنا بأشكال جديدة. تفاصيل المحسوسات والمادّيات والكائنات الّتي رحلت منذ بدء الكون وحتّى اللّحظة بين أيدينا. كتلةٌ ضخمةٌ من طاقة ومادّة الرّاحلين تتراقص هنا وهناك. للموت تعريفٌ آخر. مستقبلاً، ومع أيّ احتمال لغياب الأكراد، سوف يبقون يجوبون زوايا الكون. لكن ليست الطّاقة وبقاء الذُّرى ما تكترث له الجماعات، هذه تقوم لتبقى وتفرض تعريفاتها، أقلّه بهدف الاستمرار البدائي. ولا حاجة هنا إلى الغوص في مفاهيم وتعريفات الحضارة والجماعات ونظريّات التقاء الشّرق والغرب وغيرها. ولا الطّاقة والذُّرى ما يسعى الأفراد إلى تركه بعد الرّحيل. تحتلّ «غاية ما بعد الموت»، «آثار الوعي»، «بصمات الفكر» سلّم أولويّات الأفراد فالجماعات مع اختلاف درجة قربها أو بُعدها عن الطّبيعة. لا يعني هذا انتفاء حلم الخلود المادّي الّذي يراود البشر منذ الأزل. لكنّ خلود الأفراد هامشيّ أمام خلود الوعي. للأخير آثارٌ ملموسة وفكريّة متناقلة عبر العصور قد تتعطّل في أحيان كثيرة. تزداد هنا فكرةُ الموت رعباً. تتضاعف الحاجةُ إلى الاستمرار كيفما كان. تتقاتل الجماعات لتكريس وعيها الأمثل كما ترى. تصحّ هنا تسمية «حروب الوعي». والغاية دائماً تعطيل الموت.

لا ينطوي قانونا حفظ المادّة والطّاقة على غاية «ما بعد الموت» للأفراد والجماعات والحضارات، بمفهومها الملتبس والمتشعّب في آن. ذاك أمرٌ لم يجد العلمُ بعد طريقاً لحفظه ونقله على هيئته الواقعة. تقع المهمّة / الوسيلة على عاتق الجماعات كلٌّ بالطّريقة الّتي يراها مناسبة.

كان موتاً. شبّهتُ اللّحظة الحارقة بالموت. حتّى في الموت هناك أشياء تموت وتحيا، تزول وتتحوّل. لم أبصق حبيبات القرفة المتضخّمة. مع ما سبّبتهُ من إزعاج قاتل هيّأت الظّروفَ لتجربةٍ جديدةٍ تراكم معها الوعي وإن بدا لحظتها غير واضح المعالم.

للغراب الأسود مكان مرموق على الشجر الأخضر

مريم حمود

مخرجة وممثّلة مسرحيّة، لبنان. آخر مسرحية من اخراجها «الميرم»، مسرح دوار الشمس، ٢٠١٧.

يقال: بلدك هو المكان الذي تخلقه وتعيش فيه وليس بالضّرورة أن يكون هو البلد الذي وُلدت فيه. أنت: عبارة عن مجموع ما حدث في حياتك مع مكوّناتك الجينيّة علميّاً، وما تريده، وما تصبو إليه خلال المرحلة التي تمّر بها نفسيّاً وبيولوجيّاً.

يقال: قل لي من تعاشر، أقل لك من أنت. ويقال: مع العولمة وحركة الانفتاح التي وفّرها الإنترنت صار العالم بلداً واحداً وصارت الحضارات أكثر تمازجاً وتزاوجاً من حيث الطقوس الدينيّة والثّقافيّة والاقتصاد والموضة الاستهلاكيّة.

أشعر في هذه اللحظة أنّني فقدت لغتي، كما في كلّ مرّة أبدأ فيها كتابة فصل جديد. أشعر حينها أنّي أضيع فألجأ إلى الفصول السابقة، إلى بعض الصّور الفوتوغرافيّة من ذاكرتي. عبثاً! لا أريد أن أكرّر ذاتي، لا بدّ لي إذاً من أن أطوّر أدواتي كي لا أعلق في دوّامة واحدة تتعفّن تلقائيّاً من ركودها.

ربّما لأنّني أمرّ في مرحلة انتقاليّة، أجدني أطرح على نفسي أسئلة كبيرة، فيما قليل من السّواد يخيّم على سمائي، فالتّغيير الكبير لم يكن إطلاقاً من شيَمي لا سيّما أنّني أعاني من فقدان الإحساس بالأمان ومن مستوى عالٍ من الحساسية قد أتوه بينها وبينهما وبين الإحساس بالذّنب لفعلٍ اقترفه إنسان آخر وهو وحش بهيئة إنسان.

منمنمات بورسلان الحمّام الليلكي

أخيراً، بعدما هربْتُ من دائرتي الصغيرة في عكّار، وبعدما تخلّصت من طقوس الحمّام العربي: حفرة في الأرض ترمي فيها الدنَس والإثم وكلّ الزّوائد، التي تجلس قربها تستحمّ وتتطهّر! وبعدما كنت أعدّ بلاطات الحمّام - البورسلان - على أصابعي، ومن ثمّ أعدّ النّقوش المطبوعة على تلك التي تُجمَع بطريقة خاصّة جدّاً، فيتوسّط كلَّ حائط جداريّة، غالباً ما تكون لطيور أو لمنظر أوروبّي (قرى وجسر ونهر)، كنت أجمع من حولي أدوات التنظيف - الشامبو والبلسم والصّابون البلدي والدّلو والكَيْلة - وأجلس عارية ومحدودبة على الكرسي البلاستيكي القصير، أستمتع إلى أجيج النّيران تأكل الحطب اليابس والماء تهدر داخل السخّان، فأصغر أنا لتكبر مملكتي.

بعدما كنت أتوسّط كلّ شيء، وأنفرد في عالمي، في وطني، مع أصدقائي وفي أمسي وما سيكون أمامي، ضاقت دائرتي، ضاق الوطن وضقت به، وصرنا زوجاً يعيش كلّ واحد فيه على التّنكيل بالآخر - ثنائيّتنا المزدوجة (المواطن الفرد - الوطن). ضاقت تلك الأمبراطوريّة الصّغيرة الدّافئة الشفّافة فصرتُ أستحمّ واقفة بالحمّامات الأكثر عصريّة. ومع انتقالي إلى بيروت ومع كلّ النّساء اللواتي شاركتهن المنزل بقوانينه المنتهكة، كان تفرّدي هو في حمّام يكاد يكون عموميّاً، متسخاً أو مليئاً بالصّراصير. مرّ الزمن وأنشأت أمبراطوريّتي مجدّداً، وما إن أعلنت تدشينها وفرديّتها وخصوصيّتها وتناسقها التامّ، ما إن دشّنت حمّامي الجديد، سمائي في العاصمة، وبدأت رسم المتاريس وإعلان النّذور، حتى جاء موعد الانتقال.

بعدما رتّبت أمور أمبراطوريّتي، واحدة تلو الأخرى: الوزراء والنّواب والمهندسين والحرفيّين والمثقّفين، وبعدما تربّعت على عرش حوض الاستحمام وراعيت شؤون الدّولة، كان العمر قد أنهك الغرور وخضّبه بالنّضوج، وجدتني أعترف بالهدف لا الطريقة، أن أكون نظيفة - «فْرِيش» - أن آخذ وقتي. فأنا أصل مملكة متعبة أصلاً. أستحمّ أينما كان وكيفما كان، أغادر إلى الفراش، حيث أفقد التّواصل مع الأحياء وأتكفّن بالأسود حتى الصّباح الربّاح.

من يوميّات سنفور عاديّ في بيروت

كفنٌ أسودُ يصاحبني بالليل وأعبده حتى ينحره الرّمادي. فلفل، القطّ الرّمادي، يغمرني ويقبّلني مراراً كي أطفئ المنبّه وأكمل نومي! إنّها السادسة صباحاً، موعد عقوبة الإعدام اليوميّ.

الوجهة: مخيّم صبرا وشاتيلا. الهدف: مدرسة خاصّة حريريّة. الحالة المزاجيّة: أكره العمل في هذه المدرسة ليس لمكانها ولا لفئتها بل حتماً لأنّي أعمل فيها منذ عشر سنين ولأنّني أكره إدارتها. حسناً، لا بدّ لي من أن أكون صادقة مع مونولوغي المَيْرمي وإلّا فما الهدف من كتابة مونولوغ اصلاً؟

أكره ما ألبسه ولكنّني مضطرّة، أكره ناطور البناية حيث أسكن، أكره المغادرة أيضاً وأكره زحمة السّير غير المبرّرة في هذا الصّباح الباكر وكلّ صباح مهما بكّر أو تأخّر، أكره الدركي المتسبّب بزحمة السّير، دركي برتبة شرطيّ سَير، ربّما شرطي سير ببدلة دركيّ، يقف قرب إشارة السَّير. لماذا إذاً ثمّة شرطيّ سَير؟ طيّب شرطي هو أو دركي، كم يبدو «ستايلش» عالموضة يعني. هل يبني منزله فوق منزل أهله، هل يعبس لأنّه تشاجر مع خطيبته، لماذا اختار أن يصبح شرطيّ سَير؟ هل هذا ما توقّعه أو حلم به؟ لما انتسب إلى السّلك العسكريّ؟

أكره طريقة وقوفه، أكره حركة يديه، غروره، أراه يعاني من داء حبّ عظَمة مكسورة وراء «رنجر» - حذاء عسكريّ وبذلة ركيكة متّسخة لا تصلح حتّى لطقس الصّيف. على العسكريّ أن يموت حرّاً ولا تسقط هيبته ووهْرته. الله أكبر!

أقود جانب حرج بيروت باتجاه مشروع الربيع في أرض جلّول. أصل إلى حاجز الجيش. أكره حاجز الجيش عند مدخل المخيّم. عناصر الجيش يتعاملون معك كسنفور بطريقة أكثر تواضعاً أو ربّما أكثر إحساساً بالذّلّ من الدّركي، إحساس بالذلّ مغطّى بطبقة شهيّة من الانتماء الوطنيّ وقد رُشّت عليها مفردات عظيمة يتّفق عليها الجميع وتداري كافّة المصالح والوجهات. عبارات تقول إنّ الجيش هو المنظّمة اللاطائفيّة في بلادنا! نعم! الجيش خطّ أحمر!

تدقّ ساعة الصفر مجدّداً: حولي لا أقلّ من ١٥٠٠ طالب يصرخون عنفَ أهلهم عليهم ويركضون كالشّياطين حتى يرنّ الجرس فالنّشيد الوطنيّ الذي لا يكترث له أحد يتحوّل من نشيد وطنيّ الى مجرّد طنين. طن طن طن طن طن. طن. طن. طنططن. طنطن طنطن طن طن.

المعلّمات في تظاهرة بالـ«فول مايك أب»، طلاء بألوان قوس القزح على الوجوه، لا بدّ أنّ الإضاءة ضعيفة في منازلهنّ!

منهنّ من تأخذ صفوفها لتجتمع الأخريات في غرفة المعلّمات حيث للنميمة مختبر وفنون. هذه تتحدّث رأساً عن مسلسل ما أو خبر ما، وهذه تتبع ريجيم وثلاث أخريات يفقهن بالدِّين ويخطبن بالدِّين والعانس تراقبهنّ هي. واحدة تفتخر بأنّها رمت الكلب أرضاً أو دعسَتْه وتركتْه يتألّم، وأخرى تشكو خادمتها، وتريد خادمة جديدة، وتطْلق التعميمات عن جنسيّات متوحّشة وتعلن أنّ القيامة اقتربت. وعن هذه الأكلة: «لا يا حبيبتي، لا لا لا، تسك تسك. أنا أسلق الدّجاج قبل طبخه، لا أصدّق أنّك لا تقومين بذلك، نو نو نو». وأنّ سعد الحريري شخصيّة جميلة وجذاب جدّاً كرجل.

يا للهول سعد «سيكسي»! له، يا ألله: عم تسمع؟

وأنا أبحث عن مكان هادئ، أبتعد فيه عن هذه العيّنات من مجتمع غلَبه السّيليكون واستُعبد للفذلكة. وكثيراً ما أجدني أقول إنّ حياتهم أسهل أو أشعر بمزيد من اللاانتماء فتتضارب لديّ المشاعر. كلّ هذا يحدث وأنا أسكب المياه السّاخنة في كوب الزّنجبيل بالحامض لأحلم فقط بأنّني أجلس على شرفة المنزل أقرأ باسم ربي الذي خلقني وأكتب الـ«ألف لام ميم» وأمثّل وأرقص.

لا وقت للحلم ولا لشرب الفنجان كاملاً. يصدمني الواقع العمليّ فالورشة تغتال الحيّ وشرفة المنزل وصوتها يفكّك مسامير حوض الاستحمام ويخلخل الثّقل التّاريخي لمملكتي ويدنّسها لتصير الجورة العربيّة بإثمها أحلى ملاذ!

إدارة التوحّش الإسمنتي

لا تكاد تحلّ السّاعة السّابعة والنصف حتّى تستيقظ بيروت. تستيقظ ورشات الهندسة المعماريّة التي لا تنتهي، تستهلك كلّ الطبقات السمعيّة والمعايير المتعدّدة: مباني، مكاتب، فنادق ولا صناعة ولا سياحة والبلد محاصر بين البحر الملوّث وسورية المفجوعة وفلسطين القضيّة المنسيّة.

لا جبل لا بحر: باطون مسلّح على الطّريق العام، قرب المنزل، قرب غرفة النّوم، في منزل الجار، قرب مطعمي المفضّل حتى على الشاطئ العام، وعمّالٌ شباب تشفق عليهم يعملون من الفجر إلى النجر لصاحب أموال ويصدرون الضجيج: طج، طج، بج!

لا لحظة سكون واحدة إلّا الهرب إلى القرى حيث لا عمل هناك أو النّزول إلى البحر، وأيّ بحر؟ اللجوء إلى المنزل؟ وأيّ ملجأ! إذاً الأفضل العودة إلى العمل حتّى تنتهي الورشة. توشك بيروت في مخيّلتي أن تنزع عنها رداء البحر الأبيض المتوسّط كلّيّاً لتصير شارعاً نيويوركيّاً أو دبيّ صغيرة ونحن نصير أكثر انعزالاً بعضنا عن بعض رغم صغر المساحة التي تجمعنا وضيقها وكما يقول أصدقائي: «كلّه نايك كله، على قلّتنا»!

أجلس أنا وظلالي – لا شيء معيب – خلعنا جميعنا أقنعتنا عند الباب وأطفأنا التلفاز بعد إلقاء نظرة عليه. دخنا سيجارة المساء الأولى احتفالا بانتهاء الطقس الجنائزي اليومي المتكرر وغمرنا الرمادي. فانقطعنا عنه لندخل الحمـــــــــــام.

هو ضرب من الجنون: صرت، صرنا شرشبيل، وصارت بيروت فكرة الشيطان الجميل، سنفورة السّنافر، زرقاء فيها السمّ الزّعاف!

بيني وبين بيروت وكلّ من عاشرها قصص جميلة ومثيرة. ولكنّني لم أعد أجد فيها رائحة «المونة» في الخريف تعدنا بما سوف يتيسّر لنا أن نأكله في الشّتاء. وحوش اقتحمت غرف المونة ليلاً تبعثر محتوياتها وتنتظر النّهار لتجلدنا بسرقتها.

نصحني صديق جديد قديم بالكتابة عن أسباب مغادرتي بيروت. أنا أكتب عن ذلك الآن. أجلس على كنبة في غرفة الجلوس في مدينة «كولون» بألمانيا وقد حضرت حقيبة العودة الما قبل الأخيرة إلى بيروتهم، أخطو خطوة صغيرة في الحدث الجلل. مرعوبة؟ إي. ومشتاقة للمرطّبانات الزجاجيّة المتنوّعة على رفوف «النمليّة» ولرائحة الكشك والبحر ولعقود أنهكها الواقع الأليم، بفعل تضاربه مع الذّاكرة والحنين.

اختفى الأفق وزال المدى وما زلت بحال من الصّدمة من بعد التّكفين.

وطن النّجوم أنا هنا، حدّق أتذكر من أنا؟

أنا، وأعوذ بالله من الأنا.

أنا أنا. أنا آنُ ما آنت لها أن تكون أنا. أنا الأنا التي لم تئنّ ولم تكنّ.

أنا التي عملت حتى بكت وعشقت حتى جرحت وأحبّت مجدّداً ولن تنجرح.

أنا التي نجحتْ ودأبتْ واجتهدتْ حتى أصابتها خيبة الأمل من العمل.

أنا التي تقيّدت بالقوانين والأعراف حتى شرّحت وتساءلت فثارت وقرّرت.

أنا التي ادّعَت وضُربت وتكسّرت فما سُمعتْ ولا حُضنتْ فما صَدّقتْ ولا سمّت ولا بَكت فاختنقت.

مشهد رومنسيّ أليف مغيّب

ينتهي النهار والوظيفة معاً. يتسامر التعب بقدميّ والصداع والحلق العطِش الأجوف. نجلس جميعاً في سكون ليليّ، المساء يحتلّ المغيب وتتداخل الفصول والأزمنة والهويّات، لا شيء يمكن القيام به.

هبط المساء باكراً على جسدي هذا الصّباح! أجلس أنا وظلالي – لا شيء معيب – خلعنا جميعنا أقنعتنا عند الباب وأطفأنا التّلفاز بعد إلقاء نظرة عليه. دخّنّا سيجارة المساء الأولى احتفالاً بانتهاء الطقس الجنائزيّ اليوميّ المتكرّر وغمرنا الرماديُ، فانقطعنا عنه لندخل الحمّام.

عراةً دخلنا، في الحوض جلسنا وبعد سنين عدنا لعدّ البلاطات الملكيّة، وقد استغنينا عن نقوشها، وحوّلنا أدوات التّنظيف.

كبرت مملكتي. في وحدتي فتحت الباب، فصار البيت كلّه حمّاماً واستحممت حتى تعبت وإلى السرير توجّهت، ووجدتني هناك نائمة، أتقلّب بثبات وانتظام فكلّ شيء منتظم ودقيق. فها هو ظلّي ينام وظلّي الآخر يستحمّ. ها هي نسختي الكابوس منّي تنبئني بالجنازة الجديدة في الغد، وآخر منّي على الشّرفة تحلم هناك وحيدة... وأنا أحاول عبثاً إيقاف الورشة الأولى، أوّلاً، إلّا وهي إسكات المنبّه... يغتالني الرّمادي... كلّما أتاني، أدركت أنّني لست ميتة، كلّيّاً، هناك بعض العواطف، فأزيل عنّي كفني، وأتوجّه إلى أقنعتي أرتديها. بيروت لا أكرهك، ليس تماماً، ولكن أغادرك كي أزيل الأقنعة منّي تماماً، وأكون أنا حرّة لأنّك حقّاً عنيفة.

ملاحظة

كلّما وجدتني أتكلّم عن الوطن سمّيته بيروت، فالوطن هو المكان الذي تخلقه وتعيش فيه وليس بالضّرورة أن يكون المكان الذي قد خُلقت فيه.

وأنا على الكنبة أشعر أكثر بالانتماء إلى ذاتي هنا، مع الشبّاك الزجاجيّ، والشجر الأخضر من أمامي، قليل من الشمس وكثير من المطر، لا حلم ليلة صيف بل معطف تقتات منه أذى البشر.

يتبع

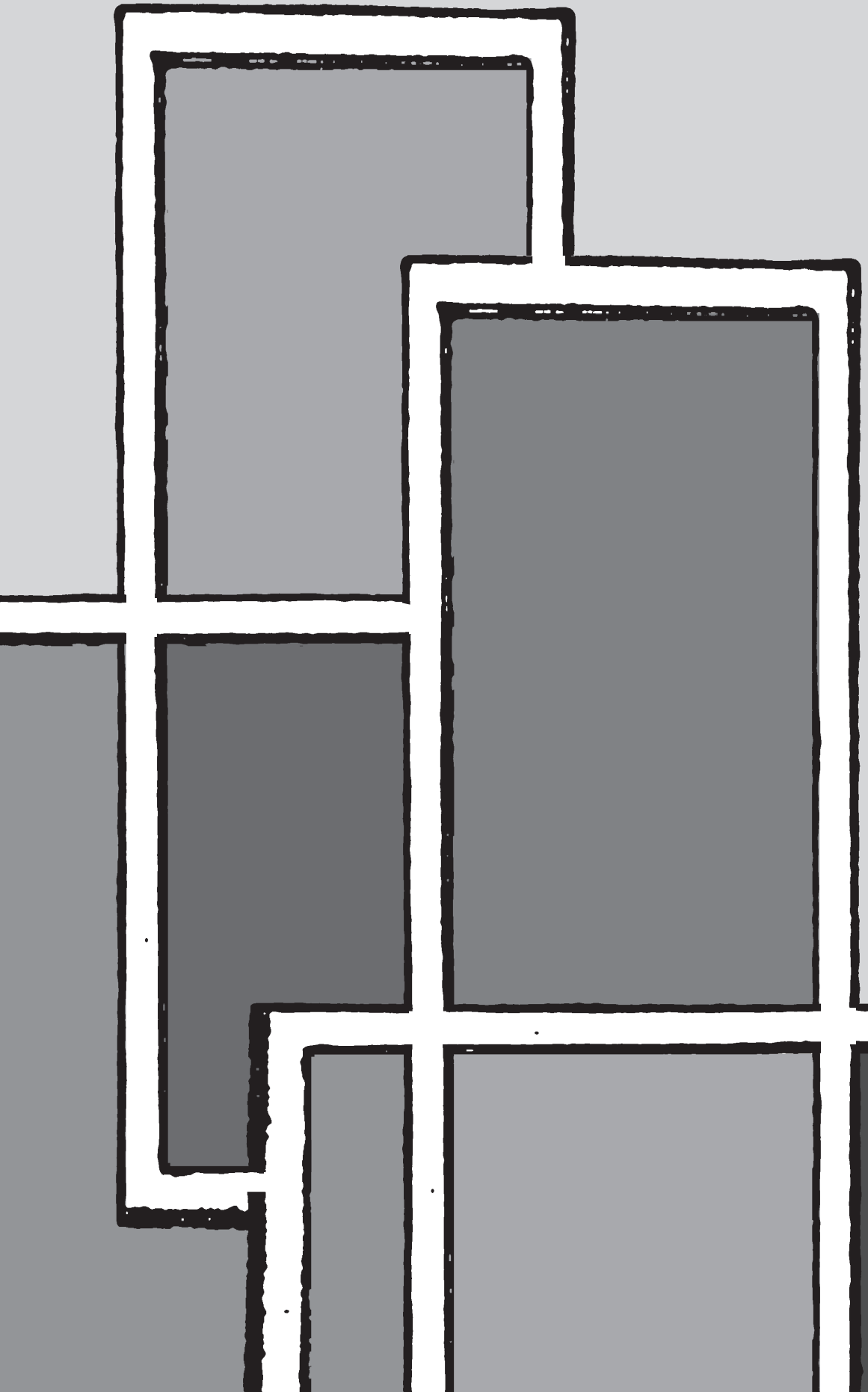

الحق في المدينة

٤٨ **نيمايير في لبنان لن أذهب إلى برازيليا**
جاد تابت

٥٢ **المعرض المحنّط**
جاد تابت

٥٨ **معرض ذاك البرازيلي**
ديما شريف

٦٢ **وداعاً اوسكار نيماير**
برّاق ريما

نيماير في لبنان
لن أذهب إلى برازيليا

جاد تابت

مهندس ومخطط مدنيّ، رئيس نقابة المهندسين، لبنان.

بيروت، في تمّوز / يوليو من العام ١٩٦٢. في ظلّ الحرارة الرّطبة آخر فترة بعد الظهر في فصل الصّيف، قصدت فندق سان جورج للقاء أوسكار نيماير ومرافقته إلى منزلنا الصيفي في بحمدون، وهي قرية صغيرة في الجبل اللبناني. كان نيماير قد وصل إلى مرفأ بيروت قبل بضعة أيّام بدعوةٍ من الحكومة اللبنانيّة بغرض وضْع مخطّط معرض طرابلس الدولي، وسارع إلى الاتصال بوالدي، وهو مهندسٌ معماريّ وشيوعيّ مثله، عملاً بنصيحة خورخي أمادو، صديقهما المشترك.

أخبرني بوّاب فندق سان جورج أنّ نيماير ليس في غرفته. بحثت عنه في صالات الفندق وعلى الشرفة المطلّة على الخليج، ووجدته أخيراً جالساً إلى المشرب، محاطاً بالنساء الجميلات. فاقتربت منه بخجل وعرّفته بنفسي.

«هذا أنت، ابن صديقي؟ عذراً سيّداتي، الواجب يناديني».

في سيارة «أولدزموبيل» كبيرة مع سائقٍ وضعها بتصرّفه «المجلس التنفيذي للمشاريع الكبرى» كنّا ننهب المسافات على الطّرقات الجبليّة. أمطرني نيماير بوابلٍ لا ينقطع من الأسئلة. فهو يودّ أن يعرف رأي الشبابِ اللبنانيّ بالثورة الكوبيّة، وباستقلال الجزائر الذي يتصدّر عناوين الصحف، وبالأخبار التي تتسرّب بشأن جون شتاينبك الذي سيترشح لنيل جائزة نوبل في الآداب لهذا العام مبدياً أسفه لأنه بعد كتابة «عناقيد الغضب» تحوّل هذا الأخير عن الكفاح السياسي للتّعاون مع لجنة الأنشطة المناهضة للولايات المتّحدة.

سألني عن مشاريعي فأخبرته أنّني نجحت للتّوّ في امتحان البكالوريا وأنّي، بعد كثيرٍ من التّردّد، اتّجهت إلى دراسة الهندسة المعماريّة.

ممتاز إذاً. ستأتي إلى برازيليا. لقد أسسنا للتوّ مدرسة جديدة للهندسة المعماريّة، كما أنّ اللغة البرتغاليّة سهلة جدّاً، وفي شتّى الأحوال، يتحدّث المهندسون البرازيليّون جميعهم اللغة الفرنسيّة.

قطب عمرانيّ يواجه طرابلس القديمة

على شرفة منزلنا الصيفيّ، تحدّث نيماير عن انطباعاته الأولى بشأن موقع المعرض: بساتين البرتقال التي تمتدّ إلى ما لا نهاية، والسّاحل الوحشيّ، والتّلال في البعيد. يريد أن يستولي على الموقع، ويسجّل حركة قويّة، ببناء قطب عمرانيّ جديد يضاهي المدينة القديمة التي

تحتضنها ضفاف النهر، عند سفح قلعة سان جيل. ينبغي أن يبتعد تصميم المعرض عن الكليشيهات المعتادة في هذا النّوع من المشاريع، حيث تكتسح المجال الأجنحة المختلفة ذات الجودة المعماريّة المتدنيّة، من أجل تدشين نموذج جديد من المعارض يتميّز بتغطية شاملة تُقيم في ظلّها مختلف الدّول مساحات عرض خاصّة بها. ويتّسِم هذا النّهج المعماريّ بالبساطة والانضباط في البناء.

في سياق الحديث، تذمّر من البرنامج الذي أعددناه له: اجتماعات لا تنتهي، ووجبات غداء رسميّة، كما عبّر عن رغبته في الهرب وزيارة ربوع لبنان: غابة الأرز، وجبيل، وبعلبك. اقترحت بخجل أن آرافقه في جولته، وأكون مُترجمَه. وافق والداي على الفور. وخلُص والدي إلى القول: «سيشغلك ذلك خلال هذا الصّيف ويجنّبك ارتكاب الكثير من الحماقات. أمّا بالنّسبة إلى برازيليا فسنرى. يمكنك الذّهاب إلى هناك في وقتٍ لاحق، ابتداءً من السّنة الثّالثة أو بعد نيلك الشّهادة، لكي تتخصّص».

أمطرني بوابل لا ينقطع من الأسئلة. فهو يود أن يعرف رأي الشباب اللبناني بالثورة الكوبية. وباستقلال الجزائر الذي يتصدر عناوين الصحف.

كنت أنتظر بفارغ الصّبر عُطل نهاية الأسبوع لأرافق ضيفي في جولته الاستكشافيّة في لبنان. وقد تأثّرت لدى اكتشافي أنّه في مذكّراته التي نُشرت عام ٢٠٠٥ احتفظ ببعض من تلك الذّكريات:

«أتذكّر بيروت حيث كنت أذهب خلال عطلات نهاية الأسبوع، مدينة لُقِبَت بأنّها «لؤلؤة البحر الأبيض المتوسّط»، الطّريق من طرابلس إلى بيروت، المدينة الصغيرة [جبيل] التي يُقال إنّها إحدى أقدم المدن في العالم، مع أطلال مسرحها الصغير بمحاذاة البحر، بعض الشوارع ما زالت موجودة، والمزهريّات الجنائزيّة هنا وهناك. هناك وقفنا بلا حراك، وتخيّلنا كيف كان أجدادنا يعيشون، حياة بدائيّة، لا حول لهم ولا قوّة، إنّما مع الرّغبات والقلق ذاتَيهما اللذين ما زالا يعصفان بنا».

«أحببت أيضاً ذلك الفندق في بيروت حيث مكثت، شرفته الواسعة التي تطلّ على البحر الأبيض المتوسّط، الأحاديث بين الأصدقاء، بشأن المسائل الحياتيّة والهندسة»[١].

١ Oscar Niemeyer, *My architecture 1937 - 2005*, Rio de Janeiro, Editora Revan, 2005, p.188.

لبنان قبل الفوضى العمرانيّة

عثرت على بعض الصّور لهذه المغامرات وأدركت أنّي كنت حينذاك مصوّراً رديئاً. مع ذلك، تجسّد هذه الصّور لبنانَ الذي لم يكن قد تشوّه بعدُ بفعل الفوضى العمرانيّة. وهو عالمٌ اختفى بالكامل. هو طريقٌ جبليّ في المتْن، صورة عن لبنان الذي لم يَطله بعد الزّحف العمرانيّ. منزلٌ قرويّ في شمال لبنان، عودة بالذّاكرة إلى عالمٍ اختفى.

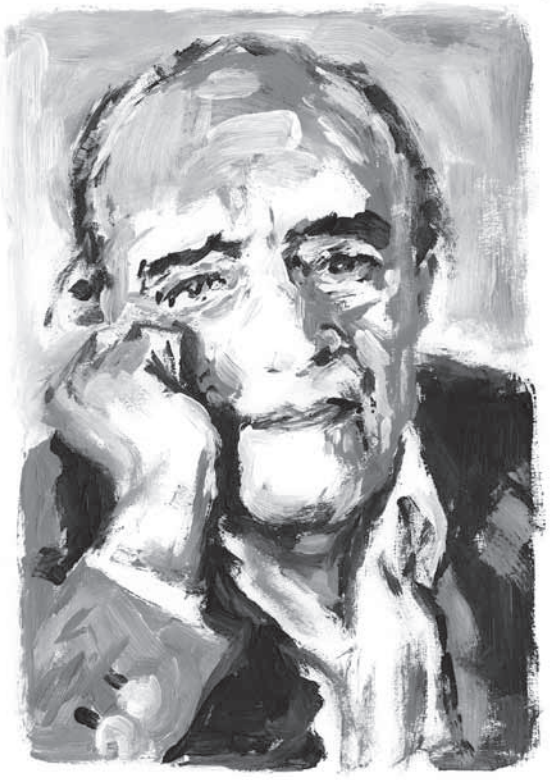

كنّا قد زرنا قصر بيت الدّين في الشُّوف مع والدَيّ. في الصّور التي احتفظتُ بها عن هذه الزّيارة، يظهر نيماير برفقة والدي. وُلِدَ كلاهما عام ١٩٠٧، بالتّالي كانا يبلغان من العمر خمسةً وخمسين عاماً. في حين يبدو والدي أكبر بعشر سنوات، نيماير أشبه بشابٍّ في الخامسة والثّلاثين من العمر.

يحدّثني نيماير عن برازيليا. يخبرني عن حلمه بمدينة جديدة تمزج بين مختلف المقاييس العمرانيّة: محورها الضخم، وميدان السّلطات الثّلاث، الذي يذكّر بعظمة الشّعب البرازيليّ، وأحياؤها السكنيّة، المنتشرة في المناطق الخضراء المكسوّة بالعشب، بمتاجرها، ومدارسها، وصالاتها الرياضيّة، ومسابحها. ويخبرني أيضاً عن خيبة أمله لرؤية الأحياء الفقيرة تنتشر حول المدينة وعدم القدرة على توفير مساكن لائقة للعمّال الفقراء في بلاده.

ويضيف أنّه لا بدّ من توخّي الحذَر في طرابلس لئلّا يُفسد الفهم الخاطئُ والجشع طبيعةَ المشروع فيفضي في نهاية المطاف إلى بناء أحياء سكنيّة بين المتنزّهات والحدائق، مُحاطة بالمدارس ودُور الحضانة والنّوادي ودُور السينما والكنائس والمساجد.

بيد أنّه وراء حماسة هذه الكلمات، استشعرتُ بمسحة من المرارة، يشوبها الشكّ، بشأن قدرة هذا المشروع الحداثيّ على إجراء تحوّلٍ حقيقيّ في المجتمع.

عام ١٩٦٤، أطاح انقلابٌ عسكريّ حكومة جواو غولار، الذي خلف جوسيلينو كوبيتشيك راعي نيماير والذي باشر بمغامرة برازيليا. وعلى الرّغم من مكانته كرمزٍ وطنيّ، تعرّض نيماير لضغوطٍ من الجيش، وتمّ إيقافُ مجلّة Mo'dulo التي يرأس تحريرها عن الصُّدور، كما أُحبِطَتْ مشاريعه بانتظام. كان عليه أن يغادر البرازيل إلى المنفى في «العالم القديم». وأقفلت مدرسة الهندسة الجديدة أبوابها.

بعد بضعة أشهر، توفّي والدي فجأةً. كنت في العشرين من عمري، وعلى قولة پول نيزان، «لن أدع أحداً يقول إنّه ربيع العمر».

لن أذهب إلى برازيليا.

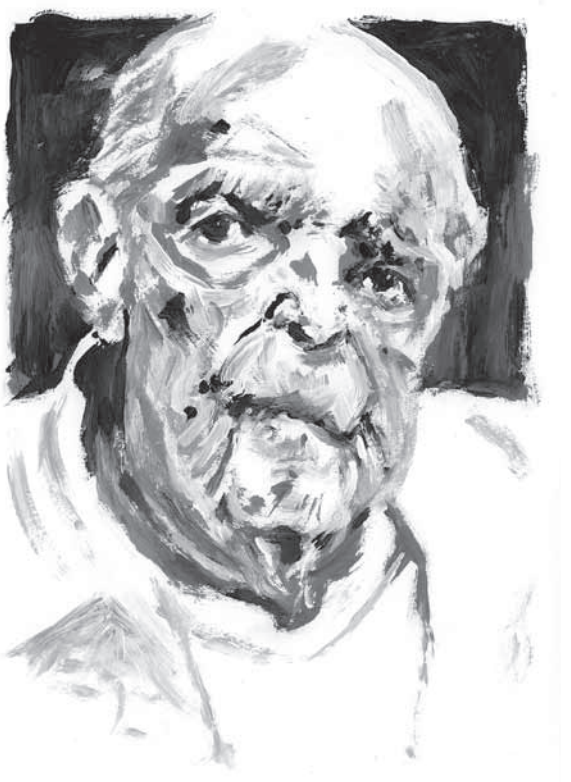

المعرض المحنّط

جاد تابت

عندما حطّ أوسكار نيماير رحاله في مرفأ بيروت في حزيران / يونيو ١٩٦٢، كان وهو في الخامسة والخمسين من عمره، المهندسَ الأشهر في برازيليا، العاصمة الجديدة التي غرسها الرئيس كوبيتشيك في وسط البلاد، على هضبة عاصفة، في قلب منطقة السافانا في البرازيل المعروفة باسم سيرادو. إلّا أنّ هذه السفرة تكتسي أهمّيّة خاصّة بالنّسبة إليه لأنّها المرّة الأولى التي يُعهَد فيها إليه عملٌ خارج نطاق القارّة الأميركيّة.

عندئذ، عرَفَ لبنان ما اتُّفِقَ على تسميته في ذلك الحين «عصره الذّهبي». عقب حربٍ أهليّة مصغّرة دامت بضعة أشهر حفزَتها النّزاعات بشأن سياسة لبنان العربيّة واختلال التّوازن بين مناطق البلاد، دُعي فؤاد شهاب، قائد الجيش، إلى رئاسة الجمهوريّة في خريف عام ١٩٥٨.

وفي سبيل إعادة بناء الوحدة الوطنيّة، أراد أن يستند إلى دولة معزّزة الصلاحيّات، وسعى إلى وضع سياسة تنمية اقتصاديّة واجتماعيّة للبلاد تنسجم أكثرَ مع التّوجّهات الكبرى في ذلك العصر. تستند هذه السياسة إلى الدّراسات التي أجْرتها هيئة فرنسيّة، معهد البحوث والتّدريب من أجل التّنمية (إيرفد)، بإشراف الأب لوبريه. وقد أنجز هذا الأخير، وهو عضو في الرهبنة الدومينيكانيّة، ووريث الكاثوليكيّة الاجتماعيّة، خلال السنوات التي أعقبت الحرب دراساتٍ عديدة حول وضع الأُسَر العاملة في فرنسا بينما كانَ يشارك في النّقاش بشأن تعريف سياسة تخطيط استخدام الأراضي. خلال الخمسينيّات، شارك في مشاريع إنمائيّة عدّة في أميركا اللاتينيّة وبخاصّةٍ في البرازيل. دعت السلطة الجديدة لوبريه إلى لبنان، حيث أجرى تحقيقاتٍ معمّقة كشفت عن حجم الفوارق الاجتماعيّة والإقليميّة التي فاقمتها التنمية «القاتلة» لبيروت. وقد أرفق استراتيجيّة قائمة على التخطيط الاقتصادي بهاجس تحقيق تنمية أكثر توازناً بين مختلف مناطق البلاد، من خلال تطوير شبكة من الوسائل التي تهدف إلى ترسيخ الأقطاب الإقليميّين.

نهاية الهيمنة البيروتية

وقد شكّل بناء معرضٍ دوليّ كبير في طرابلس، عاصمة لبنان الشّمالي، المشروعَ المنارةَ لهذه السياسة الجديدة. يقع هذا المشروع في أحد معاقل العروبة التي تنتفض عند سماع نداء الناصريّة المجاهدة وليس في بيروت، عاصمة البلاد التجاريّة، ويكتسي رمزيّة قويّة. على صورة المعارض الكبرى التي طبعت المشهد في العواصم الأوروبيّة الكبرى في نهاية القرن التاسع عشر وفي العقود الأولى من القرن العشرين، والتي تبرز القوّة الصناعيّة والطموحات الاستعماريّة للأمم في عهد الإمبرياليّة الظّافرة، تشهد حقبة الخمسينيّات على ازدهار المرافق الكبيرة المُسمّاة «المعارض الدوليّة» في عواصم الدول العربيّة التي استقلّت حديثاً، مثال معرض دمشق الدولي، الذي أقيم عام ١٩٥٥ على ضفاف نهر بردى، والذي يمتدّ على ١٠ هكتارات تقريباً عند مدخل المدينة الغربي، ومعرض بغداد الدولي، الذي أقيم بعد عام تقريباً والذي يشغل ٣٠ هكتاراً في قلب العاصمة العراقيّة.

يستند قرار إقامة معرضٍ دوليّ في طرابلس إلى رمزيّة مزدوجة تهدف من جهة إلى التّأكيد على دور لبنان المركزيّ في اقتصاد المنطقة، ومن جهة أخرى إلى إعلان نهاية عهد الهيمنة البيروتيّة وتوزيع ثمار النموّ على مناطق البلاد التي كانت مُهمَلة في السابق. وتبدو مساحة الأراضي الممتدّة على ٧٠ هكتاراً والتي اختيرت لإيواء هذا المعرض على قدر هذه الطموحات.

بعد أيّام قليلة من وصوله إلى لبنان، حطّ نيماير رحاله في طرابلس حيث أمضى شهراً بكامله في وضع

* النص من كتاب جاد تابت المعنون *Suspended Spaces 2*، باريس، عام ٢٠١٢

جوهر الأفكار التي تجسّد مشروع المعرض الدّولي. في مذكّراته التي نشرها بعد ٤٠ عاماً، يشرح نيماير المفاهيم التي أرشدتْه في مقاربته.

أوّلاً، يتعلّق الأمر بتسجيل المشروع ضمن مخطّط شامل لتوسّع المدينة العمرانيّ. في الستينيّات، اشتملتْ المدينة على نُواتَين عمرانيّتين تفصلهما بساتين ليمون شاسعة: وسط المدينة القديم (مدينة طرابلس)، الذي يتمحور حول القلعة الصليبيّة، وحيّ المرفأ (الميناء). يعبّر رسمٌ تخطيطيّ يعود على الأرجح إلى عام ١٩٦٢ عن رغبة نيماير في الاستفادة من الفُرص التي يقدّمها مشروع المعرض الدّولي بغية تشكيل نواة عمرانيّة ثالثة تضمّ مساكن ومتاجر فضلاً عن مرافق رياضيّة وترفيهيّة. ربّما تمثّلت فكرة المهندس في إعادة تشكيل الثلاثيّة العمرانيّة التي أعطت اسمها للمدينة: المدينة الثلاثيّة.

يجسّد رسمٌ تخطيطيّ ثانٍ أوضح النّهج العمرانيّ الذي ينظّم مجمل هذه التركيبة: يندرج المبنى الأساسيّ للمعرض، وهو عبارة عن قاعة ضخمة مسقوفة على شكل بومرانغ، ضمن إهليج (رسم بيضاوي الشّكل) يمرّ عبره الطّريق السّريع السّاحلي الذي يربط بيروت بشمال البلاد. بين المعرض والبحر، يوفّر المشروع نمواً عمرانيّاً يتألّف من «مشط» من القضبان يترك الآفاق مفتوحة على البحر.

إذاً آثر المشروع الذي سيُعتمَد أخيراً انقلاباً في اتجاه البومرانغ، الجزء المجَوَّف من القاعة وهو الآن منفتحٌ على المدينة لتشكيل درعٍ واقٍ من الرّياح الجنوبيّة الغربيّة، يبقى المفهوم المعماريّ الذي عرّف عنه نيماير واستعاده في مذكّراته على ما هو عليه: عوضاً عن التّماشي مع التّصنيف المعتاد للمعارض، الذي يمتاز بـ«تجاور الأجنحة المستقلّة ذات الجودة المعماريّة المتدنّية»، يعتزم المشروع تشكيل غطاءٍ ضخم على شكل بومرانغ يبلغ طوله ٧٥٠ متراً وعرضه ٧٠ متراً، تُقيم في ظلّه بحرّيّة مختلفُ الدّول مساحات عرضٍ خاصّة بها: تدشين نموذجٍ معماريّ يتميّز «بالبساطة والانضباط في البناء».

ينشأ مدخل مجمّع المعرض في الطّرف الجنوبيّ من البومرانغ: يقود دَرَجٌ شاسع إلى جِسرٍ مرتفع من حيث يستطيع الزوّار استكشاف مجمل التركيبة.

في الفُسحة التي نشأت من تجويف التقوّس، تُشكّل سلسلة من «الأشكال الهندسيّة البسيطة» بُنىً متجانسةً ومتوازيةً تربط الحدائق والمسطّحات المائيّة فيما بينها: «متحف لبنان»، بنية مربّعة الشكل مُحاطة بسلسلة من الأقواس المُدبَّبة، بإشارة واضحة إلى الأشكال التقليديّة

التي طبعت الهندسة المعماريّة اللبنانيّة، والمسرح التجريبي على شكل قبّة و«متحف الفضاء» مع مهبط الطّائرات، ويمكن الوصول إليه عن طريق جسر يحدّد المحور المركزيّ للقوس.

في الجزء الشّمالي، يقودُ دَرَجُ احتفالي إلى مُدَرَّج في الهواء الطّلق، تعلوه قوسٌ ضخمة للإشارة إليه. تتربّع في وسط التركيبة منحوتة-طوطم لمارتا بان.

في الطّرف الشمالي من البومرانغ، تنتهي التّركيبة بشريطٍ من المساكن التي يشغلها الموظفون. بالنّسبة إلى نيماير، يمثّل ذلك «درساً» حقيقيّاً في «الهندسة المعماريّة»: فالمساكن المُقتَرَحة «مثالٌ وتحذيرٌ من عدم فهم مشكلة الإسكان، ومن شأن عدم الفهم هذا أن يحُطّ من قيمة المساكن الجماعيّة ويحصرها بالفائدة العقاريّة البسيطة (...) في أحياء طرابلس الجديدة، ستُشيَّد هذه المساكن بين المتنزّهات والحدائق، مُحاطةً بالمدارس ودُور الحضانة والنّوادي ودُور السّينما والكنائس والمساجد».

المشروع الذي لم يكتمل

يُشار إلى أنّ مشروع نيماير يستعيد المبادئ التي اعتمدها في إنجازاته البرازيليّة الكبرى: بامبولا، وإبيرابويرا وبرازيليا طبعاً. ستسغرق محاولة ترجمة هذه المبادئ على الواقع اللبناني خمس سنوات. خمس سنوات من المفاوضات، والمعارك القضائيّة التي أفضت إلى مصادرة الأراضي، خمس سنوات من الدراسات، ووضع خطط التنفيذ، وإبرام الصفقات مع الشركات. ولا شكّ في أنّ بعض الانعكاسات السلبيّة ستترتّب عن المشروع الأساسيّ: لا بدّ من التخلّي عن طموح نيماير بتشكيل نواة عمرانيّة جديدة تنشأ بين المعرض والبحر. بعد إجراء مفاوضاتٍ مع أصحاب الأراضي، سينتقل الطريق السريع إلى موقع أقرب إلى الساحل عوض أن يمتدّ على طول أرض المعرض. لكن سيُصار إلى الإبقاء على مسار الإهليج، وهي لفتة رمزيّة كبيرة ترسم حدود المشروع، وتحدّد مساحةً شاسعةً من الأراضي تمتدّ على ٧٠ هكتاراً حيث سيُقام المجمّع الذي صمّمه نيماير.

بدأت أعمال البناء عام ١٩٦٧، واستمرّت ثماني سنوات ولم تُنجَز يوماً بكاملها. فمنذ عام ١٩٧٥، غاص لبنان في حربٍ أدمت البلاد طوال خمس عشرة سنة طويلة. تعاقبت الميليشيات التي تسيطر على المدينة على احتلال مباني المعرض. ويُقال إنه حتّى الجيش السّوري قد استخدمها لتخزين الذّخائر. بيد أنّه على الرّغم من أعمال النّهب والسّرقة التي أفرغتها تماماً، ظلّ هيكل هذه المباني سليماً تقريباً. واليوم، لا يشعر المتنزّه الذي يطوف في مساحة المعرض بأنّه أمام مشهدٍ من الأنقاض، أو بأنّه يجول في قفار المدينة، بل على العكس تماماً، فإنّ الأشكال المكشوفة معروضة بكلّ جماليّتها. ما من أثرٍ للرّصاص أو القذائف يُذكّر بأنّ هذا المكان قد تحوّل إلى قاعدة عسكريّة خلال سنيّ الحرب، تبدو الممرّات والحدائق مشذّبةً بعناية وبضعة أيّام فقط من المطر تكفي لتمتلئ المسطّحات المائيّة وتستعيد وظيفتها كمرآة حيث تنعكس أشكال المباني البيضاء.

أوَليس هذا التناقض هو ما يولّد سحر هذا المكان؟ توازنٌ غير مستقرّ، وجمود الصورة. كلّ شيءٍ هنا يكاد يكون مثاليّاً، تبدو الآلة جاهزةً للاستخدام، وتحديداً للغرض الذي صُمِّمَت من أجله في الأساس، لكنّ كلّ شيء توقّف، تجمَّد، وكأنّه جثّة مُحنَّطة. ذلك أنّ هذه الفسحة الشاسعة الفارغة في قلب المدينة، حيث تتلاصق المباني التي تعود إلى ثمانينيّات القرن الماضي وكأنّها على رقعة شطرنج، تبدو قديمة العهد تماماً في زمن الاقتصاد المركزيّ والربحيّة المُنصَّبة بوصفها المعيار الوحيد لكلّ تدخّلٍ عمرانيّ.

وإن بات من المستحيل اليوم تخيّل سيناريو سيعيد إلى الموقع وظيفته الأساسيّة، خلال السنوات الأخيرة، اقترحت مشاريع كثيرة إعادة إدراجه في الإطار المُدُنيّ «الطبيعيّ»، بغية تحويل هذه «المساحة التي تذهب هباءً» إلى مكانٍ «مُنتِج». في كلّ مرّة، اصطدمت مشاريعُ مثل بناء مدينةٍ ملاهٍ، تُسمّى بكلّ فخر «ديزني لاند الشّرق الأوسط»، أو إنشاء مركز توزيع ضخم للمنتجات الصينيّة على أسواق المنطقة، بمعارضة شرسة من قطاعاتٍ واسعة من المجتمع المدنيّ في لبنان، وفي نهاية المطاف انتهت إلى حائطٍ مسدود. هل يُعزى ذلك إلى أنّ هذا المكان اكتسب بسبب طابعه الاستثنائيّ، فضلاً عن تاريخه والذّاكرة المرتبطة به، شكلاً من أشكال القدسيّة يحميه من شهوات المضاربين كما من المنطق الاقتصاديّ الذي يهدف إلى «ترتيبه» من أجل تهميشه بشكلٍ أفضل؟

في كتاب L'empire des Signes، يأتي رولان بارت على ذكر مدينة طوكيو التي تدور حول مركز فارغ، يسكنه إمبراطور لا نراه أبداً، مركزٍ «لم يعد سوى فكرة قد تبخّرت، وما زال هنا لا لتشعّ منه بعض السلطة إنّما ليقدّم إلى الحركة العمرانيّة جمعاء دعم فراغه المركزيّ». هل تنبع القوّة العاطفيّة التي يثيرها فينا إهليج معرض طرابلس الدولي الفارغ من أنّ هذا الفراغ يبدو اليوم كإحدى هذه «المساحات القابلة للتحويل» التي يحدّثنا عنها بارت، والتي «أُفرِغَت من محتواها إلى غير رجعة» والتي تنشأ في «دلالة بحتة فظّة، فارغة كما لو أنّها تمثّل انقطاعاً في الزمن»؟

معرض ذاك البرازيلي

ديما شريف
صحافيّة، لبنان.

أخجل من الاعتراف اليوم، وأنا أتمّ عامي الثّامن والثّلاثين على هذه الأرض، بأنّني لم أزرْ يوماً معرض رشيد كرامي الدّولي كلّه. عشت ثماني وعشرين سنة من حياتي في طرابلس، على بعد خمس دقائق بالسّيارة من المعرض، ولم أجرؤ أو أفكّر سابقاً بزيارته كاملاً. تقتصر معرفتي به على القاعة الكبرى حيث يقام معرض سنويّ للكتاب، والباحة خارج هذه القاعة وجزء من الحدائق فيه.

منذ سنتين أو ثلاث، أعدُ نفسي شهريّاً بأنّني سأشارك في جولة سياحيّة تنظّمها صديقة طرابلسيّة لأرجاء المعرض، أو أنّني سأطلب من صديقتي المعماريّة الطرابلسيّة أن ترشدني فيه. لكنّني سرعان ما أنشغل وأؤجّل مشوار طرابلس بسبب عدم رغبتي بقضاء ساعتين على الطريق من بيروت إلى عاصمة الشّمال.

ورغم أنّني لا أعرف المعرض إلّا أنّه ظلّ يلاحقني لفترة طويلة. بقيت كوابيسي لسنوات تدور حول الأمر عينه: أنا محتجزة داخل معرض رشيد كرامي والأعشاب تنمو من حولي وأنا أصرخ ولا أحد يسمعني. استمرّ الأمر سنين لحين توقّفت عن المرور أمام المعرض، حين نقلني أهلي من مدرسة إلى أخرى كان طريقها مختلفاً.

لقد شكّل المعرض لي ولغيري من الطرابلسيّين مصدر خوف لسنين طويلة. فجيل الحرب الذي ولد في نهاية السبعينيّات وبداية الثمانينيّات تخرّج من المدرسة وانتقل إلى حياته الجامعيّة والعمليّة فيما كان المعرض لا يزال مغلقاً ومثيراً للخوف، والرّوايات والأساطير الشعبيّة حوله كثيرة. فبعد دخول قوّات الردع العربيّة إلى لبنان، «استقرّت» مجموعة من الجنود السوريّين فيه لسنوات عديدة، وكان دخوله ممنوعاً على العامّة. لذلك ارتبط المعرض في ذاكرتي وذاكرة الكثير من أبناء جيلي بنوع من الخوف والرّيبة.

لا تمّحى من ذاكرتي حين كنت في العاشرة وكان والدي يأخذنا مرّة في الأسبوع في فصل الرّبيع لركوب درّاجاتنا خارج المعرض في أرض اتّضَحَ لاحقاً أنّها مصمّمة لركن السّيارات. كان يفصلنا عن المعرض سور من الباطون فيه فراغات صغيرة. أذكر أنّنا كنّا نحاول استراق النّظر إلى داخل المعرض فنرى الجنود ونصاب بالرّعب، هذا إذا تمكنّا من رؤية أيّ شيء بسبب نموّ الأعشاب داخل هذه الفتحات. كنت حين نمرّ في السّيارة بتلك المنطقة أحاول عدم النّظر إلى جدران المعرض وأكرّر لنفسي «لا تخافي... لا تخافي... دقيقة ونعبر المكان»، خصوصاً أنّ الرّوايات التي كنّا نسمعها في المدرسة عن المعرض تتراوح ما بين «يقتلون النّاس ويدفنونهم بين الأعشاب»، «يعذّبون المساجين تحت القبّة الكبيرة» وغيرها من القصص التي نسجها الخيال الشّعبي عن الوجود السّوريّ في المعرض. وكنت قد أقنعت نفسي أنّ المباني المطلّة على المعرض فارغة من السكّان، فمن بكامل قواه العقليّة سيسكن في هذا المكان المخيف؟ لم أكن أعرف وقتها أنّ سعر الشّقق في «منطقة المعرض» خياليّ بالنّسبة إلى مستوى معيشة أهل المدينة آنذاك. لم أكن أعرف وقتها أنّ منطقة الأعشاب والجنود تلك هي تحفة معماريّة، ولم أكن بالطّبع قد سمعت باسم أوسكار نيماير.

توقّف والدي عن اصطحابنا إلى المعرض بعد فترة، وبات يفضّل أن نلعب على الكورنيش البحري لمدينة الميناء الأقرب إلى منزلنا. ولذلك نسيت المعرض وجنوده وأعشابه، ولاحقاً توقّفت حتّى عن اللعب على الكورنيش لأتفرّغ للدّراسة.

حين بلغت الثامنة عشرة من عمري وطلبت من أهلي تعليمي قيادة السّيارة كنت أعرف أنّ عليّ

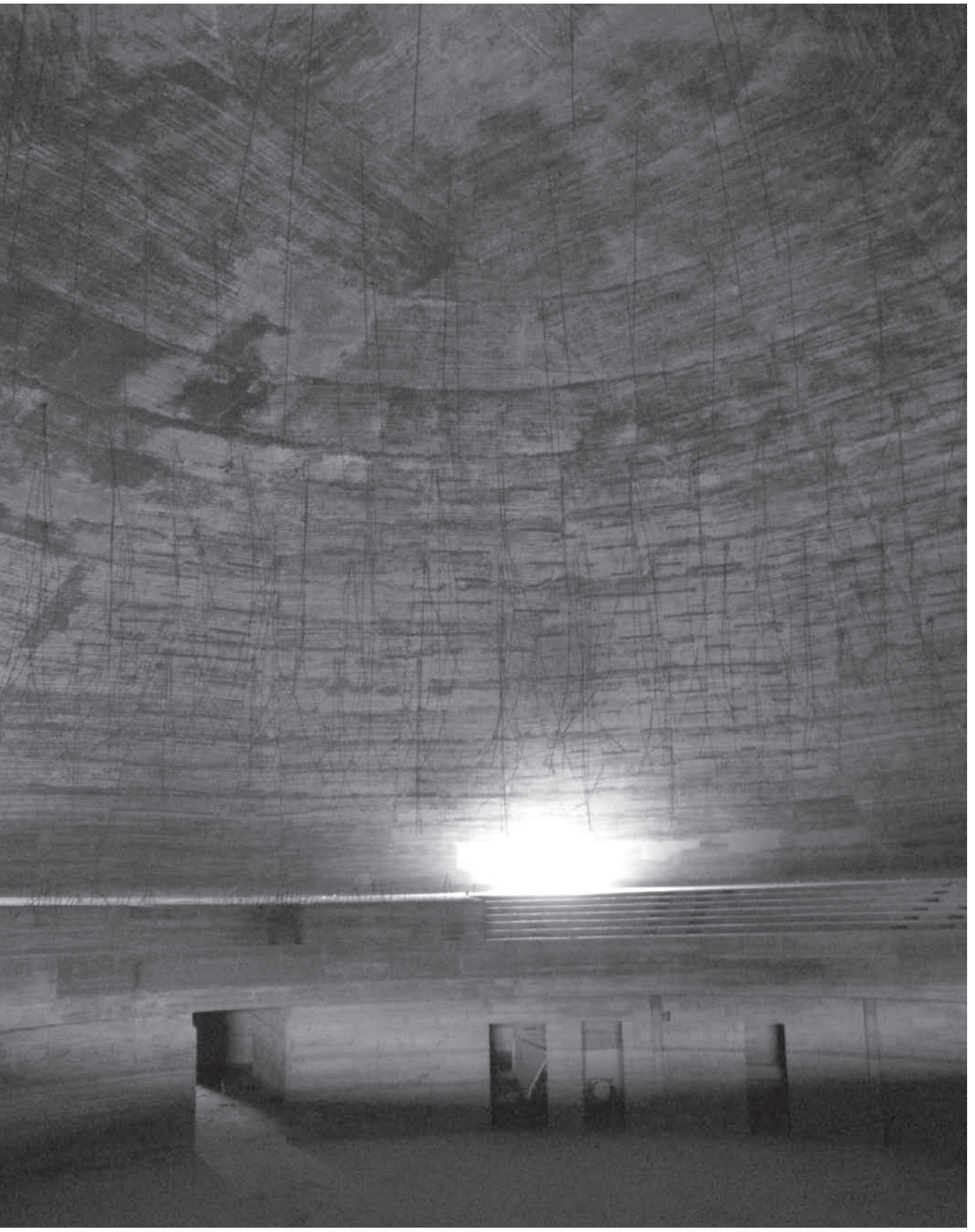

مواجهة خوفي من المعرض. فلمن لا يعرف، أماكن ركن السيّارات المحيطة بالمعرض هي لتعليم قيادة السيّارات لكلّ المراهقين الطّرابلسيّين. وكأنّ الأمر قانون أو مادّة في دستور غير مكتوب لعاصمة الشّمال. لا أعرف طرابلسيّاً أو طرابلسيّةً من جيلي أو أصغر لم يبدأ تعلّم قيادة سيارة في ذلك المكان. إذ تشكّل الأرصفة التي تفصل ما بين الأماكن المخصّصة لركن السيّارات الوسيلة الأفضل لتعليم كيفيّة القيادة بين الخطوط وفي أماكن ضيّقة وكيفيّة إعادة السيارة إلى الوراء. ذهبت إلى هناك بضع مرّات مع والدتي ووالدي، ومن شدّة خوفي من المكان أجزم أنّني في المرّات السّتّ أو السّبع تلك لم أفهم شيئاً من قيادة السّيارة. تطوّع حينها ابن عمّ والدتي لتعليمي القيادة في أمكنة أخرى من المدينة، عند السّادسة صباحاً أو في وقت متأخّر من الليل كي لا نصادف سيّارات أخرى، فنسيت معرض رشيد كرامي كليّاً حتّى سنتي الجامعيّة الثّانية.

درّاجة واستكشاف

اقترحت زميلتي في الدّراسة أن نذهب إلى معرض رشيد كرامي لنمارس رياضة ركوب الدرّاجات الهوائيّة. كدت أقع من الصّدمة. في بضع ثوانٍ تذكّرت الجنود والأعشاب والكوابيس. لم أفهم ماذا سنفعلُ هناك في هذا المكان المعزول والمخيف. شرحت لي أنّه بعد خروج الجنود السوريّين من المعرض بدأت جمعيّةٌ محلّيّة بتأجير الدّرّاجات الهوائيّة لمن يرغب بسعر زهيد، ويمكننا ركوبها في جزء من حدائق المعرض. رفضتُ رفضاً قاطعاً. واقترحت ممارسة رياضة المشي على الكورنيش البحري.

يلوم معظم الطرابلسيين سياسيي المدينة حين الحديث عن وضع المعرض الحالي. يعتقد أكثر المتفائلين بينهم أن هؤلاء لم يبذلوا أي جهد لحماية المعرض من محاربة «أهل بيروت» له. فيما المتشائمون يصرون على أن هؤلاء يريدون إبقاء المدينة «متأخرة» عن غيرها للإبقاء على يدهم على سكانها.

قد يكون أفضل ما فعلتْه صديقتي تلك أنّها لم تيأس وبقيت تصرّ حتّى قررتُ أن أسايرها وأنا أقول بيني وبين نفسي «اذهبي مرّة واحدة وتخلّصي من نقّها». أذكر تماماً أنّني كنت أرجف وأنا أقود سيّارتي الصّغيرة داخل موقف السيّارات قرب مدخل الحدائق في المعرض. وجدتُ صديقتي إيمان تنتظرني هناك وابتسامة تعلو وجهها مقابل اصفرار وجهي.

لم يطل الأمر حتّى أدمنتُ المكان. صرت آتي لوحدي حين لا تكون صديقتي قادرةً على ذلك. وبعد أن كنت ألحق أيّ مجموعة، ولو كانت من الأطفال، تركب الدّرّاجات كي لا أبقى لوحدي، بتّ أغامر في طرقٍ ومساراتٍ جديدة تعرّفت من خلالها على أجزاء كبيرة من المعرض، من دون أن أتجرّأ يوماً على دخول أيّ مُنشأة منه. كان المكان يشكّل متنفساً لي وللمئات غيري من سكان المدينة لقضاء وقت ممتع وممارسة الرياضة وسط تحفة معماريّة وحدائق جميلة. حفظْتُ اسم المهندس، وقبل عهد غوغل ذهبت إلى مكتبة الرابطة الثّقافيّة وبحثت عنه في الموسوعة وصُدمت حين علمت أنّ المعرض هو واحد من إنجازاته المتعدّدة في البرازيل موطنه وحول العالم.

في تلك الفترة قرّرتْ جمعيّة «الرّابطة الثّقافيّة» التي تنظّم معرضاً سنويّاً للكتاب منذ عشرات السّنين، القيام بذلك في القاعة الكبرى لمعرض رشيد كرامي. تحوّل المكان في بضع سنوات إلى مركز الحركة في المدينة، بعد أن أصبح يشهد تنظيم عدّة معارض سنويّاً. وبتنا نرى عدداً أكبر من العائلات مع أطفالهم في حدائقه، لكنّ المعرض لم يصل إلى قدرته القصوى من الاستخدام. إذ لا يعقل أن يقتصر أمر استخدام مليون متر مربّع من الأرض ومئة وعشرة آلاف متر مربّع من المنشآت على بضعة معارض وحفلات فنّيّة في الأعياد سنويّاً.

سخط شعبيّ

يلوم معظم الطرابلسيّين سياسيّي المدينة حين الحديث عن وضع المعرض الحاليّ. يعتقد أكثر المتفائلين بينهم أنّ هؤلاء السياسيّين لم يبذلوا أيّ جهد لحماية المعرض من محاربة «أهل بيروت» له، فيما المتشائمون يصرّون على أنّ هؤلاء يريدون إبقاء المدينة «متأخّرة» عن غيرها للإبقاء على يدهم على سكّانها، ولا يناسبهم تطوير المعرض أو أيّ منشآت أخرى. فالمعرض الذي انتهى العمل به في السّنة التي بدأت فيها الحرب الأهليّة، بقي ينتظر فرصته مع إعادة الإعمار في التسعينيّات، لكنّه لم يحصل عليها. يقول بعض العالمين بشؤون المعرض إنّ قرار إهمال المعرض مركزيّ، اتّخذته السّلطة السياسيّة في بيروت رغبةً منها بجلب الاستثمارات إلى بيروت وليس إلى طرابلس، والدّليل أنّه منذ خروج الجيش السوريّ منه

لم يشهد سوى بضعة معارض دوليّة فيما كانت بيروت تستقبل الكثير منها.

إذا كان السياسيّون المحليّون كما يقال مختلفين فيما بينهم على من يدير المعرض أو يجعله «من حصّته»، أو سياسيّو بيروت هم من يقف عائقاً أمام تطويره لكونه يقع ضمن سلطة وزارتَي المال والاقتصاد، فلا شكّ أنّ المعرض يشكّل فرصة ضائعة للمدينة ليكون لها مرفقها الهامّ الذي سيقوم بالتأثير على كافّة القطاعات الاقتصاديّة في حال تطويره.

كيف سينجح مشروع في مدينة تشهد معارك موسمية بين سكانها في مناطق منها، ويتم شيطنتها في الإعلام ويمتنع حتى لبنانيون من مناطق أخرى عن زيارتها؟

لكنّ الأمر ليس بهذه السّهولة، فالمعرض بعد خروج الجيش السوريّ منه كان قد بقي حوالي عشرين سنة من دون أيّ عمليّة تأهيل أو صيانة. ويقول عالمون بشؤونه إنّ حالته نهاية التسعينيّات من القرن الماضي كانت مأساوية، إذ لم يبق فيه أيّ بلاط أو مغاسل أو إضاءة إلى جانب تدهور وضع المنشآت.

يضاف إلى ذلك أنّ فكرة المعارض الدائمة أصبحت مع الألفيّة الجديدة فكرة قديمة. يقول المهندس المعماريّ وسيم ناغي الذي يعمل ويعيش في طرابلس، إنّ التحوّل أصبح لإقامة معارض تخصّصيّة متنقّلة أو موسميّة، ولم يعد هناك حاجة إلى معرض دائم مع التطوّر التقنيّ ووصولنا إلى ما يسمّى القرية العالميّة. وقد أثّر هذا على أهمّيّة المعرض. يضيف ناغي أنّه حين تمّ بناء المعرض كان خطّ سكّة الحديد بين طرابلس وبيروت يعمل ومطار القليعات أيضاً، ومرفأ طرابلس في عصره الذهبيّ، وبالتّالي كانت المدينة عاصمة ثانية حقيقيّة. لكنّ الوضع تغيّر جذريّاً بعد التسعينيّات من القرن الماضي. زاد إهمال مدينة طرابلس وزادت المركزيّة. أكثر من ذلك، تفتقر المدينة للبنى التحتيّة التي تساعد المعرض على لعب دوره. كذلك فإنّ طريقة تنظيم مجلس إدارة المعرض محكومة بتوافقات سياسيّة، ما يجعل العمل من أجل تطوير المعرض صعباً، إضافة إلى اقتصار الأمر على أقلّ من عشرين شخصاً ما بين مجلس إدارة وموظّفين يُديرون هذا المرفق الكبير، مع شكوك حول كفاءة بعضهم في القيام بذلك.

يحلم سكّان طرابلس بآلاف فرص العمل التي ستحظى بها المدينة في حال أصبح معرضاً دائماً كما كان مقرراً له. في السّنوات الماضية قامت، وفق ناغي، شركات عدّة بالتفكير في الاستثمار في المعرض بمشاريع مختلفة، لكنّ الأمر توقّف حين وصلت الأمور إلى الجدوى الاقتصاديّة من هذا الاستثمار: كيف سينجح مشروع في مدينة تشهد معارك موسميّة بين سكّانها في مناطق منها، ويتمّ شيطنتها في الإعلام ويمتنع حتّى لبنانيّون من مناطق أخرى عن زيارتها؟ لا يمكن للمشاريع أن تعيش وتستمرّ اعتماداً فقط على أهل المدينة، ووقف ذلك عائقاً أمام أيّ مشروع جدّيّ. أكثر من ذلك، تفتقر المدينة لأبسط مقوّمات إقامة مشروع دائم: بنىً تحتيّة، مواصلات عامّة، فنادق... إلخ.

يقول ناغي الذي يحمل همّ المعرض منذ سنوات ويجول به حول العالم في المعارض الهندسيّة والمعماريّة والثقافيّة والذي أصبح من دون شكّ الخبير الطرابلسيّ الأوّل بالمعرض، يقول إنّ أيّ تفكير باستثمار مستقبليّ للمعرض يجب أن يراعي أموراً عدّة، منها أن يكون مساحة مفتوحة وحيّزاً عامّاً لسكّان المدينة مع الحفاظ على القيمة الثقافيّة للمعرض، وإمكانيّة استثمار أربعمئة ألف متر مربّع منه في منشآت جديدة. كذلك يتمنّى ناغي تسجيله ضمن التّراث اللبنانيّ والعالميّ لحمايته. كما يناشد المعماريّ السّلطات المسؤولة عن المعرض وضع خطّة للحفاظ على منشآته. ويتطلّب ذلك القيام بتدعيم كلّ الأبنية التي بدأت بعض التصدّعات تظهر عليها.

حين تمّ بناء المعرض في الستّينيّات كانت التقديرات تشير إلى أنّه سيخلق أربعة آلاف فرصة عمل لمدينة طرابلس. اختلف الرّقم اليوم من دون شكّ، لكنّ مهما يكن حجم التوقّعات فهو سيساعد المدينة، التي تقول بعض الدراسات إنّها من بين الأفقر في المتوسّط، على البدء بالخروج من كبوتها الاقتصاديّة.

أتذكّر وأنا أقود سيّارتي حول المعرض قبل العودة إلى بيروت مع انتهاء يومين من العطلة قضيتهما في طرابلس، ما قاله لي أحدهم منذ بضع سنوات: «ربّما حين يتمّ استثمار المعرض تعودين أنت وآلاف الطرابلسيّين الذين هجروا المدينة إليها، وتجدين فرصة عمل هنا». أفكّر كم أنّ هذه المدينة مظلومة ومنسيّة ومهملة حتّى بات خلاصها وأملها في الازدهار الاقتصاديّ معلّقاً بتحفة معماريّة لمهندسٍ برازيليّ اسمه بقي أغلب سكّانها، وأنا منهم، سنوات طويلة حتىّ حفظناه.

وداعاً اوسكار نيماير

في احدى الزيارات ...
طرابلس
سنة ١٩٧٣
كيفك يا جارة ؟
الحمدلله
شو عملتي اليوم يا زينب ؟
رحت كزدورة مع ابني ع المعرض
الورشة "تقريباً" خلصت
ماما
دادادا
نانانا
تاتا
حلو
حلو!
ماشاء الله!
مشروع المعرض نتيجة رغبة الدولة بالدخول الى الحداثة ...
يخزي العين
يخزي العين
و تطوير القطاع العام
صدى للطبيعة
عزيزي اوسكار تطويع الباطون لا حدود له!
انثى متلويّة ميساء
تا تا تا تا تا
تا
؟

بنى نيمايير مشروعه
بين سنة ١٩٦٤ و سنة ١٩٧٤
على مساحة بيضاويّة الشكل
تحتوي على صالة واحدة كبرى
بشكل قوس بالإضافة الى
مجموعةٍ من المباني ذي
الأهداف الفنيّة أو العامّة
تحيط بها المياه و الحدائق
المسرح التجريبي
مهبط الهيليكوبتر
البيت اللبناني
مسرح
الهواء الطلق
مبنى السكن التجريبي
برج المياه
و المطعم البانوراما
كان على وشك الإنتهاء
عند اندلاع الحرب
سنة ١٩٧٥
و توقفت الأعمال

ثم نزل فيه الجيش السوري
وحوّل هياكل مبانيه
الى ثكنة"
حتّى بداية التسعينات
حيث افتُتح غير كاملاً"
وجرت فيه بعض النشاطات
حافظ الاسد
تم تحويل مبنى السكن التجريبي الى فندق
و تشويه هندسته الأصليّة
سنة ٢٠٠٤ أعلنت غرفة الصناعة و التجارة عن مشروعها تحويل المعرض الى
« قرية سياحيّة كفيلة باستقطاب
ملايين الزوّار »
سنة ٢٠٠٦ حُكي عن مشروع آخر لتحويله
الى مركز اقليمي لتوزيع البضائع الصينيّة

في احدى الزيارات
طرابلس
سنة ٢٠١٢
كيفك يا جارة ؟
الله يعين
رحتلّك كزدورة عَ المعرض
حلو
كمان المشروع الصيني فشل
خي!
بس سجّلو المعرض على "قائمة الروائع الهندسيّة" الأكثر عرضة للتهديد
ي ي! يا عيب الشوم
فقد الباطون شاعريّته
دخلت الدولة الى الجاهليّة وتكلّمت لغة الخصخصة
وعادت لغة الموت و المدافع
بوم
تا تا تا تا تا تا تا تا
توفي اوسكار نيماير بعيداً بينما كانت طرابلس تتقاتل وتدفن موتاها سنة ٢٠١٢
ها ها ها ها ها ها ها ها ها ها ها
دخلك ؟ شو حَ يعملوا فيه هَ المعرض ؟
براق ريما

ملف

رمزي حيدر: عين في الحروب

٦٨ رمزي حيدر ومصوّرو الحروب
أو انتزاع الحقّ في الحياة
زهير هوّاري

رمزي حيدر ومصوّرو الحروب
أو انتزاع الحقّ في الحياة

رمزي حيدر

مصوّر ومؤسس «دار المصوّر»، لبنان. عمل في مجلة «بيروت المساء»، ووكالتي رويتر والصحافة الفرنسية. غطى الحرب اللبنانية والاعتداءات الاسرائيلية والحرب على العراق وعلى دارفور والالعاب الاولمبية. رئيس اتحاد المصورين العرب، فرع لبنان، حائز على عدة جوائز عالمية، منها جائزة مراسلي الحروب، وجائزة مجلة نيوزويك.

زهير هوّاري

صحافي وجامعي، المدير المسؤول لمجلة «بيروت المساء»، من اعماله «تاريخ من لا تاريخ لهم» ٢٠١٣، و«مشاهد من التعليم في العهدين العثماني والفرنسي»، ٢٠١٥.

إلى رمزي حيدر، شاهداً حيّاً،
إلى إلياس الجوهري وخليل الدهيني شهيدين

كان الذّهاب إلى العمل أشبه ما يكون بالذّهاب لتنفيذ مهمّة بالغة الخطورة، إن لم نقل إنّها شبه انتحاريّة. كان الزملاء المصوّرون كعادتهم في «بوز البندقيّة» أو مرمى القنّاصة، أكثر منّا نحن الصحافيّين، الذين كنّا نكتب مجريات ووقائع تلك الأيّام العاصفة. كان عليهم أن يصوّروا الحرب الأهليّة بعدساتهم في لحظات انفجارها الفارقة. أما نحن الصحافيين فكان علينا أن نكتب بأقلامنا عن المعارك والشهداء والجرحى وعذابات النّاس. كنّا نعمد إلى الاتّصال الهاتفيّ متى توافرت الخطوط ، أو نذهب إلى غرف العمليّات ونسأل عن تفاصيل المعارك التي تدور بين الأحياء والبيوت ونتائجها. وكنّا نلتقي المقاتلين قرب خطوط التّماس الملتهبة، نستعلم منهم ما يجب علينا أن ندوِّنَه ونخرج به على القرّاء، ونتحدّث إلى النّاس عن معاناتهم مع فقدان الأمن والرغيف وحبّة الدّواء.

وللوصول إلى خطوط الجبهة يجب علينا أن نسلك في معارج الأزقّة، ونعبر الثغرات التي فتحتها سواعد المقاتلين في الجدران لتلافي عبور الطّرقات والمناطق المكشوفة على خطوط باتت معبراً للرّصاص والنار. أمّا المصوّرون فقد كان وضعهم دوماً أكثر حرجاً. كان عليهم أن يكونوا في مرمى البنادق ليلتقطوا لحظة الانفجار كي يُخلّدوا دقائقها بعدَساتهم، بينما أيديهم يجب أن تكون ثابتة وغير مرتعشة. كان عليهم ضبْط حركات المقاتلين وهم في لحظات الاشتباك المباشر، يطلقون نيران رشّاشاتهم وقاذفاتهم الصّاروخيّة وهم يتحرّكون بين زخّات اللهيب. أو رصْد الحرب اليوميّة والجموع والأفراد المدنيّين الذين تشاء ظروفهم العاثرة أن يتنقّلوا بين المعابر، أو يقصدوا هذا المكان أو ذاك، لا يقيهم من الرّصاص المتطاير سواء أطلقه القنّاصة أو سواهم سوى ثيابهم، قتلى في الشّوارع والسّاحات والأزقّة وجرحى ينزفون، وأنقاض مبانٍ عَصَفتْ بها الانفجارات وقذائف المدافع.

الياس الجوهري هو البداية

وسط معمعة من هذا النّوع، كان الزّملاء يتساقطون كما فراشات علىً ضوء انفجار القذائف. كان الياس الجوهري هو البداية. سقط هذا الفتى القادم من الهرمل خلال حصار مخيّم تلّ الزّعتر ثمّ كرّت السّبحة: عبد الرّزّاق السّيّد في انفجار لغم في الوسط التجاريّ بين جولات القتال، حبيب ضيا، عدنان كركي، جورج سميرجيان، والرّفيق العزيز خليل الدهَيْني الذي ظنّت القوى النظاميّة خلال حرب الإلغاء بين «مقاتلي الخندق الواحد» عندما صوَّب كاميرته، أنّه يوجّه قاذفاً نحوهم فأردوه شهيداً بعد أن غادرنا منذ وقت قصير. لكلٍّ من الذين سقطوا حكاية تروِيها دموع الأهل والأحبّة وصورهم المعلّقة على جدران القلوب والبيوت.

كان السؤال الذي يراودني كمدير تحرير لمجلة «الحرّيّة» و«بيروت المساء» عندما أطلب من زميل مصوّر الذهاب للتّصوير هو: هل أنا أرسله إلى حتْفه حيث يلقى مصيره المحتوم؟ كان الياس الجوهري سبباً في تَركي العمل في واحدة من الصّحف اليوميّة الأولى التي عملْت فيها. إدارة التحرير تلح عليه أن يذهب وحدْسي ينبئني أنّه لن يعود وفي جعبته مجموعة من صور حصار المخيّم. وقفنا متواجهين: يذهب أو لا يذهب. والياس بيننا لا يعرف ماذا يفعل؟ بالطبْع انتصر قرار الإدارة على هواجسي وعلى موقعي المبتدئ في الجريدة. فكان أن ذهب الياس الشيعي من الهرمل، والذي لم يحْمه التباسُ اسمه، ولم

يعُدْ. ظللنا أيّاماً ثلاثة نعمل على سحب جثّته بواسطة الصّليب الأحمر اللبناني. وفي اليوم الرّابع نجحْنا فرافقْناه إلى الهرمل ثم شيّعْناه.

في اليوم نفسه، غادرْت مكتبي ولم أرجع ثانية إلى العمل. أعرف أن لكل منا أسرةً ستنقلب حياتها رأساً على عقب متى حلت الكارثة. كدت أحياناً كثيرة أن أصرخ في وجه الحرب والمهنة التي تتطلب منّا جميعاً أن نكون دوماً حيث لا يجرؤ الآخرون. وسط زخّات الرّصاص يبحث كلٌ عن مكان يحتمي فيه. المقاتلون بمتاريسهم وأسلحتهم. معظم النّاس يأوون إلى بيوتهم، يتقوقعون في الزّوايا والغرَف الداخليّة وحتى الحمّامات الضيّقة، بانتظار أن يتوقّف عصفُ القصف، الموت، وتبادل نار الأسلحة الخفيفة والثقيلة. كنّا الوحيدين الذين عليهم المغامرة بالنّزول إلى ميادين الحرائق. ودوماً، كان المصوّر هو الأقرب منّا جميعاً إلى لحظة الموت. من منّا عاش، عاش بفعل المصادفة والحظّ لا أكثر ولا أقلّ. كم مرّة عبرَت القذيفة والرّصاصة على بُعد شعرة من رؤوسنا وأجسادنا. لا أدري كم هي المرّات التي نجا فيها رمزي وعبّاس وجمال وأحمد ونبيل وعلي وهاني وميشال وزهير وبلال وباقي الزملاء.

أخبرني رمزي أنه ينوي تصوير الوسط قبل أن تصل الجرافات. وتبدأ أعمال الهدم وتغيير المعالم التي نعرف كأبناء جيل ذهب إلى دور السينما في ساحة البرج فشاهد أفلاما غرامية وحربية. وتغدى في مطاعمه الشعبية من مطعم فلسطين إلى فلافل فريحة وسواهما.

لا لم ينجُ الجميع كما يتوهّم القارئ، حتى الذين سلِموا، معظمهم يحمل الجراح وشماً في ذاكرته وعلى جسده. والجميع يختزنون الحرب في مسامهم وأرواحهم. مقيمة معهم هي، أو هم مقيمون معها. لا هي تُبارحهم ولا هم يستطيعون الرّحيل بعيداً عنها. ودَوماً الحروب تترك بصماتها على النّفوس والنّاس والأشياء. وهؤلاء الزّملاء كانوا يحملونها معهم، تعويذة معلّقة في رقابهم لا تقيهم شرّ العيون الحاسدة ولا الأرواح الشرّيرة. إنما تضعهم دوماً في عين العاصفة أو قلبها، عاصفة الذّاكرة التي تطالعهم كما تطالعني، وجوه أحبّة ورفاق وأصدقاء عبَرَت الحرب والسيّارات المفخّخة على أجسادهم فقصفت أحلامَهم وربيع شبابهم.

كنيسة الأرمن قبل أن تصل الجرّافات

كانت المرّة الأخيرة التي رافقتُ فيها رمزي حيدر للتّصوير عشيّة وقف الحرب الأهليّة في أعقاب التوقيع على اتفاقيّة الطائف. يومها هدأت المدافع بعد أن حدث ما حدث في جبهات سوق الغرب، وصولاً إلى سيطرة القوّات السوريّة على بعبْدا واجتياح محيطها، واضطرار العماد ميشال عون إلى مغادرة «قصر الشعب» واللجوء إلى السّفارة الفرنسيّة. راج الحديث في تلك الأثناء عن مخطّط لإعادة إعمار الوسط التجاريّ في بيروت. ومعه ارتفع صخَب الجدل حول هذا المخطّط الذي وضعه فريق المهندسين الذين كلّفهم الرئيس رفيق الحريري إعداده. لكنّ شيئاً لم يحدث بعدُ على الأرض. كلّ ما شاع ليس أكثر من خرائط على طاولات المهندسين، استلزمَتْ قدْراً كبيراً من المعارضة باعتبار أنّ ضحيّتها ستكون روح المدينة ونسغها وناسها من كلّ الطّبقات والمهَن والحرَف والمناطق.

أخبرني رمزي أنّه ينوي تصوير الوسط قبل أن تصل الجرّافات، وتبدأ أعمال الهدم وتغيير المعالم التي نعرف كأبناء جيل ذهب إلى دُور السّينما في ساحة البرج فشاهد أفلاماً غراميّة وحربية، وتغدّى في مطاعمه الشعبيّة من مطعم فلسطين إلى فلافل فريحة وسواهما. ونزل من القرية بالبوسطة ثمّ عبر على قدميه الصّغيرتين ساحتَي الشهداء ورياض الصّلح حتى وصل إلى موقف السرفيس في بناية العسَيلي، قاصداً مدرسته الداخليّة، ودفع للوصول إليها خمسة عشر قرشاً، ثمّ ربع ليرة بعد أن ارتفعت الأجرة. وقال لي رمزي إنّه نزل أكثر من مرّة ولم يهْتد، لهَول المشهد، إلى ما يستحقّ ويجب تصويره من عدمه. تحمّسْت للفكرة. كان الوسط التجاريّ ما زال هو هو كما تركتْه الحرب في آخر أيّامها. منظره العام يجعله أشبه ما يكون بغابةٍ أو حرج يحتفظ بأسرارٍ لا نعلمها. أسرار قد تودي بالمغامرين باختراق حرمته كمسرح حرب إلى التهلكة. لا شيء ممّا نراه يتقاطع مع ما نعرفه عنها خلال سنوات الحرب. المكان هادئ. هدوء أكثر رعباً من منوّعات الحرب. حجارة المنازل والمباني، ومعها أعمدة الكهرباء صدئة وملقاة بين أعشاب عالية، وهشير وشجيرات، مجارير تلقي محتوياتها على بقايا الأسفلت، حيوانات شاردة وقوارض تتقافز هنا وهناك. مبانٍ مبقورة الوجوه والواجهات والمداخل، إطاراتُ أبوابٍ مفقودة باستثناء ما يتعذّر نزعه من موقعه الأصليّ، نوافذ مخلّعة فقدت مساحتها ما سبق أن تمتّعتْ به كعيون للداخل على الشارع. متاريسُ رمل أو إسمنت متراكم

داخل الأبنية وعلى زوايا الشوارع، لم تبرح مكانها بعد، لا تزال تفتح فوّهاتها على تقاطعاتٍ وشوارعَ، وأكوام من خراطيش فارغة قرب ما كانتْ مرابضَ للأسلحة. هذا متراسنا وذاك متراسهم. متراسان متقابلان لكنْ كلاهما صدئان وصامتان الآن. وشظايا في كلّ مسام جسدِ ما تبقّى من المدينة أو البلد. لم يكن أحد قد سبقنا في جولات مماثلة إلى المكان بعد، بمن فيهم مَن كانوا يملكون المكان، سواء كانت ملكيّاتهم عقارات وشركات تجاريّة، أو بسطات ومحالّ محترفات صغيرة في الأسواق المدمّرة التي غرقت وسط أكوام العشب البرّيّ. ولم تكن فرَق نزع الألغام قد وطئت بالآت الاستشعار أرضَ المكان. كان هذا النّزول أشبه ما يكون بمغامرة جَسور وغير محسوبة. أيّ دعسة كاملة أو ناقصة، أو زلّة قدم أو عبور أهوج إلى مبنى مفخّخ كان من شأنه أن يكلّفنا حياتنا. مع ذلك نزلنا في جولات استطلاع قبل الشّروع في التصوير. أخبرْتُه أنّ علينا أن نصوِّر بيروت التي ستختفي قريباً. لكنّ السؤال الذي كان يراودني هو: ما هي هذه البيروت التي ستختفي عن أنظار عارفيها في القريب العاجل، لا سيما أنّنا لم نعلم طبيعة المخطّط وتفاصيله، وإن كنّا نعلم أنّ هذه البيروت ستنقلب رأساً على عقب، وأنّ ما ستعرفه يشابه ذلك الزّلزال الذي حدث خلال العهد الرّومانيّ الذي دمّر منشآتها، وأحال كلّيّتها للقانون أثراً بعد عَيْن. اقترحتُ عليه أن نكتفي بتصوير النّوافذ الباقية والمباني القديمة التي هتكتْ تناسقَها الحرب بما فيها من أعمال حفر وكرانيش وواجهات وبوّابات بيوت من الخشب أو الحديد المشغول أبدعتْها أيدي معماريّي وحرفيّي أجيال ومراحل سابقة.

ما هي هذه البيروت التي ستختفي عن أنظار عارفيها في القريب العاجل. لا سيما أننا لم نعلم طبيعة المخطط وتفاصيله. وإن كنا نعلم أن هذه البيروت ستنقلب رأسا على عقب.

عندما سألتُ أحد الأشخاص الذين عثرنا عليهم في المكان، هل يمكننا الوصول إلى كنيسة الأرمن في ساحة الدبّاس؟ كنت أسأله وأنا أنظر إلى المبنى، بينما رمزي يجوب بناظرَيه محيط المشهد باحثاً عمّا يشبع فضول عدسة الكاميرا... يؤكّد مجيباً على سؤالي أنّ لا مشكلة تعترض عبورنا ودخولنا إلى المبنى لتفقّده. المسافة التي يجب اجتيازها تتراوح بين أربعين إلى خمسين متراً، علينا اجتيازها للوصول إلى المبنى. مسافة ليست طريقاً ولا درباً قادومية. مجرّد مسافة قصيرة بين الشجيرات المتشابكة. كنّا قد انتهينا من تصوير المنطقة الممتدّة بين مقهى الحاج داود وساحة الدبّاس بما فيه جوامع المجيديّة والعمّري والأمير منصور عسّاف وكنيستا مار جرجس للموارنة المقابلة لمبنى اللعازاريّة، والروم الأرثوذكس المقابلة لمبنى الساعة والبرلمان. كنت أخمّن أن كنيسة الأرمن البيضاء المتوّجة بالقرميد ستكون عامرة بلوحات القدّيسين الذين ينظرون إلينا بدهشة نحن الدّاخلين إلى الكنيسة بغتة بعد سنوات من غياب المؤمنين عن الحضور. قدّيسون بألوان الأسود والأحمر والذّهبي يرفلون بالصّمت وسط مَشْحات من الدّخان. كنتُ قد حدّدت في ذهني صوراً قد لا يكون لها من وجود أصلاً. إذ من الممكن أن تكون الكنيسة قد احترقت بالكامل، وأنّ السّخام الأسود يغطّي الجدران، والمذبح متهدّم والمقاعد الخشبيّة عبارة عن مجرّد قطع محترقة كلّياً أو جزئياً، والمباخر ومعها كلّ أدوات الطّقوس الكنسيّة الفضّيّة قد نُهبت، وثياب الكهنة المذهّبة قد التهمتْها نيران سنوات متلاحقة من الحرائق والإهمال. كنت أتصوّر كمّاً هائلاً من المشاهد القابلة للتصوير الذي لن يتحقّق لسوانا. وعندما سأل رمزي الشّخص نفسه: هل سبق لأحد أنْ عبَر المسافة ليدخل إلى الكنيسة؟ أجابه: لا، لم يسبق، بحسب علمي، أنّ أحداً فعل ذلك. يلتفت نحوي رمزي ويقول: يريد أن يجرِّب بنا الطريق إذا ما كان ملغّماً أم لا!

تضجّ المناطق اللبنانيّة كافّة بشيوع عادة القتل اليوميّ في المرابع الليليّة والطّرقات وكلّ الأمكنة. عسكريّون يتعرضون للاغتيال انتقاماً من تنفيذهم أوامر قياداتهم في ضبط المخالفين. أزواج يصرعون زوجاتهم في ما يُسمّى العنف الأسَريّ. آخرون لا يطيقون إعطاء أفضليّة السَّير لسواهم، أو أنّ فنجان «النسكافيه» الذي أعدّه لهم بائع عربة على شكل مقهى غير مطابقٍ للمواصفات التي يريدونها، فيمتشقون سلاحهم ويردّونهم بالرّصاص. من لا يملك مسدّساً يستلّ سكّيناً يطعن بها مواطنه وسط الشّارع وعلى مرأى من المارّة والكاميرات. شباب بعمر الورد يقضون برصاص متفلّت يطلقه أناس لا يقيمون أدنى قيمة لحياة النّاس. المجتمع المدنيّ يتظاهر في الشّوارع، والأسَر تحجر على أبنائها وبناتها ليلاً كي لا يخسرون حياتهم بفعل فاعل أرعن. يستغرب

اللبنانيّون شيوع هذه الظّاهرة في العام الحالي ٢٠١٧ على نحو متضخّم عن سنوات سابقه. البعض يترحّم على مجريات سنوات الحرب، رغم وجود هياكل الدّولة والأجهزة الأمنيّة والعسكريّة والاستخباراتيّة. والسّلطة السياسيّة تقف بين نارين: نار العودة إلى تفعيل قانون الإعدام مع مضاعفاته على صعيد العلاقات مع الدّول الأوروبّية والمنظّمات الدوليّة، ونار بقاء الوضع على ما هو عليه وزيادة التفلّت ليتوسّع إلى باقي المحافظات أسوة بمنطقة البقاع التي تحظى بالمنسوب الأعلى من الجرائم اليوميّة الموصوفة.

صورة الإعدام

نال رمزي حيدر جائزة دوليّة عن صورة له التقطها في منطقة الشيّاح لعمليّة إعدام أحد المتّهمين خلال الحرب. الصّورة تلك لفتتْ لجنة الجائزة التي رأت فيها بالتأكيد خروجاً على كلّ المألوف من التّقاليد التي أرْستْها الشعوب حيال المحاكمات وقراراتها بما فيا حكم الإعدام. يحدث هذا في زمن ترفع فيه المنظّمات الحقوقيّة والإنسانيّة الصّوت مطالبة بإلغاء عقوبة الإعدام أصلاً من قوانين وتشريعات الدّول التي لا تزال تحتفظ بها.

باستثناء كاميرات المراقبة التي تلتقط الشاردة والواردة في الجهة الموجهة عليها، لم يتمكن أحد من الصحافيين المحترفين من التقاط صورة أو صور لعمليات الإعدام الميداني التي تشهدها شوارع المدن والقرى اللبنانية.

عندما شاهدتُ الصورة قرّرت أن أكتب عنها، وفعلاً سمّيتها «عمليّة إعدام في بيروت» ونشرتُ صفحة عنها في جريدة «السفير» وصفت فيها مشهد العمليّة كما تتبدّى وتبدّتْ في الصورة أمامي. شابٌّ مُلقى على الأرض، يداه مربوطتان خلف ظهره، وآخر يقف في مواجهته، يرتدي ثياباً يوميّة كالّتي يرتديها الشبّان الذين يمكن أن تصادفهم في أيّ مكان، بما فيه حذاءٌ رياضيٌّ حديث. يمسك هذا الشابّ بيده رشّاش كلاشنكوف يصوِّبه نحو صدر ووجه الضحيّة الذي يبدو دون حَوْل أو قوّة لاستقبال الرّصاص الذي سينطلق بعد لحظات فيخترق جسده. المواطنون الذين تجمّعوا لمشاهدة المنظر كانوا يقفون على نحوٍ مُوارب، وجوههم إلى مركز الحدَث، حيث يقف القاتل والضحيّة، وأجسادهم شبه متوجّهة نحو خارج الحلقة الدائريّة، كأنّهم يتخوّفون من أن يقرّر هذا المسلّح أن يوجّه بندقيّته نحوهم في لحظة غطرسة أو نوبة جنون. قيل يومها إنّ الضحيّة يستحقّ الإعدام لأنّه متّهم بوضع عبوة متفجّرة في أحد الشّوارع، وقد قُبض عليه واعترف بارتكابه هذه الفِعلة. لكنْ لا شيء يشي بأنّ تحقيقاً مكتمل العناصر قد جرى معه، كما أنّه لم يحصل على محاكمة عادلة قد عُقدت له، وقد حظي فيها المتّهم بمحامٍ تولّى الدّفاع عنه، أو أتيح له حقّ الدّفاع عن نفسه في مُواجهة اتّهام من هذا النّوع. ما حدث، وكان يحدث، لم يكن حكراً على منطقة أو قوّة من قوى الأمر الواقع. أكثر من ذلك: جرى تحويل المناسبة إلى طقس احتفالي، إذ تمّ تشييع الخبر في المحلّة من أنّ عمليّة إعدامٍ ستُنفّذ في حرج الصنوبر القريب، خبر تنفيذ الإعدام انتشر كالنّار في الهشيم في المنطقة المجاورة لمسرح التّنفيذ. دعا من عَرف بالنبأ، مَن لم يعرف إلى مرافقته للمعاينة، وهكذا تجمّع حشد من النّاس لا رابط بينهم سوى اللقاء في هذا الميدان ومعاينة العمليّة.

باستثناء كاميرات المراقبة التي تلتقط الشّاردة والواردة في الجهة الموجّهة عليها، لم يتمكّن أحد من الصحافيّين المحترفين من التقاط صورة أو صوَر لعمليّات الإعدام الميدانيّ التي تشهدها شوارع المدن والقرى اللبنانيّة. صوَر هذه الأجهزة رغم تقنيّاتها، كالحة، ولا تتمتّع بالوضوح، ولا علاقة لها بانفعالات أو وجه الضحيّة أو قَسَمات القاتل. ما تنقله ليس سوى صورة مكبّرة لمنطقة أو شارع أو مدخل حيث يتصادف أن يلتقي القاتل بضحيّته. صوَر يمكن أن تفيد أجهزة التّحقيق، لكنّها لا تخبرنا القصّة كما تفعل وفعلت كاميرا رمزي حيدر عندما رافقتْ لحظات عمليّات الإعدام في بيروت في غضون سنوات الحرب الأهليّة.

مع ذلك يمكن القول إنّ لا شيء تَغيّر في حياتنا، مع فارق واحد هو أنّنا نفتقد قدرة عين الشّاهد على النّفاذ، ونقْلَ هَوْل جريمة أودت بحياة إنسان دون أن تحمل تفويضاً من الإله أو المجتمع للقيام بمهمّة الحفاظ على أمنه مع توفير الضّمانات اللازمة للمتّهم.

الرّصاصة عند أسفل الرأس

قال محمود: لقد أصيب رمزي. وخرجت زلفة مذعورة. قال آخر يبدو أنّه استشهد. جريح أو شهيد لا نعرف بالضبط. جميع الزّملاء من محرّرين وإداريّين: حسن

بزون وحسن عزالدين ومحمد قدوح وأحمد بزون وعاصم الجندي وفرج الله صالح ديب ووفيق هوّاري وفادي حمّود وقاسم طفيلي. جميعنا عشنا لحظة استحقاق لم نكن قد خرجنا منه بعد. كنّا في مقرّ مجلّة «بيروت المساء» في الطابق السابع في منطقة وطى المصيطبة. وصلَنا الخبر فأثار فينا تلك المَواجد والمَواجع التي سبق أن رافقتنا لدى تفجير السيّارة المفخّخة في شارع عفيف الطيبي في العام ١٩٨١ حيث قضت ميّ حمّود ودلال الزين شهيدتَين بينما سقط الباقون جرحى. كان الطّابق الذي نشغله والذي يصادف نفس الطابق الذي كنّا نعمل فيه تحضيراً للإصدار في شارع الطيبي لا يزال سليماً، لكنّ أثر الشّظايا ظلّ أوضح على وجوه الشهيدتين والجرحى أمثال عبد الله وبلال وإسعاف، الصورة تراءت لنا كأنّها تتكرّر بعد وقت ليس بالطّويل، اللقطة تُستعاد ثانيةً مع اختلاف في التفاصيل.

نجـــــــا رمزي وها هو يحمل كاميرته وعدة التصوير ويخـــــــوض في ثنايا الحياة التي انتزع حقه بها مثله مثل الشهود الأحياء من المصورين الصحافيين الذين عاشوا الحرب الأهلية اللبنانية أو الحروب العربية اللاحقـــــــة.

أصيب رمزي وكان في منطقة اشتباك في الجبل في عمليّة تصوير كالتي دأب مع باقي «أبناء الكار» على القيام بها. كانوا يذهبون جماعات جماعات يحاولون شدّ أزر بعضهم بعضاً، وهم يحملون أكفانهم على أكتافهم مع عدّة التصوير. يسيرون بحذر على خطوط التّماس، وهم لا يعرفون بالضّبط أين هي الكمائن التي يختبئ القنّاصة بين أجَماتها يراقبون صيداً ما. لا ضرورة لأن يكون هذا «الصّيد» محارباً معادياً. يكفي أن يكون هدفاً في مرمى النّار، من ناحية الجبهة المعادية. كلّ من يتحرّك في هذا القطاع يصبح عدوّاً يجب قتلُه بمجرّد أن يكون في مدى الرماية الفعّالة. لا فرق بين رجل وامرأة، صغير أو كبير. إنسان أو حيوان حتّى. كان رمزي يتحيّن اللحظة لالتقاط الصورة من على جبهة سوق الغرب - عاليه، حيث الجبهة التي ظلّت حتى اللحظة الأخيرة من عمر الحرب مستعرة. لم تعد في حينها تلك الجبهة مجرّد تفصيل في «حروب صغيرة» كما أطلق عليها المخرج الصديق الراحل مارون بغدادي عنواناً لفيلمه. كانت «نيوجيرسي» تطفو على مياهنا وتطلق قذائفها على الجبل. كانت الدعاية قد سبقتها. قذيفتها تزن ١٢٥٠ كلغ بالتّمام والكمال. ومدافعها قادرة في غضون فترة لا تتجاوز اللحظات أن تجعل مكاناً يقام عليه بناء كبير ومن عدّة طبقات، أرضاً صالحة لزراعة البندورة. طائرات القوّة متعدّدة الجنسيّات هي الأخرى كانت تأتي من صوب البحر وتتّجه نحو مواقع الجبل. لم تكن الحرب قد توقّفت، بل كانت أكثر اشتعالاً ممّا عرفَتْه في جولات سابقة مرّت على البلاد. هذا على الرّغم من أنّ ميزان القوى بات مختلاً بعد انسحاب المقاومة من بيروت في أعقاب الاجتياح الإسرائيلي صيف العام ١٩٨٢.

جريح أم شهيد؟ كنّا نتأرجح على وقع السؤال الذي يقلقلنا. ما عرفناه لاحقاً ضاعف من حيرتنا. عرفنا أنّه جريح في حكم الشهيد. وقد يكون شهيداً في حكم الجريح. فقد استقرّت الرصاصة في رقبته، عند أسفل الرأس. وأنّ الأطبّاء لم يستطيعوا مباشرة الاقتراب منها أو محاولة نزعها من مستقرّها. كانت حياته معلّقة بهذه الرّصاصة التي تُظهرها الصّوَر الشعاعيّة، وقد تسمّرت في مكانها في أعلى الرقبة عالقة في ما بين الفقرات. كانت التوقّعات التي نتداولها بناءً على تقدير الأطبّاء طبعاً مفزعة، وهي تتراوح بين احتمالات الشلّل أو الموت باعتبار أنّ فُرص النّفاذ محدودة. مجرّد كُسور في المئات لا العشرات. ونجا رمزي بأعجوبة كتلك التي يتداولها المؤمنون بوصفها معجزات لا تتحقّق إلّا بقدرات الأنبياء والقدّيسين وبما يكسر ثبات القوانين ونفاذها. بعد أشهر سيظلّ رمزي يتحرّك بتثاقل جرّاء هذه الرّصاصة التي تركت حياته معلّقة في مطهر الحياة أو الموت قبل أن يتعافى ويعود لمزاولة حياته العاديّة.

تشبه تلك الرصاصة في موضعها المحدّد كما ظهرت في الصور الشعاعيّة تلك التي تحدث لدى عمليّات الإعدام الميدانيّة التي تنفّذها الجيوش خلال الحروب. شاهدنا صوراً مماثلة خلال حروب فيتنام وكوريا وفي الحرب الثانية. ضبّاط يمسكون بقبضاتهم مسدّساتهم المذخّرة يقتربون من خلف «المحكومين» مكتوفي الأيدي ويطلقون عليهم طلقة واحدة فقط، طلقة واحدة قاتلة وتنتهي حياة إنسان بعدها. كأنّها رصاصة القتل التي لا نجاة منها. مع ذلك نجا رمزي وها هو يحمل كاميرته وعدّة التصوير ويخوض في ثنايا الحياة التي انتزع حقّه بها مثله مثل الشهود الأحياء من المصوّرين الصحافيّين الذين عاشوا الحرب الأهليّة اللبنانيّة أو الحروب العربيّة اللاحقة.

❖
منطقة البربير
خلال انتفاضة
شباط ١٩٨٤

❖
كنيسة مار مخايل، ١٩٨٣

❖
جنازة شهداء
مجزرة قانا، ١٩٩٦

❖
راس النبع، ١٩٨٤

❖
صحافيان يساعدان
أحد الجرحى
خلال معركة العلمين
بين الحزب
التقدمي الاشتراكي
وحركة أمل،
١٩٨٤ - ١٩٨٥

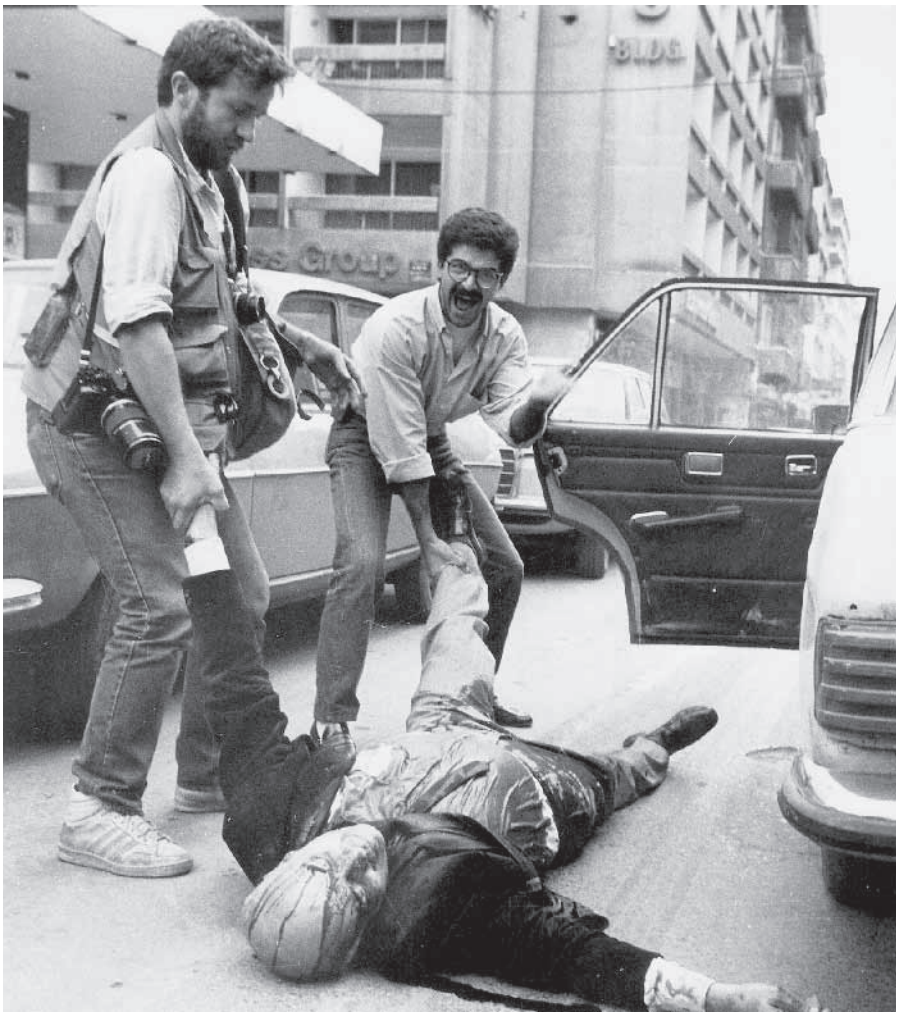

❖

مجموعة من
القوات اللبنانية
عند سينما الأمبير
في الأسواق حين تم
الإعلان عن وقف
لإطلاق النار، ١٩٨٤

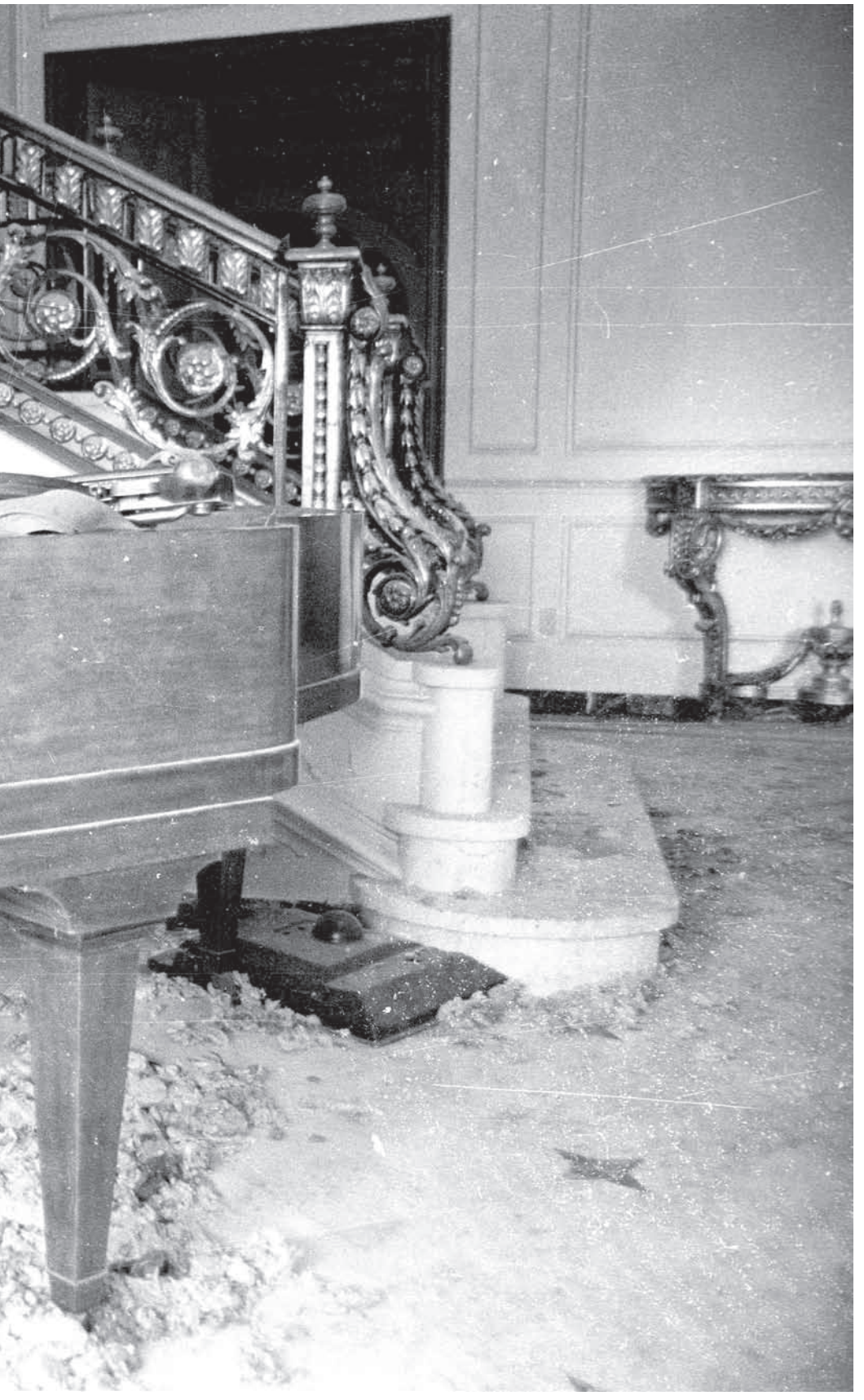

❖

خط تماس عند تلة الثلاث ٨ في سوق الغرب، ١٩٨٣

❖
حرب المخيمات

❖

البحصاص في
طرابلس، ١٩٨٥

❖

الضاحية الجنوبية
لبيروت، ١٩٨٨

❖
الضاحية الجنوبية
لبيروت، ١٩٨٨

❖
العاصمة السودانية
الخرطوم، ١٩٩٦

❖
ضواحي العاصمة
العراقية بغداد، ٢٠٠٣

❖
تظاهرة لجنود
سابقين في
الجيش العراقي
انتهت بإطلاق نار
من قبل الجيش
الأميركي على
المتظاهرين، ٢٠٠٣

يا مين

٩٤ **عمر أميرالاي في**
«الرجل ذو النعل الذهبيّ»
اللعب المُرّ وإبليس السخرية
حاوره نديم جرجورة

١٠٠ **توفيق صالح:**
عندما تلتزم السينما العربيّة بالواقع
هادي زكّاك

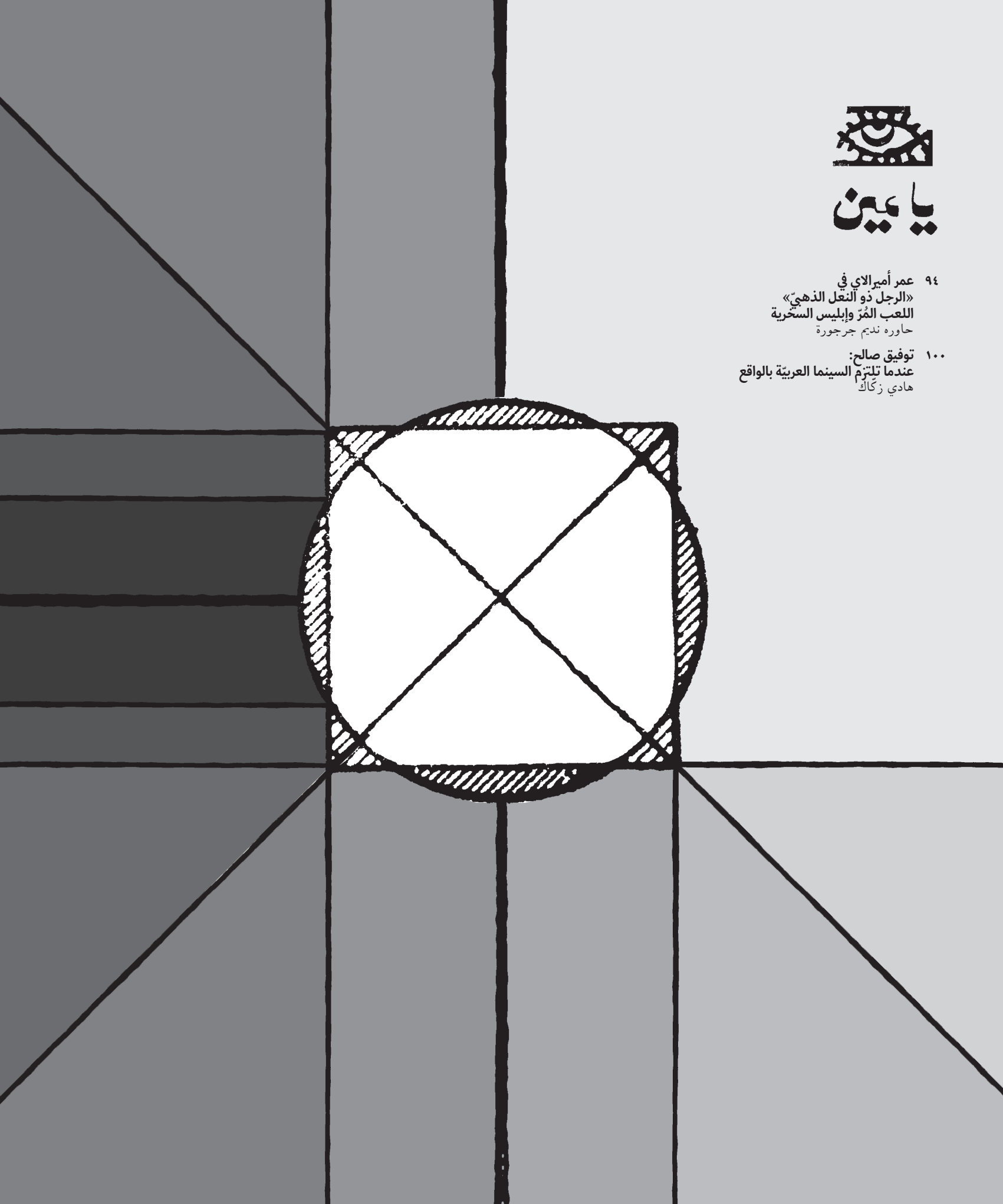

عمر أميرالاي في «الرجل ذو النعل الذهبيّ»
اللعب المُرّ وإبليس السخرية

حاوره نديم جرجورة
ناقد سينمائيّ لبنان.

في ٢٤ شباط / فبراير ٢٠٠١، عُرض «الرجل ذو النعل الذهبي» (٢٠٠٠) للسينمائيّ السوريّ الراحل عمر أميرالاي (١٩٤١ - ٢٠١١)، في «مسرح بيروت» في عين المريسة، بعد وقتٍ على بثّه التلفزيوني على شاشتي «آرتي» الفرنسيّة الألمانيّة، التي أنتجته، وفضائيّة «الجزيرة». يومها، أثار الفيلم نقاشاً صاخباً، لم تستطع الغالبيّة الساحقة من المشاركين فيه أن تتحرّر من سطوة الموضوع السياسيّ، في الدرجة الأولى، بسبب تمحوره حول شخصيّة الرئيس رفيق الحريري (١٩٤٤ - ٢٠٠٥)، الفاعلة والمؤثّرة في الحياة اللبنانيّة العامّة، والتي أدّت إلى انقسامٍ حادٍّ في المجتمع اللبناني، بين مؤيّد (صارخ) له، ومعارض (بقوّة وعنف) لنهجه وسياسته وشخصه.

كان لا بُدّ من حوار مع عمر أميرالاي، لتبيان العديد من النّقاط «الساخنة»، التي سبّبها الفيلم. حوارٌ أجريته معه بعد يوم واحد على العرض المذكور في «مقهى الروضة» (بيروت)، استمرّ ثلاث ساعات، بدا خلالها السينمائيّ حريصاً على انتقاء الكلمات الأنسب، ودقيقاً في صوغ أفضل الأجوبة.

حاولتُ في هذا الحوار أن أبتعد، قدر المستطاع، عن السياسيّ، للاقتراب من الفنيّ والجماليّ والدراميّ. لكن الفيلم دفعني إلى ارتباكٍ إزاء التباسه «السينمائيّ»، على مستوى كيفيّة تقديم شخصيّته الأساسيّة، ومن وراء ذلك، تقديم شخص المخرج، كسينمائيّ ومثقّف، في علاقته برجل مال وسلطة. فبعد مشاهدتي إياه، شعرتُ بأنّ أسلوب المخرج في استنباط ذات رفيق الحريري، وعرضها أمام الكاميرا، لا يختلف كثيراً عمّا فعله في «الحبّ الموؤود» (١٩٨٣) مثلاً، مع نادية الجندي وصافيناز كاظم: ترك الشخصيّة على سجيّتها بهدف فضحها بأقوالها والتصرّفات أمام العين السينمائيّة للمخرج.

لعلّني لم أتوصّل إلى ذلك رغم بعض الأسئلة السينمائيّة. ربّما لأنّ الفيلم، بحدّ ذاته، يُغري المحاور بالانزلاق في متاهة السياسيّ والثقافيّ، أكثر من البحث في الفنّي والتّقني. فهل تحرَّرت أسئلتي من «تبسيط» في طرح مضامينها؟ هل توصّلت إلى «استفزاز» السينمائيّ والمثقّف في شخص عمر أميرالاي، وفي «استدراجه» إلى أجوبة «صريحة» و«مباشرة»؟

لا أدري. كلّ ما في الأمر أنّي أجريتُ الحوار معه، وأنّ الحوار لم يُنشَر في جريدة «السفير»، لسببٍ متعلّق بمناخٍ سياسيّ ما حينها. احتفظتُ بالنسخة الأصليّة، التي ضاعت منّي فترةً طويلة، قبل عثوري عليها مجدّداً. غير أنّي تَردّدتُ في النشر، لقلقٍ ألمّ بي إزاء حوار قديم مع سينمائيّ، رحل في ٥ شباط / فبراير ٢٠١١ قبل أيّام قليلة على اندلاع «الثورة اليتيمة» (عنوان كتاب زياد ماجد، «شرق الكتاب»، بيروت، ٢٠١٤) في «الدولة البربريّة» (عنوان كتاب ميشال سورا، «المنشورات الجامعيّة في فرنسا»، باريس، ٢٠١٢)، في ١٥ آذار / مارس ٢٠١١.

أمّا حماسة النشر، فمتأتّية من مشاهدتي، مرّة أخرى، «في يوم من أيّام العنف العاديّ، مات صديقي ميشال سورا» (١٩٩٥) لعمر أميرالاي، الذي عُرض بمناسبة إقامة «المعهد الفرنسي للشرق الأدنى» في بيروت ندوةً (١٨ نيسان / أبريل ٢٠١٧) حول الباحث الاجتماعي الفرنسي سورا (١٩٤٧ - ١٩٨٦)، بمناسبة ترجمة كتابه إلى العربية، بعنوان «الدولة المتوحّشة» («الشبكة العربيّة للأبحاث والنشر والترجمة»، بيروت، ٢٠١٧).

وهو فيلمٌ، بقدر ما يعكس حساسية السينمائيّ إزاء رحيل صديق، في مدينة أغوتهما معاً، يكشف أيضاً جوانب أليمة من الحرب الأهليّة اللبنانيّة (١٩٧٥- ١٩٩٠)، بمصائبها وأهوالها وحكاياتها.

س لن أسألك عن دوافع اختيارك الرئيس رفيق الحريري شخصيّةً محوريّة لفيلمك الوثائقيّ الأخير، «الرجل ذو النّعل الذهبي». فللسينمائيّ حقٌّ في أن يختار من يشاء من شخصيّات، وما يريد من مواضيع. لكنّني أرغب في معرفة سبب انجذابك إلى مثل هذه الشخصيّات المعروفة والمؤثّرة، غالباً، في الحياة العامّة، كبناظير بوتو (مع أنّك لم تقابلها، فأنجزت عنها فيلماً موارباً وجميلاً) وسعدالله ونّوس وميشال سورا وفاتح المدرّس ونزيه الشهبندر ونادية الجندي وصافيناز كاظم وسواهم.

ج في الواقع، لا يستطيع المرء أن يفصل انجذابه إلى موضوعات أو شخصيّات معيّنة عن مجمل تطوّر علاقته بالعالم الذي حوله، وتحديداً عن سياق بحثه الدائم عن مطارح جديدة لم يستكشفها بعد، في الحياة كما في الفنّ، أكان ذلك مباشرة، أم عبر الآخرين. في محطّة من محطّات العمر، يتحتّم على الإنسان أن يضبط ساعته على بدهيّات الحياة وحقائقها الرّاسخة.

في الماضي، كانت نظرتي إلى «الآخر»، وتحديداً في الأفلام التي كنتُ أصنعها، تنطلق دائماً من زاوية ما يُمكن أن يمثّله هذا الآخر من فئة أو شريحة أو طبقة اجتماعيّة ما، أو ما يُمكن أن يجسّده من ظاهرة أو حالة اجتماعيّة سياسيّة معيّنة، من شأنها أن تخدم تحليلاً أو موقفاً فكريّاً ما.

كان من المهمّ أن تنطبق على «الأنموذج» المواصفات المطلوبة: مُستَضعفٌ، مُستَغلٌ، مُضطَهد، إلخ. غير عابئين، في كثيرٍ من الأحيان، بالجانب الأهمّ الذي يحجبه هذا النّموذج، وهو الإنسان طبعاً. هذه النّزعة إلى إنكار الخاصّيّة الفرديّة عند الآخر، لا أجد لها تفسيراً اليوم سوى أنّها كانت رغبة خفيّة عندنا في نفي إمكانيّة وجود الكائن البشريّ خارج مصنّفاته الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة.

إنكار «الآخر» هذا، كان يُجاريه، في المقابل، إنكار السينمائيّ لذاته، حين كان يكتم أنفاس مشاعره وأحاسيسه تجاه شخصيّاته، وخصوصاً داخل عمله الفنّي. فعمليّة «التّجريد»، كما ترى، كانت في الواقع عمليّة مزدوجة ومتبادلة بين الطّرفين.

لم تعد تستهويني هذه العلاقة، من طرف واحد، مع «مجرّدات» إنسانيّة. لذا، عقدْتُ العزم، منذ سنوات عدّة، على ألّا أصنع بعد الآن أفلاماً تعرض لأشخاص لا سيماء لهم ولا أسماء، بل لشيء محدَّد يجذبني في أشخاصهم.

استحضار إبليس السّخرية

س أعتقد أنّ هذا النّقد الذّاتيّ الذي بدأت تمارسه، بشكل

أو بآخر، وبمستويات فكريّة وثقافيّة، وحتى فنّية مختلفة، في أفلامك الأخيرة برز بقوّة أكبر في عملك الجديد. هل يُمكن القول إنّ «الرجل ذو النّعل الذّهبي» تتويجُ ما لهذا المسار النقديّ؟

ج أفلامي الأخيرة تحدّثت، بشكل رئيسيّ، عن أصدقاء أعزّاء رحلوا، وبالتالي اتّسمت هذه الأعمال بمسحة وجدانيّة، يُمكن أن تندرج في خانة المواقف النّبيلة. لكنّني لا أعتقد أنّي كائن منزّهٌ، ومُكوَّن فقط من خلايا نبيلة وسامية، وأنّي معافىً من أعراض الضّعف الإنسانيّ، إذْ لا يخلو الأمر من وجود خلايا عندنا ما زالت تعشّش فيها العتمة وغياب مصارحة النفس، خلايا لم «تعزِّلها» بعد ادّعاءاتنا بالشّفافية والمراجعة النقديّة للذّات.

ولأنّ إبليس السّخرية العزيز جدّاً على قلبي عاد ليتلبّسني من جديد، في فيلمي الأخير، بعد سنوات من الهجرة، فقد استهوتْني، منذ البداية، فكرة خوض هذه التّجربة الجديدة كلعبة، على الرّغم من وعيي التامّ بعواقبها. أبَيتُ حساب نتائجها، واستسلمت لقواعدها، إحقاقاً لها، وتحدّياً لذاتي.

أردتُ هذه التجربة أن تكون حالة أتألّب فيها على نفسي، كي أعتقها من أسْر تلك «العفّة» المصطنعة التي رصرصها، لسنين، منطق المحرّمات والنواميس والإيديولوجيّات، حتى غدت نظاماً مرعباً في أصوليّته وتزمّته، لا يُخاطب الواقع إلّا بالآيات المُنزلة، والأحكام المسبقة، والصّيَغ الجاهزة.

في النّهاية، استولتْ هذه الحالة على أذهاننا وحواسّنا وفضولنا، إلى درجة أنّها نجحت في أن تعطّل إرادتنا الحرّة في مقاربة النّاس ومواقعة الحياة، من دون وجَل أو رهاب. في هذه التّجربة، راودتني أيضاً رغبة التخلّص من عاهة الاستفراد بالحقيقة المطلقة، التي طالما سبّحْنا بحمدها، نحن معشر اليسار، إلى أن جاءت الواقعة، ورأينا بأمّ أعيننا كيف تهاوت حتميّات التاريخ التي احتكرناها، هي الأخرى، ردهاً من الزمن فوق رؤوسنا، كأوراق الخريف.

على خلفيّة هذه المراجعة العامّة، يُصبح «اللعب المرّ»، برأيي، ضرورة مشروعة للسّخرية من الذّات، ومن أنفسنا، وخصوصاً من «دونكيشوتيّتنا»، في مواجهة بعض الامتحانات الصّعبة في الحياة.

س هل تبلور هذا الموقف أثناء تصويرك «الرجل ذو النّعل الذهبي»، أم أنّ ما قلتَه أعلاه ليس سوى تبرير لما حصل بعد إنجاز الفيلم؟

ج بديهيّات السينما تقول إنّ بإمكان المخرج أن ينقذ سمعته الفنّية، أو غير الفنّية، حتى اللحظة الأخيرة من عمليّة صُنع فيلمه، إذا احتاج الأمر إلى ذلك. أي، بمعنى آخر، كان باستطاعتي ليس فقط أن «أنْفذ بريشي» من «المأزق المصطنع» الذي زججتُ نفسي به وحسب، بل أكثر من ذلك: أن يُنادى بي بطلاً قوميّاً. فتحقيق «انتصار» سهل لا يُكلِّف صاحبه، في حالة كهذه، سوى إجراء مقابلة مطوّلة مع أحد «النّجوم» من خصوم الحريري اللدودين، أو حتى أقلّ من ذلك، مرفقاً الصورة بتعليق مبهّر بالإشاعات والتّهم والفضائح المتداولة في الشارع، وفي الكتب الصّفراء.

أساليب هذا النّوع لا ترضي غرور «اللعبة» في مجال الإبداع من أمثالي. وبالتّالي، كان من الطّبيعي جدّاً أن أبحث عن حلّ من داخل العمليّة الفنّية ذاتها، وليس من خارجها. هذا ما ينبغي أن يُفهم من لجوئي إلى دراما الموقف، الذي نجم عن المواجهة بيني وبين شخصيّة الفيلم، وعن أنّ تفريطي ببعض كبرياء «المثقف» كان لمصلحة الحبكة الفنّية للفيلم، ليس إلّا.

أعرف أنّ مثل هذا الكلام سيثير، بالطّبع، غضب الأصوليّين من الجانبين، أي مَن هم مع الحريري، ومن هم ضدّه. فتناول شخصيّة بهذا الوزن الاجتماعي والسياسي لا يُمكن أن يكون، بأيّ حال من الأحوال، موضوع لعبة فنّية برأيهم، وكأنّ مصير أمّة بكاملها يُمكن أن يتوقّف على ما يقوله فيلم ما. من حقّ كلّ طرف، طبعاً، أن يرى رفيق الحريري كما يحلو له. لكنّ المشكلة، برأيي، تبدأ من اللحظة التي يُقرّر فيها كلّ طرف أن يتماهى مع مهمّة السينمائيّ، ويُطالبه بما لا يستطيع، أو يجرؤ على فعله بنفسه. أي أن يتحوّل السينمائيّ، في هذه الحالة، إمّا إلى «أيقونجي»، أو إلى «قاتل مأجور». هنا، أريد أن أذكّر من يُصرّ على مشاهدة الفيلم كحقيقة واقعة وليس كعمل سينمائيّ، أنّ الجمهور، في بداية السينما، كان ينفعل كثيراً، ويصرخ في الصالة محذّراً من خطر الوقوع في قبضة الوحش. يحيا وهْم السينما.

عيون الضمير في سوبّرماركت الحياة

س صوَّرْتَ الوالدة أفقيّاً، ومع أنّك فعلت الشّيء نفسه مع أصدقائك المثقّفين الثلاثة (الياس خوري وسمير قصير وفوّاز طرابلسي)، إلّا أنّ ثمّة مشهداً لا يُمكن تجاوزه إطلاقاً: في لحظة مكاشفة ذاتك أمام هؤلاء الأصدقاء، التقطْتَ مشهد لقائك بهم من فوق، فبدا الأمر وكأنّ ثمّة «مؤامرة ثقافيّة» تُحاك في الخفاء.

ج لا أدري إن كان اختيار جغرافية المكان، وزاوية تصوير هذه الجلسة وإضاءتها، هو من فعل تداعيات اللاوعي عندي، أم لا. غير أنّي لا أستبعد أن تكون وجهة نظر الكاميرا في هذا المشهد هي إحدى «عيون الضمير» المستيقظة والمنتشرة في خبايا «سوبرماركت» الحياة، حيث يُمكن أن يروج الغشّ والخداع.

س أودّ العودة إلى سؤال الشخصيّات التي اخترتَها في أفلامك الأخيرة. ذلك أنّك «تعاملت» مع صديقين حميمين لك، هما ميشال سورا (في يوم من أيّام العنف العادي مات صديقي ميشال سورا) وسعدالله ونوس (هنالك أشياء كثيرة كان يُمكن أن يتحدّث عنها المرء): الأوّل بعد وفاته، والثاني قبل رحيله. أعتقد أنّ ثمّة «هيبةً» ما في التعامل مع الصديق، تحتّم اختلافاً في التعاطي السينمائي عن بقيّة الشخصيّات.

ج إنّها، في الواقع، الرهبة بعينها. امتحان يجري على ضفاف الموت. رهبة لا يغلبها إلّا الحبّ الذي تُكنّه للصّديق. لكنّ ذلك لا يُلغي الألم، بالطبع، ولا يتمّ من دون عذاب، لأنّه يضعك في تحدّ صارم لا تعرف كنهه ولا محيّاه. فمحبّة إنسان أمر واهٍ، بمقدار ما هو ملموس وحاضر في النّفس. إنك كالقابض على روح، لا تعي حرارتها إلّا لحظة انطفائها. فكلّما غاب صديق أو قريب، اقترب زحف اليباس إليك. أنا اليوم عند هذه العتبة من التأمّل. «الرجل ذو النّعل الذهبي» كان أمراً عرضيّاً. يُخيّل إليّ أنّي سأظلّ أحوم حول هذه النقطة، حتى أخترقها وأجد ضالّتي فيها، أو أنّها ستُعييني، فأتركها. على كلّ حال، هذا الكلام يوصلني تماماً إلى الفيلم الذي أباشر، قريباً، العمل عليه.

س وما هو مشروعك الجديد هذا؟

ج سيكون بمثابة احتفال بجمال الشيخوخة، ومحاولة لالتقاط وتثبيت أجمل لحظات الهرم عند المسنّين في العائلة. إنّها خطوة لملء الفراغ الكبير الذي سيُخلّفه هؤلاء بعد رحيلهم، من خلال الصُوَر التي سيختارونها هم عن أنفسهم، ويُقرّرون تركها لذويهم. إنّها خطوة، أيضاً، لبدء رحلة الحداد، وترويض النفس وتعويدها على الوحدة، بعد غياب الأحبّة.

نبرة الفيلم هي إلى الفرح أقرب، لأنّها تسعى إلى استكشاف سحر الشيخوخة، وتتغزّل بجمالها، بكل ما في هذه الكلمة من معنى: جمال الجسد والروح والحكمة والذّاكرة.

س كيف تسبر عالم الشخصيّة التي تختارها، سينمائيّاً؟ لا شكّ في أنّك تجري أبحاثاً ما. لكن، هل ثمّة ارتجال أثناء التصوير، أم أنّ كلّ شيء مدروس سلفاً؟

ج اعتدت ألّا أضع أيّ تصوّر مسبق للعمل الذي أقوم به. لكنّ هذا لا يعني أنّ موضوعه لا يسكنني حتى العظم، وأنّي أحاول الاطّلاع على كلّ مصادر المعلومات التي تمتّ إليه بصلة. اعتدت، أيضاً، ألّا أدوّن ما له علاقة بالعمل، وألّا أضع مخطّطاً لما أنا عازم عليه. والسبب، هو حرصي الشّديد على ترك فسحة كافية للدّهشة والمفاجأة، باعتبارهما عمادَي المغامرة الفنّية. لا أدري إن كان ذلك ينطوي على ثقة مفرطة بالنفس، أو أنّه من نوع التهوّر المحسوب. لكنّني لا أنكر، في المقابل، وجود متعة في جعل الأشياء تتحرّش بي، وتحرّضني على التّواصُل. هذه التلقائيّة ليست حرّة بالضّرورة، لأنّك تستطيع أن تتخلّص بسهولة من تأثير الذّوق والحساسيّة الفنّية المكتسبة لديك، وتعيش في أغلب الأحيان حالة من النزاع المستمرّ بين مسلّماتك الفنّية، وما تبحث عنه توقاً إلى التجديد. من هنا، كان سعيي الدّائم إلى أن أُدخل نفسي في هذه الدّورة الارتجاليّة، طمعاً في الخروج بإضافة ما، تُغني أسلوبي في التعبير. من دون ذلك، يُخشى على السينمائيّ من أن يتعرّض للسقوط في حالة من الاكتفاء الذاتيّ الفنّي، وبالتالي في التكرار.

انهيار نمطيّة رجل المال والسّلطة

س ماذا عن التّوليف في «الرجل ذو النّعل الذهبي»؟ فحين انتهيتُ من مشاهدتي إيّاه، بدا لي أنّ اشتغالك على المونتاج كبير، وربّما أكثر من اشتغالك عليه في أيّ فيلم آخر.

ج سبق أن ذكرتُ أنّي لا أنطلق، عادة، في صنع الفيلم، من تصوّر مسبق، أو مخطّط ما، الأمر الذي يجعلني أعلّق أهمّيّة أكبر على مرحلة المونتاج، ليس على صعيد بناء الفيلم وحسب، بل أيضاً لمعرفة ما إذا كان بين يديّ مادّة صالحة لأن تصبح فيلماً أو لا.

لعلّ الفيلم الأخير يتميّز عمّا سبقه، من ناحية أن بُنية السّرد فيه بدأت، فعلاً، مع قصّة تصويره، وعبر المراحل التي مرّ بها، والتي على أساسها جرت عمليّة توليفه وصوغه النّهائي.

س في «الرجل ذو النّعل الذهبي»، نرى رفيق الحريري يستعرض المادّة التي صوّرتها عنه، عبر شاشة التلفزيون، ما يدفعني إلى سؤال عن مدى تدخّله في مجريات فيلمك.

ج بعد أن قطعتُ شوطاً لا بأس به في تصوير الفيلم، تجمّعت عندي مادّة مُصوَّرة تضمّنت الحوارات التي أجريتها مع الحريري، والتي أقلّ ما يمكن أن يُقال فيها أنّها كانت تفتقر إلى حرارة المماحكة والجدل، وأنّها جنحت باتّجاهٍ «مستقيم»، كان يُمكن أن يصبّ في مصلحة

الحريري. من هنا، جاءت ضرورة اختلاق موقف يقوِّم انحراف هذه المعالجة، ويعيد الفيلم إلى جادة الصواب. لم يكن الهدف، طبعاً، عرض المادّة على الحريري ليقول رأيه فيها، أو يعطي توجيهاته، كما يظنّ البعض. السؤال الأهمّ، الذي كان ينبغي عليك أن تطرحه، هو: هل كان من الضّروري أن تدلي باعترافك هذا أمام «الكاهن»، الذي هو الحريري؟ الجواب: نعم. لأنّي عاهدتُ نفسي، منذ البداية، على أن أخوض هذه اللعبة بشفافيّة تامّة، وعلى مرأى ومسمع من الحريري والجمهور أيضاً. هذه اللحظة، كان بإمكان الحريري أن يستثمرها لصالحه، لو لم تخُنْه نزعة رجل السلطة إلى الشموليّة، فأراد بعد استعراضه المادّة المُصوَّرة، المرْضية جداً لشخصه أن يُصادر عند المخرج صفته ووظيفته كمثقّف أيضاً.

س لنتوقّف قليلاً عند بعض التفاصيل التقنيّة، كالتصوير والعلاقة بالحريري على المستوى السينمائي المهني الصرْف (مدى تجاوبه، مثلاً)، وغيرها من الصعوبات، إن وجدت.

ج لا بُدّ لي، هنا، من أن أثني على جرأة الحريري وإقدامه، عندما جازف ووقف، من دون قيد أو شرط، أمام عدسة سينمائيّ لا يُطمئن سجلّه الفنّي والسياسي أيّ رجل سلطة ومال. كما أريد أن أؤكّد، أيضاً، على التعاون والاستجابة الدائمة والأريحيّة التي أظهرها الحريري، والتي لا قبَل لرجل في موقعه أن يمنحها لفيلم غير مضمون النتائج. هذا الجانب، أثار دهشة الغربيّين الذين شاهدوا الفيلم، وأجمعوا على استحالة إمكانيّة تحقيق مثل هذا العمل السينمائي، عن رجل بمواصفات الحريري في بلادهم.

لعلّ أحد أسباب التشوّش الذي حدث خلال مقاربتي رفيق الحريري، يعود إلى انهيار الصورة النمطيّة العقلانيّة، أي الغربيّة، التي نحملها عن رجل المال والسلطة، وذلك أمام الخصوصيّة اللانمطيّة والملتبسة جدّاً لرجل المال والسلطة في بلادنا. ثمّة هرميّة وتراتبيّة وحواجز واضحة ومحدّدة، تضعها الطبقات السائدة في الغرب بينها وبين مَن هم دونها. هذه الحال لا تنطبق، بالضّرورة، على الشرائح السائدة في بلادنا، التي ما زالت تتحكّم فيها الرّوابط والأواصر العائليّة والعشائريّة والطائفيّة، إلى يومنا هذا.

من هذه الزاوية، يُمكن القول إن الحريري نجح، فعلاً، في أن يهزّ الصورة النمطيّة التي كنتُ أحملها في مخيّلتي عن رجل المال والسلطة. لا أظنّ أن عفويّته وشعبويّته كانتا مصطنعتين، بل هما من صلب تكوين شخصيّته.

انعكس هذان الارتباك والتشوّش على المشاهدين، أيضاً. ففي النقاش الذي تلا عرض «الرجل ذو النّعل الذهبي» في مسرح بيروت، في ٢٤ شباط / فبراير ٢٠٠١، تحدّث البعض عن «حيرةٍ» وقع فيها كثيرون.

مثل هذا التشوّش يُمكن أن يحدث حتى في مقاربة إنسان عاديّ، لأنّ المشكلة، أساساً، تكمن عند الذي يحمل التصوّرات والأحكام المسبقة عن الآخر. أما عن عدْوى التشوّش التي انتقلت من الفيلم إلى الجمهور، فإنّي أمنّي النفس بأنّ العمل نجح في إشراك آخرين في طرح بعض الأسئلة الجوهريّة، حول علاقة المثقّف بالسّلطة.

س سؤال أخير: هل موّل رفيق الحريري الفيلم؟

ج الفيلم من إنتاج القناة الثقافيّة الفرنسيّة الألمانيّة «آرتي»، وبلغت ميزانيّته نحو ٢٠٠ ألف دولار أميركي، وأتعابي من القناة كانت مجزية جدّاً. هذا لا يعني أنّ ذمّتي ليست واسعة، وأنّها غير قابلة للشراء من قبل كلّ الشرفاء.

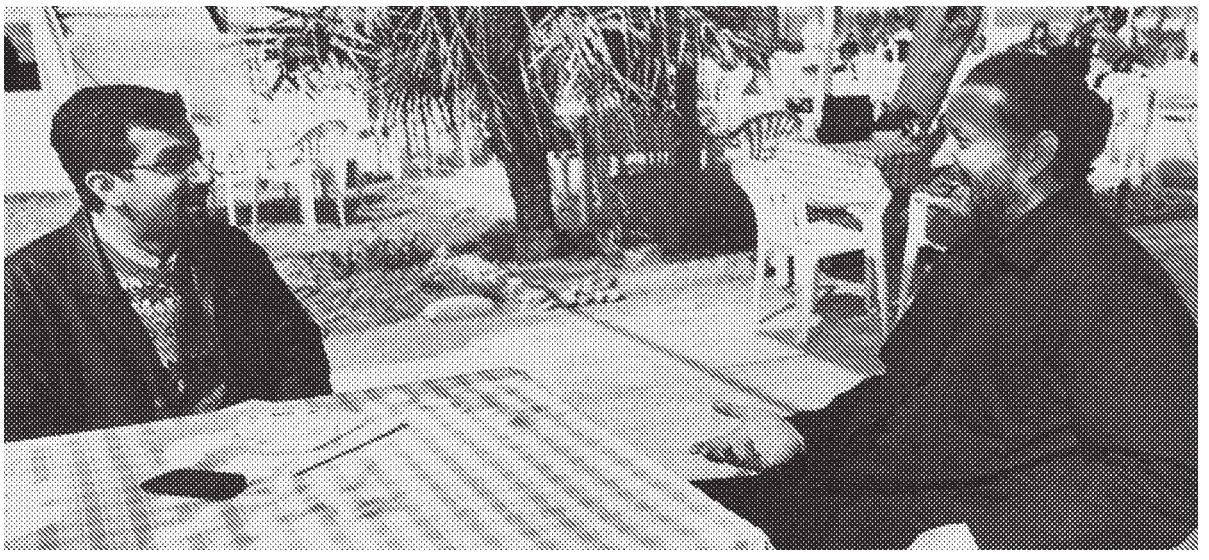

توفيق صالح:
عندما تلتزم السينما العربيّة بالواقع

هادي زكّاك

مخرج سينمائي وأستاذ جامعي. آخر أفلامه الوثائقي «يا عمري» (٢٠١٧).

في العام ٢٠٠٦، قصدتُ القاهرة للقاء أحد كبار المخرجين المصريّين: توفيق صالح. إعجابي بفيلميه: «المتمرّدون» (١٩٦٦) و«المخدوعون» (١٩٧٢) قادني إلى اكتشاف باقي أفلامه وهي سبعة أفلام روائيّة طويلة. وجدت سينما مفيدة بالمعنى الذي تحدّث عنه أرباب الواقعيّة الجديدة في إيطاليا (بالأخصّ الثنائيّ زافاتيني / دي سيكا)، سينما تتحدّث عن قضايا المجتمع وتحمل بعداً سياسيّاً وتعكس زمنها. سينما فيها موقفٌ وبحثٌ في اللغة السينمائيّة.

استوقفني حديث لصالح قال فيه: «كنت في بداية عملي في السينما أسير في الطريق الآخر وقد كلّفني ذلك الكثير ولكنّي لست نادماً. فليس هناك بالنسبة إليّ اختيار بين صنع سينما استهلاكيّة يمكن الاستغناء عنها أو سينما ملتزمة تحاول الإسهام في تغيير الواقع الذي أعيش فيه»[1].

عندما التقيت بالرجل، شعرت وكأنّني بوجه أب سينمائيّ توقّف عن صناعة الأفلام منذ سنة ١٩٨٠ فيما استمرّ في مهنة التّدريس. كان التواصل الإنسانيّ كبيراً وبدأنا مجموعة من اللقاءات نسترجع فيها أبرز المحطّات في مسيرته.

كنت أخشى أن ألتقي بالمخرجين الذين أحبّ أفلامهم بعد بعض التجارب السلبيّة لكنّ صالح كان على تجانس مع أفلامه وبالأخصّ أفلامي المفضّلة في مسيرته، وكان يشبه بعض شخصيّات هذه الأفلام كشخصيّة الدكتور (شكري سرحان في «صراع الأبطال») الذي يحاول مواجهة الجهل ويعمل على الاهتمام بقضايا مجتمعه. هكذا وجدت توفيق صالح الذي يعتبر أن الأفلام هي وسيلة لتحريك وعي النّاس الاجتماعيّ والسياسيّ.

أدّت لقاءاتي مع صالح إلى تصويره ضمن السلسلة الوثائقيّة: «العدسة العربيّة» من إنتاج قناة «الجزيرة» لكنّ المدّة التلفزيونيّة الموجزة لم تكن تسمح بتغطية جميع المراحل ونقل كلّ حديث صالح الشيّق والصادق والذي كان مليئاً بالحسرة.

عند وفاته سنة ٢٠١٣ عن عمر ٨٧ عاماً، أعدتُ تفريغ المقابلات ومشاهدة الأفلام للحفاظ على هذه الذّاكرة السينمائيّة العربيّة المهدّدة في زمن النسيان. وها أنا اليوم أنقلها.

بدأت الحديث مع صالح حول اكتشاف السينما وزمن الدّراسة والتّجربة في فرنسا ومن ثمّ العودة إلى مصر وتصوير فيلمه الأوّل: «درب المهابيل» (١٩٥٥) وفشل الفيلم وتغيير الاستراتيجيّة مع «صراع الأبطال» (١٩٦٢) وصولاً إلى المحطّة البارزة سنة ١٩٦٦ مع «المتمرّدون». واكبت هذه المرحلة التغيّراتِ المهمّة التي حصلت في مصر منذ ثورة الضّبّاط الأحرار سنة ١٩٥٢ إلى صعود جمال عبد النّاصر ومن ثمّ تأميم السينما وبداية الإخفاقات في الستينيّات مع فشل الوحدة المصريّة السوريّة سنة ١٩٦١ ودخول مصر حرب اليمن والكارثة الكبرى سنة ١٩٦٧ التي تمّ تلطيفها بتسميتها: «النّكسة».

من اللافت كيف تنقل أفلام صالح الأولى الواقع من الحارة الفقيرة إلى زمن الأبطال والأحلام الناصريّة بتطوير المجتمع وصولاً إلى زمن الهزائم حيث «يتمرّد» المرضى ضدّ إدارة المستشفى وتفشل «ثورتهم».

«السينما دي بتاعة النّاس اللي ما معهمش شهادة»

«كان والدي طبيباً في ما يسمّى الكرنتينا التي أصبحتْ في ما بعد مركز الحجْر الصّحّي وكنّا نتنقّل في الموانئ. أمضيت كلّ طفولتي ما بين السويس وبور سعيد إلى أن استقررنا في الاسكندريّة. في الاسكندريّة، دخلت مدرسة إنكليزيّة. كنت أحبّ محمّد عبد الوهاب وكنت أقعد في البيت وأغنّي أغانيه».

«بدأت أحبّ السينما في هذه الفترة. لم أكن أرغب بالدّخول إلى الجامعة بل الذّهاب إلى القاهرة والعمل في السّينما. توفّي والدي قبل أن أنتهي من المدرسة. فتجمّع بعض الأصدقاء والأقارب وقالوا لي: «السينما دي بتاعة النّاس اللي ما معهمش شهادة. أنت ابن فلان ويجب أن تقوم بدراسة جامعيّة». دخلت كليّة التّجارة ثمّ تركتها بعد سنة ودخلت كليّة الآداب. كان مجالها يفيدني جدّاً من قراءات في الآدب».

«بعد الانتهاء من دراستي الجامعيّة، ذهبت إلى القاهرة لأعمل في استوديو نحّاس. انتقلت عبر الأقسام المختلفة لأكتشفها وبعد أكثر من شهر، تمّ طردي بعد خلاف حدث بيني وبين الممثّلة الأولى في أحد الأفلام[٢]. بعدها حصلت على «بعثة»[٣] وسافرت إلى فرنسا».

«كنت قد درست الإنكليزيّة ولكنّني لم أفكّر في الذهاب إلى لندن أو أميركا. فضّلت الذهاب إلى باريس. عشقت باريس. كانت مصدر نور وثقافة. في وقت من الأوقات، اتّهموني بأنّي متأثّر بالواقعيّة الجديدة الإيطاليّة ولكنّني أرغب أن أقول لك إنّه عندما عُرضت هذه الأفلام في الإسكندريّة مثل: Sciuscià[٤] و«سارق البسكلات»[٥]، لم أشاهدها ولم أكن مهتمّاً بها. كنت أحبّ السينما الأميركيّة ولكنّني شاهدت هذه الأفلام الإيطاليّة فيما بعد في باريس وأحببت أفلام دي سيكا مثل «سارق البسكلات» و«معجزة في ميلانو»[٦]. اكتشفت أنواع الواقعيّة في السينما من أيّام الثلاثينيّات في أفلام جان رينوار وبدأت أهتمّ بها. وعندما عدت إلى القاهرة، كان أوّل فيلم كتبته يحتوي على شيء من هذه الواقعيّة.

لدى عودتي إلى مصر. بدأت أشاهد في سينمات الدرجة الثانية كل ما أنتج من أفلام في غيابي. ولفتني اسم نجيب محفوظ في فيلمين اكتشفت فيهما تركيبة مختلفة عن السرد الذي كان موجودا في السينما المصرية. ذهبت وتعرفت إلى نجيب محفوظ وسألته إذا كان يقبل أن يعمل معي على المعالجة التي كنت بدأت أكتبها في فرنسا لسيناريو فيلمي الأول. فوافق.

في فرنسا، كان من المفروض أن أدخل الإيدك IDHEC، أي معهد السينما في باريس[٧]. في السّنة الأولى، لم أدخل إلى المعهد. ذهبت إلى السينماتيك Cinémathèque ونوادي السينما واكتشفت تاريخ السينما كما يجب، فكنت أشاهد الأفلام التي قرأت عنها.

في السنة الثانية، قرّرت أن أدخل مدرسة التصوير «Vaugirard»[٨]. داومت لمدّة يوم أو يومين، لأنّني لم أستطع الاستيقاظ باكراً.

التجربة الثالثة، كانت في جامعة السوربون حيث كان هناك تخصّص جديد اسمه filmol أي دراسة السينما كجزء من علم الجمال. أمضيت هناك فترة وكأيّ جاهل، اعتقدتُ أنّني أفهم كلّ شيء. بعد هذه المرحلة، تدرّبت في فيلمين.

لم أعدْ أذكر اسم مخرج الفيلم الأوّل الذي كان من مخرجي الدّرجة الثّالثة في فرنسا، لكنّ الفيلم كان من بطولة شارل ترينيه Charles Trenet[١]. بما أنّ مساعد المخرج ارتكب أخطاء عدّة، بدأت أتدخّل، فانتبه المخرج إلى ملاحظاتي وأخذ يطلب منّي أن أحضّر العمل بدل أن يطلبه من مساعده. فرفع هذا الأخير شكوى للنّقابة. من ثمّ نفد منّي المال وعدت إلى مصر».

لا شكّ أنّ التّجربة الباريسيّة أكسبت صالح ثقافة واسعة في السينما وباقي الفنون ووسّعت آفاقه. عاد إلى القاهرة وبدأ يعمل على كتابة فيلمه الأوّل «درب المهابيل».

مع نجيب محفوظ

«لدى عودتي إلى مصر، بدأت أشاهد في سينمات الدّرجة الثّانية كلّ ما أنتج من أفلام في غيابي. ولفتني اسم نجيب محفوظ في فيلمين اكتشفت فيهما تركيبةً مختلفة عن السّرد الذي كان موجوداً في السينما المصريّة. كان هناك بناء مختلف تماماً عن سرد الحدّوتة المعتَمدة في الأفلام. ذهبت وتعرّفت إلى نجيب محفوظ وسألته إذا كان يقبل أن يعمل معي على المعالجة التي كنت بدأت أكتبها في فرنسا لسيناريو فيلمي الأوّل، فوافق.

إنتقد أشياء أساسيّة في المعالجة وطلب منّي أسبوعاً ليُعيد كتابتها بطريقة مختلفة. وبعد أسبوع تحديداً جاء مع تسعة مقاطع من أربع ورقات. صُعقت لأنّه غيّر الشخصيّات التي أصبحت شخصيّات مصريّة حقيقيّة، كما أعطى للفيلم عنواناً فاجأني: «درب المهابيل». ودربُ المهابيل هي حارة مع كلّ تفاصيلها الواقعيّة بالنّسبة إلي، يعود الفضل في الواقعيّة في السينما المصريّة إلى نجيب محفوظ. كما له الفضل في واقعيّة «درب المهابيل». اكتشفتُ فيما بعد مدى تأثير نجيب محفوظ في السّينما الواقعيّة وأهمّية دور محفوظ في هذا الإطار كما اكتشفتُ مدى تأثير محفوظ في صلاح أبو سيف.

وصلاح أبو سيف كان مستشاراً لشركة الهلال للإنتاج وكان يقرأ السيناريوهات ويعطي الموافقة على الإنتاج. عندما قرأ سيناريو فيلم «درب المهابيل»، اعتبر

أنّ الفيلم فاشل. وقارنه بفيلم: «السوق السوداء»[١٠]، الذي عرف فشلاً كبيراً وقال إنّ مصير فيلمي سيكون مشابهاً. صدمني الأمر. بحثت عن كلّ من يمكن أن يُنتج هذا الفيلم إلى أن قرأ السيناريو عبد الحميد بودا الصحّار ومحمّد فرج وهما من معارف محفوظ ويريدان إنتاج أفلام. أعجبهما السيناريو. وهكذا صوّرنا الفيلم في استوديو الأهرام، وكان مهندس الدّيكور ماهر عبد النّور.

عندما أنهينا الفيلم، تقرّر عرضه في سينما ريفولي خلال فترة العيد. كنت أذهب إلى السينما وأستمع إلى أقوال النّاس بعد عرض الفيلم، من هؤلاء سيّدة خرجت وهي تتشاجر مع زوجها قائلةً: «دي فسحة تفسّحني بيها؟ ردّ عليها: إسكتي يا مرا ده فيلم واقعي. فأجابته: ما أنا عايشة فيه كلّ يوم. أنا عايزة أتفسّح!».

كانت هذه إشارة! طبعاً، لم يكن الجمهور معتاداً على هذا النّوع من البناء والسّرد الفيلمي، فسقط الفيلم سقطة مدوّية في البداية. وتزامن هذا السّقوط مع عرض فيلم «رنّة الخلخال»[١١] مع الممثّلة نفسها[١٢] التي تلعب في «درب المهابيل». وعرف «رنّة الخلخال» نجاحاً وكان فيه الكثير من الإيحاءات الجنسيّة عكس «درب المهابيل».

بعد هذه التّجربة، حاولتُ أن أعمل مع عدّة منتجين لكنّ أحداً منهم لم يشأ أن يعطيني أيّ فرصة. قالوا إنّ تجربة «درب المهابيل» تكفي. وهكذا بقيتُ عاطلاً عن العمل لمدّة خمس سنوات. بعدها بأربع أو خمس سنوات أقامت الدّولة أوّل مهرجانٍ قوميّ للسينما وأعلنت أنّه يجوز تقديم الأفلام التي أُنتجت في السنوات الخمس الأخيرة، فدخل «درب المهابيل» في المسابقة وجاءت النتيجة كالآتي: الجائزة الأولى: فيلم «شباب امرأة»[١٣] لصلاح أبو سيف. فاز فيلمي بالمرتبة الثّانية بجائزةٍ مشتركة مع فيلم عزّ الدين ذو الفقار «رُدّ قلبي» الذي عُرض بالألوان.

حزن الراحل عزالدين ذو الفقار، وسأل من هو توفيق صالح؟ وما هو هذا الفيلم الذي ينافس «ردّ قلبي» وهو فيلم عن الثورة؟ كان مريضاً في البيت فطلب نسخة ٦١ ملم من «درب المهابيل» وعرضها في غرفة نومه. أُعجب بالفيلم وبإخراجه. فاتصل بي وسألني: «ما بتحضّرش حاجة؟ قلتلّه: لأ، فقال لي تعال» وطلب منّي أن أنجز فيلماً اسمه «صراع الأبطال»».

مع فيلمه الأوّل «درب المهابيل» (١٩٥٥)، أظهر توفيق صالح بأسلوب واقعيّ الحارة المصريّة الفقيرة التي يتنازع أهلها على ورقة يانصيب. ماذا يحصل عندما يفوز مجنون الحارة بورقة يانصيب؟ ارتبطت التجربة الواقعيّة هنا بخبرة الأديب نجيب محفوظ الذي شارك في كتابة السيناريو وجعل الفيلم مصريّاً بكلّ معنى الكلمة. مع «درب المهابيل» امتزج أسلوب أفلام الواقعيّة الشعريّة الفرنسيّة في الثلاثينيّات، حيث كان يتمّ التصوير في الاستوديو وتلعب الإضاءة دوراً مهمّاً مع الوجوه الشعبيّة المختارة بدقّة وكأنّنا أمام نموذج من الواقعيّة الجديدة الإيطاليّة. ودخل الغناء على سكّان الحارة وكأنّه طريقة تعبير شعبيّة عفويّة بعيداً عن نمط الفيلم الغنائيّ المصري.

فضحت قصّة ورقة اليانصيب حالة الفقر والطمع والعلاقات بين سكّان الحارة والصراع للحصول على المال داخل المكان الواحد وكأنّ الحارة مجسّمٌ عن البلد. الكلّ بحاجة إلى معجزة مثل فيلم فيتوريو دي سيكا: «معجزة في ميلانو» (١٩٥١) لكنّ المعجزة هنا مصدر خلاف لأنّها فرديّة ونهايتها غير سعيدة إذ تلتهم الماعز الثروة التي خبّأها المجنون!

يحتوي «درب المهابيل» على عناصر مميّزة من خلال القصّة والأسلوب، لكنّ فشل الفيلم على شبّاك التذاكر لن يسمح لصالح بمتابعة هذا الاختبار. رغم أنّ اهتماماته الاجتماعيّة ستبقى طاغيةً مع فيلمه التّالي «صراع الأبطال» (١٩٦٢) الذي يطرح موضوع مواجهة العلم للفقر والجهل من خلال شخصيّة طبيب. إلّا أنّ صالح سيخضع لشروط الميلودراما والحوارات المباشرة التي تحجّم في بعض المشاهد القدرة السينمائيّة مقابل إيصال الفيلم بطريقة أسهل للجمهور.

تجري أحداث الفيلم في الأربعينيّات وتحديداً أيّام مأساة الكوليرا سنة ١٩٤٨، لكنّه يُجسّد من خلال شخصيّة الطبيب شكري (شكري سرحان) خطاب المرحلة الناصريّة ومشروع تطوير المجتمع ومحاربة الإقطاع والفساد ونشر العلم.

سينما لفهم المجتمع

«عندما تمّ إنتاج «صراع الأبطال»، كنتُ مقتنعاً بالنّظام في مصر. مقتنعاً وأحبّذه وسعيداً بالرئيس عبد النّاصر شخصيّاً. وكان هناك اهتمام كبير جدّاً بتطوير المجتمع.

بالنّسبة لي، يجب أن يقوم الشخص المتعلّم بخدمة مجتمعه. وهذا محور مهمّ في الفيلم واقتناع حقيقيّ عندي. لذلك عندما كانوا يسألونني عن الفيلم، كنت أقول لولا وجود الثّورة والرغبة في تطوير البلد والوصول إلى مستقبل أفضل، لم يكن من الممكن كتابة السيناريو بهذا الشكل. عندما كُلّفت بهذا الفيلم، كنت أريد أن أنجز فيلماً ناجحاً.

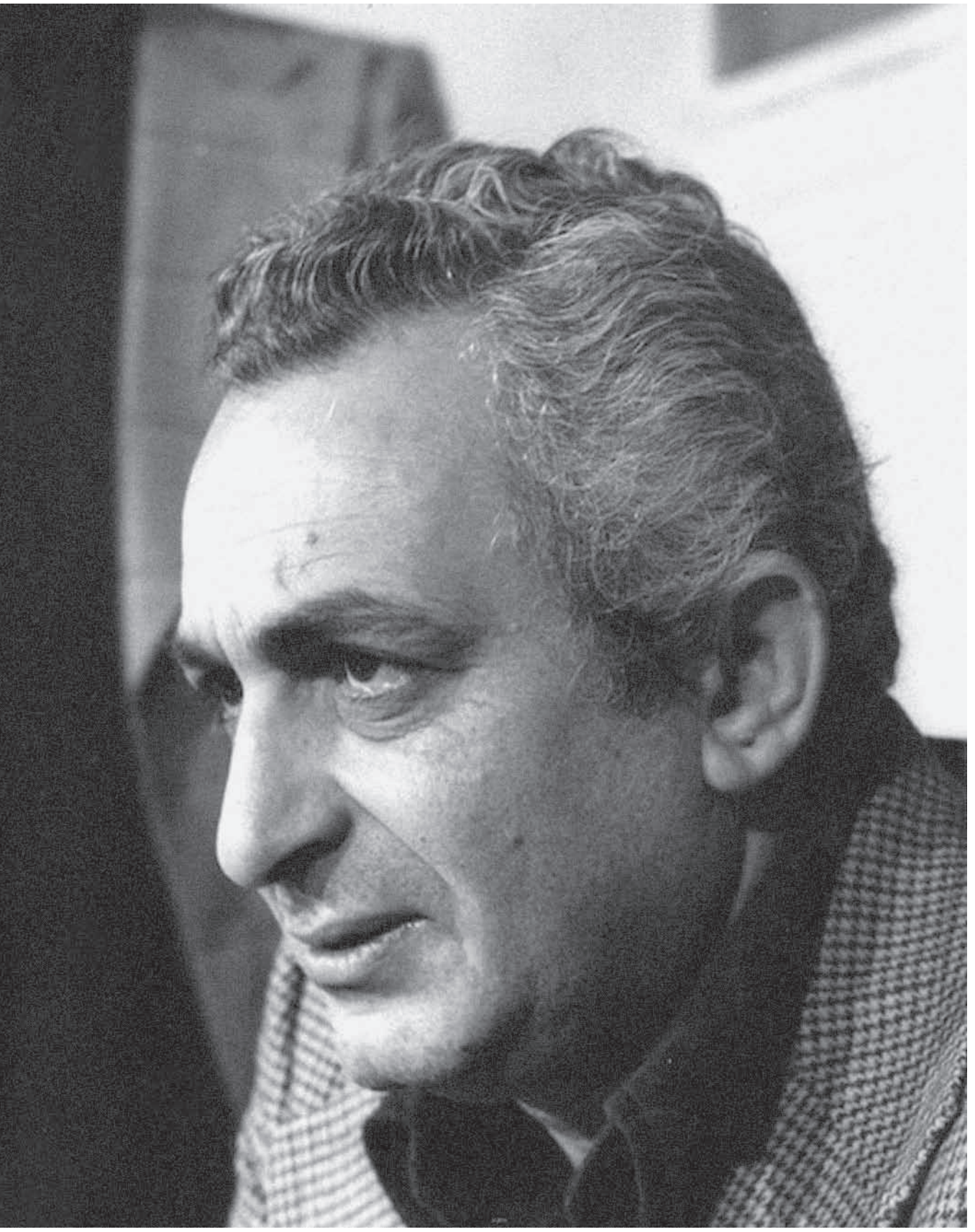

كانت الميلودراما هي السائدة، فقرّرت أخذ هذه التقنيّة ومن خلالها إيصال أفكاري بأمانة وبوضوح في قالب سينمائيّ. واجهنا عقبات كبيرة مع رفض الصّالات عرضَ الفيلم إلى أن وافقت سينما مترو على ذلك وحاز على نجاح كبير.

كنت أعلم أنّ عبد النّاصر يرفض تحويل السينما إلى قطاع عامّ، لكنّه فجأة وافق بعدما شاهد «صراع الأبطال» وقال: «لو تعملوا أفلام من هذا النوع يبقى كويس. واتعمَل القطاع العام»».

تمّ تأميم السينما في مصر سنة ١٩٦٣ واستمرّت هذه المرحلة حتى سنة ١٩٧١. وفيما انتقل العديد من المخرجين إثر هذا التأميم إلى لبنان، قام صالح بإخراج أفلام من إنتاج القطاع العام وما لبث أن واجه الصعوبات مع دُور الرّقابة والتقييد على الحريّات، واستمرّ يصارع كالطبيب شكري لإنتاج سينما تُطوّر المجتمع وتطرح الأسئلة المحوريّة.

«أنا مقتنع بأن السينمائي يجب أن يراقب ما حوله ويستلهم ما يستطيع ممّا حوله. السينما المصريّة عاشت ولا تزال عائشة على استلهام فكرة من فيلم أجنبيّ وتعيد صياغته بطريقة مصريّة ونِكَت مصريّة. وأنا كنت أنادي وأقول هذه أفلام ليست مصريّة. حتى قبل أن أعمل في السينما، أي عندما كنتُ لا أزال في الجامعة، كنت مقتنعاً ومؤمناً أنّ السينما يجب أن تساعد المتلقّي على فهم المجتمع الذي يعيش فيه لكي يستطيع أن يطوّره، ولذلك أحد مبادئي أنّه عندما يشاهد اثنان فيلماً ويخرجان يتناقشان في الموضوع أو في الصراع الموجود في الفيلم، فإنّني أعتبر أن الفيلم مفيد لأنّ السينما ليست كأيّ فنّ.

ومن مبادئي أنّ السينما ليست كأيّ فنّ، لذلك أعتبر الفيلم مفيداً، هي فنّ بصريّ قادر على تحويل وعي المشاهد ويجب على كلّ فيلم أن يحتوي على فائدة للمشاهدين.

كانت بدايتي طموحة جداً. كنت أعتقد أنّني تعلّمت ودرست في السوربون ولم تكن الأفلام المصريّة تعجبني. كنت أبحث عن لغة خاصّة للفيلم المصريّ وهذا ما حاولت اختباره في فيلم «درب المهابيل». صحيح أنّ إطار «درب المهابيل» مصريّ وكذلك العقدة، لكنّني لا أستطيع أن أدّعي أنّني عرفت أن أتوصّل إلى هذه اللغة التي أبحث عنها.

عندما فشل هذا الفيلم وجاء «صراع الأبطال»، لم أكن أبحث عن لغة مصريّة (سينمائيّة) بل كنت أبحث عن فيلم ينجح».

أظهر «صراع الأبطال» الوباء الحقيقي الذي يفتك بالشّعب وهو الفقر، وجسّدت المواجهة بين الطبيب وقابلة القرية، الصّراع بين التقدّم والعلم وإقامة المجتمع العصريّ مع التخلّف والمعتقدات البالية.

يبدأ الفيلم مع وصول الطبيب (شكري سرحان) في القطار لمباشرة مهمّته في القرية البعيدة وينتهي مع إتمام مهمّته وانطلاقه مجدّداً في القطار نحو مهمّة في قرية أخرى أو نحو «بداية جديدة». عند وصوله، يستقبل الدكتور شكري مأمور نقطة القرية. عند مغادرته، يودّعه جميع أهل القرية وحتّى البيه (صلاح نظمي) الذي تحوّل دراماتيكيّاً وكأنّنا أمام مصالحة طبقيّة. قد تُذكّرنا صورة شكري المنتصر في نهاية الفيلم وهو يغادر في القطار ويحيّي أهالي القرية بصورة الرئيس عبد الناصر وهو يجوب مصر في القطار فيما الجماهير تتدافع لتحيّته. إنّه زمن الأحلام الكبيرة التي ستتبدّد تدريجيّاً وتتحوّل مع فيلم «المتمرّدون» حيث يتطرّق توفيق صالح إلى الثورة وإخفاقها.

«المتمرّدون» و ٥ يونيو والرقابة

«نحن في الستينيّات، منذ أيّام حرب اليمن ونحن ننزل سياسيّاً خطوة خطوة.

بين ١٩٦٥ و١٩٦٦، كتبت فيلم «المتمرّدون» فيما كان الوضع السياسيّ في مصر إلى انهيار. عندما تشاهد «صراع الأبطال»، تجد نظرة للمستقبل وحماسةً وتجد شخصاً (شخصيّة الدكتور) يضحّي من أجل خدمة المجتمع. في «المتمرّدون»، تجد إدارة المستشفى لا تخدم شعبها ولا تخدم المرضى. والمرضى في ثورةٍ بدون وعي. يغضبون ويتمرّدون ويتظاهرون من دون أن تحلّ مشكلتهم». «بدأت تصوير «المتمرّدون» يوم ٥ حزيران / يونيو) ١٩٦٦ وكان جاهزاً تقريباً في تشرين الثاني / نوفمبر مع الانتهاء من الميكساج. لكنّ الفيلم لم يُعرض. عند إرساله إلى الرقابة، تأخّرت النتيجة، فذهبت لأرى ما هو سبب التأخير. وجاء أحدهم يسألني عن رمزيّة الماء في الفيلم وآخر يسأل عن رمزيّة الشمس وأنا أقول لهم: الماء ماء والشمس شمس، لكنّهم اعتبروا أنّ لكلّ لقطة ولكلّ شخصيّة أبعاداً رمزيّة علماً أنّ الفيلم من إنتاج القطاع العامّ. مُنع الفيلم لمدّة سنتين ولم يُعرض إلّا سنة ١٩٦٨».

تدور أحداث الفيلم (نقلاً عن رواية صلاح حافظ الذي شارك أيضاً مع صالح في كتابة السيناريو) في إحدى المصحّات الحكوميّة الواقعة وسط الصحراء والتي ينقسم مرضاها إلى نوعين أحدهما نخبة تنعم بالمال والرعاية والعلاج، والنّوع الثاني في الأقسام المجّانيّة يفتقدون لأبسط شروط العيش من ماء ودواء. يموت هؤلاء المحرومون

من العطش فيتدافعون لشرب الماء من الخزّانات. الشعب مريضٌ والسلطة فاسدة تسيطر عليها البيرقراطيّة.
يزداد التمرّد الشعبي ويرتفع شعار: «لا سكوت بعد اليوم». فتنطلق الثورة التي تستولي على الإدارة ويتمّ اختيار الدكتور عزيز، الطبيب القادم إلى هذه المصحّة زعيماً لهذه الثورة. لكنّ المشاكل تتضاعف مع عدم حسن إدارة الثورة وطغيان الفوضى وسيطرة الجوع بحيث لا تختلف الإدارة الجديدة عن القديمة. من اللافت في هذا الإطار أنّ الممثّل شكري سرحان يلعب مرّةً جديدة دور الطبيب لكنّ دوره هنا اختلف عن النّظرة الإيجابيّة والمثاليّة التي ارتسمت في «صراع الأبطال». في «المتمرّدون»، يصبح الطبيب مريضاً ومكسوراً ويقول: «كنت أحلم بحاجة مستحيلة»و«ضيّعت عمري على سراب».

انكسرت أحلام التّغيير والنكسة قادمة. السّلطة بيد الشعب تؤدّي إلى الفوضى ولا تلبث السلطات أن تقضي على المتمرّدين لنعود من جديد إلى الإدارة القديمة.

يطغى إذاً على الفيلم الطابع السياسيّ بحيث يرسم بقساوة واقع مرحلة تصويره كما يمكن الاستعانة به اليوم لتبيان الحالة المصريّة والعربيّة عموماً بعد معظم الثورات الأخيرة.

يتميّز الفيلم بكيفيّة تصويره حالة التمرّد والحركة الشعبيّة التي تصبح ثورة فيما تكتفي الموسيقى كالعادة بالشحن العاطفي. لكنّ هذا الفيلم البارز في مسيرة صالح يعمل على تطوير المقاربة النقديّة التي ستتجلّى أكثر فأكثر في السينما المصريّة بعد هزيمة **١٩٦٧**. ورغم أنّ «المتمرّدون» هو أوّل أفلام توفيق صالح من إنتاج القطاع العام في السينما لكنّه سيتعرّض للرّقابة.

سيستمرّ هذا الالتزام بقضايا المجتمع في أفلامه التالية من «يوميّات نائب في الأرياف» (**١٩٦٨**) حيث يعالج بسخرية علاقةَ القانون بالواقع إلى «السيّد البلطي» (**١٩٦٧** - **١٩٦٩**) إذْ يطرح موضوع الصراع بين القديم والجديد وصولاً إلى القضيّة الفلسطينيّة مع أجمل أفلامه: «المخدوعون» (**١٩٧٢**). ما العلاقة المستمرّة بين أفلام توفيق صالح والسياسة؟

«كثيرون حتى اليوم يعتبرونني شيوعيّاً بينما آخرون يقولون إنّني ناصريّ إذ إنّ أفلامي سياسيّة. أنا أشعر بالرغم من كلّ شيء، بالحريّة: في الاختيار والتصرّف والقول. وهذه الحريّة تجعلني أختلف عن الذين يخشون أن يتكلّموا».

تكشف مسيرة توفيق صالح مدى صعوبة التعامل مع القطاع العام وتخلّف الأنظمة العربيّة في فترة رُفعت فيها الشعارات الثوريّة والتقدّميّة والتصحيحيّة. وتشكّل تجربة صالح نموذجاً عربيّاً بامتياز عن واقع السينمائيّ بوجه السلطة.

بعد «المتمرّدون»، قام توفيق صالح بإخراج «السيّد البلطي» في أيلول / سبتمبر **١٩٦٧**، أي بعد ثلاثة أشهر من الهزيمة العربيّة أمام إسرائيل. صوّر الفيلمُ مجتمع الصيّادين حيث عائلة «البلطيّة» وهي عائلة كبيرة يغيب عنها السيّد البلطي فيصبح كلّ فرد يسير على هواه.

«السيّد البلطي» هو كبير العائلة الذي يتحوّل إلى أسطورة ويبدو وكأنّ زمنه قد انتهى، فيما ابنه (عزّت العلايلي) يبحث عن سراب الوالد ليدلّه على الطريق معلناً أن «الحمْل ثقيل».

نحن ندخل في مرحلة جديدة وكأنّ السيّد البلطي يمثّل بعض الشيء أسطورةً عبد النّاصر الأب وفي حال غيابه، تتفكّك العائلة وينتهي زمن الأساطير.

عبد الناصر و«يوميّات نائب في الأرياف»

انطلق الفيلم من مفهوم أنّه إذا قام الشعب بخلق أسطورة من شخصيّة ما، يتوقّف عن العمل معتمداً على هذه الشخصيّة التي ستعالج كلّ الأمور وستحلّ المشاكل والنتيجة تكون الهزيمة. هذا هو المحور الأساسيّ لفيلم «السيّد البلطي»، لكنّ المشكلة أنّ الفيلم ناقش معظم الأفكار من خلال الحوار فقط. «تركتُ مصر بعد «السيّد البلطي» لأنّهم حذفوا الكثير من المشاهد. كما اعتبرت أنّ النّقد الذي طاول الفيلم كان بمثابة الإهانة الشخصيّة».

رغم كلّ المصاعب التي واجهها في فيلمه السّابق، عاد صالح وتعاون مع المؤسّسة العامّة للسينما التي أنتجت الفيلم نقلاً عن رواية صالح مرسي. ولم تغب، كالعادة، يد الرقابة لتتدخّل في تعديل الفيلم. وكما أعلن عزّت العلايلي في الفيلم أنّ الحمْل أصبح ثقيلاً، يبدو أن صالح لم يعد يتحمّل كلّ هذا الثقل في العمل.

ولكن قبل أن يغادر مصر، أخرج توفيق صالح فيلماً نجح فيه بنقل السّخرية التي تميّز أسلوب توفيق الحكيم من خلال اقتباس كتابه: «يوميّات نائب في الأرياف». وكتب صالح السيناريو مع ألفريد فرج.

تمّ إنتاج هذا الفيلم سنة **١٩٦٨** مقتبساً كتاب «يوميّات نائب في الأرياف» لتوفيق الحكيم عن الرّيف المصري في ثلاثينيّات القرن العشرين يطرح فكرة العدالة وانتقائيّة القانون والبيروقراطيّة والفساد والقهر. وبما أنّ السّرد السينمائي يقوم في جوهره على السخرية، لم تتأخّر كالعادة مشاكل صالح مع الرّقابة:

«لإعطاء إجازة عرض لهذا الفيلم، اشترط وزير الداخليّة أن أقوم بإخراج فيلم قصير (٢٠ دقيقة) عن الشرطة في خدمة الشعب وأن يكون تصوير الفيلم بالألوان.

ولا يُعرض فيلم «يوميّات نائب في الأرياف» إلّا مع هذا الفيلم القصير. رفضتُ هذا الشّرط. استمرّت القصّة لمدّة شهرين وكوّن الوزير لجاناً لمشاهدة الفيلم لتقترح ما هي المشاهد التي يجب حذفها. فكنت أذهب إلى وزارة الداخليّة وأسلّم اللجنة علب الفيلم وعددها ١٢، لتتفرّج عليه.

تناوبت خمس لجان على مشاهدة الفيلم من دون التوصّل إلى اتّخاذ قرار بخصوصه. ثمّ ترأّس شعراوي لجنةً أخرى وأخذوا يقارنون بين الكتاب والفيلم ليحذفوا أيّ مشهد قد أضفته. نحن نتحدّث عن توفيق الحكيم ولا يوجد أيّ مثّقف مصري لم يقرأ هذا الكتاب. إلّا أنّ عمل الرقابة استمرّ مع لجنة مركزيّة من وزارة الداخليّة.

سمع الرئيس عبد النّاصر بهذه القصّة فطلب مشاهدة الفيلم. اتّصل بي مدير مكتبه ثروت عكّاشة في السّاعة السّابعة صباحاً وأرسلت له الفيلم. يبدو أنّ عبد الناصر شاهد الفيلم في الليل في منزله وأصدر الأمر بعدم المسّ بأي «كادر» من الفيلم وقال لو أنّ المؤسّسة العامّة للسينما أنتجت أربعة أفلام مثل «يوميّات نائب في الأرياف»، فإنّه سيضاعف ميزانيّتها».

هكذا خاض صالح معارك قاسية مع الرّقابة من خلال أفلامه الثلاثة: «المتمرّدون» (١٩٦٦) و«السيّد البلطي» (١٩٦٧) و«يوميّات نائب في الأرياف» (١٩٦٨). وتعكس هذه التجربة مدى صعوبة إنجاز أفلام فيها مضمون سياسيّ واجتماعيّ وتجعل المشاهد يفكّر بواقعه. ويبدو أنّ ثقل هذه التجربة أدّى إلى اتّخاذ صالح قرار الرّحيل وكأنّ الصّراع انتهى بهزيمة على عكس انتصار الطّبيب الذي أراد إنهاض شعبه في «صراع الأبطال» (١٩٦٢).

«المخدوعون»: القضيّة الفلسطينيّة سينمائيّاً

انتقل صالح من مصر إلى سوريّة حيث سيقتبس رواية الكاتب والمناضل الفلسطينيّ غسّان كنفاني: «رجال في الشمس» في فيلم «المخدوعون».

أصدر كنفاني رواية «رجال في الشمس» في بيروت عام ١٩٦٣ وتجري أحداثها سنة ١٩٥٨، أي بعد عشر سنوات من نكبة ١٩٤٨. لكنّ المستجدّات الدراماتيكيّة التي حصلت بين ١٩٦٧ و١٩٧٠ كانت لا شكّ ستأخذ من يبغي اقتباس هذا الكتاب سينمائيّاً إلى بعد نقديّ أوسع وأقوى من ظروف كتابته بالأخصّ بعد هزيمة عربيّة جديدة سنة ١٩٦٧ قضت على ما تبقّى من أرض فلسطين التاريخيّة وأراضٍ عربيّة أخرى. وقد تأثّر صالح بكلّ هذه الخلفيّة لينجز فيلماً أساسيّاً ليس فقط في مسيرته بل في تاريخ السينما العربيّة وفي مسيرة الأفلام التي بدأت تتناول القضيّة الفلسطينيّة بطريقةٍ جدّيّة قبل أن يقوم الفلسطينيّون بأنفسهم بنقل واقعهم سينمائيّاً من الدّاخل والخارج.

كنّا قد شهدنا على بعض الأفلام الروائيّة التي صُوّرت في لبنان سنة ١٩٦٩ مثل «كلّنا فدائيّون» لكاري كرابيتيان والتي ركّزت على عنصر الحركة وإبراز «السوبرمان» الفلسطيني الذي يواجه جنود الاحتلال. لكنّ المقاربة السينمائيّة مع «المخدوعون» اختلفت كليّاً، فالموضوع ليس قضيّةً تجاريّة تلعب على مشاعر الجمهور بل هو التزامٌ بقصّة أفراد فلسطينيّين يحاولون الهروب من واقعهم المأساوي. وتأتي هذه المقاربة في زمن الإعلان عن «السينما البديلة» في مهرجان دمشق السينمائي سنة ١٩٧٢ وبروز سينما عربيّة ملتزمة بقضايا المجتمع تُعطي الدَّور الأساسيّ لسينما المؤلّف بوجه السينما التجاريّة.

يتناول فيلم «المخدوعون» قصّة ثلاثة فلسطينيّين (أبو قيس وأسعد ومروان) يحاولون الهرب إلى الكويت بحثاً عن المال والاستقرار، فيوافقون على الاختباء داخل خزّان بغية عبور الحدود العراقيّة الكويتيّة في شهر آب / أغسطس الحارّ. يشبّه سائق الشّاحنة أبو الخيزران الخزّان بالمقلى ويعلن أن الخزّان سيصبح من الدّاخل فرناً حقيقيّاً، أمّا أسعد فبمجرّد أن يسقط رأسه داخل الخزّان يُعلن: «هذه هي جهنّم!».

هكذا يبدو أنّ على الشخصيّات الدخول إلى جهنّم للهروب من واقع أسود يعيشون فيه ولكنّ الموعد مع الموت حتميّ في غياب الحلّ العربيّ والجماعيّ لقضيّتهم. إنّهم «المخدوعون» الذين يمثّلون شعباً مخدوعاً ينتظر استعادة الوطن المسلوب.

«ذهبت إلى سورية وقابلت أحد المسؤولين في المؤسّسة العامّة للسينما. تلقّيت عرضاً بإخراج فيلم أختار موضوعه. فوافقت مباشرةً خصوصاً أنّ أكثر من كان يهاجمني في مصر كان من القطاع العام وكان من المستحيل تلقائيّاً أن أحصل على إنتاج مصريّ جديد.

قرّرت أن أنجز «المخدوعون» بإنتاج سوريّ لأنّه يتناول المشكلة الفلسطينيّة ولن يواجه معارضةً سوريّة. وتمّت الموافقة. كنت قد كتبت معالجةً أولى في مصر لكن بعد وفاة عبد النّاصر[١٤] وأحداث أيلول الأسود[١٥] ومشاعر الحزن والألم والغضب التي خلّفها هذان الحدثان، أعدتُ

المتمردون

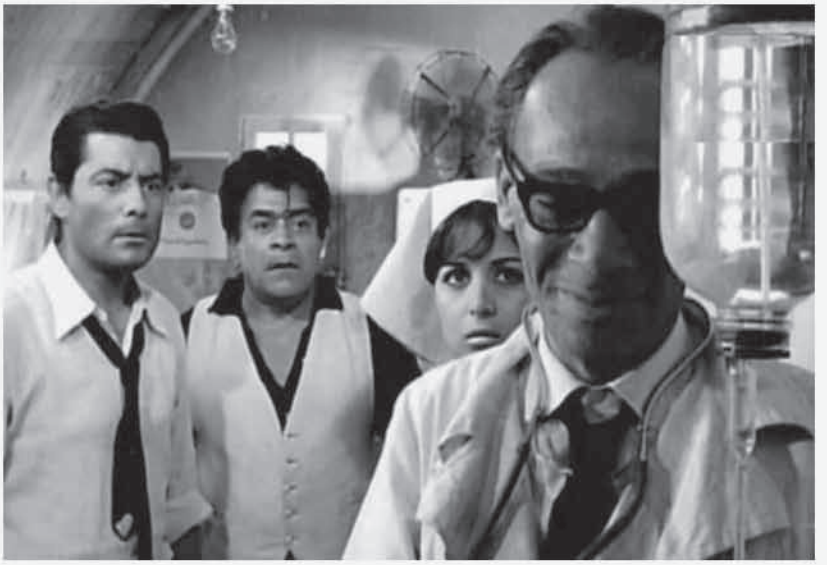

METROPOLE — STARCO — METROPOLE — STARCO — ME

CINEMA
MÉTROPOLE
Tél. : 221435
Salle Climatisée
à partir du Lundi 16 Juin

المتمردون
(Les Révoltés)
avec
Chucri Sarhan
Toufic Al Dakn
Zizi Moustapha
Zouzou Chakib
Un film de Tawfik Saleh

METROPOLE STARCO METROPOLE STARCO METROPOLE STA

METROPOLE — STARCO — METROPOLE — STARCO —

قراءة كتاب غسّان كنفاني «رجال في الشّمس» وقرّرت أن أحتفظ بكلّ ما في الكتاب وأن أضيف أشياءً بسيطة تضع القصّة في الإطار الزمنيّ الحالي.

في روايته، يقول غسّان كنفاني إنّ النّاس تموت في الخزّان بصمت من غير أن تقاوم[١٦]. قمت بتعديل هذا الأمر وجعلتهم يخبّطون على جدار الخزّان. لكن بسبب صوت المكيّف في مكتب الحدود الكويتي لم يسمعهم أحد وماتوا. ورغم كلّ الصّعوبات الإنتاجيّة والتقنيّة، أنجزنا الفيلم».

«عندما عرضنا الفيلم لموظفي المؤسّسة العامّة للسينما، قالوا إنّ المخرج اقتبس الكتاب صفحةً صفحة وكان بوسع أيّ مساعد مخرج أن يقوم بهذا العمل، أي أنّه لم يكن هناك حاجة لمخرج.

بالطّبع أغضبني هذا الكلام بعد كلّ المجهود الذي بذلتُه لإنجاز الفيلم. ذهب هؤلاء الموظّفون عند مدير المؤسّسة وكتبوا تقريراً يُفيد بأنّ الفيلم دون مستوى العرض وأنّ من العار على المؤسّسة السّوريّة للسينما أن تعرضه. فأعطى الوزير الأمر بالاحتفاظ بالفيلم في المخازن.

بعد شهرين أو ثلاثة، أقيم في سورية مهرجانٌ عن السّينما البديلة وكان من بين المشاركين الأساسيّين النّاقد السينمائيّ المصريّ سمير فريد فطلبت منه مشاهدة الفيلم وإبداء رأيه به. فقال عنه إنّه فيلمٌ عظيم وأنّه سيجعل المهرجان يعرضه.

بعدها، جاء صديقي الطّاهر الشريعة، وهو مؤسّس مهرجان قرطاج السّينمائي وشاهد الفيلم فأبدى حماسةً لا توصف وطلب إعادة العرض في اليوم التّالي لمجموعة من النقّاد الفرنسيّين. وإذا بمرسيل مرتان[١٧] يصمّم على أنّه يجب عرض الفيلم في مهرجان كان لكنّه اكتشف أنّ ميعاد تقديم الأفلام قد انتهى. وبقيت هناك إمكانيّة لتقديم الفيلم ضمن فقرة جديدة هي La Quinzaine des réalisateurs. فقال إنّ على المؤسّسة أن ترسل الفيلم في اليوم التّالي، وكان هذا الموضوع غريباً على مدير المؤسّسة العامّة لكنّ مرسيل مرتان بقي عنده أربع ساعات للحصول على إذن إرسال الفيلم لأنّ الوزير كان معترضاً. سافر الفيلم أخيراً وتمّ اختياره في «الكانزان».

أرسل «مهرجان كان» دعوتين: واحدة لمدير المؤسّسة وأخرى لي. أخذوا دعوتي وقالوا: «إنت مش موظف عندنا، إنت بالعقد». وتمّ اختيار شخص ثان يهتمّ بتوزيع الأفلام ليحلّ مكاني! حاز الفيلم على نجاح كبير وكتب عنه النقّاد تحت عنوان: «مفاجأة الفيلم السوري». وكان الأمر مذهلاً.

لكنْ مع عودة الفيلم إلى سورية، استمرّ رفض عرضه.

بعد شهرين، عُرض الفيلم في مهرجان قرطاج السينمائيّ وحاز على الجائزة الأولى.

اعترض الوفد الكويتيّ على الفيلم وخرج أعضاؤه من السّينما وهم يشتمونه.

وقد علمتُ أنّ وزارة الخارجيّة الكويتيّة اتصلت بوزارة الخارجيّة السوريّة وأعلنت عن اعتراضها على الفيلم. لم تأتِ الموافقة على عرض الفيلم في سورية إلّا بعد عدّة أشهر وعُرض فقط لمدّة أسبوعين. ولم يعرض في الكويت إلّا بعد أكثر من سنة ومن ثَمّ عُرض على التلفزيون عدّة مرّات».

تمكّن «المخدوعون» من خلال شخصيّاته أن يتناول القضيّة الفلسطينيّة من منطلق تاريخيّ (موثّق أيضاً من خلال صوَر الأرشيف) واجتماعيّ مازجاً أيضاً الأجيال. ويشكّل الفيلم نموذجاً عربيّاً نادراً من «أفلام الطريق» (road movies) حيث الصحراء ليست كما في الأفلام الأميركيّة التي أنتجت في الفترة نفسها. في أفلام ما سمّي «هوليوود الجديدة»، شكّلت الصحراء فضاءً للتحرّر من جميع القيود الاجتماعيّة، بينما الصحراء في فيلم «المخدوعون» ستكون المقبرة التي تتحطّم فيها الأحلام وتحترق فيها الأرواح.

بالإضافة إلى شخصيّات المخدوعين الثلاثة، تبرز شخصيّة السائق الفلسطينيّ الذي يقودهم بشاحنته محاولاً تهريبهم ويعلن لأحدهم: «لازم تحط ثقتك فيّي، أنا القائد».

إلّا أنّ القائد حُرم من رجولته بسبب إصابته من جرّاء لغم وكما يكتب ألدو نيكوسيا: «من السّهل اعتبار شخصيّة أبو الخيزران رمزاً عن القيادة العربيّة التي تفتقر للشرف والرجولة»[١٨].

في زمن الإعلان عن ولادة السينما البديلة (١٩٧٢) كردّة فعل على الأفلام التجاريّة التي خدّرت الشّعوب بسذاجتها وإدخالها مشاهد الرقص في جميع أجناس الأفلام، يأتي هذا الحديث عن كوكب الراقصة معبّراً في قاعة مكيّفة فيما الآخرون في الخارج منسيّون. ويأتي «المخدوعون» كانطلاقة فعّالة في التطرّق للقضيّة الفلسطينيّة ممهّداً الطريق لفيلم آخر من إنتاج القطاع العام في سورية وهو: «كفر قاسم» (١٩٧٤) لبرهان علويّة.

يقول توفيق صالح: «بداية نضجي كمخرج هو «المخدوعون». لذلك أنا أقول: «يا خسارة أنا ما اشتغلتش بعد كده. ده كان ممكن يدفعني لحاجات أحسن، بس ما حصلش».

«الأيّام الطويلة» في مديح صدّام

بعد التجربة السوريّة، انطلق صالح بتجربةٍ جديدة مع نظام بعثيّ آخر في العراق.

«بينما كنت أعدّ «المخدوعون»، زرت العراق لأستكشف البلاد وأوضاعها. كما سلكت طريق البصرة الكويت لأتعرّف إلى نوع الصحراء والمناظر التي عليّ تصويرها للفيلم والحصول على إذن تصوير. قابلت الصحّاف[19] الذي كان مسؤولاً عن السّينما والمسرح ورئيساً للتلفزيون، وأعطاني تصريحاً. وعرض عليّ أن أنتقل للعمل في العراق. مع تجربة «المخدوعون» وصعوبة العمل في مصر وسورية، ذهبت إلى العراق مجدّداً لأدرس الوضع واتفقت مع العراقيّين على الإقامة في العراق والعمل فيها. لكنّ الخلافات لم تتأخّر في الظهور.

يتابع فيلم «الأيام الطويلة» هروب صدام حسين بعد فشل العملية واعتقال الآلاف من أعضاء حزب البعث. ويفتقر هذا الفيلم لأي بعد نقدي لكون السرد مبنيا على وجهة نظر صدام حسين الذي يلعب دوره في الفيلم صدام كامل. ويصبح لصدام صفات أسطورية.

تمّ اختياري لأترأّس لجنة التحكيم في مهرجان قرطاج السينمائي، واختلفت مع الصّحّاف لأنّه منعني من السفر. لم أكترث لمنعه وسافرت إلى تونس. ولمّا عدت، كان من الظاهر أنّه قد بلّغ عنّي في المطار فتمّت معاملتي على نحو سيّىء. وعندما قرّرت أن أترك العراق وأعود إلى مصر، اتّصل بي وزير الثّقافة الجديد طارق عزيز واجتمعت به لمدّة ثلاث ساعات. انتقدتُ ما يحصل في العراق وكان مستغرباً، وفي النّهاية طلب منّي أن أقوم بإنجاز فيلم وثائقيّ عن الحضارة العراقيّة («فجر الحضارة»). وأعلمني أنّه سيتمّ نقل الصحّاف إلى وظيفة أخرى.

فيما بعد، طلب منّي صديق أن أقوم بإنجاز فيلم «الأيّام الطويلة» فاشترطْت أن أقابل صدّام حسين قبل أن أبدأ بكتابة السيناريو لأناقشه في بعض الأمور. نشأ مشروع الفيلم انطلاقاً من كتاب «الأيّام الطويلة». كان صدّام مريضاً وطالبتْه حاشيته بتسجيل كلّ حياته وبطولاته. حضر من الكتّاب وأخذوا يدوّنون ما يكتبه. كان أوّل من انتهى من الكتابة اسمه عبد الأمير معله وكان رئيس المؤسّسة العامّة للسينما والمسرح. كتب «الأيام الطّويلة» وهي قصّة تتناول أحداثاً عاشها صدّام حسين وهو في الـ ١٩ من عمره، أوّل ما دخل في حزب البعث، ويتوقّف الكتاب عند محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم الذي كان رئيس وزراء العراق. وقد تمّ اختيار أربعة أو خمسة شباب للقيام بهذه العمليّة، من بينهم صدّام حسين. فشلت العمليّة وأصيب صدّام حسين برجله».

يتابع فيلم «الأيام الطويلة» (١٩٨١) هروب صدّام حسين بعد فشل العمليّة واعتقال الآلاف من أعضاء حزب البعث. ويفتقر هذا الفيلم لأيّ بُعد نقدي لكون السّرد مبنيّاً على وجهة نظر صدّام حسين الذي يلعب دوره في الفيلم صدّام كامل. ويصبح لصدّام في هذا الإطار صفات أسطوريّة. «فنحن إزاء بطل من الفولاذ لا يشغله إلّا الوطن بتجريده المعمّم على طريقة الأناشيد»[20]. «لم نره حتّى يشرب أو يأكل، فضلاً عن التّبوّل طبعاً»[21].

وكأنّنا أمام فيلم دعاية في خدمة النّظام بعيد كلّ البعد عن أعمال صالح السابقة التي كانت تفكّك الوضع وتظهر لنا الشخصيّات في لحظات ضعفها وفي طبيعتها الإنسانيّة الصرفة.

ومن المحزن أن يأتي هذا الفيلم بعد «المخدوعون» وأن يكون آخر أعمال صالح السينمائيّة وكأنّه خضع للنّظام هو الذي عمل طويلاً من الدّاخل من ضمن القطاعات العامّة المختلفة وواجهها. لكنّ صالح في حواري معه ظلّ متحفظّاً في إجاباته عن التجربة العراقيّة رغم كلّ الوقت الذي مرّ وسقوط النّظام البعثيّ العراقيّ وصدّام حسين سنة ٢٠٠٣.

ويذكر توفيق صالح: «من يشاهد الفيلم ويحلّله، يعرف أنّني خرجت من النّطاق الضيّق. وقد أظهرت فيه كيف فشلتْ محاولة القتل وكيف تفكّك الحزب ليتكوّن من جديد خلال ١٥ يوماً. تمّ طبع ٣٧ نسخة من الفيلم لعرضه في جميع أنحاء العراق. وفي الأماكن التي كانت تفتقر لصالات العرض، عُرض في القاعات الكبيرة ومن بينها الأماكن المقدّسة مثل النجف وكربلاء. في تكريت، عُرض في قاعات الشباب. وكان للفيلم تأثير كبير جدّاً على شباب العراق. وأصبح الفيلم يُعرض في كلّ مناسبة وطنيّة وحفِظ الشعب العراقي كلّ حواراته».

العودة إلى مصر

بعد هذه التجربة الصّعبة في العراق والتّعامل المباشر مع النظام، عاد توفيق صالح إلى مصر وانتشرت أخبار مغرضة عن الأموال التي تقاضاها في العراق. لم يوفّق

بفرصة جديدة تُمكّنه من استكمال المشروع السينمائيّ الذي جسّده فيلم «المخدوعون» وكم كنّا بحاجة لنرى كيفيّة تناوله المجتمع المصريّ في الثمانينيّات فيما كنّا نشهد على جيل جديد من السينمائيّين الواقعيّين.

«عدت إلى مصر لأعمل وكنت متحمّساً للعمل، لكنّني لم أوفّق. لم تؤدّ العلاقات مع المنتجين إلى أيّ مشروع يُذكر، فاتخذت قراراً بعدم القيام بأي مشروع فيلم، وهكذا توقّفت عن صناعة الأفلام. فقدت اهتمامي بالسينما وبحاجات كثيرة أخرى».

بقدر ما كان وقع هذا الحديث المباشر كبيراً عليّ، لفتني حديث آخر كان قد أدلى به صالح قبل بضع سنوات وقال فيه: «وقد فكّرت فعلاً في لحظة من اللحظات أن أعمل «سوّاق تاكسي» خاصّة أنّه حدث بعد عودتي وطوال خمس سنوات أنّ أحداً لم يتّصل بي»[٢٢].

لم يبقَ أمام صالح سوى استكمال تجربة التعليم التي كان قد بدأها في العراق ومن ثمّ تابعها في مصر في المعهد العالي للسينما بأكاديميّة الفنون. وكان لهذه التّجربة وقْعها الكبير على الطلّاب، ومن خلال أحدهم وهو الصديق هاني عبد الساتر، تمكّنت من لقاء توفيق صالح وبناء العلاقة معه وتصويره فيما بعد.

كما كانت لي الفرصة أن أتعرّف إلى العديد من طلّابه من أجيال مختلفة، وفي كلّ مرّة كنّا نتحدّث فيها عن أستاذهم، كنت أرى هذا الإعجاب الكبير بالمعلّم الذي يقول:

«أنا تعلّمت من التعليم كيف أكون مخرجاً له لغةٌ واضحةً وله فكر واضح. جعلني التعليم أقرأ الكتب قبل أن أذهب إلى التّدريس. ومع الزّمن، جعلني أتعمّق بفهمي للسينما».

خيّبني المجتمع وزوّجني حياتي

«بالرّغم من المجهود الكبير الذي بذلتُه في أفلامي، إلّا أنّني أعتبر نفسي فاشلاً عندما أجد أنّني لم أصنع سوى سبعة أفلام في حياتي.

كان من المفروض أن أصنع أفلاماً بحسب رغبة الجمهور لكي أنجح. لكنْ بعد كلّ هذا العمر، أجد أنّ من الجيّد أنّني تركت فكرةً طيّبةً في الطلبة. صحيح أنّ أكثرهم خسروا عندما عملوا في السوق وكأنّنا لم ننصحهم. فلم يبقَ في حياتي سوى العائلة الصغيرة التي أسسْتها. نحبّ بعضنا البعض وأعتقد أنّ هذا أهمّ شيء أنجزْته في حياتي أكثر من الأفلام، والطلبة الذين يصنعون أفلاماً تجاريّة! ليست السينما التي خذلتني إنّما المجتمع الذي أعيش فيه. كنت بحاجة إلى أن أنجز أفلاماً تحرّك وعي الناس وتساعدهم في ظروفهم وحياتهم. كانت السينما كلّ تفكيري. صحيح أنّني كنت ألعب من وقت لآخر إنّما السينما كانت حياتي. بعدما قابلت زوجتي، غيّرت رأيي».

غيّب الموت توفيق صالح سنة ٢٠١٣ عن عمر ٨٧ سنة. بقيتْ أفلامه وقصص كواليس هذه الأفلام التي تكشف بعض الشّيء عن واقع السينما المصريّة والعربيّة، قصص أحلام وانكسارات وتساؤلات مستمرّة يطرحها كلّ واحد منّاً يعشق السينما في بلادنا:هل يمكن للسينما أن تغيّر الواقع؟ هل يمكن أن تشارك في إصلاحه؟ هل السينما هي الحياة أم أنّها مجرّد مخدّر؟ هل هناك جدوى من معاركنا المستمرّة لإنجاز أفلامنا؟ أين تبدأ الحياة وأين تنتهي السينما؟

الهوامش

١ سمير فريد، **السينما المصريّة في نصف قرن (١٩٢٣-١٩٧٣)**، الشركة التونسيّة للتنمية السينمائيّة والإنتاج (تونس) والمؤسسة العامة للخيالة (ليبيا) (١٩٧٣)، ص ١٦

٢ الممثلة هي نعيمة عاكف زوجة مخرج الفيلم حسين فوزي

٣ حصل توفيق صالح على هذه البعثة من رئيس القسم الفرنسي في كلية الآداب

٤ *Sciuscià* (1946)- Vittorio De Sica

٥ *Le voleur de bicyclette* (1948)- Vittorio De Sica

٦ *Miracle à Milan* (1951)- Vittorio De Sica

٧ IDHEC: Institut des Hautes Etudes Cinématographiques
أصبحت الإيدك الفيميس (La Fémis) سنة ١٩٨٦:
La Fémis Ecole Nationale Supérieure des Métiers de l'Image et du Son

٨ أي École nationale supérieure Louis-Lumière

٩ عنوان الفيلم: *Bouquet de joie* إخراج موريس كام سنة ١٩٥١

١٠ **«السوق السوداء»** (١٩٤٥) من إخراج كامل التلمساني

١١ **«رنّة الخلخال»** (١٩٥٥) من إخراج محمود ذو الفقار

١٢ برلنتي عبد الحميد

١٣ **«شباب امرأة»** (١٩٥٦) من إخراج صلاح أبو سيف

١٤ توفي الرئيس جمال عبد الناصر سنة ١٩٧٠

١٥ أحداث أيلول الأسود هي المواجهات العسكريّة التي حصلت بين الجيش الأردني والمقاومة الفلسطينيّة في الأردن في أيلول ١٩٧٠ وأدّت إلى انتقال قيادة المقاومة الفلسطينيّة إلى لبنان

١٦ يمكن أن نقرأ في رواية غسّان كنفاني المقطع التالي في هذا الإطار:
«دار (أبو الخيزران) حول نفسه دورة وكأنه خشي أن يقع فصعد الدرجة إلى مقعده وأسند رأسه فوق المقود:
لماذا لم تدقّوا جدران الخزان؟ لماذا لم تقولوا؟ لماذا؟ وفجأة بدأت الصحراء كلها تردد الصدى:
لماذا لم تدقّوا جدران الخزان؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟» (ص ٩٣)

١٧ مرسيل مارتان: ناقد سينمائي فرنسي شيوعي مهمّ، مؤلّف لعدّة كتب كما كتب في «سينما ٥٥» و«مجلّة السينما»

١٨ Aldo Nicosia, *Il romanzo arabo al cinema*, Carocci editore, Roma, 2014, p.61

١٩ محمّد سعيد الصحّاف الذي اشتهر فيما بعد بالأخص كوزير للإعلام خلال الغزو الأميركي للعراق سنة ٢٠٠٣

٢٠ محسن ويفي، **سينما توفيق صالح**، وزارة الثقافة المصريّة، القاهرة، ص ١٨٨

٢١ **المرجع السابق**، ص ١٨٨

٢٢ **المرجع السابق**، ص ٢٢٠

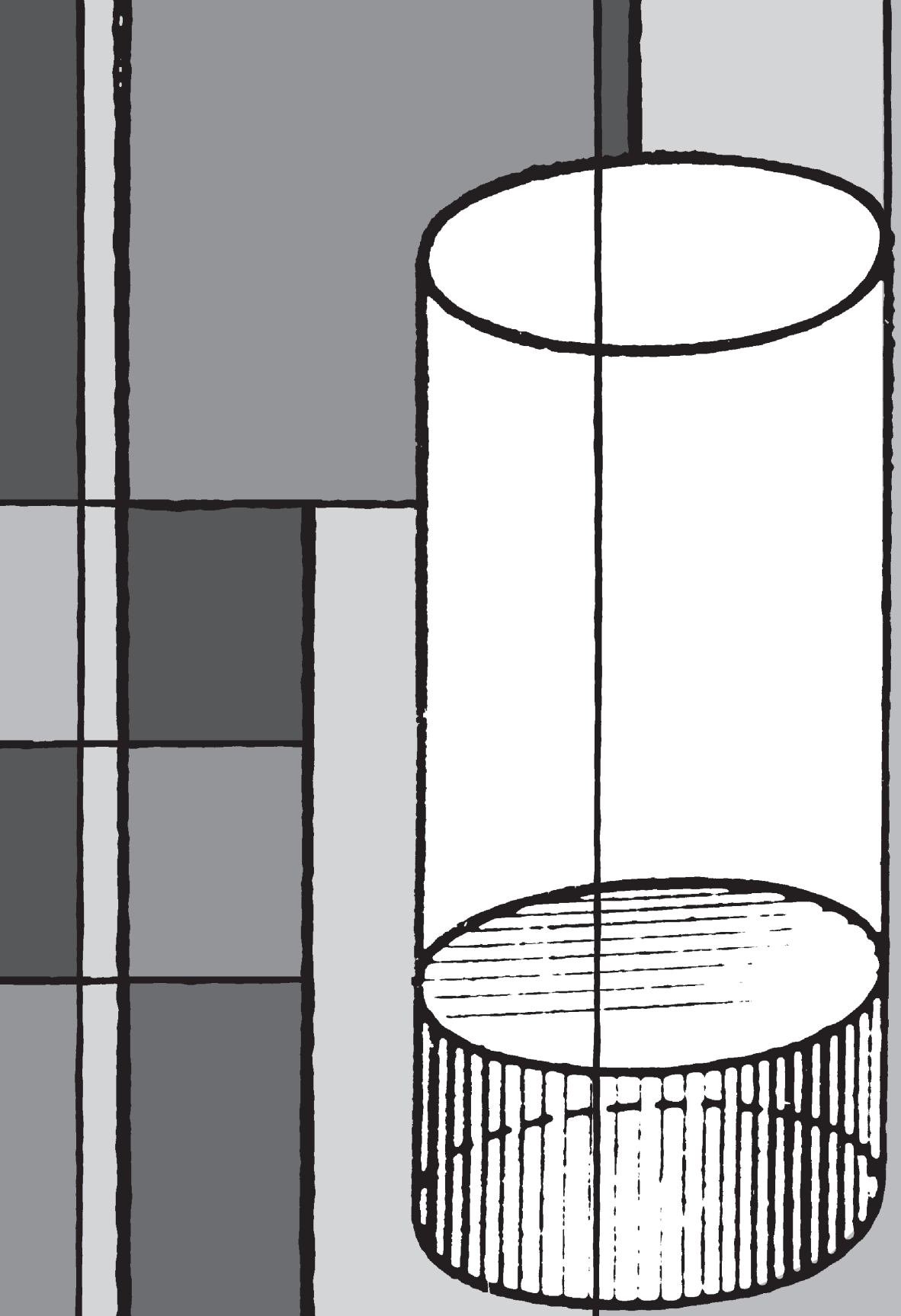

ذاكرة

١١٢ **جورج البطل، آخر البلاشفة**
مذكّرات قائد شيوعي من لبنان
حاوره فوّاز طرابلسي

١٢٣ **فيتنام ١٩٦٦**
في قلب المعارك
رياض الرّيس

١٣٠ **من مذكرات جارالله عمر ٤**
وقف الكفاح المسلّح في الشّمال
حاورته ليزا ودين

١٣٩ **بدايات العمل الفدائي في جنوب لبنان**
حسين بعلبكي

١٤٧ **حلب**
من طريق الحرير إلى البرميل المتفجّر
فؤاد محمد فؤاد

١٥٢ **في انتفاضات حلب ١٧٧٠ - ١٨١٩**
عزيز تبسي

جورج البطل، آخر البلاشفة
مذكرات قائد شيوعي من لبنان

حاوره فوّاز طرابلسي

مؤرخ وكاتب، لبنان.

تبدأ «بدايات» من هذا العدد بنشر فصول من مذكّرات الرفيق جورج البطل (١٩٣٠-٢٠١٦)، المناضل والقائد في الحزب الشيوعي اللبناني. والمذكّرات تسجيل لسلسلة من الحوارات أجراها فواز طرابلسي مع الراحل خلال السنوات الأخيرة من حياته سوف تُنشر كاملة في كتاب يصدر قريباً.

ولدتُ في بلدة مشغرة خلال منتصف ليلة ١٥ - ١٦ نيسان / أبريل عام ١٩٣٠، لكنّي اعتمدتُ تاريخ ١٥ نيسان. لا أريد أن أقول كما قال أحمد فارس شدياق، لكنّها فعلاً كانت ليلة نحْس لأنّي ولدتُ في ليلة نحس على أهل مشغرة، وهي ليلة آخر غزوة جراد على لبنان. وعندما أرادوا إيقاظ أخي عزيز، الأكبر مني بحوالي ١٥ عاماً، ليلاً ليخبروه بأنّه أصبح لديه أخٌ، لم يتمكّن من الاستيقاظ بسبب عمله طول النهار بجمع بذور الجراد. كان حينها يُجمَع البذر ويُحرَق.

الدبّاغة وقانون العمل

ولدتُ في عائلة ميسورة. امتلك والدي دبّاغة جعلت أوضاعه المادّية جيّدة. أذكر أنّ وضعنا كان مريحاً لكن معقّد، بمعنى أنّنا سكنّا في أعالي البلدة داخل حيّ آل طرابلسي. في الحي مرابون من آل طرابلسي. طفلاً صغيراً، رأيتُ التناقض بين الحياة الّتي عشتها وبين حياة الفقراء. بقي هذا في ذاكرتي وبقي معي وساهم في تكويني الفكري. انتشر البؤس الحقيقيّ وانتشر الموت. كنت أرى جنازات الأولاد الذين يموتون من أمراض كالتّيفوئيد والجدري المنتشرة في تلك الفترة. أعتقد أنّ هذه المشاهد والشّعور بالفرق بقيتْ في ذاكرتي وساهمت في تكويني المستقبلي.

نحن كنّا أربابَ عمل، لذلك بقي والدي على الدّوام مرتدياً ربطة عنق، بينما بقي العاملون المعتَرون منغمسين بالدبّاغات. عايشتُ عدّة عناصر طريفة، منها التّمايز الطّبقي الّذي لم أعايشه من موقع المضطهَد بل من موقع المضطهِد. ويضاف إلى العوامل المساهِمة في تطوّري ما حصل بعد فترة زمنيّة عندما عشت معركة صراع طبقيّ في الدّباغة عندنا.

عندما صدر قانون العمل عام ١٩٤٤ طالب الشّباب العاملون في الدّباغة بثماني ساعات عمل فقط، لكنّ والدي رفض. صحيحٌ أنّ أخي عزيز هو كلّ شيءٍ في الدباغة، لكنّ والدي هو ربُّ العمل. عندما أضرب العمّال استنفر المرحوم والدي، فمشهد أيّ عامل يحمل ساعة منبّهة [قبل عهد الساعات اليدويّة] وهو ذاهبٌ الى الدّباغة كان كبرى الكبائر بالنّسبة إليه، لأنّ معناه أنّه سوف يتوقّف عن العمل عندما تنتهي الساعات الثّماني. لم يكن هذا أمراً يمكن تخيّله. والإضرابُ في الدّباغة مؤذٍ. استنفر والدي كلّ الأقارب والأصدقاء وقام بإنزالهم إلى الدبّاغة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الجِلد، لأنّ الجلد كان يتواجد مع الموادّ الكيميائية.

على الرّغم من غضب الوالد من العمّال، بقي كما عهدتُه كريماً وفاعلَ خير. كان في شخصيّته تناقضٌ شديدٌ عندما يصل الأمر إلى علاقته مع العمّال. يكمن التناقض في أن يقوم هذا الإنسان الكريم ذو اليدين السّمحتين الممدودتين بردّة فعلٍ فظيعة. بدأ بشتم الشّيوعيّين ومَن معهم. شتم شفيق الدّبس وشتم شفيق طرابلسي. حتّى أنّه شتم الحزبيّة المحلّيّة التي كان هو نفسه جزءاً منها، لأنّه اعتبر ما حصل من كبرى الكبائر.

عشتُ هذه الواقعة وأنا في الخامسة عشرة من العمر. لعب هذا التّناقض دوراً كبيراً في حياتي، بيّن

لي أنّي أعيش بيسر، أحصل على كلّ ما أريد، أتناول مأكولاتٍ بعضُها غير متوفّرٍ في مشغرة يُحضره والدي عندما يرجع من بيروت ومعه «جومبون ومرتديلا» وخبز إفرنجي. حملتْ حياتنا تناقضاً كبيراً، خصوصاً أنّ والدي من الدّباغين الناجحين.

أذكر أوّل عيدٍ للعمّال في العام **١٩٣٥**. عمّت الضّجّة المنزل، هنا أيضاً تناقضٌ جليّ، صحيحٌ أنّ العاملَ عاملٌ لكن في يوم العيد نظّمنا جميعاً، نحن وإيّاه، نزهة وغنّينا معاً. الوضع في مشغرة كان طريفاً لأنّ علاقة قرابة جمعت النّاس مع بعضهم البعض. في دباغتنا على سبيلِ المثال، إضافةً إلى العاملين الذين كانوا من الشّيعة والمسيحيّين، عمل ابن عمّتي وصهر عمّتي وابن عمّي كذلك، كان هناك في الدّباغة خليطٌ من «شيءٍ» عائليّ وآخر غيرِ عائليّ.

النّجاة من «وحش مشغرة»

بسبب العيد والسّيران، عمّت الضّجّة المنزل، طعامٌ يتمّ تحضيره وبيضٌ يتمّ سلقه. وأنا طفلٌ صغيرٌ يغمرني الفرح لأنّنا ذاهبون إلى الكروم وإلى الفوّار، وهو كرْم لآل سلمون (إحدى أسَر البلدة الدبّاغين) تخرج من أرضه المياه.

عندما وصلت السيّارة احتجنا إلى شخصٍ يقوم بخدمتنا فنَدَهنا على ولدٍ يُدعى علّوش، لن أذكر اسم عائلته. علّوش هذا كان يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً. وضَعَ الأغراض داخل السّيارة وتبعنا إلى الكروم لأنّه لم يكن هناك متّسعٌ في السّيارة، والكرم ليس بعيداً جدّاً، حوالي نصف ساعةٍ من السّير على الأقدام.

في السّيران إلى جانبنا جلس صديق والدي ويُدعى رشيد ناصيف ابن سمعان ناصيف. هذه العائلة أيضاً من الدبّاغين الكبار لكنّهم أفلسوا باكراً. جلسنا معاً. كنت أبلغ حينها من العمر خمس سنوات، وكان لرشيد ناصيف طفلٌ في عمري تقريباً، أضيع في اسمه بين فيكتور وسيمون.

لعبنا معاً، حمل كلٌّ منّا بيده فرنكاً مقلوباً، فرنكاً فرنسيّاً، في حال أردنا شراء غزل البنات أو شيء آخر. اقترب منّا علّوش وبدأ بخدمتنا، وبدأنا في الوقت نفسه نتحادث ونحن ننظر إلى الشّجر. قال لنا علّوش: أستطيع أن أحضر لكم عشّ العصافير لكن عليكم إعطائي الفرنك. كنّا صغاراً فما كان منّي إلا أن هربت، كانت تلك ردّة فعلي. لِمَاذا هربت؟ من أجل الفرنك أم خوفاً من علّوش؟ لا أعرف. في ذاكرتي، لا يوجد كلّ شيءٍ بهذه الدّقة. لكن أعلم أنّي هربتُ منه لأنّ الفكرة لم تعجبني، وربّما خفتُ على الفرنك. تركت ابن رشيد ناصيف واقفاً مع علّوش بحسب ما أذكر والتهيتُ بأمور أخرى.

كان لرشيد ناصيف نحو سبعة أو ثمانية أولاد من جيل بعضهم البعض كالصّيصان. أذكر أهل القرية جميعاً في الكروم. التهينا بالنّهار وتعب الأولاد منّا، أمّا الأهل فثابروا على عبارات: «تعى يا صبي» و«عم توسّخ حالك»، «تاكلها كفّ»، كما يحصل تماماً مع الأطفال الّذين يبلغون من العمر حوالي خمس سنوات. عندما شارفنا على الرّحيل، عاد علّوش ليوضّب أغراضنا وعدنا إلى مشغرة. وصلنا إلى هناك منهكين، استحممنا ونمنا.

داخل المنزل جيلان، أخي عزيز يكبرني بخمسة عشر عاماً وأختي آدال تكبرني بعشرة أعوام، أمّا أخي المرحوم إيلي وأنا فمن عمر بعضنا البعض، يفصلنا عامان فقط. علاقتي مع عزيز كانت مثل علاقتي مع الدي، هو رجلٌ كبير ونحن أطفال.

المهمّ ، أمام بيتنا «سطيحة» وحديقة كبيرة. أطلّ منزلنا على كلّ القرية، وكلّ منطقة «العريض» ومنطقة الكروم. وأمام المنزل حديقة كبيرة لبيت خليل طرابلسي، وبالتّالي لا بيوت. أسفل منزلنا كان منزل بيت عبود، منزلٌ «أوطى» بكثير، وبالتّالي لا يوجد شيءٌ يحجب بيتنا. كثيرٌ من الضّجّة، وأهل مشغرة مجتمعون في منزلنا. حوالي عشرين أو خمسة وعشرين شخصاً على «السطيحة» أمام باب المنزل. استيقظتُ من النّوم فوجدت أشخاصاً يحملون «اللوكسات» بأيديهم ويبحثون في العريض كلّه لجهة الكروم. حوالي خمسين أو ستين أو مئة شخص، وسمعتُ أنّ ابن رشيد ناصيف ضائع.

«أنا بعرف»!

في تلك اللّحظة لمع رأسي. هنا ذاكرتي دقيقة للغاية. أذكر أنّي فكّرت حينها في إمكانيّة أن يكون علّوش قد فعل شيئاً لابن رشيد ناصيف. قلت لوالدي «أنا بعرف شي». صفعني على وجهي وأمرني بالتّوجّه إلى السرير، قائلاً «بلا طقّ حنك»! فتوجّهت للنّوم.

استيقظتُ صباحاً على خبر العثور على ابن رشيد ناصيف مقتولاً من قبل قنّاصة الجيش الفرنسي، وأنّه وُجد مرميّاً بين أقدام البغال إلى جانب مَحْوَرَة [غيضة شجر الحور أو موقع صنع الفحم]. صدّق النّاس حينها أنّ الفرنسيّين قتلوا الطّفل. (كان معهم من جنسيّات سنغاليّة ويوغوسلافيّة، أي أشخاصٌ غرباء، وكانوا يطلقون عليهم تسمية «عكسر بو رفش»، لأنّهم اهتمّوا بفتح الطريق).

كنت في مدرسة الرّاهبات خلف الكنيسة مباشرةً. أمام الكنيسة فصيلة للدّرك وسجن لأنّه قبل إنشاء القائمّقاميّة كانت مشغرة مركزاً للمديريّة وكان فيها مركز للأمن العام وفصيلة للدّرك والجمارك، أي أنّ كلّ الدوائر الموجودة في قضاءٍ معيّن من دون أن تكون مشغرة قضاءً بسبب بُعدها عن زحلة. ولأنّ السّجن والمخفر كانا إلى جانب المدرسة، سمعنا ضرباً. كان العساكر المتّهمون بقتل ابن رشيد ناصيف يتعرّضون للضرب. يصرخون قائلين: نحن أبرياء لا دخلَ لنا.

حملنـــــــي أبي وذهب إلى الضابط الفرنسي المسؤول عن التحقيـــــــــق. ومعه ضابط لبناني يترجم الكلام.

أثّر ذلك فيّ فحادثتُ نفسي: لمَ لا أعود وأصرّ على أنّ هناك رواية متعلّقة بعلّوش وبأنّي هربت عندما أخبرنا عن قصّة عشّ العصافير والفرنك وأنّي لم أرَ ابن رشيد ناصيف منذ ذلك الحين. عندما عدتُ إلى المنزل أخبرتُ والدي عن كلام بحوزتي يجب أن يُقال، وبقيتُ مصرّاً على الرّغم من أنّ والدي غضب منّي، فهو لم يكن يريد التّورّط. قال لي أخيراً: حسناً. حملني أبي وذهب إلى الضّابط الفرنسيّ المسؤول عن التّحقيق، ومعه ضابطٌ لبنانيّ يترجم الكلام. لاحقاً علمت أنّ هذا الضّابط اللبناني هو أنور كرم الذي أصبح في ما بعد زعيماً في الجيش، هذا الذي دمّر طرابلس في العام ١٩٥٨.

ارتبك الضّابط الفرنسيّ. لم يعتبر أنّه يخاطب طفلاً. أخذ القصّة على محمل الجدّ لأنّ العسكر التّابعين لإمرته متّهمون بالموضوع. أخذ يخاطبني ويرشيني بالشوكولا كي أتكلّم مثلما يتصرّفون مع الدّب في السّيرك. أصررتُ على روايتي وتحدّثتُ عن عيون علّوش الّتي لم تعجبني فهربتُ منه. وبالفعل، أحضر العسكرُ علّوش. بعد أوّل كفّين اعترف، لم يأخذ منهم وقتاً كثيراً لذلك. أخبرهم كيف قتل ابن رشيد ناصيف بالحجر وكيف كسر رأسه.

بعدها أُطلق سراح العسكر المساكين وتمّ الاعتذار منهم. كان علّوش يبلغ حينها من العمر أربعة عشر أو خمسة عشر عاماً، أي أنّه من الأحداث. عندما تمّت المحاكمة في زحلة، كنتُ أنا الشاهد الأوّل على اعتبار أنّي كنت الخيط للوصول إلى علّوش. أخذني والدي المرحوم إلى زحلة. قال المباشر على باب المحكمة لوالدي: «يا أستاذ، ممنوع دخول الأولاد إلى المحكمة»، فأخبره الوالد أنّني أنا الشاهد. وبالفعل، دخلنا أنا ووالدي إلى المحكمة. رمقني علّوش نظرةً أرعبتني، لأنّه عرف أنّني أنا من لفت النّظر للقصّة، ملعون، مجرم.

حكيتُ ما أعرف للمحكمة. هذه الصيغة للحادثة بقيت في ذاكرتي. في المحكمة تمّ الاستناد إلى أقوالي وإلى اعتراف علّوش، لكنّ علوش بدأ يصرخ ويقول: «غير صحيح»، متذرّعاً بتعرّضه للضّرب. سُجن علوش بضعةَ أشهرٍ فقط على اعتباره من الأحداث. بعد ذلك، وبينما أنا جالسٌ أمام حديقة البيت، قام علّوش برمي حجرٍ عليّ. لسوء حظّه وحسن حظّي لم يصبْني الحجر ووقع بجانبي. كان علّوش حاقداً عليّ لكن لم يطل الأمر حتّى ألقوا القبض عليه مرّةً أخرى.

لم يعد الأمر يحتاج إلى نباهة، كلّما قُتل طفلٌ كان بيتي بعلّوش الذي أصبح لديه أسلوبٌ معروف في القتل، يكسر رأس الولد بالحجر. قتل طفلاً في كفرحونة، ومجدل بلهيص، وفي البقاع بالقرب من كفريا قتل أربعة أو خمسة أولاد بينهم فتاة. وكلّ أعمار ضحاياه تراوحت بين الأربع والخمس سنوات. وفي كلّ مرّة كان علّوش يغيب في السّجن ثمّ يخرج لأنّه حدث. في الصّحف، أطلقوا عليه تسمية «وحش مشغرة». بعد ذلك، أعلن أهل علوش التّخلّي عنه بالكامل وتبرّأوا منه. أهله معّازة، ما حدا بعضهم إلى القول إنّ علّوش عندما كان صغيراً كان يُحضر تيس المعزة والجدي ويكسر رأسها، هكذا أصبح لديه حبّ الدم وتكسير الرؤوس. المهمّ، استمرّ بقتل النّاس، يدخل إلى السّجن ويخرج، والصّحف مشغولة به: «خرج وحش مشغرة من السّجن»، «دخل وحش مشغرة إلى السّجن».

بسبب سوء عمل المحاكم في لبنان بقيت الأمور على المنوال نفسه من العام ١٩٣٥ وحتّى العام ١٩٤٩، تاريخ صدور الحكم على علّوش بالإعدام. كنت حينها في سنتي الثّانوية الأخيرة في مدرسة الفرير بيروت. عندما عرفتُ أنّ علّوش سيُعدَم، استيقظتُ قبل انبلاج الضّوء. أشارت الساعة إلى الخامسة. قلتُ لنفسي: أريد أن أحضر إعدام ابن الكلب هذا. ركبتُ التراموای من مكان سكننا بجانب مستشفى الروم إلى السرايا مكان الإعدام. أعدموه في البرج أمام العدليّة. كان كلباً، هذا انطباعي عنه، يصرخ ويجعّر. حمّلوه وعلّقوه على المشنقة.

لكن على الرّغم من كلّ حقدي عليه، لم يعجبني المشهد. مهما كانت الجريمة التي ارتكبها، فأنتَ ترتكب جريمة جديدة عندما تعلّق أحدهم بالحبل. ومع ذلك حقدي

عليه، جعلني أستيقظ قبل شروق الشمس كي أحضرَ إعدامه. وبرغم نجاتي، حقدتُ عليه لأنّني كان يمكن أن أكون أوّل الضحايا، لكن شاءت الصّدف أن يكون ابن رشيد ناصيف كذلك.

«حبس» دير المخلّص

درستُ في مدارس كاثوليكيّة جدّاً، ما خلا سنةً واحدةً حين كنتُ في مدرسة كفرشيما، وهي من المدارس الإنجيليّة.

درستُ أوّلاً في مشغرة لبعض الوقت عند الراهبات ولبعض الوقت عند السّريان. انتقلتُ باكراً إلى مدرسةٍ داخليّة في كفرشيما. كان شيئاً عاديّاً في مشغرة عندما ينتقل أحدٌ إلى مكانٍ ما أن ينتقلَ معه الآخرون. كنّا فؤاد سلمون وسميرة سلمون وجورج حبوش ونقولا طرابلسي واسكندر طرابلسي ونعمة بو مراد (وهم أقارب لأنّ جدّتي من بيت بو مراد) وأنا، كنّا حوالي عشرين أو خمسةً وعشرين شخصاً دفعةً واحدة في مدرسة كفرشيما. بعضهم أكمل دراسته ومعظمهم انتهى إلى الجامعة الأميركيّة على اعتبار أنّ معظمهم أتمّ الدراسة باللغة الإنكليزيّة. أنا بقيتُ سنةً فقط في كفرشيما عانيتُ حينها من مشكلة في قدمي، قبعتُ بعدها سنةً في مشغرة لأنّني لم أكن أستطيع المشي. وبعد أن رجعت إلى كفرشيما، انتقلتُ إلى دير المخلّص لمدّة سنة. هناك ثانويّة أقيمت بالتعاون مع الإكليركيّين، لكنّها مدرسة تكميليّة لم تصل للثّانويّة. في دير المخلّص، انزعجتُ من هذا السّجن بين الجبال. نتحرّك داخل الحرج فقط، ونذهب أيضاً لزيارة قصر «الليدي ستانهوب» الذي كان لا يزال واضح المعالم، هذا في الأربعينيّات. نجلس هناك لسّاعات لأنّ القصر في خراج الدير. بقيت سنةً ومللت. سجنٌ كبيرٌ حيث لا ترى بشراً إلّا إذا سمحوا لكَ بالذّهاب إلى كنيسة الدّير، حينها فقط يمكنكَ أن ترى أحد الزّوّار لأنّ المدرسة حوَت كنيسة. قرّرتُ المغادرة، بينما غادر أخي نوئيل باكراً إلى اليسوعيّة وأكمل طريقه، في الوقت الذي كنتُ ذاهباً فيه إلى كفرشيما. في ذلك الوقت كان والدي مسافراً، روحةً وجيئةً من أميركا. تساءل عن سبب اتّخاذنا هذا الخيار، أيْ ذهابي لدراسة الإنكليزيّة، وانتقال نوئيل إلى الفرنسيّين حيث أكمل دراسته حتّى أصبح مهندساً. بسبب رفضي لدير المخلّص لم يقبلوني في «اليسوعيّة»، فأنا قادمٌ من كفرشيما من عند الإنجيليّين. بعدما تمّ رفضي لأنّي بدأت عند البروتستانت، دخلتُ إلى مدرسة الحكمة. والحكمة مدرسة محترمة، سمْعتها جيّدة ويتمّ فيها تعليم لغة عربيّة جيّدة. كانت الأحوال على ما يرام. فرحتُ في مدرسة «الحكمة» بسبب وجود مجموعة طلّاب أرتاحُ إليهم، أصبح الآن أغلبهم وزراء ونوابا. لكن في ليلةٍ سوداء رأيتُ باب المدرسة مفتوحاً فقلتُ لنفسي: أخرجُ قليلاً خارج المدرسة كي أتنزّه لأنّي كنت في القسم الدّاخلي. فجأةً توقّفتْ سيّارة بالقرب منّي رأيتُ داخلها أبي. سألني عمّا أفعله هنا فارتبكت. قال لي: «هربان من المدرسة؟ إنت تستاهل أن تظلّ محجوزاً بدير المخلّص». وضعني في السيّارة وأرجعني إلى دير المخلّص. بقيتُ في الدّير لمدّة ثلاث سنوات متتالية إلى حين انتقالي إلى «الفرير» في الجميزة.

انتقلتْ عائلتي إلى بيروت قبلي. ولأنّي مرفوضٌ في اليسوعيّة، ولا أريد «الحكمة» الّتي هربتُ منها، لم أملك خياراً سوى مدرسة الفرير ذات السّمعة الجيّدة. في «الفرير»، لم أكن مسجّلاً بقسمها الدّاخلي. ركبتُ الترامواي، وأصبحتُ من الأشخاص الذين يقلّدون المهرّجين ويقفزون منه. وبسبب تصرّفاتي هذه عرّضتُ نفسي للخطر غير مرّة. وللأسف وقع أحد زملائي في الصّف أسفل الترامواي فقُطعت رجلاه الاثنتان.

لديّ انطباعان إزاء هذا الحديث. الأوّل عن الحياة العائليّة المعبّرة كثيراً لبلدة مثل مشغرة تضمّ العلاقات الصناعيّة والزراعيّة والرعويّة في وقت واحد. والثانية، حادثة فاجعة على الصعيد الإنسانيّ. ما أثرهما في حياتك؟

أثر العنف والتمايز الطبقي

ربّما كرّهتني حادثة علّوش العنف. رافقني هذا الشّعور طوال فترة الحرب الأهليّة. اعترضتُ كثيراً على مظاهر العنف المجّانيّة التي تحصل. عانيتُ من مشاكل كثيرة في الحزب. كنتُ سلمياً بمفهومهم السّائد عن العنف المجّاني. قد يكون هذا الأمر نتيجة العنف الذي عايشته في قصّة علّوش على الرّغم من أنّه لم يحصل أمامي. هذا الأمر من التّراكمات التي خرقت شخصيّتي الشيوعيّة فيما بعد.

عايشت النّضال الطبقيّ فعلاً في مرحلة ميدانيّة في الدبّاغة خاصّتنا وفي الدبّاغة بمشغرة، ذلك لأنّ المنطقة اشتهرت بالدبّاغين الشّباب الذين أصبح معظمهم قوميّين سوريّين، وكانوا يواظبون على قراءة جريدة «النّهضة». هذا التّوجّه جاء تمايزاً عن العمال الذين كان معظمهم من الشيوعيّين. والدبّاغون الشّباب اهتمّوا

بالملابس: بناطلين «كوبون» و«جخّ» [بذخ] فائض، في حين كان العمّال مساكين. وهو تمييزٌ واضحٌ لأنّ الدبّاغات ازدهرت بعد الحرب.

ودخلت الآلة على الدبّاغة والبرميل والمدعس. صارت الدبّاغات تكبر وتتوسّع، وعدد العاملين فيها لم يعد أربعة أو خمسة، بل أصبح خمسين إلى ستّين عاملاً. لذلك، أصبح هناك تمايزٌ طبقيٌّ واضح يمكن ملاحظته من خلال حياة النّاس. هناك طبقتان في مشغرة، والطبقة الجديدة (أصحاب الدبّاغات) أصبحت أبرز من طبقة الأفنديّة لأنّها أغنى منها. طبقة الأثرياء الجدد تملك الأموال مقابل الأراضي والعزّ والجاه لدى الأفنديّة.

قالوا: وصل البلاشفة إلى لبنان وهم في جديدة مرجعيون. كان منزلنا يطل على جديدة مرجعيون. نظرت ناحية مرجعيون فلم أر شيئا. اكتشفت في ما بعد أنه كان بالفعل هناك تنظيم أسسه سلام الراسي ومعه مجموعة من المثقفين من قرية إبل السقي وهو «حزب اشتراكي ملحد» قبل دخولهم إلى الحزب الشيوعي.

خلال فترة الثّلاثينيّات رافقتني أشياء طريفة. في العام ١٩٣٧ أو ١٩٣٨ كانت هناك مجلّة اسمها «قلب يسوع» ينشرها سوريّ من آل نخلة يُدعى بيار نخلة. واظبت أختي آدال، التي تكبرني بنحو عشر سنوات، على قراءتها وكانت منظّمة عند الرّاهبات. ونحن لمّا كنّا صغاراً ندرس لدى الراهبات لطالما أحضروا لنا كتباً كي يخوّفونا بها من جهنّم. حدّثونا عن كيفيّة شكّ المخطئ بحربة ورميه في النّهر. وكنت تشاهد على غلاف مجلّة «قلب يسوع» صورةً لأشخاصٍ يقومون برمي رجال الدّين في النّار، تبيّن أنّ الإشارة هي إلى البلاشفة في روسيا الذين يقتلون رجال الدّين ويتمّ حرقهم وحرق الكنائس.

قالوا: وصل البلاشفة إلى لبنان وهم في جديدة مرجعيون. كان منزلنا يُطلّ على جديدة مرجعيون. نظرتُ ناحية مرجعيون فلم أرَ شيئاً. اكتشفتُ في ما بعد أنّه كان بالفعل هناك تنظيمٌ أسّسه سلام الراسي ومعه مجموعةٌ من المثقّفين من قرية إبل السقي وهو «حزب اشتراكي ملحد» قبل دخولهم إلى الحزب الشيوعي كانوا يعلنون إلحادهم، أمّا بيار نخلة فقد «بَلْشَفَهُم» لكنّه لم يتحدّث عن بلاشفة بيروت، تكلّم فقط عن بلاشفة مرجعيون على اعتبار أنّ لهم علاقة مع القسّيسين والبطريرك، أمّا بلاشفة بيروت فكانوا شباباً بنكهةٍ أميركيّة، بمعنى أنّهم خرّيجو البروتستانت وإرساليّات القسطنطيّة إلخ، أي أنّه يوجد هامش أكبر لحرّيّة الفكر. بعد فترة قصيرة صار اسمُ البلاشفة «الجيشَ الأحمر». حينها كان عمري لا يزال عشر سنوات.

وصلت الشيوعيّة إلى مشغرة

خلال هذه الفترة تزوّجَ أخي عزيز من زوجته ناديا. كانت بنت عمتها زوجة سلام الراسي، فصار لنا قرابة مع آل الرّاسي، نزورهم ويزورونا. أصبحت لديّ علاقة مع الشيوعيّين من خلال سلام.

أوّل صلة لي بالشيوعيّين حصلت في العام ١٩٤٣. كان سلام عضو لجنة مركزيّة. وهو محدّثٌ لبقٌ لطالما شدّ الآخرين. كان يقول لي دائماً: أنا عملتك شيوعي. واستمرّ في قولها لحين مماته. كانت علاقةً وثيقة. سكن إبل السقي قبل مجيئه إلى بيروت، لذلك كنا نذهب كثيراً إلى إبل خلال فصل الصيف عندما أذهب إلى مشغرة لأنّي كنت في مدرسة داخليّة.

عدتُ إلى كلمة البلاشفة لأنّ القضايا تنضج من خلال التّراكم. أصبحت أرى عند سلام كرّاسات مثل «البيان الشيوعي» من ترجمة خالد بكداش. بعدها اكتشفت أنّ والد ناديا يملك أيضاً كرّاساتٍ شيوعيّة على الرّغم من أنّه لم يكن شيوعيّاً. كان طبيباً، لكن كما هو معروف اهتمّ جميع المثقّفين والطبقات الوسطى في ذلك الوقت بالشيوعيّين وقرأوا وثائقهم. أصبحت أرى أموراً من دون الوصول بعد لشيوعيّي مشغرة، ما زلت أتكلّم عن حقبة أوّل الأربعينيّات. هناك شيوعيّون في مشغرة وأعرف أنّهم موجودون لكن ليسوا هم من أثّر فيّ.

رفضتُ هذا النّوع من الظلم بين الغنيّ والفقير، لم يعجبني، وتنازعني أحياناً أمران، الرّفض والحسد، بمعنى أنّه يجب عليك المساعدة. أذكر عجوزاً مقعدةً اسمها مريم غزال لديها ابنٌ مختلّ عقليّاً. كنتُ آخذ لها إبريقاً على عين الضّيعة وأنا في طريقي إلى المدرسة وأقوم بتعبئته لها لشعوري بضرورة مساعدتها لأنّها عاجزة. بهذا المعنى حملتْ شخصيّتي تناقضاً أسهم في تكويني. بدأ تكويني الشيوعي الجدّي عندما أصبحنا على صلة بسلام الراسي وصرتُ أتواصل مع الشيوعيّين بطريقةٍ جدّيّة. أصبحتُ أتابع أخبار فرج الله الحلو والمؤتمر الأوّل للحزب الشيوعي السوري - اللبناني، وصرتُ اقرأ صحيفة «صوت الشعب»، وأشاهد المئات من التواقيع المنطلقة من مشغرة تأييداً للمؤتمر. كلّ عائلات مشغرة انخرطت في الحزب الشيوعي.

أصبح الكلام مباشراً عن الشيوعيّين وصرتُ أعرف أنّ زعيم الحزب في مشغرة اسمه نعيم الحاج وهو جارنا سابقاً. يحكي النّاس عنه بطريقةٍ طريفة لأنّه كان يقول «افتتح الاجتماع باسم الله والوطن»، فيضحك ال نّاس مستغربين كيف يقال هذا داخل اجتماعٍ للشيوعيّين. نعيم الحاج أقدمُ من حسن عواضة. حسن أصبح شيوعيّاً بسبب سليم الدبس.

من أسّس للشيوعيّة ونقابات العمّال هو سليم الدبس. كان شخصيّة طريفة، فعلى سبيل المثال عُرف بارتدائه «الشّورت» في مشغرة على الرّغم من أنّه رجلٌ كبير في السّنّ وطويل القامة. امتلك دبّاغة لكنّه اختلف مع إخوته وأسّس نقابة لعمّال الدبّاغة. انضمّ إليه لاحقاً حسن عواضة. وأنا تعرّفت إلى حسن بعد العام ١٩٤٣. وبالمناسبة، لطالما أرسل والد حسن ابنه خلال الصّيف إلى دبّاغتنا للعمل وهو قد عمل في التعليم الابتدائي. بدأ حسن حين أصبح هناك حالة شيوعيّة في مشغرة، ووقتها أصبح نقولا طرابلسي شيوعيّاً. حصل كلّ هذا بعد الاستقلال.

متى كان تأسيس نقابة عمال الدباغة بمشغرة؟

تأسيس نقابة عمال الدّباغة

تأسّست في البداية جمعيّة للعمّال على يد سليم الدبس في العام ١٩٣٣. لكنّ الدبس لم يبقَ طويلاً في مشغرة. انتقل إلى بيروت بينما كان نعيم الحاج أوّل مسؤولٍ لمنظّمة شيوعيّة وكان في الوقت عينه عامل دباغة. في ذلكً الوقت لم نرَ في مشغرة سوى القومي أو الشيوعي، ولهذا السّبب لم تكن حدود «الحزب القومي» أو «الحزب الشيوعي» واضحة خاصةً عندما تداخل هذا الانتماء مع الانقسام العائلي. والانقسام كان في الحقيقة طبقيّاً أي أنّه بين القسم الأكبر من الرأسماليّين الجدد الذين تكتّلوا وكانوا قد بدأوا بشراء الأراضي بعد أن كانوا بمعظمهم فلّاحين ومرابعين عند كبار ملّاكي الأرض. لذلك، خُلقت حالة من العداء انعكست على الحزب القومي والشيوعي. آل ناصيف وآل كرم أتوا من عيتنيت وكذلك قسم من آل الحجار، وهؤلاء سكنوا حيّاً سمّوه حيّ «الخان». في المقابل أطلق على حيّ الحزبيّة الثانية، حيّ العين، [راجع كتاب **مشغرة**] قلب مشغرة الفارغ نسبةً إلى الناس المهاجرة. في هذه الفترة كان وجهاء مشغرة لا يزالون من آل طرابلسي.

جميع عائلة سليم الدبس كانوا شيوعيّين بمن في ذلك الوالد. عند تأسيس النّقابة كان سليم بلشفيّاً وملحداً انتسب إلى الحزب باكراً مع أخوة زوجته، أي عزّت إبراهيم وعائلته. هؤلا هم أوّل شيوعيّين لكنّهم سكنوا خارج مشغرة، عملوا في شركة التراموای، بمعنى أنّهم انتظموا في حركة عمّاليّة قائمة. في ذهني يوجد سليم الدبس «الشيوعي»، لا أعرفه بصفة ثانية، مع أنّه اشتهر بأنّه رجل أعمال وملّاك أراض كبير. هو متمرّد، اختلف مع إخوته وتركهم على الرّغم من أنّ لهم دباغة كبيرة. انتقل إلى بيروت وفتح محلاً على البور وأسّس دباغة في برج حمود واشترى أراضي ومستودعات، وعمل في الدباغة لبعض الوقت ثم أجّر الدباغة وانتقل للعمل في التّجارة. أبناء سليم الدّبس أصبحوا شيوعيّين لأنّهم عاشوا في بيت شيوعي، أبوهم شيوعيّ وأخوالهم شيوعيّون. توفيق إبراهيم، خال خليل الدبس، ظلّ شيوعيّاً لحين وفاته في بلدة دوما البترون.

تعرّفت إلى حسن عواضة من خلال الصداقة بين الوالدين. والد عواضة كان الحليف الأساسيّ لحزبيّة بيت طرابلسي، وبالتّالي اعتدتُ رؤية حسن يوميّاً إمّا في منزلنا أو في منزل شفيق طرابلسي داخل الاستراحات. تعرّفت إلى حسن الذي يكبرني بعشر سنوات. يذهب إلى الدباغة كي لا يضيّع وقته ويرى كيف يعمل النّاسُ ويتعلّمون. لاحقاً أتى إلى مشغرة وبدأ التّدريس مع سليم بو خليل، ووالدة هذا الأخير من آل طرابلسي، أخت سليمان طرابلسي، وأبوه طبيبٌ يُدعى سالم بو خليل وقد درس الطّبّ في اسطنبول. لم يصبح سليم بو خليل مدرّساً ولم يكمل تعليمه لا أعلم لماذا لأنّ عائلته كانت من العائلات التي تعلّم أبناؤها في المدارس والجامعات.

طريفة مشغرة، الإقطاع فيها طالب علم أيضاً. الياس طرابلسي الذي قام ببناء الإمبراطوريّة [يقصد استملاك عدّة مَزارع وقرى حول مشغرة] أرسل أولاده لتعليمهم، وكان ابنه اسكندر ضمن أوّل دفعة في الجامعة الأميركيّة، وابنه جريس تخرّج من اسطنبول وصهره سالم بو خليل، المتزوّج من اسطنبول، وقد تخرّج من اسطنبول. ثلاثة أطباء مرّةً واحدة في العقد الخامس، السادس أو السابع من القرن التاسع عشر. واستمرّ هذا التّقليد في مشغرة، دائماً تجد في تلك القري أطبّاء.

بين الوالد والحزب

انتقل والدي إلى بيروت مذ كنّا صغاراً، يذهب كلّ يوم إثنين ويعود السبت على اعتبار أنّه عمل في التّجارة. أخي عزيز صار رجلاً وتسلّم الدبّاغة ولم يعد هناك من

ضرورة لتواجد الوالد في مشغرة. صار يتاجر بالجلد والنّعل ويستورد ويورّد. وكانت السوق وقتها واسعة، تحديداً قبل القطعية مع سورية وقبل قيام «إسرائيل». سوق الدبّاغات في مشغرة امتدّت من العريش إلى العراق. ماتت سوق الدبّاغات لأنّ تجارتها بُنيت على أسس واسعة شملت كلّ بلاد الشام، وفي النّهاية لم يبق غير سوق الأردن. ثمّ ذهب أحد الأشخاص من آل رفّول من مشغرة إلى الادرن وعمل مع الدّولة، فأنشأوا دبّاغة دفعت إلى إغلاق جميع الأسواق. وبدأت حينها الدبّاغات تموت، حتّى ماتت الأخيرة منذ سنتين. يعني انتهت مشغرة.

عندما انتقلت العائلة إلى بيروت، كنت لا أزال في دير المخلّص، أي سنة **١٩٤٧** أو **١٩٤٦**. بقيت كأنّي داخل السجن لأنّ الوالد كان غاضباً منّي إذ هربت من المدرسة. وبعد أن كبرْت عدت إلى الفرير حيث بقيت ثلاث سنوات. وضع العائلة المادّيّ كان في حينها مريحاً وبقي كذلك حتّى وفاة والدي في العام **١٩٥٤**، والسّبب أنّ أبي نوّع بالتجارة ولم يكتفِ بالجلد، فأخذ حصّةً من كهرباء مشغرة بعدما اشترى ثلثها من شفيق طرابلسي، كما تشارك مع شخص شيعي من آل مزاحم في معمل غراء، في وقتٍ كان نَسيب طرابلسي مشاركاً لشخصٍ من آل عاصي. التنويع في الأعمال أعطانا مجالاً للبقاء مرتاحين. ترك لنا والدي أملاكاً كثيرة، حوالي خمسين دونم أرض ومائة دونم بساتين. آخر بستان قمت ببيعه مؤخراً لصهر فاروق [دحروج] لأنّي أريد التخلّص منه. «حزب الله» يخيّم هناك وأنا خائفٌ عليه من الاحتراق لأنّه كبير، كان عبارةً عن ستّةً وستين ألف متر مربّع.

صحيح أنّني انتسبت إلى الحزب الشيوعي لكنّني لم أكن قد خرجت عن سلطة الوالد. كنت معه في المحلّ، أهرب منه قدر المستطاع. تأسّست في مدرسةً تجاريّة، لا في مهنيّة في الفرير، فيها دبلوم عالٍ أي نصف جامعيّ. درست التجارة، أي المحاسبة، والعلوم الماليّة والاقتصاد. كان ذلك في أواخر الأربعينيّات وأوّل الخمسينيّات. وفي الوقت نفسه، تسجّلت في معهد الآداب الشرقيّة في الجامعة اليسوعيّة بسبب رغبتي الكبيرة في التعلّم والعمل في اللغات السامية. لكن للأسف لم أكمل لأنّ والدي توفّي فتركتُ كلّ شيءٍ لأخي عزيز. كان أبي منزعجاً لأنّه يُعدّني لخلافته في التجارة وفي أشغاله الواسعة على أن يعمل عزيز في الدباغة. وكان مزعوجاً أنّ اخي نوئيل استأجر شقّة كي يدرس الهندسة في مكانٍ آخر. وانزعج والدي لأنّي ذهبت حينها وعملت في الانتخابات لمصلحة خالد بكداش عام **١٩٥٤**، وعندما عدتُ منتصراً قال لي يومها: مبروك، لكنّه قالها من طرف لسانه. توفّي فجأةً مع بداية عام **١٩٥٥**. كان لا يزال قويّاً. خرج من المحلّ وتوجّه إلى منزلنا في الجمّيزة بشارع مارون النقاش. لدى عودتي ليلاً متأخّراً بعض الشّيء وبيدي صحيفة «اليوم» لعفيف الطيبي، لأنّ والدي كانت تهمّه القراءة وتحديداً الصفحات الاقتصاديّة، دخلتُ عليه وهو مستلقٍ على كنبةٍ طويلة فناولته الصّحيفة ومشيت. شقيقتي الدّاخلة إلى غرفة الجلوس صرخت، نظرتُ خلفي فوجدته وقد توفّي.

قبل وفاة والدي كانت شيوعيّتي قد أضحت معلَنة. هي ظاهرة لا تتكرّر: صرتُ قريباً من الحزب وأنا لم أقدّم طلب انتساب، ولم أنضمّ لأيّ فرع. انتظمتُ أوّل مرّة عبر «منطقة» بيروت التي تمتدّ من الدامور إلى جونية، لأنّ علاقتي بدأت مع المسؤولين في الحزب بالبقاع ومنهم عمّ وصال فرحة [زوجة خالد بكداش]، وقد انتهى عالم دينٍ أطال ذقنه، وفوّاز معلوف من نيحا، الذي أصبح فيما بعدٍ رئيساً لمصلحة المياه في البقاع، وصار أخوه مديراً عاماً في الدّولة. أخذوا يكلّفونني بمهمّاتٍ لاعلاقة لها بالعمل الحزبي العادي، مستندين إلى وضعيٍ الاقتصادي المَحمي. وَثَقوا بي. أنا تعرّفت إليهم عن طريق رشدي [عبودي] في منزله، كلّ هذه الأحداث حصلت قبل العام **١٩٥٣**. حتّى قبل أن تربطني علاقة بالحزب الشيوعي اعتبرني أهل مشغرة شيوعيّاً، كان هذا يحصل مذ كنتُ تلميذاً لدى الرّهبان.

رشدي [عبودي] ومجموعة فؤاد بارود، هذا الجيل الثاني من الشيوعيّين، اعتبروني شيوعيّاً، وهؤلاء أصغر من جيل نعيم الحاج. ورشدي كان شخصيّة مميّزة بسلوكه، مناضلاً «مهضوماً» ويزاول أشغالاً متعدّدة ما أنزل الله بها من سلطان. من خلاله سمعتُ لأوّل مرّة بصباح (الشحرورة وكان عمرها ١٤ - ١٥ سنة). امتلكَ قهوة وضمّنها، عمل في كاراتٍ متعدّدة، شخصيّةٌ ظريفةٌ و«نسونجي» تشتكي منه النّساء، لكنّه كان صديقاً مقرّباً على الرّغم من فارق العمر الكبير بيننا، وبالمناسبة سُجنّا معاً في عام **١٩٥٧**.

العلاقة مع رشدي ليست دائماً مفيدة، سمْعَتُه ليست دائماً حسنة في مشغرة، لكنّني تمسّكتُ بعلاقتي معه لسببين، أوّلاً هو شخص مؤمن بقضيّة، وثانياً لأنّه ظريف، العلاقة معه تُسرّ.

صرتُ صديقاً للشيوعيّين. ودائماً يقول لي نقولا طرابلسي: انتسبْ إلى الحزب، وأنا أردّ قائلاً: كلّا. لا أريد أن أربط نفسي، لا أريد أيّ تنظيم. نقولا أصبح شيوعيّاً قبلي، مذ كان طالباً في مدرسة الصنائع. يكبرني بعامين

❖
اثناء الدراسة
في دير المخلّص

وكنّا أصدقاء، ربطت عائلتينا علاقة، لذلك كانت لديه مَونة ليطلب انتسابي إلى الحزب. رغبتُ بالعمل في السياسة لكن على مزاجي. استغلّ والدي هذه الرّغبة: «لا تتبع هؤلاء الشّحاذين. غداً، عندما تبلغ الخامسةً والعشرين، بل بدءاً من الآن أعطيك ثلاثمائة ألف ليرة وأجعل منك نائباً في أيّ مكان تريد لأنّهم يصنعون نائباً بمائة ألف ليرة فقط لا غير».

مات والدي ولمّا أبلغ بعد خمسةً وعشرين عاماً، أي فشلتْ محاولة الرّشوة كي أبتعد عن المجموعة، لكنّه أصرّ على بقائي معه. شعر أبي بأنّه لا يريد التضحية بالشّيء الّذي بناه، وبالفعل تدهور الوضع الاقتصادي للعائلة بعد وفاته وأنا أتحمّل مسؤوليّةً كبيرة في هذا الأمر.

خبّرني عن المعركة بين الشيوعيّين والقوميّين في أوّل أيّار/مايو؟

معركة بين الشّيوعيّين والقوميّين

في الحقيقة لم تحصل هذه المعركة في أوّل أيّار. تقول الرّواية إنّ شخصاً من مشغرة توفّي في فنزويلا، وكان علي عواضة قد تزوّج أخته زواجاً أوّل، أي إنها والدة المهندس فؤاد والطبيب عدنان وأخواتهما البنات.

اعتبر القوميّون السوريّيون أنّ المتوفّى قوميّ سوريٌّ وكانوا في حينها يفتّشون عن مناسبات، فأحضروا أشخاصاً من الخارج من بينهم كريم عزقول الذي أصبح فيما بعد سفيراً في الأمم المتّحدة. داخل الجامع، الذي تُطلق عليه الآن تسمية «جامع الحسين»، والذي أعيد بناؤه [هدم مطلع القرن، انظر طرابلسي، **يا قمر مشغرة**]، تجادلوا وهاجموا الشيوعيّة. استنفر الشباب وأنا موجودٌ في مشغرة. وتمّ قطع الطريق عليهم. من جملة قاطعي الطريق حينها ابن عمّتك فؤاد عبّود، طويلُ القامة، قبل أن يصبح شرطيّاً، وربّما كان رشدي عبودي معهم. لكنّ الأكيد أنّ فؤاد كان موجوداً لأنّه هو الذي ضرب كريم عزقول عندما عاد هو وجماعته. فؤاد شهم، كسّر عزقول تكسيراً.

تطوّرت المعركة وحصل تبادلُ لإطلاق النّار بين الشيوعيّين والقوميّين، رصاصة طائشة أصابت سالم غزال. كان في الأربعين من عمره، متزوّجاً ولديه أولاد. حصل ذلك حوالي العام ١٩٤٤. ولما كنت ميّالاً للشّيوعيّين، وبدأت العمل مع سلام الراسي، انتشيتُ لقيام الشيوعيّين بضرب القوميّين، خاصّةً أنّي بتّ أعرف الشيوعيّين وأعتزّ بهم.

توفّي سالم الغزال وثارت ضجّة كبيرة في مشغرة. جرت اعتقالات وكان من بين المعتقلين زوج عمّتي بطرس بركة الذي اعتبروه من المحرّضين. تداخلت حينها حزبيّة الشيوعيّين بحزبيّة القرية. لكنّ آل بركة لم يكونوا شيوعيّين، كانوا من حزبيّة آل طرابلسي. أرادوا استفزاز شفيق طرابلسي لأنّه زعيم العائلة. في ذلك الحين تداخلت أمورٌ كثيرة بين شفيق وبطرس بركة. صعُب التّقارب من شفيق طرابلسي، اعتقله الفرنسيّون في فترة الحرب العالميّة الأولى، واعتبروه عميلاً للإنكليز.

يقول سليم غزال إنّ أخاه سالم قتل عن طريق الخطأ. وبالمناسبة، لم يحقد سليم. كنت وإيّاه من أعزّ الأصحاب، ومن بعدها التقينا في دير المخلّص. كان شخصيةً طريفة جدّاً. ترافقنا كان في القسم الداخليّ بدير المخلّص ولم يخطّط قطّ كي يصبح راهباً. كره رجال الدّين لدرجة أنّه هرب من الدّير مع أنطوان غطّاس، ابن الياس غطّاس من مشغرة (أنطوان غطّاس انتقل إلى البرازيل. قتل أمام باب مصرف وهو يحمل أموالاً).

حينها قمنا أنا وسليم وأنطوان بأمرٍ طريف. في الصفّ الثالث أنشأنا مجلّةً مكتوبة اسمها «دفتر» شتمنا فيها رجال الدّين. وكان هناك شخصٌ خطّه ظريف اسمه فرج بو طانيوس من الفرزل أو أبلح تولّى كتابتها. عندما سألت سليم عن الأعداد أخبرني عن ضياع سبع أو ثماني نسخ. لم يضَع سليم في الحسبان أنّه قد يصبح خوريّاً، قرّر الهرب فذهب ماشياً إلى مشغرة بسبب رذالة الخوارنة وظلْمهم، ومن ضمنهم ناظرٌ سيئٌ جدّاً قاسي القلب خبيث من آل بسّول أصبح مطراناً على زحلة فيما بعد لكنّه لم يبقَ طويلاً على قيد الحياة. ذهب سليم الغزال على قدمَيه من مشغرة ولم يعد إلى دير المخلّص. وأنشأ بعدها مدرسة الصّنائع في مشغرة.

بعد ذلك، عندما سافرتُ وأصبحت كثير التنقّل بعد التزامي الحزبي فوجئت بأنّ سليم الغزال صار خوريّاً ينذر الفقر والطاعة والعفّة [وقد سيم مطراناً فيما بعد]. اعتبرت أنّ حادثاً استثنائيّاً حصل معه ودفعه للانتقال من كره ونقمة على الخوارنة إلى أن يصبح واحداً منهم. تعود آخر صورةً أملكها لسليم الغزال إلى العام ١٩٤٨. يظهر فيها معي ومع أنطوان غطّاس، أنطوان وأنا نرتدي السراويل بينما سليم يرتدي الشورت، أصبح شابّاً واستمرّ بلبس الشّورت. فاجأني عندما أصبح شخصاً آخر، إنساناً مؤمناً لكن على طريقته الخاصّة لأنّه شخصٌ واعٍ جدّاً، امتلك وعياً مدنيّاً وعلمانيّاً، كان شخصاً مميّزاً.

فيتنام ١٩٦٦
في قلب المعارك

رياض الرّيس

صحافي متقاعد، يعمل في النشر، سورية ولبنان. صدر له «صحافي المسافات الطويلة» ٢٠١٧.

استراتيجية الجنرال جياب

المقارنة بين خي سانه و«ديان بيان فو» لا بد منها، لا للتشابه الجغرافي بين المعقلين وحسب، بل للأهمية السياسية التي يعطيها المراقبون للانتصار النهائي فيها الذي سيكون كورقة رابحة على طاولة المفاوضات. سقطت «ديان بيان فو» في أيدي «الفيت منه» إثر حصار دام ٥٦ يوماً، وكلف ٢٢ ألف ضحية من «الفيت منه» ومن الفرنسيين. وكان ذلك في ٨ أيّار ١٩٥٤. ومهندس الانتصار هو الرجل نفسه الذي يهندس انتصاراً مماثلاً في خي سانه بعد ١٤ سنة: الجنرال «جياب». وكانت استراتيجية «جياب» واضحة: هجوم مركّز من الشمال عبر الأرض المجرّدة، مع هجوم من الجنوب والجنوب الشرقي عبر لاوس. أمّا التكتيك، فكان هو نفسه المتّبع في ديان بيان فو، مع تعديلات طفيفة تحسب فارق الزمن، كاستعمال الفيتناميين الشماليين الدبابات للمرّة الأولى في الهجوم الذي وقع على الخطوط الدفاعيّة الأولى. وفي «ديان بيان فو» حفر «جياب» نفقاً ضخماً في جبل ليجعل منه مركزاً غير مرئي للمدفعية. أمّا مراكز المدفعية الأميركية الثقيلة، فكانت إلى الشرق من خي سانه في قواعد مشاة البحرية في «روكبيل» و«كامب كارول».

الخطوة التالية للقصف بالمدفعية، كانت المشاة. فمن المفترض أن يبقى جيش «جياب» البالغ نحو ٤٠ ألف جندي وراء الهضاب ليهجم في الليل أو تحت ستار الضباب الجاف الذي يستمر منتشراً على تلك المنطقة حتى الظهر في هذا الوقت من السنة. في «ديان بيان فو»، لم يزد عدد الفرنسيين، في أي وقت، على ١٣ ألف جندي مقابل ٤٥ ألفاً من «الفيت منه» مع ٥٥ ألف مقاتل مساند. وكان للأميركيين نحو ستة آلاف جندي مقابل ٤٠ ألفاً لـ«جياب»، لكن مع ٤٠ ألف أميركي في الاحتياط، على بعد ٤٥ دقيقة طيراناً، في معسكر «فو باي».

والطيران هو مفتاح خي سانه، وهو أيضاً العامل الحاسم في أي انتصار، كما كان في «ديان بيان فو». وللطائرات الأميركيّة ثلاث مهمّات: الأولى، إمداد خي سانه بالمؤن والعتاد. الثانية، قصف مدفعيّة «جياب» وإسكاتها. الثالثة، قطع طرق التموين عن جنوده. وكان بوسع القوّة الجويّة أن تنقذ «ديان بيان فو»، لكنّ الطيران الفرنسي فشل في إسكات ١٤٤ مدفعاً ثقيلاً لـ«لفيت منه»، كذلك فشل في قطع طرق التموين التي كانت عبارة عن عشرات الدرّاجات القادمة من الصين، واستطاعت أن تحمل آلاف الأطنان من الأغذية إلى المقاتلين الفيتناميّين، وقد كان في خي سانه مدرج وحيد. وفيما يشبه معركة «ديان بيان فو»، استطاعت مدافع «جياب» أن تسقط ٤٨ طائرة للفرنسيّين وتدمّر ١٤ على الأرض وتعطّل ١٦٧.

لكنّ المقارنة التاريخيّة قد تقف هنا لتفصل بين حلم الجنرال «جياب» وهاجس وستمورلند. فالفارق بين وضع الفرنسيّين والأميركيّين كبير. ذلك أن للأميركيّين أسطولاً جويّاً لم يحلم به أي جنرال فرنسي، ومواقعهم أكثر تحصيناً، وأسلحتهم أحدث وأوفر وأفضل من السلاح الفرنسي الذي كان يستعمل إذ ذاك. كذلك فإنّ الجنديّ الأميركيّ، مهما جاءت نتيجة الحرب، قد فرض احترامه على الفيتناميّين كما لم يستطع الجندي الفرنسي. إنّما التاريخ قد يعيد نفسه، لو أخطأت الحسابات الصغيرة، ووقفت الطبيعة والطقس، وهما عامل أساسيّ في الحرب يمكنه أن يعرقل خطّ التموين الجوّيّ، إلى جانب الفيتناميّين لا إلى جانب الأميركيّين. وحتّى لو تحقّق الانتصار العسكريّ للشماليّين في خي سانه لكانت الهزيمة السياسيّة للأميركيّين، كذلك هزيمة الشماليّين عسكريّاً ما كانت لتفيد الأميركيّين ولا أن تكون انتصاراً سياسيّاً لهم.

وفي مصير خي سانه الذي يعتمد على الطيران وجهٌ من السّخرية هو: عندما كانت «ديان بيان فو» تموت، فكّر الرئيس أيزنهاور بإرسال الطيران الأميركيّ لمساعدة الفرنسيّين. واجتمع لهذه الغاية في ٣ نيسان / أبريل ١٩٥٤ إلى ثمانية شيوخ. إلّا أنّ شيخاً ظلّ يعارض التدخّل الأميركيّ في فيتنام، ويدعو إلى عدم زجّ الطائرات الأميركيّة في معركة خاسرة مع الفرنسيّين، وكان اسمه ليندون ب. جونسون.

ليس من حلّ وسط

واليوم، تقف الولايات المتّحدة وجهاً لوجه أمام عدوّ فيتناميّ من جهة، ومع حليف فيتنامي من جهة. العدوّ الفيتناميّ هو، عسكرياً، الفيتكونغ في الجنوب والقوّات النّظاميّة لفيتنام الشماليّة، وسياسيّاً جبهة التحرير الوطني، الذراع السياسية للفيتكونغ في الجنوب، والنظام الشيوعي الذي يرأسه هو شي منه في الشمال. وبعد الهجوم الصاعق الذي شنّه الفيتكونغ طول أسابيع ثلاثة، في أكثر المدن «أماناً» في فيتنام الجنوبيّة، من سايغون إلى دالات حتّى هيوي، ناسفاً البدهيّات التي كانت تقوم عليها الاستراتيجيّة الأميركية، ها هو يتصلّب موقف الفيتكونغ عند المواقع الآتية:

- أوّلاً، لا حلّ وسطاً للحرب الفيتناميّة. فالنّضال «حتّى النهاية» الانتصار أو الموت.
- ثانياً، الشرط الوحيد لإنهاء الحرب هو الهزيمة الحتميّة للولايات المتّحدة وحليفتها فيتنام الجنوبيّة.
- ثالثاً، مشاكل فيتنام الجنوبيّة تُحلّ في محادثات بين الأميركيّين وجبهة التحرير، وليس بين واشنطن وهانوي. وكما قال أحد زعماء الفيتكونغ: «في الوقت الذي يوقف فيه الأميركيّون قصف فيتنام الشماليّة يستطيعون التحدّث مع هانوي. أمّا إذا أرادوا المفاوضة مع فيتنام الجنوبيّة، فعليهم أن يتحدّثوا مع جبهة التحرير».
- رابعاً، إنّ وجود قوّات فيتناميّة شماليّة في الجنوب هو واجب ملقىً على عاتق الشّمال لمساعدة إخوانه في الجنوب. ولا انسحاب قبل التحرير الشامل. إنّ الواجب الطبيعي لـ٣١ مليون فيتناميّ يؤلّفون أمّة واحدة أن يحاربوا معاً. فالأميركيّون يعتقدون أنّ القوّات الشماليّة قوات غازية، وينسون أن فيتنام أمّة وشعب واحد.
- خامساً: شرط المحادثات الوحيد بين الفيتكونغ والأميركيّين هو الاعتراف بجبهة التحرير الممثّلة الوحيدة لشعب فيتنام الجنوبيّة، أي التخلّي نهائيّاً عن الحكومة الحاليّة ورجالاتها في سايغون.

وتبقى الاستراتيجيّة الأميركيّة في فيتنام موضع «شكّ كبير»، على حدّ تعبير خبير دفاعيّ بريطانيّ، وخصوصاً عقب تبرير هجوم الفيتكونغ الأخير على المدن الجنوبيّة، بأنّه عمليّة «يائسة». فما زال الأميركيّون يُصرّون على تعليم العدوّ «ما يجب» أن يفعله، لا «ما يريد» أن يقوم به. غير أنّ هذا «الشكّ الكبير» لا بدّ له من أن يولّد نوعين من ردود الفعل: الأوّل يتعلّق بالفيتناميّين، والثاني بالأميركيّين. فبعض هؤلاء في سايغون من الذين يحافظون على إدراكهم الصحيح، يأملون أن يكون هجوم الفيتكونغ الأخير قد أدّى إلى نتيجة إيجابيّة، هي أنّ على الفيتناميّين أن يختاروا الآن وفوراً إلى أيّ جانب يريدون أن ينضمّوا وينتموا. إذ إنّ الأيّام الأخيرة أظهرت أنّ الأميركيّين والشيوعيّين هم الطرفان اللذان يحاربان باقتناع والتزام دفاعاً عن مبدأين مختلفين لشعب تعب من الحروب على مدى ٢١ سنة كاملة منها، فلجأ إلى عدم الاكتراث ليحمي نفسه من ويلاتها.

لكنّ الإدراك الثاني يقع على عاتق الأميركيّين، وهو أنّ الهدف المباشر للهجوم الشيوعيّ الكبير الذي وقع عليهم في فيتنام، من السفارة الأميركيّة في سايغون جنوباً حتّى الجامعة الإمبراطوريّة في هيوي شمالاً، لم يكن الاستيلاء على المدن، أو احتلال السفارة الأميركيّة. كما لم يكن إثارة معارك جانبيّة، إذ إنّ هذه المعارك نشبت منذ أشهر في «لوك نيه» و«داك تو» و«لانغ في» على مقربة من «خي سانه». كما لم يكن هو معركة خي سانه نفسها. إنّ الهدف الأساسيّ من الهجوم الصاعق ذاك، كان تدمير الجهد الحربي للأميركيّين والفيتناميّين الجنوبيّين، ووقف «التمشيط والإبادة»، وبالتالي عمليّات «السيطرة السلميّة» على المناطق الجنوبيّة التي جرى «تطهيرها» من الفيتكونغ، ثمّ جعل الحكومة الجنوبيّة تنهار. ونجح الفيتكونغ في إلهاء الأميركيّين وحلفائهم عن إمكان قيامهم بكلّ ذلك، بواسطة تضخيمهم إمكان غزو تقليديّ للجنوب عبر المنطقة المجرّدة في الشمال أو حدود لاوس وكمبوديا، وبالتالي تركيز القوى الأميركيّة على هذه المناطق تركيزاً يمنع معه وجودها على نحو كافٍ في المدن.

والجنرال جياب يعرف، حتّى لو تجاهل القادة الأميركيّون، أنّ هذه الحرب يجب ربحها في عقول الفيتناميّين الجنوبيّين وقلوبهم، أكثر من ربحها في الغابات الكثيفة والجبال النائية. لذلك، قد تبدو خي سانه عمليّة إلهاء ضخمة، أكثر منها معركة حربيّة يترتب عليها تحديد مصير الحرب الفيتناميّة كلّها. أمّا واشنطن فتواجه أكبر

تحدٍّ عسكريّ للقوّات الأميركيّة منذ الحرب العالميّة الثانية. فأمام الجنرال جياب اختياران: الأوّل، أن يستمرّ في التهديد بالهجوم على خي سانه بواسطة معارك صغيرة جانبيّة، مجمّداً الجزء الأفضل من القوّات الأميركيّة، والثاني الهجوم عليها عند حدوث ظروف مناسبة له واحتلالها بالقصف المتواصل بالمدفعيّة والصواريخ، وإغراقها بعشرات الآلاف من المحاربين الذين يملكهم، وعنده معين منهم لا ينضب، وخلق مواجهة بشريّة، ترخص الحياة فيها وتفقد الرصاصة فاعليّتها.

فيتنام مأساة تتجدد كل عشر سنوات. كما تقول أسطورة بوذية قديمة. وبأن السنوات العشر الحالية قد قاربت النهاية. وهي مثل التنين واسم فيتنام يعني «التنين الصغير» يقدح شرارا ويبتلع نارا. ثم يهمد كالبركان وقتا طويلا قبل أن يعود فيثور.

إنّ الأهداف العسكريّة الأساسيّة للفيتكونغ لم تكن الانتصار التقليديّ الآنيّ في معركة حربيّة بقدر ما كانت الانتصار السياسيّ والنفسي. ما أرادوه: إظهار هزيمة أمام «الرّأي العام الأميركيّ» داخل الولايات المتّحدة، وضعف الإرادة الفيتناميّة أمام الاندحارات العسكريّة المتواصلة داخل البلاد، لكنْ فشل الأميركيّون في خلق استراتيجيّة ناجحة مناوئة، وفشل الفيتناميّون الجنوبيّون في بناء دولة، بمساعدة الأميركيّين، مستقرّة وديموقراطيّة وحرّة تكون بديلاً يختاره الجنوبيّون من الشمال الشيوعي.

كلّ عشر سنوات

إذا عدنا إلى هيوي (تدخل سخرية الأقدار في التاريخ الفيتنامي) نرى أنّ المعارك بين الفيتكونغ والأميركيّين والفيتناميّين الجنوبيّين كانت لا تزال تدور فيها، ونرى السخرية تمتدّ إلى مقارنة مهمّة، هي أنّ هيوي «صِمّام الاضطرابات» في كلّ فيتنام. فمن هيوي اندلَعت الاضطرابات التي أحاطت بحكم دييم، ثمّ بحكم الجنرال خانه، ثمّ برئيس الدولة فان خان سوك. ومن هيوي اندلعت حملة البوذيّين واستمرّت سنة ونيفاً ضدّ حكم الجنرال كاو كي عام ١٩٦٦. وفيها حدثت عمليّات الحرق الانتحاريّة التي قام بها الرّهبان والرّاهبات البوذيّون بحقّ أنفسهم. وهيوي معقل البوذيّين، والعاصمة الإمبراطوّرية القديمة التي انطلقت منها شرارات التمرّد كلّها في تاريخ فيتنام السياسيّ. وتمثال بوذا الشهير في المعبد الكبير يقف فوق «نهر العطر» مطلاً على «ممرّ الغيوم» كعلامة فارقة لهذه المدينة «الهادئة» هدوء قبور الملوك الفخمة المنتشرة على مداخلها. أمّا جامعتها الكبيرة وقصرها الإمبراطوريّ الفخم الذي بني عام ١٨٠٤، فهما مَعْلَمان على وشك الاندثار. فهيوي التي لم تعرف شوارعُها الضيّقة «التاكسيّات»، ولم تعرف أحياؤها الفنادق، والتي تَحوّل أحد بيوتها القديمة إلى فندق بحكم الظروف، فُضّت بكارتها بالدبّابات والرّصاص والهليكوبتر. وكما قال لي زميلي الصحافي القديم: «إنّ ما يبدو عادة في هيوي يكون كالوباء، يجتاح كلّ شيء».

ويذكّرني زميلي الصحافي القديم، بأنّ فيتنام مأساة تتجدّد كلّ عشر سنوات، كما تقول أسطورة بوذيّة قديمة، وبأنّ السّنوات العشر الحاليّة قد قاربت النهاية. وهي مثل التنّين واسم فيتنام يعني «التنّين الصغير» يقدح شراراً ويبتلع ناراً، ثمّ يهمد كالبركان وقتاً طويلاً قبل أن يعود فيثور. إنّها تنّين يكاد يختنق من الاستفزاز، ويحترق ويحرق كلّ شيء. ولا شكّ في أنّ الأسطورة البوذيّة صحيحة، لأنّ التنّين الصغير قد كبر.

في قلب المعارك

تحتّم عليّ أيضاً أن أزور بعض المناطق الواقعة بين طرفي فيتنام الشمالي والجنوبي، أي خطوط التّماس. دانانغ، مركز قيادة القطاع العسكري الأوّل في فيتنام الجنوبيّة، وكبرى مدن الشمال الساحليّة آنذاك، كانت منبع الاضطرابات السياسيّة التي عصفت بحكومة فيتنام الجنوبيّة. لكنّ الوصول إليها كان مستحيلاً برّاً. أقلّتني طائرة شحن عسكريّة من مطار «تان سان نوث» في سايغون وكانت أولى منازلاتي مع الخوف الحقيقيّ. كان معي سبعة صحافيّين آخرين، غير أنّني كنت الوحيد بينهم الذي يركب طائرة عسكريّة لأوّل مرّة. وعلى ما يبدو، فإنّ قائد الطائرة لاحظ فيّ شيئاً من الخوف أو الارتباك، لكنّه بدلاً من أن يحاول طمأنتي، نظر إليّ فيما كانت الطائرة الضخمة تستعدّ للإقلاع وألقى بين ذراعيّ مظلّة هبوط، قائلاً: «لن أعلّمك كيفيّة استعمال هذه المظلّة، لأنّه إذا سقطت هذه الطائرة، فلن يكون لديك الوقت الكافي لكي تستعملها. بل إنّك لن تتذكّر حتّى طريقة استعمالها. لكنّ التّعليمات تقول إنّني يجب أن أعطيك مظلّة». بينما كانت ملامح زملائي الصحافيّين تخلو من أيّ انفعال أو خوف.

لم يكن مرَحّباً بالصحافيّين في دانانغ. أتذكّر أنّنا كنّا نتجوّل بين السكّان ونرى العداء في عيونهم. كيف لا، ونحن أفراد بعثة أميركيّة؟ كانت المدينة الجميلة ذات الطّابع الفرنسيّ النّافر في حالة غليان. يخيّم عليها شبح الحرب الأهليّة. فهي في السابق كانت موالية لحكومة فيتنام الجنوبيّة ضد الشيوعيّين الذين في الشمال. أمّا الآن، فقد انقسمت القوّات النظاميّة فيها بين مؤيّد ومعارض. وبدأت وحدات صغيرة تنسحب من مطارها تدريجاً لتذهب إلى حفر الخنادق وإقامة المتاريس على مفارق الطرُق. وخضعت المدينة لحظر تجوال ولم يشفع لنا خلعُنا الزيّ الصحافيّ العسكريّ، وارتداؤنا ملابس مدنيّة لننال ودّ السكان، أو نتمكّن حتّى من طرح سؤال عليهم. ذهبتُ بسيّارة جيب مستأجَرة، برفقة صحافيّ ياباني كان مزوّداً بمعدّات إلكترونيّة لم يسبق لي أن رأيت مثلها من قبل. قابلتُ المحافظ الذي بدا متوتّراً. إنّهم يريدون أن تستقيل الحكومة. وبعد هدوء قصير ليوم أو يومين، عادت التظاهرات رافعة العداء للولايات المتّحدة الأميركيّة، واعتدى المتظاهرون على الصحافيّين. كان ممكناً لأيّ منّا أن يُقتل. رغم ذلك، اضطررت بعدها إلى البقاء أربعة أيّام في المركز الصحافيّ في دانانغ الذي هو مخيّم عسكريّ أميركيّ، ريثما تهدأ الأمور ويصبح بإمكاني الرحيل.

لم يكن مرحبا بالصحافيين في دانانغ. أتذكر أننا كنا نتجول بين السكان ونرى العداء في عيونهم. كيف لا. ونحن أفراد بعثة أميركية؟ كانت المدينة الجميلة ذات الطابع الفرنسي النافر في حالة غليان.

إلّا أنّ طريق العودة إلى سايغون جوّاً كانت مستحيلة. فمطار سايغون كان قد أصبح مغلقاً. لقد اندلع القتال أخيراً. اشتعلت فيه النيران وبات الطيران المدنيّ فوقه معطّلاً. لكنْ كان علينا مغادرة دانانغ. فالتّظاهرات هنا اجتاحت كلّ شيء، ولم يعد آمناً بقائي في المدينة. نقلتني طائرة الشحن العسكريّة من دانانغ إلى بلدة بليكو. وبليكو مركز قيادة القطاع الثّاني في فيتنام الجنوبيّة، وهي أقرب إلى سايغون أيضاً. لكنّ القطاع الثّاني أكبر مراكز تجمّع الـ«فيتكونغ» وأخطرها. فهو يتضمّن المنطقة الجبليّة الوحيدة في فيتنام الجنوبيّة، وهي ملعب يجيد الشيوعيّون التحرّك فيه. كان للأميركيّين قوّة عسكريّة كبيرة أيضاً، وهي عبارة عن لواء ضخم.

وعرفت أنّ ما يحدث حول بلدة بليكو، التي هي عبارة عن شارع طويل على جانبيه دكاكين صغيرة وبارات، وتشرف عليها قرى بدائيّة لقبائل الـ«مونتانيار»، كان عمليّة «تنظيف» أميركيّة دؤوبة. الفرنسيّون قاموا بعمليّة كهذه، وانتهى بهم الأمر قتلى وأسرى بالآلاف.

الـ«فيتكونغ» يحفظون الجبال جيّداً، وهم ينقضّون كالنّمور ثمّ يذوبون في الغابة. وكانوا لا يتوانون عن قتل كلّ مَن يرافق الأميركيّين. كانت حرباً خرافيّة، وقرّرت أن أعاين المعركة بأمّ العين. انطلقت من بليكو مع سلاح الفرسان الأميركيّ ضمن «عمليّة لنكولن» الوقائيّة. وصلنا إلى حدود كمبوديا، حيث قضيت أربعة أيّام في الهضاب المكسوّة بالغابات التي أحاطت بنا من كلّ حدب وصوب. صعدتُ مع فرقة في طائرة هليكوبتر من طراز UH-1 Iroquois المفتوحة من الجانبين. قال لي القائد: «حاول أن تُبقي رأسك منخفضاً، فأنت لا تعرف من أين تأتيك الرّصاصة». لا أتذكّر أنّني شعرت بالخوف في حياتي كما شعرت في ذلك الوقت. ألْقت الهليكوبتر القنابل، وكانت المنطقة تشتعل تحتنا والرّصاص يدوّي. كان هدف «عمليّة لنكولن» ردع كتائب الـ«فيتكونغ» القادمة من كمبوديا القريبة. حلّقنا فوق وادي أيادانغ المسمّى «وادي الموت» العابق برائحة الجثث الأميركيّة وبقاياها بعد حرب نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٥ التي خاضوها هناك وتكبّدوا خسائر فادحة فيها. صحيح أنّ «عمليّة لنكولن» لم تكن ضخمة نسبيّاً، إلّا أنّ مشاركتي فيها، وإنْ شاهداً، خلّفت فيّ شعوراً بالإرهاق. لم يرغمني الأميركيّون طبعاً على الصعود إلى الهليكوبتر، والأرجح أنّهم لم يكونوا بحاجة إلى راكب مذعور بطريقة ما ليرافقهم في عمليّة عسكريّة تتطلّب تركيزاً عالياً. لكنّني قلت بما أنّ لا شيء أمامي لأفعله وسط هذه الغابات، فلن أبقى جالساً هكذا بانتظار هجوم مفاجئ يشنّه الـ«فيتكونغ».

دالات وانتفاضة الطلّاب

لكنّ العمليّة انتهت ولم تكن الطريق إلى سايغون قد فتحت بعد، فانتقلتُ جوّاً من بلدة بليكو إلى دالات. ودالات كانت مدينة أصيلة في أواسط فيتنام. في ذلك الوقت، كانت الحرب قد أضحت نشاطاً روتينيّاً خالياً من الإثارة بالنسبة إليّ. كانت تحكم دالات امرأة اسمها «مدام نغوين هو»، وهي المرأة الوحيدة التي تتولّى منصباً حكوميّاً عامّاً في فيتنام. غير أنّ آمر الكلّية الحربيّة في المدينة كان قد عزل المرأة، ليتولّى الطلّاب مقاليد السلطة فيها. تسلّم الطلّاب محطّة الإذاعة، فحوّلوها من منبر لمساندة حكومة فيتنام الجنوبيّة إلى ميدان متواصل لمواهب الطلّاب السياسيّة والشعريّة والنثريّة، وحتّى الغنائيّة أيضاً.

غير أنّ الأمر لم يرقْ الجنرال كاو كي رئيس الوزراء، فأمر من بقي من قوّات الجيش الموالية له باقتحام مبنى الإذاعة وإخراج الطلّاب. كانت الإذاعة تقع في الطبقة الأخيرة من أحد الفنادق، ولم يفكّر الطلّاب في أيّ شيء سوى إحراق المبنى بأكمله. كنتُ واقفاً على الرصيف المقابل أشاهد كلّ هذا. اندلعت النيران في كلّ المبنى، فيما وقف رجال الشرطة والإطفاء دون أن يحرّكوا ساكناً، إذ ليست لديهم أوامر بالتدخّل وإطفاء النّار. في المساء، وقف ثلاثة عشر طالباً منكّسي الرؤوس فوق منصّة، وأخذوا يعتذرون لرفاقهم على إحراق مبنى الإذاعة، ويطلبون منهم الغفران. بعد ذلك، نزلوا عن المنصّة وسارت تظاهرة رفعتْ شعاراً من أخطر ما يمكن أن يكون في ذلك الوقت: «نريد السلام لا الحرب». إنّه تلويح بفكرة هدنة مع الـ«فيتكونغ» وإنهاء القتال. كان في التّظاهرة المئات من الأطفال والأولاد، وبعضهم حمل لافتات تقول: «نريد أرزّاً وحليباً».

نيسان / أبريل ١٩٦٦. أمكنني العودة إلى سايغون بعد أن توقّف القتال واستعادت المدينة هدوءها. لكنّ مهمّتي الصحافيّة كانت قد أوشكت الآن على نهايتها. لقد أمضيتُ قرابة شهرين في فيتنام، وبعد أيّام ينبغي أن أغادر سايغون إلى هونغ كونغ. غير أنّ عليّ أن أجري مقابلة أخيرة. هذه المرّة ليست مع أيّ زعيم سياسيّ، بل مع «تشوتو»، رئيس تحرير جريدة «سونغ» واسعة الانتشار والمناهضة للمدّ الشيوعيّ. إنّه اللقاء الذي بقيت أهجس فيه وأنا خارج سايغون. وقد قرّرت أن ألتقي الرّجُل بعد أن هاجم متظاهرون بوذيّون مكاتب الجريدة المتواضعة وحطّموها قبل شهر. وكان ذلك أوّل حادث أشهده خلال إقامتي في فيتنام.

كان «تشوتو» رجلاً ليبراليّاً وطنيّاً، معادياً للشيوعيّة والأميركيّين وأتباع بوذا في آن واحد. كان ببساطة حرّاً. مكاتب جريدته تقع في مبنى متواضع. كان عليَّ أن أصعد درجاً قديماً طويلاً حتى أصل إلى مكتبه ولفتني أنّ «تشوتو»، رغم عمره الذي يزيد على الخمسين بقليل، إلّا أنّ مظهره لم يكن يوحي بأيّ سنّ. تحدّث إليّ بإنكليزيّة بطيئة وبدائيّة، وكان يريد أن يتحسّس معنى كلّ كلمة قبل أن يلفظها.

قال لي: «إذا كنت ضدّ الشيوعيّة فأنت عميلٌ للأميركيّين، وإذا كنت من دعاة الحياد فأنت طابور خامس، وإذا كنت من الدّاعين إلى إنهاء الحرب فأنت جبان انهزاميّ، وإذا كنت ضدّ الإدارة العسكريّة فأنت مع الـ«فيتكونغ»، وإذا كنت مع البوذيّين فأنت ضدّ الكاثوليك، وإذا كنت ضدّ الكاثوليك فأنت مع الشيوعيّين وهكذا!». كان يتكلم بهدوء ووقار لافتَين. وابتسمتُ. لقد ذكّرني كلامه بما كان يحدث في العالم العربيّ من صراعات سياسيّة وأيديولوجيّة. وفي نهاية المقابلة قال: «هل نتناول العشاء معاً؟»، «نعم، ولكن أين؟» سألتُ. فقال: «أعرف مطعماً صينيّاً صغيراً في تشولون (المدينة الصينيّة في سايغون)، لا يرتاده إلّا المحاربون من أجل قضايا خاسرة. وأنا - وأرجو ألّا تكون أنتَ كذلك - صاحب قضيّة خاسرة». بعد العشاء أوصلني إلى الفندق، ثمّ مضى إلى منزله. لكنّ عشاءه معي كان العشاء الأخير في حياته. ففي التاسعة من صباح اليوم التّالي سيطلق شابٌّ النّار على «تشوتو» أمام باب منزله وهو في طريقه إلى الجريدة. فرّ القاتل مستقلاً سيّارة يقودها زميل له. أمّا «تشوتو»، فأدخل إلى المستشفى الحكوميّ في تشولون. كانت حالته حرجة، لكنّني لم أقوَ على رؤيته يُحتَضَر. إلّا أنه لم يفارق الحياة إلّا بعد مغادرتي سايغون بأربع وعشرين ساعة. قرأت ذلك في جريدة تُعنى بأخبار فيتنام، في هونغ كونغ. كان موته آخر خبر في الجريدة. أتذكّر كلماته لي خلال المقابلة: «حامل القلم الذي ليس وراءه حزب أو دولة أو حتّى عصابة، هو ثائر وحيد يا صديقي».

لم يكن «تشوتو» أوّل صحافيّ أو كاتب يُغتال. العديد من حمَلة القلم لقوا المصير نفسه خلال حرب فيتنام. لكنْ يبقى أنّ مأساة البعض قُدِّر لها أن تطول لعقود من الزمن.

بعد العشاء أوصلني إلى الفندق. ثم مضى إلى منزله. لكن عشاءه معي كان العشاء الأخير في حياته. ففي التاسعة من صباح اليوم التالي سيطلق شاب النار على «تشوتو» أمام باب منزله وهو في طريقه إلى الجريدة.

عندما نزلت في فندق «إمباسي»، كان معي حشد من الصحافيّين أتوا من كبريات الصّحف حول العالم. كان من بينهم بعض الأسماء العملاقة بالنسبة إليّ. قرابة أربعمئة صحافيّ توزّعوا بين تِراس فندق «كونتيننتال» وبار فندق «كارافيل» حديث الطّراز في ذلك الوقت. غير أنّ أحداً منهم لم يكن قد سمع بعد بجريدة «الحياة». أتذكّر أنّ صحافيّاً واحداً أصبحت أنا وهو مقرّبين من بين الكلّ. كان اسمه شون فلين. شابّ طويل، نحيل وفي غاية الوسامة. نشيط وجريء. كان ابن الممثّلين الشهيرَين إيرول فلين وليلي داميتا، وهو نفسه عمل فترة في التمثيل. إلّا أنّ الصورة الفوتوغرافيّة استهوتْه أكثر، فجاء إلى فيتنام ليعمل مراسلاً لـ«التايم» الأسبوعيّة بنيويورك. أصبحنا صديقين خلال فترة إقامتي في سايغون، وعاملني بشيء من العطف. لكنّي لم أحظَ بفرصة لقائه عندما رجعت إلى سايغون من «دالات». بعد عودتي إلى بيروت، علمتُ أنّه فُقد في فيتنام. ولم يُعثر له على أثر. ذهب ليلتقط صورة سرّاً لحاجزٍ أقامه أفراد من الـ«فيتكونغ» قرب حقول الأرزّ الكمبوديّة، فألقي القبض عليه. كان على متن درّاجة ناريّة، إلّا أنّهم لم يعثروا عليها هي الأخرى. استمرّت بعثات التفتيش عنه حتّى عام ٢٠١٠. لكنّ الولايات المتّحدة أعلنت في عام ١٩٨٤ وفاته رسميّاً بعد الفشل في العثور على بقاياه في أيٍّ من المقابر الجماعيّة المعروفة. أذكر أنّه قال لي: «إذا أردت أن تفهم فيتنام، فإمّا أن تبقى عشرة أيّام أو عشر سنوات، وإلّا فلن تحلّ الكلمات المتقاطعة الكبيرة التي ستواجهها». شون فلين بقي من الكلمات التي لم يحلّ لغزها حتّى هذه اللحظة.

لقد ملأتْني فيتنام بالأسى، الغضب والخوف. فقدتُ أناساً عرفتُهم، وإن لفترة وجيزة. شممت رائحة الموت من حولي. رائحة كانت تتوارى بعض الوقت، ثمّ تظهر من جديد. كانت مشاهد الخراب تعبث بذاكرتي. تحاول ملئها إلى الآخر. إلّا أنّ شيئاً من هذا لم يهزّ السحر الذي خلّفتْه سايغون فيّ. لقد بقي شيء منّي بحوزتها، تركة ربّما أو تذكار. كنت أظنّ أنّني سأذهب فأنجز المهمّة التي كلّفتني بها «الحياة» ثمّ أعود، محايداً وبعيداً عن أيّ أثر آسيويّ. إلّا أنّني كنت مخطئاً. بعد عودتي إلى بيروت، اكتشفتُ أنّني مفتون بمزيج سايغون الآخّاذ بين أصالتها الشرقيّة ذات الأثر الصينيّ وبين مناخها الفرنسيّ. كما يحدث حين تترك شيئاً منك في مكان ما لينحسر، وعندما تريد العودة لاسترداده، فإنّك لا تستطيع. مع ذلك، تظلّ تشعر بهذا السحر عن بُعد. وأنا لم أكفّ يوماً عن التفكير في أنّ عليّ زيارتها من جديد.

من مذكرات جارالله عمر ٤
وقف الكفاح المسلّح في الشّمال

حاورته ليزا ودين

أستاذة العلوم السياسيّة في جامعة شيكاغو بالولايات المتّحدة. من مؤلّفاتها «السيطرة الغامضة» (١٩٩٩) و«الجموع، السلطة، الأداء في اليمن» (٢٠٠٨).

بعد رحيل سالمين صار عبد الفتّاح الأمين العام للحزب وعلي ناصر محمّد تولّى رئاسة الدولة، وكان هذا وضعاً مناسباً وطبيعيّاً فتوزيع السلطة بهذا الشّكل وفَصْل رئاسة الدّولة عن أمانة الحزب كان إجراءً ملائماً ويتّفق مع متطلّبات الأوضاع القائمة، طبعاً عبد الفتّاح كان خطأه أنّه أمسك برئاسة الدّولة والحزب اقتداءً بما كان حاصلاً في الاتحاد السوفييتي أيّام بريجنيف الذي كان يجمع بين منصبَي رئاسة الدولة وأمانة الحزب. برزتْ مقترحات بأن يجمع عبد الفتّاح بين منصبَي الأمانة العامّة ورئاسة مجلس الشعب الأعلى (رئاسة الدولة) على أن يتولّى علي ناصر رئاسة الوزراء، وفي اعتقادي أنّ هذا الإجراء كان غير ملائم، لأنّ إقصاء علي ناصر من رئاسة الدّولة قد خلق بعض الحساسيّة عنده. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية راكم المسؤوليّة على عبد الفتّاح، بينما كانت مواصفاته وإمكاناته أن يقتصر دوره على رئاسة الحزب، ويكون بمثابة «المرشد العام» إذا صحّ التّعبير، الأمر الذي خلق جوّاً من الانتقادات لأداء عبد الفتّاح في منصب رئاسة الدّولة رغم أنّ العبء الرئيسيّ في الأمور التنفيذيّة يقوم به مجلس الوزراء. حدثتْ بعض التطوّرات التي فاقمت الخلاف ومن ضمنها الآثار التي ترتّبت على حرب عام ١٩٧٩ بين الشّمال والجنوب، فقد لعب عبد الفتّاح إسماعيل دوراً رئيساً في إيقاف الحرب، كما أن السوفييت والجامعة العربيّة ضغطوا من أجل وقف القتال، فنشأ موقف نقديّ تجاهه عند بعض القادة الذين كانوا متحمّسين لمواصلة الحرب، واعتبروا عبد الفتّاح مسؤولاً عن التّراجع الذي حصل، خصوصاً بعد اتّفاق الكويت حيث حمّله بعضهم مسؤوليّة الهزيمة في الحرب وبعضهم الآخر حمّله مسؤوليّة شلل الدولة لكونه كان يقضي الوقت مع المثقّفين والشعراء ومنهم الشاعر علي أحمد سعيد (أدونيس) يقرضون الشعر والفلسفة ولا يهتمّ بشؤون الدولة، وأنّه ليس نشيطاً وديناميكيّاً مثل سالمين.

إلى جانب ذلك كانت الأوضاع السياسيّة والاقتصاديّة متأزّمة، حيث إنّ الدّولة في الجنوب محاصرة من جميع الدّول سواء الخليج أو الشّمال. وتسرّبت أنباء عن تغييرات محتملة في قيادة الحزب، وأنّ عبد الفتّاح ينوي إحداث هذه التغييرات لصالحه. جميع هذه الملاحظات على عبد الفتّاح ألّبت الآخرين عليه فتوحّدوا ضدّه، وكان لا بدّ من توزيع المناصب بين القيادة. الأمين العام للحزب كان لا بدّ أن يتخلّى عن رئاسة الدولة لعلي ناصر لأنّه كان الأقدر على قيادة الدولة، وعبد الفتّاح كان رجلاً حالماً مفكّراً وروحياً ومرشداً ومثاليّاً و«مش» رجل إدارة ودولة.

أزمة مخابرات القوّات المسلّحة

بدأت الأزمة بمشكلة بين وزارة الدفاع، وكان الوزير يومها علي عنتر، وبين وزير أمن الدولة محمّد سعيد عبد الله (محسن). والأخير فدائيّ قديم ومن أنصار عبد الفتّاح وقد أُرسل إلى ليتوانيا بعد إقصائه من منصبه. وتطوّر الموقف الخلافي مع عبد الفتّاح وخصومه كلّهم من الذين لهم تأثير في الجيش لكونهم من قادة جيش التحرير أثناء الكفاح المسلّح: علي عنتر، علي شائع هادي، صالح مصلح قاسم، محمد صالح مطيع، وعلي سالم البيض وآخرون، راحوا يطالبون باستقالته في البداية من رئاسة الدولة، ثمّ تطوّر الأمر إلى المطالبة باستقالته من رئاسة الدولة والأمانة العامّة للحزب. وكان قسم آخر يضمّ بعض الأخوة المثقّفين والذين وفدوا من مختلف الفصائل السياسيّة [اتحاد الشعب الديمقراطي وحزب الطليعة الشعبيّة] منهم أبو بكر باذيب، أنيس حسن يحيى، عبد الغني عبد القادر يعارضون الاستقالة. وكان ممثّلو الحزب

في الشّمال في المكتب السياسي محتارين، فمن ناحية لدينا ملاحظات على الاداء العام كلّه، ولدينا شيء من النّقد على ما حصل بعد حرب ١٩٧٨، في حين إنّ علاقتنا بعبد الفتّاح وبالطرف الآخر جيّدة. لكنْ بعد جدل وحوار اقتنعنا بأنّ استقالة عبد الفتّاح يمكن أن تؤدّي إلى تجنّب هذه الأزمة. هنا تدخّل السّفير السوفييتي وجلس مع خصوم عبد الفتّاح وحاول إقناعهم بالتخلّي عن موقفهم لكنّهم رفضوا.

توتّر الموقف إلى أبعد حدّ وخشينا أن يفلت الوضع، ورغم سيطرة الآخرين على الجيش والأمن إلّا أنّ بعض ضبّاط الجيش والأمن اتّصلوا بعبد الفتّاح إسماعيل وقالوا

تم انتدابنا أنا وشخصين آخرين هما أنيس حسن يحيى وعبد العزيز عبد الولي باعتبارنا أقرب إلى عبد الفتاح. لنقنعه بالاستقالة على أن يعلن أن الأسباب صحية وأنه مريـــــــــــــــض.

له إنّهم يقفون إلى جانبه، كما أنّ قادة المليشيا الشعبيّة كانوا يقفون إلى جانبه. لكنّ عبد الفتّاح رفض رفضاً باتّاً أن يكون هناك تأثير من الجيش ورأى أنّ الوضع، يمكن أن تحسمه القيادة المدنيّة. وبعد التوتّر واحتدام المناقشة في المكتب السياسي واللجنة المركزيّة تمّ التّوصّل الى حلٍّ وسط وهو أن يُطلَب من عبد الفتّاح الاستقالة من قيادة الحزب والدولة، وأن يتسلّم هذين المنصبين علي ناصر محمّد مقابل تكريم عبد الفتّاح بمنحه وسام الثّورة «١٤ أكتوبر» واستحداث منصب رئاسة الحزب وتعيينه رئيساً فخريّاً للحزب كنوع من الإخراج الذكيّ للأزمة، ثمّ يغادر إلى موسكو. وقد تمّ انتدابنا أنا وشخصين آخرين هما أنيس حسن يحيى وعبد العزيز عبد الولي باعتبارنا أقرب إلى عبد الفتّاح، لنقنعه بالاستقالة على أن يُعلن أنّ الأسباب صحّيّة وأنّه مريض. وعندما أبلغنا عبد الفتّاح بموضوع الاستقالة فوجئ بالقرار إذ لم يكن يتوقّعه، وسألَنا عن الأسباب فقلنا تجنّباً للأزمة. وبعد هنيهة من التّفكير قال: «أنا لست بمريض ولكن إذا كانت هذه إرادة الحزب ورغبة أعضاء المكتب السياسي، بمن فيهم أنتم، فأنا على استعداد لفعل ذلك». وتناول القلم، وكتب تلك الاستقالة المشهورة، وقبل أن يكمل جاء فضل محسن عبد الله متحفّزاً، وكان موجوداً في نفس المكان، وفي لحظة سريعة انتزع ورقة الاستقالة من يد عبد الفتّاح وقال له «لن تستقيل ولن تكتب الاستقالة، لأنّ الحزب لا يوافق على ذلك»! ولم يكن فضل محسن يومها عضواً في المكتب السياسي، لكنّه كان قياديّاً في الجبهة القوميّة وفي الوقت نفسه مقرّباً من عبد الفتّاح إسماعيل. توتّر الجوّ بيننا، لكنّ عبد الفتّاح تدخّل من جديد وأقنع فضل محسن بأن يعيد ورقة الاستقالة وواصل كتابة النصّ. ولم أعد أتذكّر هل الاستقالة كتبت في نفس الورقة التي انتزعها فضل محسن، أم أنّ عبد الفتّاح كتبها على ورقة أخرى وسلّمها لنا.

ذهبنا لإبلاغ المكتب السياسي بالاستقالة، واستدعيت اللجنة المركزيّة للانعقاد «من شان» توافق على الانقلاب الذي كان يتمّ داخل المكتب السياسيّ واللجنة المركزيّة. فوجئ النّاس بهذا الحدث وأصرّ بعض أعضاء اللجنة المركزيّة على ضرورة حضور عبد الفتّاح، لكنّ آخرين رفضوا، وفي النّهاية قبلت اللجنة المركزيّة الاستقالة بأغلبيّة مقبولة، ٥٠ عضواً، وعارض الاستقالة ١٩ عضواً. وتمّ انتخاب علي ناصر محمّد رئيساً لمجلس الرئاسة وأميناً عامّاً للحزب، وتعيين عبد الفتّاح رئيساً فخريّاً للحزب ومنحه وسامَ الثّورة «١٤ أكتوبر». كانت هذه تسوية داخل الحزب لكن كان واضحاً أيضاً أنّه «كان في» معارضة للاستقالة حيث حصلت اتّصالات كثيرة من بعض ضبّاط الجيش الذين أبلغوا عبد الفتّاح أنّهم يرفضون الاستقالة وأنّهم على استعداد للوقوف إلى جانبه، لكنّ عبد الفتّاح كان رجلاً عاقلاً، مثقّفاً ينظر إلى البعيد، فأقنع الجميع بأنّه طالما النظام والحزب هما الباقيان فهذا هو الأهمّ، وأنّه لا يمكن أن يُدخل البلاد في أزمة أخرى، ولم يتّخذ أيّ إجراء مخالف على الإطلاق. وكان لدى عبد الفتّاح عدد قليل من الحرّاس في حدود ١٠ أشخاص، فأمرهم بالتزام الهدوء وعدم فعل أو قول أي شيء.

وأشهد اليوم أنّ عبد الفتّاح إسماعيل كان رجلاً بعيد الأفق وهو الزعيم اليمنيّ الوحيد الذي أخذ هذا الموقف وجنّب البلاد والحزب الأسوأ. وكان من أسباب الأزمة الجمع بين المنصبين كما سبق أن قلت، لكن بعد ذلك لم تُسوَّ الخلافات وتفاقمت الأزمة كما سوف نرى فبلغت ذروتها و«ما عاد فيه إمكانيّة للحلول الوسط».

المهمّ، سافر عبد الفتّاح إلى موسكو وتولّى علي ناصر محمّد رئاسة الدّولة وأمانة الحزب وبدأت سياسة فيها قدْر من الانفتاح على الدول المجاورة ومع الشّمال، أي أيديولوجيّة أقلّ، ومعنى الانفتاح أن يتعامل مع الدّول

الأخرى بطريقة عمليّة براغماتيّة بطريقة المصالح وبقدر أقلّ من الأيديولوجيّة.

اتّفاقيّات لا تُنفّذ

كما سبق أن أشرت إلى أنّه بعد إقالة عبد الفتّاح تولّى علي ناصر رئاسة الدولة والأمانة العامّة للحزب، الأمر الذي أنتج سياسة قائمة على الانفتاح على الدّول المجاورة ومنها الشّمال، والسّعي إلى حلّ المشاكل بالطرق السّلميّة. في ذلك الوقت أنا كنت أتّخذ الموقف الوسط، أريد للحزب أن يتوحّد في الجنوب حتّى لا يؤثّر علينا في الشّمال. الحرب بين الجبهة الوطنيّة والحكومة استمرّت في فترة حكم علي ناصر، كنت أعيش في «عقّان» [قرب الحدود الشماليّة] وأذهب إلى الشّمال، واستطاعتْ قوّات الجبهة، رغم قلة الدّعم، أن تحقّق بعض المكاسب والسّيطرة على بعض المناطق، غير أنّ الضغوط الدولية بتوقيف الحرب ازدادت وبالذات من الاتّحاد السوفييتي ومن دول المنطقة.

علي ناصر التقى علي عبد الله صالح حيث توصلا إلى اتفاق سمي «اتفاق تعز» عام ١٩٨٢. وتضمن الاتفاق توقف القتال بين الجبهة والسلطة. وأن يكون الجنوب وسيطا مسؤولا بين الطرفين. استقبلنا الاتفاق بعدم الارتياح.

انتهج علي ناصر سياسة حل المشكلة مع الشمال من دون أن يكون هناك خسارة للعلاقة مع الجبهة الوطنيّة. ويعني هذا أن نصل إلى حلٍّ متوازن مع صنعاء. في المقابل، تراجع دعاة استمرار الحرب داخل المكتب بسبب إمكانات الدولة والوضع الإقليمي والضّغط السوفييتي. أي أنّ الظروف لم تكن لصالحنا، لذلك اضطُررنا إلى البحث عن حلّ سياسي. وتدخّلت الجامعة العربيّة من خلال أمينها العامّ حينها الشّاذلي القليبي، الذي قصد صنعاء وعدن وقد قابلتُه في مطار عدن. كما تدخّل ياسر عرفات وسيطاً بين الجبهة الوطنيّة والسلطة في صنعاء. وكان الشّاذلي القليبي الأكثر جدّيّة في الوساطة، لأنّ ياسر عرفات كان مشغولاً بالقضيّة الفلسطينيّة. المهمّ، بعد وساطات محليّة وعربيّة ومحادثات مباشرة بين علي ناصر محمّد وعلي عبد الله صالح وممثّلي الجبهة الوطنيّة، تمّ الاتّفاق على وقف إطلاق النّار وإرسال مراقبين فلسطينيّين للفصل بين المواقع.

في هذه الأثناء، توقّف الدّعم عن الجبهة الوطنيّة من قبل الدّول التي كانت تؤيّدها بما فيهم السوريّون الذين دعمونا بعد ذهاب السادات إلى إسرائيل. وكان علي ناصر يرغب بالتّفرّغ للتّنمية وذهب إلى تعزّ والتقى علي عبد الله صالح حيث توصّلا إلى اتّفاقٍ سمّي «اتّفاق تعز» عام ١٩٨٢. وتضمّن الاتّفاق توقُّف القتال بين الجبهة والسّلطة، وأن يكون الجنوب وسيطاً مسؤولاً بين الطرفين. نحن في الجبهة الوطنيّة والحزب في الشّمال استقبلنا الاتّفاق بعدم الارتياح، واعتبرنا أنّ هذا يضعفنا في المفاوضات. لكنّ المكتب السياسيّ للحزب وافق على الاتّفاق فيما وقف إلى جانبنا صالح مصلح وعلي عنتر.

تضمّن الاتّفاق إطلاق المعتقلين من جانب الحكومة ومن جانبنا، وبقاءنا في المناطق، واستمرار إصدار صحيفة «الأمل» في صنعاء، والفصل بين قوّات الجبهة وقوّات الدّولة، ونزع الأسلحة من المناطق. وتوقّف الدّعم عن الجنوب. فاستغلّت الحكومة هذا الاتّفاق ولم تنفّذه بل استمرّت بضرب الجبهة واعتقال المدنيّين من أعضاء الحزب في صنعاء وتعزّ إلخ.

بعد ذلك انسحب المراقبون الفلسطينيّون وتمكّنت الحكومة من تحقيق بعض النّجاحات في بعض المناطق بواسطة الجيش النّظامي. هنا تدخّل الجنوب سياسيّاً واتّفقوا على ذهاب وفد من الجبهة الوطنيّة وحزب الوحدة الشّعبيّة إلى صنعاء للتّفاوض. شارك في مفاوضات صنعاء مع الرّئيس علي عبد الله صالح في فتراتٍ مختلفة جار الله عمر ويحيى الشّامي وسلطان أحمد عمر وعبد السلام الدّميني وسعيد الجناحي وعلي محمد الصّراري. وقد تواجد هؤلاء في صنعاء لإصدار صحيفة «الأمل». كنّا نتفاوض مع الحكومة ونصدر الجريدة والقتال مستمرّ، ولم يكن لدينا دعمٌ. عام ١٩٨١ توصّلنا إلى اتّفاقٍ مع الحكومة لكنّ الأخيرة رفضت التّوقيع عليه. قالوا «خلّوه مكتوب» ولم يوقّعوا لأنّهم كانوا في وضعٍ أقوى.

في هذه الفترة طرأ عاملان جديدان.

- العامل الأوّل: خلافٌ في عدن بين علي ناصر وعلي عنتر والآخرين. أضعف هذا الأمر موقفنا وقد استفاد علي عبد الله صالح من الخلاف.
- العامل الثّاني: دخول الإسلاميّين في المعركة إلى جانب الرئيس ضدّ الجبهة الوطنيّة وحزب الوحدة الشعبيّة. كان لديهم أفراد مسلّحون قاتلوا إلى جانب الجيش النّظامي. من جهة أخرى، استمرّ دعم دول الخليج لعلي عبد الله صالح والضّغط على الجنوب، وهذا ما زاد من إضعاف موقفنا.

أثناء تواجدنا في صنعاء تمّ استدراج الدّكتور عبد السلام الدميني واثنين من أقاربه، أخيه وابن عمّه، إلى الأمن الوطني وقتلوهم خنقاً في اللّيل ثمّ حملوا جثّثهم ورموهم من رأس «نقيل يسلح» على أساس أنّه حادث مروريّ بانقلاب سيّارة، لكنّ البعثة الطبيّة الصينيّة في المستشفى بذمار قالت إنّهم ماتوا خنقاً ولم يقع حادث سيّارة. حصلت هذه الحادثة ونحن موجودون في صنعاء للمفاوضات مع الحكومة. تأزّم الموقف من جديد بيننا وبين النّظام. كنتُ والأخ يحيى الشامي موجودين في صنعاء، وكانت التّعليمات تقضي بتصفيتنا أيضاً نحن المفاوضين. وكان بعض قادة الجبهة قد بدأوا العودة إلى الشّمال فتمّت تصفيتهم عن طريق الاغتيالات.

أرسلتْ القيادة في الجنوب وفداً برئاسة المرحوم عبد الله الخامري، وزير الدولة، للاحتجاج على قتل عبد السلام الدميني. وعندما عرفوا أنّنا محاصرون في صنعاء أرسلوا الوفد المذكور، وطلبنا السّماح لنا بالسّفر إلى عدن كما اتّفقنا مع ممثّل الحكومة وكان حينها الأستاذ محمّد الرباعي، وهو شخصٌ وطنيّ وديمقراطي ولا يرغب بالقتل. اتّفقنا على كلّ شيء وطلبنا العودة إلى عدن، لكنّ الحكومة رفضت. وقد استلمنا رسالة من أعضاء الحزب في صنعاء يخبروننا بأنّ علينا أن نغادر أنا ويحيى الشامي إلى عدن فوراً وإلّا ستتمّ تصفيتنا بعد ساعات. ولم تتّخذ الحكومة أيّ إجراء للتّحقيق في قتل الدميني ومن معه. وقد طلبنا من ممثّل الحكومة الأستاذ الرباعي أن يسمح ليحيى الشامي بالسّفر على طائرة الوفد الّذي قدم من عدن، أمّا أنا فأسافر عبر المناطق الوسطى على أساس أنّي مع ممثّلي الحكومة فأذهب إلى هناك كي أساهم بوقف إطلاق النّار.

قلنا إذا كان لا بد أن نموت يبقى يحيى الشامي وأموت أنا وليس جميعنا طبعا. كـــــــــــــــــان عند كل واحد منا نوع من نكران الذات. كل واحد يرغب في أن يضحي قبل غيره.

ونحن قلنا إذا كان لا بدّ أن نموت يبقى يحيى الشامي وأموت أنا وليس جميعنا طبعاً. كان عند كلّ واحد منّا نوعٌ من نكران الذّات. كلّ واحدٍ يرغب في أن يضحّي قبل غيره، فذهب يحيى الشاميّ مع الخامري إلى المطار ومُنع من السّفر على الطائرة التّابعة للوفد إلى عدن.

وعندما وصل الوزير عبد الله الخامري إلى عدن أبلغ قيادة الحزب علي ناصر محمّد وعلي عنتر والآخرين بخطورة الوضع، وعقد اجتماعاً للمكتب السياسي وتمّ الاتصال بالرئيس علي عبد الله في المساء وطلبوا منه السّماح بنزول طائرة في مطار صنعاء لنقل جار الله ويحيى الشامي إلى عدن.

كان الجو هنا في صنعاء متوتّراً. وأبلغوا الرّئيس احتجاج القيادة الجنوبيّة على عدم الالتزام بالاتّفاق. وعند الساعة الثّامنة مساءً فوجئنا بدعوة الرّئيس لنا إلى منزله في الحصبة حيث قال: أنتم تريدون أن تثيروا مشكلةً بين عدن وصنعاء. طلبنا منه التّحقيق في مقتل عبد السلام الدميني. قال إنّ هذا حادث سيّارة. قلنا لا بدّ من تشكيل لجنة للتّحقيق في مقتله هو وزميليه. في هذه الأثناء، كانت الاتّصالات بين قصر الرّئاسة في عدن وقصر الرئاسة في صنعاء متواصلة. وعند الساعة التاسعة مساءً اتّصل علي ناصر محمّد وطلب أن يتحدّث معنا مباشرةً. قال: أريد أن أطمئنّ على وجودكم لأنّ الخامري أبلغهم أنّه إذا لم تلحقوا بهم سينتهون.

بالفعل، كان ثمّة محاولة اغتيال. أصرّ علي ناصر على أن يرسل طائرة فوعده الرئيس علي عبد الله صالح ألّا يحدث أيّ شيء. وتمّ الاتّفاق بين الطرفين في تلك اللحظة عبر المكالمة الهاتفيّة ونحن موجودون في القصر، بأن نعود إلى عدن بحيث يأتي يحيى الشامي بالطّائرة وأنا أتوجّه مع وفد الحكومة إلى المناطق الوسطى لتهدئة الوضع حيث انتشر القتال على أثر قتل عبد السلام الدميني. وفي اليوم التّالي سافر يحيى الشّامي إلى عدن بشكلٍ عادي وأنا سافرت في سيّارة مع وزير العدل يومها إسماعيل الوزير [اسم أسرته]، ومع رئيس العمليّات عبد الله حسين البشيري أمين عام الرئاسة.

وصلنا إلى يريم بعد الظّهر ونمنا جميعاً داخل معسكر الجيش هناك. وكانت هناك محاولة لقتلي من داخل المعسكر من قبل الإسلاميّين، لكنّ قائد المعسكر رفض تنفيذ العمليّة سواءً داخل المعسكر أو في الطّريق. وقال إنّه لا تعليمات من صنعاء. كان هذا القائد من منطقة قريبة لمنطقتنا ولا يريد أن تنفّذ العمليّة في معسكره. وفي صباح اليوم التّالي أرسل معي قوّةً من المعسكر إلى منطقة الرّخمة حيث تعسكر الجبهة. إسماعيل (الوزير) ومن معه ذهبوا إلى مكانٍ آخر. وهناك بين رفاقي وزملائي شعرت بالأمان. وشعرتُ بأنّ بعض الحرس الّذين كانوا معي متعاطفون مع الجبهة بصورة سرّية حيث أخبروني بالمحاولات التي دُبّرت ضدّي. وأمّنوا وصولي إلى مواقع الجبهة بسلام، وبعد يومين ذهبت إلى عدن وعقدنا اجتماعاً للمكتب السّياسي لتدارس الوضع. وهنا بدأنا مرحلة جديدة في عملنا في الشّمال.

التراجع عن الكفاح المسلّح

في المرحلة الجديدة كان الوضع على النّحو الآتي: معارك عسكريّة في بعض المناطق الوسطى وذمار وتعزّ بين قوّات الحكومة والجبهة. ضحايا كثر من الطّرفين. اغتيالات توجّهها قوّات السلطة ضدّ الناس الّذين عادوا من الجبال إلى المناطق على أثر اتّفاقيّة تعزّ. كانوا يصفّونهم جسديّاً والحكومة لا تقبل أيّ حلّ سلميّ. عندنا في قيادة الجبهة الوطنيّة والحزب كانت هناك أصوات تقترح إعلان التّخلّي بصورة علنيّة عن الكفاح المسلّح. كان هناك خلاف في قيادة الحزب فرع الجنوب بين علي ناصر وعلي عنتر، وكانت حكومة صنعاء تعرف بهذا الموضوع وتتابعه وتستفيد منه في صراعها مع الجبهة. هذا الوضع طبعاً أثّر على حالتنا. كان الضّغط السوفييتي مستمرّاً لإيقاف المعركة وقد نشأت أغلبيّةٌ داخل المكتب السّياسي لا تؤيّد مواصلة الكفاح المسلّح وتقول إنّه لا بدّ من تغيير إستراتيجيّة الحزب رغم علمها أنّ حكومة صنعاء لم تلتزم بالاتّفاقيّة السابقة. ولذلك وصلنا نحن إلى قرارٍ رغم هذه الخسائر بتغيير إستراتيجيّتنا وتغيير التكتيك الذي كنّا نتّبعه. وأصدرنا برنامجاً سمّيناه «برنامج التغيير الدّيمقراطي»، أظن أنّ هذا كان في عام **١٩٨٢**. وأعلنّا انتهاء فكرة الكفاح المسلّح واستعدادنا للعمل السلميّ. طبعاً بقيت هناك أصوات معارضة داخل فرع الحزب في الشمال والجبهة الوطنيّة الدّيمقراطيّة. ولكن أنا شخصياً كنت قد اقتنعت بأنّه لم تعد هناك إمكانيّة للمقاومة لأنّ الشروط الداخليّة والخارجيّة غير متوفّرة. والحكومة في صنعاء استغلّت هذا التّراجع من قبلنا وأمعنت في حملات اغتيال أعضاء الجبهة وأعضاء الحزب، واستمرّت في أعمال القمع والتّعذيب بشكلٍ شديد واعتبرت أنّها انتصرت ونحن انهزمنا. وأنّهاً يجب أن تقوم بكلّ ما يقوم به المنتصر.

المهمّ، بدأنا نطرح برنامج التغيير الدّيمقراطي، وصنعاء من جانبها أعلنت عن تكوين «المؤتمر الشّعبي العام». شارك بعض رفاقنا في تأسيس المؤتمر الشّعبي،

منهم محمّد الشيباني وبعض الأعضاء في المناطق. أنا لم أشارك. لم أكن في صنعاء في ذلك الوقت. وعندما أعلن عن تكوين المؤتمر الشّعبي اعتبرت ذلك خطوةً في سبيل الاعتراف بوجود آراء مختلفة، حيث كانوا يعتبرون أنّ الحزبيّة خيانة. وكان دستور الجمهوريّة العربيّة اليمنيّة يحرّم الحزبيّة. لكنّ الغرض من إنشاء المؤتمر الشّعبي كان أن يقيموا تنظيماً مشابهاً لما هو حاصلٌ في عدن - أقصد الحزب الاشتراكي اليمنيّ - الذي يقوم بتعبئة النّاس وهي وسيلة من وسائل الصّراع. لكن لم يكن تأسيس المؤتمر الشّعبي العام فكرةً ديمقراطيّة من النّاحية الموضوعيّة فقد ضمّ اتّجاهاتٍ مختلفة، اليسار والوسط واليمين والقوميّين والإسلاميّين الذين كان لهم الدّور الكبير في هذا التّنظيم.

الوضع في الجنوب كان سيئا. أراد علي ناصر أن يجاملني فقال من الأفضل أن نخرج لنتعالج. فوافقت. أخذني معه بالطائرة عندما كان يحضر مؤتمر قمة في المغرب. وكان مدركا أني حزين لما حصل في الشمال.

في تلك المرحلة - أي عام ١٩٨٢ كنت في عدن. وكنتُ منزعجاً جدّاً من النّتائج التي انتهت إليها الأوضاع في الشّمال، فقد أصبحنا مهزومين. رفاقنا في السّجون والحكومة لم تفِ بأيّ وعد، لم يعد هناك إمكانيّة للضّغط فقد أوقفنا الصّراع المسلّح وكانت المرحلة صعبة بالنسبة إليّ. وجاء التّطوّر السلبيّ الّذي أدّى إلى خيبة الأمل حيث بدأت القيادة في عدن، بهدف توحيد صفوفها، باتّخاذ إجراءات ضدّ أنصار عبد الفتّاح إسماعيل الذي كان منفيّاً في موسكو. وكان الكثير منهم أصدقاء، اعتقلوا حسين قماطة، قائد القيادة الوطنيّة للمليشيات الشّعبيّة، وقيل إنّه انتحر داخل السّجن، وكذلك اعتقلوا عبد العزيز عبد الولي، عضو مكتب سياسي، وهو فدائيّ ووزير سابق كان من أنصار عبد الفتّاح توفّي في ألمانيا الدّيمقراطيّة. ولم تُعرف كيفيّة وفاته. وتمّ اعتقال محمّد سعيد عبد الله «محسن»، وزير أمن الدّولة، وأُبعدَ من منصبه وعُيّن سفيراً ثمّ طُولب بالعودة إلى عدن وتمّ إيداعه السجن في «معسكر الفتح». كانت هذه العمليّة مؤلمة ومحزنة جدّاً. وأنا طلبت أن أخرج من عدن. لم تكن هناك إمكانيّة للعودة إلى صنعاء. عبد الفتاح كان منفيّاً في موسكو. أصبحت الأوضاع سيّئة للغاية. كان علي ناصر يُنشئ علاقات جديدة مع الدّول المجاورة ويغيّر في السّياسات. راحت أوضاع النّاس تتحسّن. خفّت الضّغوط عنهم. أصبح هناك انفتاح على دول الخليج. وتدفّقت المساعدات من الخارج، وقام العمّال المغتربون بتحويلاتٍ ماليّة بسبب قيام علي ناصر بعلاقاتٍ مع الدّول المجاورة.

لكنّ الوضع في الجنوب كان سيّئاً. أراد علي ناصر أن يجاملني فقال من الأفضل أن نخرج لنتعالج، فوافقت. أخذني معه بالطّائرة عندما كان يحضر مؤتمر قمّة في المغرب. وكان مدركاً أنّي حزينٌ لما حصل في الشّمال. كان حريصاً على العلاقة معي. وفي العام ١٩٨٢ ذهب إلى براغ فيما طلبت أنا أن أتابع العلاج. وأرسل معي مرافقاً كان مع صالح مصلح وزير الدّاخليّة اسمه عبد الله مثنى. كان شجاعاً وتولّى حمايتي. وذهبنا بعدها إلى باريس حيث سمح لي أن أبقى هناك شهراً كاملاً.

باريس ولندن: الثّقافة والجمال

أوّل مرّة أزور باريس. هناك كان الهمّ الثقافي كبيراً. اتّجهتُ إلى السّفارة اليمنيّة، سفارة عدن وطلبتُ منهم أن أزور الأماكن الثقافية في باريس. عرّفوني على بعض الأماكن لكن بشكلٍ محدود. واتّصلتُ بالأخ علي محمد زيد الذي كان يساريّاً وهو كاتب ومثقّف وكان يحضّر الدّكتوراه عن الدولة اليمنيّة في جامعة السّوربون. وأيضاً تعرّفت إلى زميلٍ آخر كان يعمل في السّابق في الشرطة، وهو الأخ أحمدً الصيّاد والذي كان يعمل نائب مدير اليونيسكو. أنا كنتُ مدرّساً في كلّيّة الشرطة وهو كان طالباً حيث كان ينتمي إلى نفس الحركة الّتي كنت أنا فيها [حركة القوميّين العرب] وبعدها قام بتحضير الماجستير في العراق ثم الدّكتوراه في باريس.

وجدت ضالّتي مع هذين الشّخصين حيث قضينا معاً شهراً كاملاً زرنا فيه المعالم الثقافيّة في باريس من اللوفر إلى فرساي إلى المتاحف المختلفة في باريس وما حولها. زرنا الأماكن الثقافيّة والقصور والمسرح الكبير في الليدو. وكان اللوفر ممتعاً لَمَا حواه من لوحات ومن غنى. قضينا داخله أكثر من أربعة أيّام ولم نكمل حيث تعرّفنا إلى الحياة الاجتماعيّة. وشاهدتُ الانفتاح في العلاقات الاجتماعيّة التي كانت جديدةً عليّ. دُهشتُ في البداية لكنّني تفهّمت الأمر فيما بعد.

بعد باريس ذهبت إلى لندن. لم تكن زوجتي معي في لندن كانت في عدن. في لندن أجريتُ بعض الفحوصات الطبّيّة وزرت بعض المواقع التّاريخية والثّقافية. وما لفت انتباهي أنّ المجتمع في الغرب والحياة أكثر انتظاماً والشّوارع أكثر نظافة مما هي في أوروبّا الشرقيّة. ليس هناك أبواق سيّارات والحياة تسير بهدوء وبانسياب كامل. لاحظت عناية كبيرة بالثّقافة والأماكن الثّقافيّة والمتاحف، ومع أنّ الصناعة متطوّرة إلّا أنّ البيئة نظيفة. وبطبيعة الحال كانت المرأة في لندن وباريس مثار إعجابي من حيث رشاقتها والجمال.

أثناء وجودي في لندن وقع الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان. وكان محزنا لنا أن نرى الجيش الإسرائيلي يقتل الناس ونرى عاصمة عربية تسقط بيد الجيش الإسرائيلي والعواصم العربية لا تحرك ساكنا.

في لندن رافقني عبد الله ناصر. دخلنا محلاً يبيع الأدوات المنزليّة. وفجأةً وجدنا خلفنا شابّتين جميلتين تتحدّثان العربيّة باللّهجة اليمنيّة. استوقفتانا وقالتا: نريد أن نتحدّث معكم. كانتا تتكلّمان باللّهجة البدوية إلّا أنّ مظهرهما أوروبّيّ من حيث الملابس والشّعر. ومع أنّ الملامح ليست كلّها أوروبّيّة ولا هي شرقيّة، كانتا تبدوان من شعوب شرق المتوسّط. سألنا: من أين أنتما؟ من اليمن، كان الجواب. قلنا لا يمكن أن تكونا من اليمن فنحن نعرف المرأة اليمنيّة. قالت الأولى إنّها من تعزّ والثّانية من صنعاء. وبدأتا تحكيان لنا عن الحياة في تعزّ، عن وجبات الطّعام وعن الطّبخ والحياة في البيت وعن تفاصيل الحياة اليمنيّة على تنوّعها. كانت أعمارهما تتراوح ما بين ٢٧ و٣٥ سنة فاستوقفنا هذا الأمر. ثمّ أخبرتانا أنّ أبويهما عاشا في اليمن ثمّ هاجرا منها. وأنّهما ولُدتا في إسرائيل. سألناهما كيف تعرفان هذه التّفاصيل فقالتا من العائلة.

اعترتنا مشاعر متناقضة. أُعجبْنا بجمالهما. تحفظان التّراث اليمني وتتحدّثان باللّهجة اليمنيّة ولم تولدا في اليمن. أحسسنا بصلة قرابة من نوعٍ ما تربطنا بهما. لكنْ مقابل ذلك كان الخوف السّياسيّ من أنّنا قد نُعدّ في يوم من الأيّام خونة للحزب إذا قام أحدهم بالتبليغ عن اللّقاء وأنّنا لم نبلّغ عنه [يقصد وجوب التبليغ عن أيّ اتّصال بأفرادٍ من دولة العدوّ] برغم أنّها كانت صدفةً لا أكثر. نحن كما غيرنا في الوطن العربي وفي الأحزاب والسّلطات ليس عندنا تفكير عقلاني، عندنا عاطفة. سوف يقال إنّ هؤلاء التقوا بيهوديّات قد يكنّ من المخابرات. أخافتنا الخاطرة بل أرعبتنا. فانسحبنا على الفور من المكان رغم إلحاحهما على مواصلة الحديث وعرضهما علينا أن ننتقل إلى مقهى لشرب الشّاي ومواصلة الحديث. وكان هذا الشّيء بالنّسبة لهما شيئاً مهمّاً حيث تعرّفتا على أناسٍ من بلدٍ وُلد فيه الآباء والأجداد. ودّعناهما ونحن حذِرون وخائفون وفزعون ممّا فعلنا.

استكملت الفحوص. كنت أعاني من آثار بلهارسيا سطحيّة ولم تكن مزمنة، عالجتها في عدن ثمّ في لندن عالجوها بشكلٍ قوي. وأُجريتْ لي فحوصاتٍ شاملة، وأصبحت بتمامٍ الصحّة. لكنّي تلقّيت اتّصالاً هاتفيّاً من عدن أخبروني فيه إنّ ابني أوسان يعاني من أورامٍ في الغدد. ظننتُ أنّه سرطان لذلك انزعجت كثيراً واتّصلتُ بصديقي صالح مصلح وبالزّملاء في عدن وطلبت منهم إرسال أوسان إلي للتّحقّق من هذه الأورام. جاء أوسان مع أمّه وقضينا رأس سنة ١٩٨٣ مع بعضنا في لندن. وكان عمر أوسان ثلاث سنوات. وحضر معه قيس، ابني الكبير. أكّد الأطبّاء أنّ هذه مسألة غدد وليس هناك أيّ خطر. جاء الطّبيب بالعلاج اللازم وكان الشّفاء. كان ذلك شيئاً مفرحاً. وقد تفرّغنا لزيارة المتاحف والأماكن الثّقافيّة المختلفة. زرنا متحف الشّمع أنا وزوجتي وكانت متبرّجة وعاديّة [يقصد سافرة]. وعند مدخل المتحف كانت هناك امرأة عربيّة منقّبة بشكلٍ كامل، وجهها وأيديها وكأنّها خيمة سوداء متحرّكةً. ولفت انتباهي أنّ الزوّار تركوا المتحف وصاروا يتفرّجون على المرأة العربيّة وزوجها الذي كان معها. أحزنني ذلك.

أثناء وجودي في لندن وقع الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان. وكان محزناً لنا أنْ نرى الجيش الإسرائيليّ يقتل الناس ونرى عاصمةً عربيّة تسقط بيد الجيش الإسرائيلي والعواصم العربيّة لا تحرّك ساكناً. عدنا إلى اليمن في ١٩٨٣. وهنا أريد أن أقول للتاريخ نحن كنّا نرسل مقاتلين من الجبهة الوطنيّة إلى جنوب لبنان بصورةٍ دائمة. كانت لدينا أعداد كبيرة من المقاتلين في عدن، منذ منتصف السّبعينيّات كنّا نرسل مقاتلين إلى جنوب لبنان حيث قاتلوا في العديد من المناطق بما فيها قلعة الشقيف والنبطيّة إلخ.

بدايات العمل الفدائي في جنوب لبنان

حسين بعلبكي

مناضل شيوعي مخضرم. أسهم في تأسيس نقابة مزارعي التبغ في الجنوب وقيادة نضالاتها. صاحب «مكتبة جبل عامل» في بلدته عيترون.

كان الجنوب في ذاك الزمن سبّاقاً في حماسته وتأييده لقضايا الأمّة العربيّة الكبرى، وبالأخصّ في موضوع وحدة مصر وسورية، يوم زحف جنوب لبنان عن بكرة أمّه وأبيه إلى قبلة العرب الأولى آنذاك، دمشق. وأذكر للتّاريخ، كم كانت حماسة فرج الله الحلو المميّز لاستقبال عبد الناصر، قائد الأمّة العربيّة الذي أتى قبل أوانه لقيادة هذه الأمّة ومشاركتها آمالها وطموحاتها لتحقيق الحلم المنشود بالوحدة والحريّة والاشتراكيّة. وما زلت حتّى الآن أحتفظ بكتاب ساطع الحصري «دفاعاً عن العروبة» الذي يروي كيف عمل عبد النّاصر على إرجاع مصر عن فرعونيّتها وإدخالها في أمّتها العربيّة.

في ندوة كانت قد أعدّت لها مجلّة «المصوّر» وحضرها وقتذاك أدباء ومثقّفون من كلّ البلاد العربيّة يقول ساطع الحصري: فوجئت بأنّ ٩٥ في المئة من أدباء ومثقّفي مصر قد أعلنوا فرعونيّتهم وأنّ لا دخل لهم بالعروبة وأنّ العرب أتوا فاتحين إلى مصر.

يومها، شعرت الرجعيّة العربيّة وخصوصاً النفطيّة والإمبرياليّة العالميّة بخطر هذا القائد المختلف عن باقي قادة وحكّام العرب في طموحاته، فبدأوا ينصبون له الفخاخ. أحاطوا به من كلّ الجهات لتحجيمه داخل حدود مصر والوقوف في وجهه ومنعه من تحقيق آماله وطموحاته العربيّة.

وجاءت هزيمة الـ٦٧ المدوّية، حيث وقف وتحمّل المسؤوليّة وحده أمام العالم والأمّة العربيّة. انتفضت الجماهير العربيّة من صدمتها المفزعة وردّت القائد إلى مكانه الصحيح. حينها استفاق عبد النّاصر من جديد ليكمل المسيرة. كان جنوب لبنان آنذاك الأكثر تأييداً بين كلّ مناطق الأمّة العربيّة. كان يؤيّده الناس بحرارة وحماسة. أذكر كيف كنت «أنا الشيوعيّ» قد تركت شيوعيّتي خلفي، ووضعت ناصريّتي أمامي. كذلك فعل رفاقي ومعارفي. وبعضهم لا يزال حيّاً، أطال الله في أعمارهم، وهم ثلاث عائلات: علي نعمة فوعاني من شقرا، علي إبراهيم من عيناتا، علي يوسف من حانين. كانوا أسوةً بي قد تركوا بعثيّتهم خلفهم ومشوا في الطريق نفسها. كان تأييدنا وإخلاصنا لعبد الناصر ومن بعد وفاته للمقاومة الفلسطينيّة.

هذا هو جنوب لبنان. جنوب متميّزٌ بقرى جبل عامل التي لطالما أبت أن تخضع وكان طموحها الدائم الوقوف مع العدالة والحريّة ضدّ الظلم والاحتلال.

تبغ وجِمال وعفاريت

بعد أن خرجنا من بوابة الدار، ركبت على مؤخّرة الجمل. كنت أملك كلباً صغيراً، قفز وجلس في أحضاني فشعرت بدفئه. وكان رسن الجمل مربوطاً بجلال الجحش الذي ركب عليه أبي. كان الجحش يجفل كلّما يطير عصفور من أمامه والطريق كلّها حفر وحجارة. وكما يقول المثل: «حجر بياخذك وحجر بيجيبك»، ولم يكن يشبه أيّامنا هذه إذ أصبحت كلّ الطرقات «زفت بزفت» ولم يعد ينقصنا شيء بسبب كثرة «الزفت» الذي لدينا. وكلّما يجفل الجحش يضربه أبي ويقول له «يا ملعون الوالدين، أخوث سآخذك إلى العصفورية». كنت أظنّ وقتها أنّ العصفوريّة مكان فيه الكثير من العصافير. أمّي كانت تمشي خلفنا، كلّما اطرعست (تعثّرت) بحجر كانت تقول «آخ يا ربي من أين أتتنا زراعة الخرا حتّى نقوم في منتصف الليل، يلعن الدخان ومن يزرعه ويشربه».

كلّ عام كان يأتي إلينا أشخاص من غزّة يشترون رطل الدخان بليرة فلسطيني. مشينا أكثر من ساعتين

حتى وصلنا إلى درب قدس التي كانت تسمّى خلال فترة الاستعمار «الكيلو تسعة»، وأصبحت اليوم تسمّى بوابة العار التي دخلت منها كلّ القوّات الغازية منذ عام ١٩٤٣. دخل منها الجيش الإنكليزي ومعه موشي ديان. يقول الأخير في مذكّراته إنّه أصيب في عينه بين عيترون وبنت جبيل. ولأنّه أصبح بعين واحدة وقف على خطّ بارليف على ضفّة قناة السويس وقال في مؤتمر صحافي: «إذا حشد العرب والروس كلّ مهندسي العالم وجيّشوا كلّ ما عندهم من قوّات لن يستطيعوا تخطّي هذا الخطّ». ولكن عندما توفّرت الإرادة والتضحية والتصميم والعزيمة وعلى صيحات «الله أكبر» طار خطّ بارليف و«طار عقل» غولدا مائير ثمّ عزمت على استعمال ما استعمله جدّ جدّها شمشوم «عليّ وعلى أعدائي يا ربّ» (أي استعمال السلاح النووي). عندئذ وعدتْها الولايات المتّحدة بتغيير مسار الحرب خلال ٤٨ ساعة وهذا ما شهدته في حرب ١٩٧٣.

من يفكر بالنضال من خارج أرض فلسطين لاسترجاع الحق الفلسطيني ودحر المشروع الصهيوني الغربي لم يتعلم شيئا من كل تجارب الثورات في العالم.

كلّ العيون تراقب. أتت، ذهبت مصفّحة كدلف وهو ضابط إنكليزي يحرس الحدود بعد تقسيمها بين فرنسا وبريطانيا المنتدَبتين على فلسطين ولبنان. وكان مع الضابط مجموعة من العرب بوليس يقومون بدوريّات متتالية ليلاً ونهاراً من كمب صلحه غرباً حتى كمب يوشع شرقاً وصار لهم معارف وسماسرة وقوّادون من الذكور والإناث على الجهتين غرباً وشرقاً حيث كانت العلاقات الاجتماعيّة والحاجيّات الإنسانيّة متشابكة بين كلّ قرى الجليل حتّى الجولان وحوران. في سورية كان يأتي أشخاصٌ من حوران في موسم الحصاد إلى قرى جبل عامل جنوباً إلى حيفا للعمل وإلى طبريّة للمعالجة من مرض العصبي في حمّامات طبريّة. وجاء في عظة لأحد الشيوخ في حسينيّة عيترون، أطال الله في عمره، أنّ الجنّ الذين أمرهم الله بإيقاد النّار تحت الحمّامات التي كان يستحمّ فيها نبيّ الله سليمان ما زالوا يوقدونها ليلاً ونهاراً حتى الان حيث لم يخبرهم أحد بموت النبي سليمان.

في سنّ المراهقة

رغماً عن الحواجز المصطنعة والشريط الشائك بقيت العلاقات الاجتماعيّة والمعيشيّة مشدودة بحبال عدّة بين قرى جبل عامل وبعض قرى الجليل في السرّاء والضرّاء. كانوا يتبادلون الزيارات ويشاركون بعضهم بعضاً في الأفراح والأحزان. عبر البوّابات تأتي الشاحنات من يافا وتفرغ حمولتها من البرتقال عند بوّابة المالكيّه وينقل البرتقال على الجمال والحمير إلى عيترون وسوق بنت جبيل. وكنّا نضمن كروم التين من بلدة علما، نقطفه ونشرّحه على أغصان الفاقوع لكي يبقى لونه أصفر ونتموّن منه طول العام. وأذكر كذلك أوّل عرس حضرتُه في بلدة علما دام أربعين يوماً من طبلٍ وزمر ودبكة وطعام. كان عرس ابنتَي مختار علما.

في أيّام الصيف تشتدّ الحاجة إلى المياه. كنّا ننقلها على ضهر الحمير والجمال ورؤوس النساء من عين قدس. وكانت تشتدّ المزاحمات والمشاجرات خصوصاً بين أهل عيترون وأهل ميس. وكانت قرى عدّة تعتمد على عين قدس، وكانت البلده مملوكة إلى أحد الإقطاعيّين من الشام واسمه «الماردينا». ومنذ ذلك الوقت باع نصف مرج قدس الجنوبي إلى يهود مستعمرة هره وزرعوه ميال الشمس. كانت تلك الزراعة غريبة على زوار النبي يوشع الذين كانوا يأتون من كلّ حدبٍ وصوب ومن كلّ قرى الجنوب مشياً على الأقدام وركوباً على الخيل والجمال والحمير وفي مقدّمة كلّ وفد البيرق والسنجق والطبل والمزمار. وكانت تستمرّ الاحتفالات لمدّة أسبوعين، وكانوا يقدّمون إلى ضريح النبي يوشع المزعوم الهدايا والنذور وعلى ضريح أمّه الثياب القديمة.

١٩٦٧ - ١٩٦٨: مرحلة الإعداد

من يفكّر بالنضال من خارج أرض فلسطين لاسترجاع الحقّ الفلسطينيّ ودحر المشروع الصهيونيّ الغربي لم يتعلّم شيئاً من كلّ تجارب الثورات في العالم. وهو يكرّر نفس الأخطاء التي أفشلت المقاومة. كان هناك ثوّار ومقاومون حقيقيّون أعوام ٦٧ و ٦٨ و ٦٩. كانوا يعدّون للثورة من الداخل تدريباً وتسليحاً. وبعد أن انطلقت من جنوب لبنان قرّروا الاستشهاد، وقد استشهدوا في خراج جنين. أبو أكرم ومجموعته قالا لي: «نريد نودعك أخ أبو جبران ورايحين نستشهد في قلب فلسطين مش على حدود فلسطين أو في لبنان». قلت له: «أخ أبو أكرم صار إلك ثلاث سنين بتروح وبترجع ليش مصمّم

على الاستشهاد؟» قال: «أنا وفلان وفلان بدنا نستكمل الإعداد من الداخل وغيرنا بدّو يبلش من لبنان وانتظر كم شهر بيكونوا عندك».

كانوا يتسللون في الليل إلى قرى الجليل. وكان يقال إن أبا عمار وجورج حبش مرا من هنا. من رأس جبل الباط في خراج بلدة عيترون إلى توأمه الجرمق.

بعد ثلاثة أيّام استشهد أبو أكرم ومجموعته. وبعد شهر رجع واحدٌ من المجموعة وبعد ستة أشهر وصل الشهيد رياض عواد ومجموعته ومعه رسالة مكتوب فيها: «أخ أبو جبران ساعد رياض بمهمّته بدنا نحتل سرايا بنت جبيل». وهذا يلّي صار.

حكاية مريرة ومؤلمة أرجو ألّا تتكّرر، رافقتها من بدايتها حتّى نهايتها في انتصاراتها وإخفاقاتها، في حلوها ومرّها. كنت مع الأخ معين الطاهر وحدنا يوم معركة مارون الراس فى المركز. «بذكّرك، يا معين، طلبت منّي اجلب الأخ ف. من الطيري، وهو أحسن رامي مدفعيّة في فتح، ليتمركز على صفّ الهوا. هل تذكر عندما طلب منك جهاد في مجنزره عند الجامع مش عم تخلّينا نرفع روسنا، وكانت أوّل طلقه والثانية، انتهت معها المجنزره. وهل تذكر عندما قتلوا القوميّين الأسير أمام مركز بنت جبيل قلت لي شوف يا ابو جبران شو في برّا، قلت لك القوميّين أعدموا أسير... تنذكر وما تنعاد. طوّلت عليك أخ معين الطاهر والقائد الثوري العربي». للتذكير فقط.

كانوا يتسلّلون في الليل إلى قرى الجليل، وكان يُقال إنّ أبا عمار وجورج حبش مرّا من هنا، من رأس جبل الباط في خراج بلدة عيترون إلى توأمه الجرمق حيث المسافة ساعتان مشياً على الأقدام. تكرّرت الرّحلات ليلاً وكثرت الحكايات عن هؤلاء وأولئك، وكانت الرحلة إلى الناصرة تأخذ ثلاثة أيّام وإلى جنين سبعة. وأصبح لهم معارف وأنصار في كلّ القرى والبلدات وفي بنت جبيل، القاعدة التاريخيّة لثورة عزّ الدين القسّام عام ١٩٣٦ وقاعدة إمداد للأسلحة والرجال.

الأبطال المنسيّون

أوّل من تعرّف إلى مجموعة أبي أكرم كان أبو عراج الذي كان يعاني من شلل نصفي في رجله اليسرى لكنّه يتمتّع بقوّة وطاقة غريبة. اسمه الحقيقي فهد وكان كذلك بالفعل. في ذلك الوقت كنّا أنا ونخلة مطران نمثّل التيار اللينيني واتحاد الشيوعيّين في «جبهة مساندة فتح». وبعد لقاءات واجتماعات عدّة، تعرّفنا إلى يحيي حمدان الذي كنّا نجتمع به في مكتبه بشارع الحمرا. في أحد الأيّام، كنت أحدّثه عن الذين يدخلون إلى قرى الجليل، فطلب منّي مساعدتهم. وبالفعل تعرّفت إلى أبي أكرم، مسؤول المجموعات، الذي كان مميّزاً برصانته وطبعه. وبعد لقاءات عدّة معه، تعزّزت الثّقة بيننا وأسرّ لي عن تجربته قبل الالتحاق بـ«فتح» فأخبرني أنّه عمل لمدّة خمس عشرة سنة لصالح أجهزة المخابرات المصريّة، وأنّه كان في الكرمل حيث كان يوجّه المدمّرة «إبراهيم» باتّجاه الكرمل التي أغرقتها «إسرائيل» في ميناء حيفا في عدوان ١٩٥٦ على مصر. وعند إطلاق طلائع «فتح»، اتّصل به أبو عمّار وأبو إياد وطلبوا منه العمل من أجل فلسطين فوافق والتحق بـ«فتح». كانت مهمّته الإعداد في الدّاخل، وبعد سنتين من معرفتي به جاء لزيارتي. كانت لهجته غريبة. وكان مصمّماً على الاستشهاد داخل أرض فلسطين. قال لي حرفيّاً: «اختلفنا في قيادة فتح، منهم من يريد الإعداد من الخارج ومنهم من يريد الإعداد من الداخل، وأنا أحبّذ أن يكون العمل داخل فلسطين».

أصرّ حينها على الوداع وقال إنّها المرّة الأخيرة التي سنلتقي فيها. أخبرني أنّ عائلته تسكن في مخيّم جنين، وأقنعني بإصراره على الاستشهاد في فلسطين، قائلاً: «قريباً سيصل الإخوان إليك وسيبدأون العمل ضدّ إسرائيل من لبنان». وبالفعل فوجئت في إحدى الليالي بوصول إسماعيل يوسف (الذي كان في الأردن مع علي سرور مرسلاً من قبَل اتحاد الشيوعيّين للعمل الفدائيّ مع فتح) ورياض عواد، الذي سلّمني رسالة حملت تمنّياً بأن أساعده في مهمّته. أمّا أبو أكرم فقد ذهب واستشهد مع رفيقه أبي محمد، المارد الأسمر. ويقال عن لسان مَن عاد منهم أنّ أبي محمّد استشهد في قطعة أرض فلسطينيّة تعود له. بعد أربعة أيّام على وداعنا، أتى أبو عراج وقال: «استشهد الإخوان في جنين». وبعد أكثر من شهر، قال: «عاد طارق أبو السعيد الذي كان من ضمن المجموعة التي استشهدت».

أذكر هذه الحادثة اليوم لأنّني مؤمن بأنّ هؤلاء هم الأبطال المنسيّون، وأنا واثق من أنّ شعب فلسطين المقاوم هو من أمثال أبي أكرم ومجموعته الذين كانوا مصمّمين على إشعال الثّورة من داخل فلسطين لا من خارجها.

بنت جبيل، همزة الوصل

أمّ القرى تميّزت بتاريخها الوطنيّ والاجتماعيّ والأدبيّ والسياسيّ والتجاريّ. كانت سوق بنت جبيل الأسبوعيّ همزة الوصل بين قرى جبل عامل وكلّ قرى الجليل. كانت هذه السوق ملتقى كلّ قضاء صفد وطبريّا، الحولي وبلاد حوران، والتي يأتي أهلها للتبضّع. وكانت هذه السوق في أربعينيّات وخمسينيّات تلك المرحلة سوقاً مهمّة تحتوي على كلّ الحاجيّات، وكان لافتاً بيع جميع أنواع الحيوانات من جمال وخيول وماعز وغيرها. كانت المقايضة هي العملة المتداولة. لذلك اختيرت بنت جبيل لتكون في المركز الأوّل بعد العرقوب، وسمّيت «القطاع الأوسط». وجرت محاولات عدّة للفدائيّين للعبور إلى بنت جبيل.

في أوّل محاولة اصطدموا مع الجيش في خراج المجدل ما أسفر عن قتلى وجرحى، كما تمّ اعتقالهم ومنعهم من الوصول إلى بنت جبيل. المحاولة الثّانية أدّت إلى الوصول إلى مركبا. وكان قائدهم جواد أبو شعر وشريف. وقد رفض جواد حينها الاشتباك مع الجيش وسلّم نفسه مع مجموعته المؤلّفة من ٣٥ شخصاً سُجنوا لمدّة شهر في ثكنة الحلو عام ١٩٦٩ ومن ثمّ سُلّموا إلى سورية. في المحاولة الثّالثة وصلت المجموعة إلى بنت جبيل وكانت بقيادة رياض عوّاد يرافقه إسماعيل يوسف. وقد تمّ تطويقهم من قبل الجيش من جهة عيناتا.

يومها افترشت نساء عيناتا الأرض أمام الدبّابات ومنعت الجيش من الوصول إلى بنت جبيل. رحّب الأهالي بالمجموعة رافعينها على أكتافهم. ولعب المرحوم عبد اللطيف بيضون دوراً بارزاً في تهدئة الوضع. لم يكن هناك في ذلك الوقت أيّ حركات مقاومة سوى «فتح». ولو كانت «فتح» والنّاس على قدر عال من الوعي والمسؤوليّة في ذلك الوقت، لما سمحوا بوصول زنابير الأنظمة الديكتاتوريّة التي تعدّت ٣٠ مجموعة وتميّزت بمسلكيّاتها المعادية لأهل القرى، وكانت صراعاتها مع النّاس تشغل «فتح» عن مهامّها الأساسيّة حتّى بدأ العدّ العكسي بسبب ممارستها المغايرة لمصالح النّاس. كان يجب أن تقتصر المقاومة على «فتح» و«الجبهة الشعبيّة». فهذه التنظيمات بدأت بالتوافد تباعاً من الأحزاب والتنظيمات اللبنانيّة والفلسطينيّة كالصّاعقة حتّى أصبحت بنت جبيل غابة من السّلاح. كان النّاس يراهنون على أنّ السلطة الشعبيّة مغايرة للسلطة الحاكمة. ولم يمضِ شهر حتّى بدأ بعض الناس يكتشف أنّ مشكلتنا أصبحَت تحاكي المثل الشعبي «متل يلي بجيب الذّب ع كرمه».

بدأت العمليّات من دون قيادة موحّدة ومن دون تنسيق حتّى في عمليّات الاستطلاع التي كانت تقوم بها التنظيمات، كما حصل بين تنظيمين في محلّة مرج العرايس شرقيّ عيترون. يومها حصل اشتباك بين تنظيم قام بعمليّة استطلاع وعاد وتنظيم آخر كان ذاهباً للقيام باستطلاع وذلك قبل أن يتعرّفوا على بعضهم البعض. وهنا علينا استعراض نماذج من بعض العمليّات ونجاحاتها وإخفاقاتها.

أهمّ وأكبر العمليّات، كانت عمليّة «مستعمرة إيفيفيم» والتي حدثت على أنقاض بلدة صلحة الجنوبيّة الواقعة بين عيترون ومارون. كان قائد المجموعة يُدعى حمزة من عرب الحمدون، وكانت هذه المجموعة مؤلّفة من خمسة وثلاثين عنصراً من بينهم خمسة عناصر لاتحاد الشيوعيّين من عيترون. قبل أن تبدأ العمليّة، سُمع دويّ إطلاق رصاص من بلدة مارون من قبل أنصار الجيش. بدأت العمليّة عند التاسعة مساءً وانتهت عند الخامسة صباحاً. عاد جميع أفراد العمليّة ما عدا شخصا واحدا اسمه جميل. شابٌّ أبرص لا يستطيع أن يبصر عند طلوع الشمس. عاد اثنان من رفاقه إلى موقع العمليّة، فوجدوه مختبئاً في شجيرة سربوخ في غابة مارون وأحضروه سالماً. يومها، ادّعت «إسرائيل» أنّ «المخرّبين» دمّروا بعض مزارع الدّواجن.

العمليّة «الثانية» لـ«فتح» كانت موجعة، ووقعت في محلّة مرج القسّيس. كان قائد العمليّة يدعى سالم من بلدة ديشوب. ووقعت هذه المجموعة في كمين لدوريّة إسرائيليّة قبل وصولهم إلى الحدود. خسرت المجموعة ثمانية أفراد في أرض المعركة وعاد منهم ثلاثة. تركت «إسرائيل» القتلى في أرض المعركة عن قصد، ما دفع الأهالي إلى جلبهم على ظهور الدّواب.

عمليّة «الجبهة الشعبيّة» حصلت في وضح النّهار أمام جميع النّاس في محلّة مرج المحافر. كان جميع أهل عيترون يزرعون التبغ في ذلك الوقت. شقّت المجموعة طريقها من بين جميع الناس وتوغّلت إلى داخل الخطّ الإسرائيلي العام وأعدّت كميناً للإسرائيليّين. مرّت بعض السيارات المدنيّة فتجاهلها أفراد المجموعة، ثمّ أتت آليّة إسرائيليّة تضمّ ثلاثة أفراد فانهالوا عليها بالأسلحة الرشّاشة وانسحبوا قبل وصول النّجدة. وعندما وصلت الأخيرة كانت المجموعة قد اختفت بين الأهالي. بعد العمليّة، ترك المزارعون أعمالهم لمدّة ثلاثة أيّام خوفاً من أيّ ردّة فعل إسرائيليّة.

عمليّة «قدس» فشلت في مستهلّها. انفجرت العبوة في المجموعة وقتل شخصان من الحزب الشيوعي الأردني وهم من المنضمّين إلى «فتح». عمليّة «الباص» وقعت بين صلحه وكفربرعم وأوقعت العديد من القتلى والجرحى. بعدها أمطرت «إسرائيل» كلّ القرى بوابلٍ من الرّشقات المدفعيّة والصواريخ، فسقط قتلى وجرحى خصوصاً من عيترون وبليدا.

بعد مرور وقتٍ على هذه العمليّات، استدعاني جواد أبو شعر لمرافقته مع وفد أجنبي قائلاً: «اليوم بدّك ترافقني تنروح مع الرفاق نجول على القواعد في كلّ منطقة بنت جبيل». قام الوفد بزيارة القواعد وسأل المقاومين في هذه القواعد عن تعاملهم مع السكّان في هذه القرى. كما استفسر عن مدى ترحيب الناس بهم. فكشف المقاتلون عن أسلحتهم وتحدّثوا عن تدريباتهم. بعد انتهاء المقابلات، عاد الوفد من رحلته، ووضع تقريراً سلبيّاً أبدى فيه استياءه من أداء المقاومين معتبراً أنّ مقاومتهم ستفشل حتماً، عازياً ذلك إلى إمكانات وجهوزية «إسرائيل» لتدمير كلّ القواعد لأنّها في مرمى صواريخها، وإلى أنّ السكّان سينقلبون ضدّ المقاومين عندما تتهدّم بيوتهم وتنهار أرزاقهم. ونصح الوفد المقاومين بالتواجد في أماكن خالية من السكّان والعمل على الاختفاء والظهور من دون لفت الانتباه كما هو حال مقاومي «حزب الله» اليوم. وبالفعل بدأت «إسرائيل» بالهجوم ليلاً ونهاراً على قواعد المقاومين وكانت النتيجة تدمير بيوت وقتل أناس وتلف مزروعات. وبقي الجنوب على هذه الحال. كلّ من عايش تلك الفترة يتذكّر صاروخ ميس ميس وصاروخ شقرا حولا.

بعد ذلك أعطاني جواد أبو شعر أمراً خطيّاً فأذعناه على الملأ. قضى القرار باعتقال أيّ فدائيّ يتواجد بين الأهالي أثناء عملهم في فترة النهار. وأذكر جريمةً بشعة حصلت بعد ذلك في عيترون عندها حيث وقع تلاسن بين أحد أبناء البلدة وأحد الفدائيّين، فأتوا ليلاً وقتلوه مع أمّه وأبيه. عندها ضاق الناس ذرعاً بتلك الممارسات، وكانت الأوضاع في كلّ قرى الشريط قد آلت لمصلحة «إسرائيل».

يوم كانت «فتح» ملتقى الجميع

كانت يومها «فتح» تُعدّ للتحرير. ومن مجموعات إعداد الداخل، الأمير العربي الذي تصدّى لعدوان صدّام حسين على الكويت واستشهد وهذه قصّته معي:

أتى أبو عراج وقال لي: «هذه الرسالة إلك». فتحتُ الرسالة فوجدت فيها الآتي: «هذا الشخص يلّي عندكن مهمّ مهمّ بدنا ياه، دبّر حالك». كان هذا الشخص قد

أصيب في اشتباكات حصلت على حدود فلسطين عندما كان هو ومجموعته يحاولون إدخال السلاح. أحضروه وقمنا بالاهتمام به. كان مصاباً بحروق في وجهه. كان يأتي الدكتور أحمد مراد لمعالجته، لكنّنا لم نكن نعرف مَن هو ولا حتّى من أين أتت الرسالة، فعرفنا أنّه شخص مهمّ. عندئذٍ بدأتُ أفكّر بالطريقة الأفضل والأكثر أماناً كي يصل هذا الشخص إلى صيدا. وضعت خطّة وبعثت برسول إلى الدكتور إبراهيم شعيتو واستدعيناه على عجل مبلّغين إيّاه بأنّ زوجتي أم جبران تحتاج للعناية الطبّيّة ولا يمكنها الحضور إلى العيادة. عند وصوله إلى المنزل، التقى بأمّ جبران وقال: «هيّاها متل العروس ما فيها شي». قلت له: «تفضّل لنشرب القهوة». عرضتُ عليه الرسالة وطلبتُ منه أن ينقل هذا الشخص معه إلى صيدا، وكنا قد خطّطنا، أبو عراج وأنا، إما أن يقبل معنا الطبيب وتُحلّ المشكلة أو نهدّده بالقوّة. حاول الدكتور أن يتهرّب، فهدّدناه ولم نترك أمامه خياراً. وبعد موافقته، أحضرنا الشخص المهمّ «فهد الصباح» وأعطيته عباءة كنت قد ورثتها عن أبي وتمنّيت له التوفيق. قلت للدكتور: «انتبه لنفسك وللشخص يلي معك». قال: «الحامي الله، منشوف لوين بدنا نوصل معك يا أبو جبران».

الكل تآمر على الشعب الفلسطيني. من «الجامعة العربية». إلى دول تخلت عن مهامها ومسؤوليتها وتركت النظام الأردني يسحق مقاومة الفلسطينيين من موقعها الطبيعي ونقله إلى جنوب لبنان بإيعاز أميركي.

أرسلنا خلفه سيارة لتعقّبه ولنطمئنّ إلى وصول الأمانة. بعد يومين التقيت بالدكتور شعيتو الذي كان منزعجاً. قال: «رح إتركلك المنطقة». قلت له: «أحسن، مش متذكّر لمّا عملتوني فرّوج بالحبس من كم شهر، كلّ يلّي عملتو إنّي عطيتك أمانة تتوصّلها لصحابها».

نكتب لأخذ العبر

من هول ما جلبناه إلى أهلنا وقرانا من مآسٍ وويلات كادت أن تكون هذه القرى كقرى الشعب الفلسطيني. يدفعني هذا إلى تمنّي ألّا تتكرّر المآسي مع الأجيال القادمة.

الكلّ تآمر على الشعب الفلسطيني، من «الجامعة العربيّة»، إلى دول تخلّت عن مهامّها ومسؤوليّتها وتركت النّظام الأردنيّ يسحق مقاومة الفلسطينيّين من موقعها الطبيعي ونقله إلى جنوب لبنان بإيعاز أميركيّ واتفاقيّة سرّيّة لقيطة لم تعرف الأطراف التي أبرمتها. قيل وقتها إنّ أمين البستاني، قائد الجيش، هو من أبرمها.

بعد اتفاقيّة القاهرة، قال لي جواد أبو شعر، مسؤول الساحة اللبنانيّة في «فتح»: «أخ أبو جبران عطيتونا أكثر مما كنّا متوقعين، الشعب رحّب فينا وحملنا على كتافو وراسو والدولة أعطتنا قواعد وممرّات»، فقلت: «ان شاء الله تكونوا قدّ الحمل وتردّوا الجميل لهذا الشعب المسكين لأنّ شعب الجنوب وخصوصاً شعب قرى جبل عامل يقفون مع القضيّة القوميّة أكثر من كلّ الشعوب العربيّة وهذا مشهود لهم تاريخيّاً».

كانت الدولة اللبنانيّة دائماً مهملة بحقّ الجنوب وأهله. وإنصافاً للحقّ، أستثني من هذا الإهمال معركة المالكيّة التي قادها الأمير مجيد وزير الدفاع وفؤاد شهاب قائد الجيش، من رأس جبل العريض في عيترون، وعلى الأرض قاد المعركة غسان أبو طقة. كانت معركة شرسة، شاهدناها بأمّ العين. خسر فيها العدوّ عشرات القتلى وترك خلفه عشرات منهم على بيادر المالكيّة قرب الجبّانة واندحر إلى مستوطنة هرة. وبعد أن حرّرها الجيش اللبناني خلال بضعة أسابيع، سلّمها إلى جيش الإنقاذ الذي سلّمها بدوره إلى العصابات الصهيونيّة. وفي وضح النهار دخلت العصابات الصهيونيّة من الشرق وخرج جيش الإنقاذ من الغرب ونحن نشاهده. هكذا سلّمت السلطة اللبنانيّة بعض القرى الأماميّة إلى الفدائيّين من دون مقابل يُذكر.

بعدها، أنشأت عشرات التنظيمات قواعدَ ومكاتبَ لها داخل القرى وخارجها. وبدأت التنظيمات تتنافس على كسب الرفاق والأنصار والمحازبين. فكان مكتب «الصاعقة» في وسط عيناتا و«فتح» في وسط بنت جبيل. كما أنشأوا فروعاً لهم في بعض القرى. وطوال فترة جلوس هذه التنظيمات، كانت تَظهر مجموعات صغيرة تابعة لها، وكان عملها محصوراً بالتظاهر والمجاهرة بحمل السلاح بحجج واهية كالاستطلاع وتحضير كمائن. بدأ الأهالي يتذمّرون من هذه التصرفات. بدأ الشعب يشعر بخيبة الأمل ويلتمس تخلّفاً في سلوكهم ومسعاهم، لكنّهم لم يكترثوا وكان همّهم الوحيد كسب المؤيّدين وتسليح الأفراد من دون الالتفات لمعارفهم ومكتسباتهم الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة. كلّ هذا، اضطرني إلى دعوة مسؤول «فتح» رياض عوّاد وعشرات

المزارعين ليسمع منهم شكواهم بخصوص ممارسات الحركة وانعكاسها على عملهم، المصدر الوحيد لعيشهم. بعد سماع كلّ الأطراف، قال المسؤول: «آه يا خوي معاهن حقّ، إنت إحكي مع جواد خلّيه يحكي أبو عمّار ومناخد منهن الدخان يلّي بزرعوه، الجماعة بدهن يعيشوا».

أصبح شعار حرب التحرير الشعبيّة مهزلة وهرطقة حتّى لمن كتبوه وحملوه عشرات السنين. كان المناصرون يلتحفونه وهم هاربون. كنّا وقتها نعيش في ما يشبه غابة السلاح، عشرات التنظيمات والمنظّمات توزّع السّلاح على سكّان القرى لكسب الأنصار والمحازبين، ولا تميّز بين الوطني والعميل. بيوت وعائلات حملت السلاح من أجل أسماء برّاقة مثل «منظّمة الإمام علي» التي كان مسؤولها، المعروف بتاريخه المشبوه، أحمد السيّد علي «أبو برهان» وزميله علي السيّد حسين، المؤهل في الجيش. وتحت اسم هذه المنظّمة، توزّعت الرّواتب على الكبار والصّغار. بعدها، قامت بعمليّة السكاكر وسط الطريق العام وكانت تذاع الأخبار عن العمليّة قبل حدوثها مثل أنّها كبّدت العدوّ خسائر من قتلى جرحى. «المكتب الثّاني» كان بقيادة فايز كلاكش وكان عبارة عن أنصار الجيش للرصد والمراقبة. كان النّاس يلاحظون مدى انزعاج «إسرائيل» من تلك العمليّات الوهميّة. وفي أحد الأيّام التقيت بعلي السيّد حسين، المؤهّل والمسؤول عن منظّمة الإمام عليّ. قال لي: «يا أبو جبران انتظر الليلة في حدث كبير رح يصير».

ما إن حلّ المساء حتّى بدأنا نسمع دويّ إطلاق الرصاص من جهة مارون وعيناتا. كان الجيش قد حضّر كميناً على مفترق الطريق بين عيناتا وبنت جبيل، وكان الضابط المسؤول عن هذه العمليّة «وهبي قاطيشا»، المستشار السياسيّ الحاليّ لسمير جعجع، قد استدرج رياض عوّاد بحجّة اشتباك بين مسلّحين. ما إن وصل حتّى أمطروه بوابل من الرصاص. وكان برفقته واصف شرارة من بنت جبيل الذي قتل فوراً. أما رياض فأصيب وتظاهر بالموت ومن ثمّ وجد طريقة ليصل إلى المستشفى. ذهبت أنا وأحمد الحسيني لزيارته في مستشفى «المقاصد». قال لي عندما رآني: «ما طاوعتك، والله غدر فيّي فايز كلاكش مع إني أهديته كلاشن أخمس حديدي (سلاح) أحسن ما كان عندي».

صارت «إسرائيل» تدخل ليلاً ونهاراً، تدمّر وتخطف وتقتل ولا تنظيم يتصدّى لها. الكلّ موجود لكنّهم يهربون من المعركة. في أحد الأيّام، دخلت «إسرائيل» إلى ثلاث قرى في ليلةٍ واحدة واختطفت من عيترون «إسماعيل يوسف» المسؤول العسكريّ لمنظّمة اتحاد الشيوعيّين، ومن بليدا ثلاثة شبّان شيوعيّين من آل فرحات، كما اختطفت علي الزين وأخاه من محيبيب. بعدها، دمّرت «إسرائيل» منزل أبو برهان في عيترون، وهو «عميلها التاريخي»، وخطفت ثلاثة أشخاص. ما إن خرجوا من البلدة حتى قتلوا محمد جميل خريزات. ثمّ أتى أبو علي إياد، وشاهد تدمير بيت أبو برهان، ما عزّز موقفه لدى التنظيمات. ثمّ أتى عادل عسيران وزير الدفاع وأبدى الجميع تعاطفه مع القضيّة، وأصبح أبو برهان رمزاً لدى كلّ المنظّمات الفدائيّة، وعمل في كلّ التنظيمات في وقتٍ واحد، لكنّ مكانه الطبيعيّ كان لدى «إسرائيل» حتى أنّه ذهب في عام التحرير ٢٠٠٠ إلى فلسطين المحتلّة ومات ودفن هناك لأنّ أهل البلدة رفضوا أن يُدفن في عيترون.

حُشر الحزب الشيوعيّ من مزايدات اليسار عليه لأنّ تواجده في هذه القرى كان أكثر من وجود كلّ التنظيمات. باشر بإقامة دوريّات حراسة ليليّة، وفي أحد الأيّام، وقع حادثٌ مفجعٌ بين صفوفه وخسر أفضل كادريْن من بين كوادره عباس حسن مراد، درع الحزب الشيوعي في عيترون، والأستاذ المثقّف نافع بزّي من بنت جبيل. كانت هذه الحادثة ضربة مؤلمة على رأس الحزب. بعد الحادث، لم يستطع الحزب الشيوعي أن يلمّ شمله ويستأنف مهامّه إلّا بعد استشهاد علي أيّوب، الرجل الشجاع من عيناتا، الذي تصدّى بمفرده وأطلق زخات من رشّاشه باتجاه الإسرائيليّين. بعدها بدأ الحزب يشتكي من قلّة السلاح فقام بعمليّة وهميّة في خراج بلدة عيترون، أبو جحاش الجرودة، واستدعى بعض المنظّمات الفدائيّة لاستعراض معركته. كنتُ من بين المشاهدين مع مسؤول «فتح». حمل الاستعراض عنوان «إفشال تقدّم إسرائيلي باتّجاه عيترون». اتّصلتُ بأحد مسؤولي الحزب وسألته عن القصد من وراء العمليّة، فصارحني بأنّها كانت ضروريّة لإخفاء مشكلة قلّة السلاح. بعدها، سلّمتْهم «فتح» بعض الذخائر وبضع قطع من السلاح. وفي تلك الفترة، لم يكن أحدٌ منّا واعياً للمصائب التي تعصف بأهلنا وقرانا.

من وجهة نظري، كان اليسار مغيّباً وغائباً عن الوعي. أذكر رفاقي الذين تشاركت معهم المسؤوليّة في تلك الفترة ومنهم علي إبراهيم وعلي منصور من عيناتا، وعلي نعمة من شقرا، وعلي يوسف من حانين. برأيي، لقد تكرّر جيش الإنقاذ العربي في ٤٨ بصورة جديدة على هيئة الفدائيّين في عامَي ١٩٦٩ و١٩٧٠.

حلب
من طريق الحرير إلى البرميل المتفجّر

فؤاد محمد فؤاد

شاعر وطبيب. أستاذ باحث في الجامعة الأميركيّة في بيروت.

ما إن يعرف السّامع اليوم أنّك من حلب، حتّى يهزّ رأسه أسىً، أو ربّما يتمتم ببضع كلمات مدغمة تفهم منها الحسرة والتّعاطف والألم. قبل بضع سنوات، كان ردّ فعل السّامع نفسه هو الضّحك، أو أقلّها ابتسامة عريضة، ثمّ الحديث عن القدود الحلبيّة، وتكرار اسم صباح فخري، أو ربّما يمصّ شفتيه وهو يتذكّر الكبّة والمحشي، والمطبخ الحلبيّ الذي «لا يُعلى عليه». أمّا الزّائر نصف المتخصص فلا بدّ أن يذكر لك شيئاً عن الخانات، أو الأسواق. لكنّه سينهي قوله ولابدّ عن منطقة الجديدة وبيت وكيل أو زمريّا أو أجق باش. «ولا تنس أن تعود من حلب بكم لوح صابون غار وكيس زعتر مع سمّاق وليفة حمام أو كيس تفريك».

لكنْ ليس من عبثٍ أن يرتبط اسم المدينة بالموسيقى والغناء، أو بالمطبخ شّديد التنوّع والغنى، أو بالعمارة الحجريّة الفريدة. فهذه هي هويّة المدينة التاريخيّة التي عبرت الزّمان إلى يومنا القريب يداً بيد مع صفة المدينة التجاريّة الصّفة التي لازمتها مرّات، إيجابيّاً كحاضرة مدينيّة مستمرّة منذ عصور ما قبل الميلاد، ومرّات سلبيّاً حيث وصفت بالمداهنة والمصلحيّة والمحافظة.

ولاية ضاقت على مدينتها

لكنّ هذا نصف الكلام أو ربّما أقلّ منه بكثير. فحلب التي عَرفت في تاريخها الموغل طعم المملكة الواسعة، ثمّ في تاريخها الأقرب، معنى أن تكون الولاية الثانية في أمبراطوريّة مترامية الأطراف حيث بلغ عدد سكّانها في أواخر العهد العثماني (١٩٠٠) حوالي ٩٠٠ ألف نسمة على مساحة ٨٦ ألف كلم مربّع، كانت على امتداد الفترة العثمانيّة المحطّة الأكبر في أهمّ طريق تجاريّ في ذلك الزّمان: طريق الحرير. حيث تتقاطع فيها الطّرق، فقوافل تتّجه إلى العراق ومنها الى فارس فالهند ثمّ الصين واليابان. وقوافل تتّجه إلى دمشق ومنها إلى الحجاز فاليمن فعُمان، أو إلى مصر وما يليها في أفريقيا، أمّا القوافل القادمة من تلك الأمصار فتعرف بضائعها الطّريق إلى ميناء حلب: إسكندرونة على المتوسط ومنها إلى كريت وجنَوَه والبندقيّة ومرسيليا، وحتّى إلى مانشستر.

«أعرج حلب وصل للهند» أو «كلّ ضيعة لها درب ع حلب» يقول المثل الحلبيّ الشّائع والذي لا يزال لليوم يستخدمه سكّان المدينة وتجّارها للدّلالة على معرفتهم ورغبتهم في كسر الطوق الذي فُرض عليهم في فترات متعدّدة من تاريخ المدينة وقد تسارع وتزايد في الخمسين سنة الماضية.

ورغم أن الولاية حافظت على امتدادها الجغرافيّ حتّى بعد انهيار الرّجل المريض وتقاسم تركته، التي كانت تضمّ سنجق إسكندرون غرباً مدخلَها التاريخيّ إلى المتوسّط، فإنّها اتّسعت شرقاً حيث أعطتها المسوّدة الأولى لاتّفاقيّة سايكس بيكو، الموصلَ قبل أن تسحبها منها الاتّفاقيّة النهائيّة بعد اكتشاف النّفط في الموصل في عام ١٩٢٠. ثمّ تأتي بعد سنوات ثلاث معاهدة لوزان مع أتاتورك لتقطع شريطاً شماليّاً واسعاً يشمل مدن ومناطق مرسين وطرسوس وقيليقية وأضنة وعنتاب وكلّس ومرعش وأورفه وحرّان وديار بكر وماردين ونصّيبين وجزيرة ابن عمر وضمّها إلى تركيا. ثمّ يمعن الانتداب الفرنسيّ في القصّ ويقتطع سنجق إسكندرون الذي أصبح لواءً في عام ١٩٣٩ لصالح تركيّا أيضاً، ويُبعد حلب عن البحر طريقها التاريخيّ إلى أوروبّا. ويُكمل العهد الوحدويّ ١٩٦٠ تمزيق الولاية التاريخيّة ليأخذ منها إدلب وجسر الشغور وأريحا ومعرّة النّعمان ما كان يشكّل الأراضي الزّراعيّة للمدينة.

وهكذا فالولاية التي كانت مساحتها في أوّل القرن العشرين تصل حتى ٩٠ ألف كلم مربّع، تراجعت خلال ستّين عاماً لتصبح حوالي ١٨ ألفاً فقط.

عشيّة الحداثة

يذكر أبراهام ماركوز في كتابه الذي هذا عنوانه، أنّ المدينة كانت مقسّمة في ذلك الوقت إلى ٧٢ محلّة: ٢٢ داخل السور و٥٠ خارجه. وكان فيها ٦٨ خاناً و١٨٧ مقهى و٣ بيمارستانات (مستشفيات) و٦٤ حماماً عامّاً، و٨ مدارس علميّة، وسجنٌ واحدٌ. وقد بلغ عدد سكّانها وقتئذ ٢٣٠ ألفاً، منهم ٣٥ ألفاً من المسيحيّين و٢٠٠٠ من اليهود. وينقل عن وثائق المحاكم الشرعيّة لتلك الفترة أنّ حلب «اختصّت بفاخر الصابون يُنقل منها إلى بلاد

إن ما تناولته بضع لقيمات مقبلات أما العشـــــــاء فهـــــــذا. ودخلت فإذا مائدة طولها سبعة أمتار تسبح فيها ضروب الطعام في غدير السمن والدهـــــــن.

الرّوم والعراق. ويباع منها في اليوم الواحد ما لا يُباع في غيرها في أشهر. ومن خصائص حلب نفوق ما يُجلب إليها من الحرير والصّوف والقماش العجميّ وأنواع الفراء من السمور والسّنجاب والثّعلب وسائر الوبر والبضائع الهنديّة. فإذا أحضر إليها مائة حمْل حرير فإنّه يباع في يوم واحد ويُقبض ثمنه، ولو حضر إلى القاهرة عشرة أحمال لانباع (لبيعَ) في شهر، ويدخل حلب السّجّاد والتنباكِ من العجم، واللؤلؤ والأحجار الكريمة من البحرين، والطّيب والتّوابل والأفاوية والعقاقير من الهند».

إفطار رمضاني العام ١٥٤٩

وصف لمأدبة رمضانيّة حضرها الملحق التّجاريّ الفرنسيّ في عام ١٥٤٩ وأورَدَها في كتابه «ذكري أتي في بلاد ألف ليلة وليلة» المطبوع في ليون العام ١٦٥٥: «اختارتْني بلادي لأكون ملحقاً تجاريّاً لها في حلب العظيمة. وبعد أن حصلت على الفرمان الشاهاني من إستانبول (إسطنبول) ركبت سفينة شراعيّة إلى جزيرة أرواد فطرابلس، ومنها سلكتُ في البرّ طريقي مع حاشيتي إلى قلعة المضيق، واجتزتُ الطّريق الرومانيّ القديم متّجهاً نحو حلب. وفي حلب استقبلتني الجالية الفرنسيّة وغيرها، ثمّ نزلتُ ضيفاً عند زعيم الجالية الإيطاليّة، إلى أن استأجرت داراً ممتعة أمضيت فيها تسع سنين. وفي السنة الثانية سنة ١٥٤٩ دُعيت في شهر رمضان إلى حفلة عشاء في قصر الحَسْبي بين باب الأحمر والبيّاضة: هذا القصر الفخم الأخّاذ بسحر مباهجه يتوسط صحْنَه حوضٌ مزدانٌ بتماثيلَ تقذفُ المياه من أفواهها على نور فوانيس الشمع، تَذُرُّ مع النّور الوداعةَ والأنسَ، و تَشْمَلُ المدعوين الذين غَصَّ بهم الصحن، أقدّر عددهم بين الثّلاثين والأربعين مدعوّاً من الوجهاء والآغاوات وقوّاد الانكشاريّة والمفتي والقاضي وآغة القلعة، كلّهم كانوا بأحسن زيّ، وكانت العمائم والزنانير العريضة تُشْعِر بمقام هؤلاء المدعوين الذين كانوا كلّهم ملتحين. وجلسنا في قاعة قرب الليوان، أرضها من الفسيفساء ومسجّاة بالسّجّاد العجمي، ورفوف القاعة تزخر بطرائف القيشاني وبدائع تحف الصين... وأقيمت في القاعة مائدة تضمّ نحو العشرين من ألوان الطّعام، بينها الفواكه والكبّة النيّة والنّخاعات والكلاوي وبيض الغنم وضروب السّمك وغيرها وغيرها ممّا لا أعرف اسمه في صحون الفضّة اللمّاعة أو في أواني الصين. ها هو ذا مدفع رمضان يدوّي قربنا من القلعة يؤْذن بالفطور، ويشمّر المدعوون عن سواعدهم، ومضت الأكُفُّ تُلَقِّم أفواهَهَم الشرهة، وإذا سال الدّهن من لقمتهم مسَحوا أكفّهم بلحاهم، ولا يضرّ هذا فالصّابون والماء الفاتر ينتظرانهم. ولفت نظري أنّهم يختلسون منّي النّظرات ويتسارّرون إلى أن انتهى الأكل. هذا وجوقة المطرب بظاهر القاعة تطرّب ويبعق المغنّي فتردّ عليه الجوقة بمثل بعيقه.

«تفضّلوا إلى القاعة الثانية حيث العشاء» صاح الحسبيُّ مضيفُنا، قلت: أيّ عشاء؟ أما أكلنا وشبعنا، أجابوا: إنّ ما تناولتَه بضع لقيمات مقبّلات أمّا العشاء فهذا. ودخلت فإذا مائدة طولها سبعة أمتار تسبح فيها ضروب الطّعام في غدير السّمن والدّهن: هذا خروف محشوّ وغير محشوّ، وهذه ضروب طعام الدّجاج والطيور، وهنا طناجر المحاشي وصواني الكبب... ويأتي أخيراً دور الحلويات والفطائر والمهلبيّات... التي اتخذت من العسل وغيره وسُجّيت باللوز والجوز والصنوبر والفستق، يفوح منها روح ماء الزهر».

لغات ومفردات

تعدّ قنصليّة البندقية أقدم تمثيل ديبلوماسيّ تجاريّ في المدينة، تعود إلى القرن الثالث عشر إبّان حكم الملك الظاهر غازي، ويلي البنادقةَ الفرنسيّون ثمّ الإنكليز

ثمّ الهولنديّون والتوسكانيّون، واللغة الشائعة بينهم هي الايطاليّة - التي عبرَت إلى مفردات الحلبيّين بكثرة وعاشت معهم إلى اليوم كالسكرتون، والسكمبيل والمانيفاتورة والبروفا والدوبيا (بمعنى الحساب المزدوج) والطابّو والطابوية (سدّادة القنّينة وأطلقت أيضاً على نوع من المفرقعات) - والبندورة التي هي تحريف لـ poma d'ora (بحسب الأسدي في موسوعته الشهيرة عن حلب) والتي تعني التفاح الذهبي - أمّا مفردة «بندوق» والتي تعني في الحلبيّة الحاليّة معنى الذّكي والشاطر، وكانت قبلاً تعني ابن الحرام ذا العيون الزّرْق الذي بزعمهم (كما يقول الأسدي أيضاً) زنا بأمّه أحد تجّار البنادقة!

وليست الإيطاليّة التي جاءت عن طريق تجّار البندقيّة وتوسكانيا وجنَوه هي فقط ما دخلتْ مفردات حلب، فتجّار الأمصار الأخرى جاؤوا أيضاً بمفرداتهم كاليونانيّة (الكرويته karravatos بمعنى المقعد الطويل) والفرنسيّة التي دخلت مفرداتها قبل فترة الانتداب الفرنسي بزمن طويل، كالبَبور (على السفينة البخاريّة) وبراو (بمعنى برافو)، والسّكْلمن (اللون الأحمر)، ولاحقاً مفردات الأزياء كالجبونه والإيشارب والمانطوفه. حتّى السنسكريتيّة وجدت لها موقعاً بين لغة الحلبيّين وخاصّة أسماء الأعشاب والأدوية والتوابل كما هو متوقّع كالجنزبيل كما يلفظه الحلبيّون (وهو الزنجبيل)، والورس (وهو الزعفران). لكنّ قائمة المفردات الفارسيّة والتركيّة لا تعدّ ولا تحصى، من الكرابيج (الفارسيّة بمعنى الصرّة والتي أطلقت على الحلوى المعروفة) إلى الجايدان والأرتي والجنتر حفا وتعتبر اللاحقة التركيّة (جي) التي تضاف إلى الاسم لتعطي معنى صاحب المهنة، من أكثرها شيوعاً حيث إنّ الكثير من العائلات الحلبيّة حاليّاً تحملها كالتتنجي (بائع التتن) والبصمه جي (وهو طابع النسيج) والكعكه جي، والتفنكجي (وهي رتبة عسكريّة - التفنكه هي البارودة) وغيرها كثير.

أمّا السريانيّة فهي القاعدة الأساس ليس فقط كمفردات وأسماء أمكنة بل ربّما يمكننا أن نزعم أنّها طريقة لفظ واشتقاقات صرفيّة حيث الألف الوسطى في كثير من المفردات الحلبيّة تُلفظ مائلة كما في السريانيّة، فالحلبي يقول عن الجامع جيمع، وعن الثياب تييب أو حوييج بدلاً من حوائج والتي تعني أيضاً الثياب، وباب الجنان أحد أبواب حلب يصبح باب جنين. أو إضافة الباء الساكنة إلى أول الفعل كـ: بْكتب، بْلقش، بشْتغل... وهكذا وهكذا.

ولا أعرف لماذا خطر لي وأنا أكتب عن المفردات

السريانيّة ذكْرُ العجور ولا يبرّر هذا التّداعي أنّ العجور هي الاسم السريانيّ لضرب من البطّيخ الصغير الذي يظلّ أخضر لكنْ ما دمنا بهذا الصّدد، فسأذكر القليل عن هذا النّوع من الخضروات الذي لا يأكله الكثيرون خارج حلب. وهو يؤكل نيئاً مع السلَطة، أو مكبوساً، أو مطبوخاً حيث يتّخذون منه العجور المحشي بالرّز أو البرغل أو الفريكة ويسكب فوقه اللبن المثوّم بارداً. ولشهرته بين الحلبيّة، صار له مثلاً بينهم فيقولون: «قلبي من العجور منجور» (ويقال لمن ثقلَتْ عليه الهموم).

أمّ المحاشي والكبب

وبما أن الشّيء بالشّيء يُذكر، فإنّ محشي العجّور سيجرّنا - ولا بد إلى الحديث عن شهرة حلب بمحاشيها وكبيها، والتي نالت بسببهم لقبها الشهير بأنّها (أي حلب) أمّ المحاشي والكبب.

والحلبيّون يحشون كلّ ما تقع عليه أيديهم من الخضروات، فهناك محشي الباذنجان والكوسا والقرع والعجور والجزر الأسود والبطاطا والبندورة والفليفلة الحمراء والخضراء التي يسمّونها فرنجيّة، والكماية والأرضي شوكي والبصل ويلفّون أوراق بعض الخضروات كنوع آخر من المحشي، كالملفوف والسلق واليبرق (وهو محشي ورق العنب الذي يحتوي على الرّزّ واللحم) أمّا ما هو بدون لحم من ورق العنب أي فقط محشي رزّ وخضر فيدعى يالنجي (أي الكذّاب) لكنّ شيخ المحاشي قاطبة هو ما يُحشى باللحم المفروم والصّنوبر فقط أي دليل الثّراء والمنزلة الرفيعة.

أمّا عن الكبب، فحدّث ولاحرَج. فلكثرة شهرة حلب بكبيها يقتنع المرء أنّه من اختراعها. والحقيقة أنّ أطيب الكبب كما يذكر الأسدي في الموسوعة ما يُجهّز في غربي حلب لتوافر أطيب البرغل فيها وهو البرغل العمقي والذي لا يوجد مثيل له في المعمورة. وفي زمن كتابة الموسوعة يعترف الأسدي بأن بيت الكيخيا ورستم والكيالي وهنانو هم أفضل من صنع الكبب لاتخاذهم من البرغل العمقي ثمّ سخائهم بالسّمْن واللحم والجوز والصّنوبر. ثمّ يعدّد أنواعها حتى تحسب أنّه موسوعة عن الكبب، فيذكر منها ٥٩ نوعاً كالكبّة السّفَرجليّة والسّمّاقيّة والقصابيّة واللبنيّة والعنتبليّة والأورفليّة والمختومة والمسلوقة والزنكليّة والملقوزة والمحبرمة (وأعترف أنّني لم أذقها أبداً وهي تُطبخ بحمض حَبّ الرّمّان!)، والقائمة تطول.

لكنّ الحلبيّين أيضاً مُولعون بالطّعام الحرّيف أو الحدّ كما يسمّونه (الحَر بلهجة لبنان) وربّما هو بسبب تجارتهم القديمة مع الهند حيث تعرّفوا إلى نوعيّة طعامهم، ولعلّ الأكلة الشعبيّة المسمّاة «أبو أمّون» تعكس هذا الولع. وأبو أمّون رِقائق تُصنع من طحين البرغل تبسط عليها الفليفلة الحمرا الحرّة المدقوقة مع الزّيت ودبس البندورة ويُرشّ عليها الكزبرة اليابسة والكمّون بكثرة وتخبز بالتّنّور. وإذا كانت كثرة زيت الزيتون الكردي تسهّل ابتلاع هذه الرقاقة المتفجّرة، فلا شيء يحمي حين خروج بقاياها بعد ساعات قليلة.

في أطعمة حلب (وهي أيضاً في دمشق) مجال لتبادل الغمزات واللمزات بين الطّوائف. فالباذنجان المطبوخ في البرغل يطلق عليه المسلمون في هاتين المدينتين «يهودي مسافر»، فيردّ عليهم يهودها بتعديل بسيط على هذه الأكلة ويطلقون عليها اسم «مسلم هربان». أما «قسّيس مشطّح» فهو الباذنجان بالفرن والمغطّى بالطّرطور والمحشي باللحم ودبس الفليفلة الحلبي.

والمشكّك في مرور طريق الحرير من حلب، عليه ليزول شكه أن يتأمّل في «الدقّة الحلبيّة»، تلك الخلطة السرّيّة بمقادير سبع أنواع من التّوابل كالبهار الحلو والفلفل الأسود وجوزة الطّيب والقرفة وكبش القرنفل، ثمّ لا بأس في بعض الإضافات كالفلفل الأحمر والزّنجبيل والمحْلب.

ولكي تكتمل الوجبة بالتّحلية هناك الكنافة بنارين والمعجوقة والمدلوقة أو البالوظة والكرابيج أو إن شئت زنود السّتّ والقمر بعبّ الغيم.

الخانات والأسواق

والقارئ الأنثربولوجي المتأمّل في مكوّنات هذه الأنواع وطريقة إعدادها وتقديمها لن ينتابه أيّ شكّ في أنّ المطبخ الحلبيّ هو مطبخ ثقافات متنوّعة لا يفسّرها إلّا موقُع المدينة ودورها التاريخيّان. فالتّجّار القادمون من مسافات بعيدة في آسيا أو آوروبّا يلتقون هنا، ويطول مكوثهم أحياناً أشهراً طويلة تتمّ فيها المبادلات التجاريّة، لكنْ خلالها تتسلّل أنواع الأطعمة المختلفة والمفردات والموسيقى. وتعتبر الخانات الحلبيّة منزلاً للتّجّار القادمين، ومستودعاً لبضائعهم ومأوى لدوابّهم. وأكثر الخانات مبنيّة على شكل مربّع طول ضلعه قد يصل لستّين متراً ويؤلّف من طابقين: غرف الأرضي منه لخزن البضائع والعلوي فندق يشرف على الباحة الداخليّة. ويرغب القناصل بسكنى الخان لأنّهم تجّار أيضاً ولكونه أكثر أماناً ومن خانات حلب: خان البنادقة، وخان الكمرك، وخان الوزير، وخان النّحّاسين، وخان الحرير وخان الصابون وخان الحبال. وإذا كان للبضائع المجلوبة سوق وخان فالسوق لبيع المفرّق والخان

لبيع الجملة. وصاحب الخان يُدعى الخانجي. وأمّا القيسريّة فهي بناء دون الخان حجماً وبداخله دكانان ومعامل صغيرة.

وحلب مبنيّة من الحجارة، وحجارتها (الشهباء) كلسيّة سهلة الاقتلاع والنّحت وتدعى بالنحيْتْ يتصلّب مع الزّمن ويتّصف الحجر الحلبيّ بألوانه الثلّاثة الأبيض والأصفر والزّهري، بأنّ صفاته الفيزيائيّة لا تتغيّر مع مرور الزّمن وهو قليل التأثّر بعوامل الطّبيعة المختلفة، وقساوته جيّدة تعطي صوتاً رنّاناً عند النّقر عليها وكثيراً ما يميل الحجّارة عند نحت الحجر إلى الغناء بإيقاعات. من مثل (يا الأسمر اللون... هالأسمراني... دم دم تك).

صمدت أبنية حلب المملوكيّة والعثمانيّة طويلاً، فخلال تلك الفترة التي تصل إلى أكثر من ٦٠٠ عام شهدت حلب أكثر من ٧ زلازل مدمّرة أكبرها الذي حدث في القرن الثامن عشر وأدّى إلى تهديم ٣ مساجد و٢٠٠ بيت. لكنّ البراميل المتفجّرة التي سقطت على المدينة في السّنوات الخمس الماضية هدمت ما لم تفعله عوامل التّاريخ والطّبيعة مجتمعين. فمئذنة الجامع الأمويّ الكبير فريدة التّصميم والتي بُنيتْ في عام ١٠٩٠ ميلاديّة تهدّمت بالكامل في نيسان / أبريل ٢٠١٣ إثر استهدافها بشكل مباشر. وتضرّرت كثيراً من الخانات والحمّامات الأثريّة والدُّور القديمة كبيت زمريّا وبيت وكيل.

عوامل تراجُع حلب

منذ نهاية مشروع دولة حلب الفرنسيّ التي خلّفت ولاية حلب العثمانيّة، حلمت المدينة على الدّوام بإمكانات جعرافيّة أوسع بكثير من حدودها الحاليّة. ولطالما اعتبر الحلبيّون أنّ سورية منطقة داخليّة صغيرة جدّاً لقدراتهم. لقد تكوّنت الشريحة السياسيّة الحاكمة في سورية حتّى الاستقلال في العام ١٩٤٦ من رجال الكتلة الوطنيّة وهم إجمالاً من الأغنياء والمحافظين وهم مَن أدار معارك الاستقلال السياسيّة والبرلمانيّة. انقسمت الكتلة بعيد خروج الفرنسيّين إلى كتلتين هما حزب الشعب، وهو مَن مثّل مصالح المنطقة الشماليّة وفي قلبها طبعاً حلب، والحزب الوطني الذي مثّل دمشق.

وظلّ التّنافس بين الكتلتين حتّى قيام الوحدة مع مصر في العام ١٩٥٨. فقد ظلّ حزب الشعب مسيطراً على الحياة البرلمانيّة منذ الاستقلال وحتى الوحدة، وكان المحرّك للسّياسات الداخليّة والخارجيّة السوريّة، حيث شهدت سورية في تلك الفترة نشاطاً اقتصاديّاً يشبه الغليان، فتحسّن الإنتاج الزّراعيّ بشكل هائل، ويُعزى السّبب بشكل غير مباشر إلى تجار حلب الذين استثمروا في الزّراعة، وأدخلوا الآلة إليها، وحرثت أراضي بكر في السّهول غرب الفرات وشرقه، وفي منطقة الجزيرة. كما سيطرت رؤوس الأموال الحلبيّة على معظم الحركة الصناعيّة الناهضة وأهمّها صناعة النّسيج. لقد ألقى حزب الشعب الحلبيّ ثقله في السّياسة السوريّة، لنقض الحدود الجائرة على المدينة، وإعادة التوحّد مع العراق، وإزالة الحواجز التجاريّة، والحدود السياسيّة التي خنقت سوريّة.

وظلّ نفوذ حلب السياسيّ قائماً حتى موجة التأميم الأولى في عهد الوحدة مع مصر. ويعود تراجع هذا النفوذ إلى صعود سياسة مصر القوميّة بزعامة عبد الناصر، والتّقارب مع السّوفييت والكتلة الشرقيّة، وتراجع تعاطف الشارع السوري مع العراق بعد توقيع حلف بغداد العام ١٩٥٤، وظهور أحزاب الطبقات الوسطى (كحزب البعث) ذات البرنامج الاجتماعيّ التغييريّ الحاملة للمشروع الوحدويّ العربيّ مع مصر، ولأوّل مرّة خلتْ حكومة ١٩٥٦ بعد العدوان الثلاثي، من ممثّلي حزب الشعب، بعد أن اتُهموا فيها بتلقّي أموال عراقيّة، والتخطيط لإقامة انقلاب عسكريّ بتنظيم فرنسيّ إنكليزي يُبعد سورية عن مصر.

تراجع التمثيل الحلبيّ بشدّة في مرحلة الوحدة وما بعدها، وترافق مع التّأميمات الكبرى التي طاولت رساميله وخروج معظمها إلى لبنان وأوروبّا، ولم يتغيّر الأمر عقب الانفصال حيث كان لتدخّل الدولة المركزيّة في القاهرة إبّان الوحدة دور كبير في حسم التّنافس الحلبي الدمشقي لصالح العاصمة. جاءت المرحلة البعثيّة لتكرّس التشوّهات البنيويّة للتطوّر الطبقيّ الطبيعيّ للبرجوازيّة الوطنيّة، التي أحدثتها الوحدة مع مصر. ففي سياق الصّراع داخل أجنحة البعث تمّت تنحية الكتلة الحلبيّة أيضاً (ممثّلة آنذاك بالبعثي الحلبي أمين الحافظ) عن سلطة الشرعيّة الانقلابيّة. واكتمل خروج حلب نهائيّاً من المعادلة السياسيّة في زمن حافظ الأسد بعد اتّهامه لها بمساندة حركة الأخوان المسلمين، واستمرّ هذا الخروج طوال مرحلة الأسد الأب، لتعاد استمالة الطبقة الصناعيّة وما تبقّى من برجوازيّة هرمة وعائلات عريقة في السنّوات الأولى للأسد الابن قبل أن تنقضّ طائرات الميغ والسوخوي وبضعة صواريخ سكود ومئات البراميل المتفجّرة لتحيل تراباً حجارةَ مدينةِ المحاشي والكبب، وتشرخ صوت المنشد الحلبيّ الذي وقف بين حطام منزله يهتف:

فوالله ما مال الفؤادُ لغيركمْ
وإنّي على جور الزمان صبورُ
بعدتمْ ولم ينأى عن القلب حبكمْ
وغبتمْ وأنتم في الفؤاد حضورُ

في انتفاضات حلب ١٧٧٠ - ١٨١٩

عزيز تبسي

كاتب سوري من مواليد حلب، اعتقل في عام ١٩٨٣ لانتمائه لحزب العمل الشيوعي ولم يفرج عنه إلا في عام ١٩٩٨.

ما العودة إلى التاريخ الاجتماعي لمدينة حلب إلّا لتلمّس الدور الذي توضّع لأسباب متعدّدة على الجماعات الاجتماعيّة العارية، من دون قفطان أيديولوجيّ يغلّف مصالحها ليخفيها ويجمّلها في آن. لم تكن قد توافرت لهما طليعة ثقافيّة، توقد جمار الصراع تعبوياً بأيديولوجيا العروبة والتحرر والحريات. لم يعبّر أهالي المدينة عن مصالحهم بتعبير تنظيميّ مفرد، بل توزّع على مقاربتين عبّرتا عن مصلحتين متناقضتين، أوصلتهما إلى أتون صراع دمويّ، بل عبّرت عنهما جماعتا الأشراف والإنكشاريّة مقابل الولاة العثمانيّين وجهازهم العسكري والبيروقراطي، فضلاً عن الفضاء الاجتماعي الرّيفي الموزّع على قبائل التركمان والأكراد والبدو، والذي بقي جزئيّاً خارج الصراع المديني. وطالما حملت البنى الاجتماعيّة، قوّة الديمومة، وتعزز بعدم توفر مشروع وطني يعيد تشكيل البنى الاجتماعية وصهرها في أطر جديدة. حيث ستعود لتُمظهر الصراع داخل الانتفاضة الشعبيّة، في انقسام مديني بمضمون جديد، وتعيد الانفتاح على الحوض الفلاحي، الذي طالما بقي ساكناً، لينفجر في أوائل عهد الانتداب الفرنسي في سلسلة من الانتفاضات المسلحة لم تصل إلى غاياتها لأسباب متعدّدة.

قيادة الأشراف والإنكشاريّة

شهد تاريخ مدينة حلب في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، سلسلة من الانتفاضات الشعبيّة العنيفة، بدأت عام ١٧٧٠ وحرّكها وقادها تحالف قوّتين سياسيّتين مدينيّتين، الإنكشاريّين والأشراف، ونسجتا شبكة من العلاقات والولاءات، ودعمتا بتنظيمين هرميّين، امتلكا القدرة على الحركة والمبادرة.

زاد ضعف الضبط السلطوي الصارم، الذي ما انفكّت تمارسه السلطة المركزيّة، التي انشغلت بهزائمها العسكريّة في أوروبّا، وعجز ممثّلوها في الولايات العربيّة عن مواجهة المشكلات المحليّة، وفرض سلطتهم، لنقص مزدوج في الأدوات العسكريّة، والسيولة الماليّة، كما أنّه بعد مرور فترة طويلة، لم تعد السلطة المركزيّة، ولا ولاتها، يخضعون للمساءلة والتقييم والمحاسبة.

وبالرّغم من الصعوبات المحلّيّة (صعوبات التّجارة الشرقيّة، لاسيّما تجارة الحرير بين ١٧٢٠ و ١٧٥٠) جاءت سنوات ترسّخت فيها قوى محليّة، جسّدها «الأعيان» المسلمون وبات من الضروري أخذهم بالحسبان، كما ظهرت ردود فعل، بوسائل عنيفة في الغالب، ضدّ متطلّبات السلطة، وضدّ الاختلالات الاقتصاديّة، وجائحات متتالية من الجفاف والطاعون.

انطلقت أوّل انتفاضة في حلب عام ١٧٧٠ من احتجاج الأهالي على الرسوم التي كان الولاة والقضاة يحصّلونها. كما أدّت صعوبات الحصول على الموادّ الغذائيّة، والاحتكار والمغالاة في ضبط المهن، إلى احتجاجات شعبيّة قويّة، ولمرّات متتالية. على أنّ الاحتجاجات الأقوى والأعنف كانت ضدّ الاقتطاعات الماليّة للولاة، أو الخوف من مجيء والٍ على الأهالي له تجارب مؤلمة، ممّا دفعهم لطرده، أو منعه من دخول المدينة. ونجحت هذه الحركات الشعبيّة الاستباقيّة في معظم الأحيان، ممّا أشار إلى ضعف السلطة المركزيّة الباب العالي وممثّليه المحليّين.

شكّلت جماعتان من العسكريّين (الإنكشاريّة) والأشراف (المنتسبين إلى آل البيت) العنصر الفاعل في تنظيم وإدارة الحركات الاحتجاجيّة الكبرى في مدينة حلب خلال فترة ١٧٧٠ - ١٨١٩.

كان ارتفاع أسعار الخبز ونقص الطحين السّببَ الأساسيّ لانتفاضة ١٧٧٠، تعزّزت بحزمة من الشكاوى ضدّ الضرائب الجائرة التي فرضها الوالي والقضاة على أهالي المدينة.

هاجم الأشراف المتسلّم (الكتخدا)، ممثّل الباشا الذي كان غائباً آنذاك مع الجيش، وقد اضطرّ لمغادرة المدينة لبعض الوقت حتى تهدأ الحالة. لكنّ الحكومة المركزيّة التي أغضبتها الوقائع التمرديّة، أرسلت عبد الرحمن باشا إلى حلب، فلم يسمح له الشعب المنتفض بدخول المدينة لمدّة أربعين يوماً، ثمّ سمح له بالالتحاق بمقرّ عمله. إلّا أنّ فريقاً من الأشراف انشقّ عن الجماعة وهاجم سراي الحكومة (في ٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٧٧٠) فرجع الباشا عن الوعد الذي قطعه بعدم ملاحقة العصاة فأعدم عدداً من أشدّهم تأثيراً في الانتفاضة وفرض غرامة على أغنيائهم. لم يشارك الانكشاريّة في هذه الانتفاضة بسبب من تغيّبهم في حرب القرم مع روسيا القيصريّة، لكنّهم ما لبثوا أن باشروا منذ ١٢ كانون الثاني / يناير حركة تمرّد مسلّح ضدّ الباشا.

في كانون الثاني / ديسمبر ١٧٧٥، انتفض أهالي مدينة حلب بأجمعهم ضد الوالي علي باشا الذي وصل حديثاً إلى المدينة، والذي سبقته سمعته السيّئة في القمع والمصادرات. قاد الإنكشاريّون الانتفاضة بدعم قويّ من الأهالي، ومنع القاضي الشرعي الأذان، كما سمح للأهالي بالتمرّد على الوالي الجديد. حاصر المنتفضون الوالي في سراياه، وأمر هو مدفعيّة القلعة بإطلاق النيران على أحياء المدينة. وفي النّهاية خرج الوالي علي باشا من باب السرايا إلى باب المدينة، أي مسافة تقارب الكيلومتر الواحد، دون حاشية ولاموسيقا ولا أعلام، بينما كانت الطرقات والأسطح مغطّاة بجمهور كبير من الأهالي يحملون البنادق. رضخ الباب العالي للوقائع الجديدة، وعيّن خليفة للوالي علي باشا، لكنّه أضمر الرغبة في كسر شوكة قادة الانتفاضة. عمل الوالي الجديد الذي أرسلته إسطنبول عام ١٧٧٨، على اصدار حكم بإعدام قادة الانتفاضة، لكنّ ردّ الفعل الموحّد للجماعتين (الإنكشاريّة والأشراف) والإسناد القويّ من الأهالي الذين هاجموا السرايا، دفعه للعدول عن مشروعه.

المدينة تطرد الولاة

وفي عام ١٧٨٠ هاجم الوالي الجديد عبدي باشا الأشراف والإنكشاريّين، ولم يتمكّن من الحصول على مبتغاه تماماً. فرض حين وصوله في حزيران - تموز / يونيو - يوليو ١٧٨٤، جعالات على العديد من المهن، لاسيما الخبّازين والنحّاسين والفرّائين وملأ السجون بالمتخلّفين عن الدفع. دفعت هذه الإذلالات الأهالي لطرده من المدينة بالتّزامن مع إرسال موفد إلى إسطنبول لتبرير عملهم. بقيت المدينة دون والٍ مقيم لمدة ١٤ شهراً، أي حتى نهاية ١٧٨٥. وتولّى الحكم الفعليّ كقوّة أمر واقع فيها محمد طه زاده، أحد الوجهاء الأعيان، وكنج أحمد حمصة، الذي شغل رئاسة الإنكشاريّة خلال ثلاثين عاماً.

ضرب الطاعون المدينة ١٧٨٧ متزامناً مع مجاعة خطيرة. أخذ السكّان المبادرة لدى الإعلان عن وصول الوالي عثمان باشا، الذي سبقته الأنباء عن أعمال العنف والمصادرات في المدن التي مرّ بها في طريقه إلى المدينة فمنعوه من دخول المدينة، وذهب عسكر الإنكشاريّة والأشراف لمواجهة عسكر الباشا في منطقة «الراموسة»، عندئذ فضّل الوالي الانسحاب. وحوصر الوالي الجديد، كوسا مصطفى باشا، في تموز / يوليو ١٧٩١ خلال أربعة أيّام، واضطرّ للخروج من المدينة، فعيّن الباب العالي سليمان باشا خلفاً له. هنا نشب الصراع على النّفوذ بين إبراهيم باشا قطر آغاسي، وهو عامل عند عائلة محمد أفندي طه زاده، وقد ارتقى إلى وظيفة محصّل للضرائب، مستفيداً من الحجم الكبير لأعمال سيّده الماليّة لينمّي ثروته الخاصّة، استخدمها في تركيز نفوذه في حلب، وبين الوالي الذي عمل على الحدّ من نفوذه وإقصائه فتحالف إبراهيم باشا قطر آغاسي مع كنج أحمد حمصة رئيس الإنكشاريّة وهاجم الفريقان رجال الباشا وأجبروه على مغادرة المدينة.

عندها، عيّن الباب العالي إبراهيم باشا قطر آغاسي والياً على دمشق في أيّار / مايو ١٨٠٤ بعد أن عيّنه لفترة والياً على حلب فترك ابنه محمد بيك فيها بصفة قائم مقام. لكنّ الإنكشاريّة الذين عمل ابراهيم باشا على تحجيم نفوذهم وكسر شوكتهم، رأوا في المغادرة فرصة لردّ الاعتبار، فتحالفوا مع الأشراف، وأثاروا أهل حلب ضدّ ابنه محمد بيك فأرغموه على مغادرة المدينة مع رجاله، بالرّغم من قيام هدنة فيما بعد بين المدينة والباشا. فتوزّعت السلطة بين ياسين آغا، من الإنكشاريّة وحسن بن حسين آغا خلاص زاده، وهو رأس أسرة من الأشراف. وحين عودة محمّد بيك إلى المدينة وجد نفسه معزولاً عن الناس ومحاصَراً بإعلان من قادة الإنكشارية يمنع الإتّصال به وزيارته.

«قومة أهل حلب»

بقيت شؤون الحكم حينها موزّعة بين قادة الإنكشاريّة والأشراف. دام ذلك لعدّة سنوات قبل أن يتمّ إقصاء الإنكشاريّة والأشراف عن الحكم، الواحد تلو الآخر، في أعوام ١٨٠٥ و١٨١٣، ثمّ سقط نفوذهم بعد فشل ٢٣ تشرين الأول / أكتوبر ١٨١٩ المعروفة باسم «قومة أهل حلب» على الوالي خورشيد باشا، التي وقعت بسبب من الضرائب الجائرة والاقتطاعات النقديّة، بذريعة شقّ قناة مياه من نهر الساجور إلى المدينة، اضطر بعدها الحلبيّون

يمكن اعتبار هذه الحركات انتفاضات للجماعات المحرومة. التواقة للعدل ورفع مستوى العيش وتخفيف الضغوط السلطوية السياسية والاقتصادية. رغم افتقارها إلى القيادة السياسية الطبقية.

للاستسلام بعد مئة يوم ويوم من الحصار والقصف قاده ثلاثة باشوات أتوا لنجدة والي حلب، مع تسعة آلاف مقاتل لحصارها، وكانت هذه آخر انتفاضاتها، التي تجلّت فيها وحدة المدينة، وأجهزت بفشلها على المسار الاستقلالي الذي كان يسعى إليه «الأعيان»، وتلاها زلزال ١٣ آب / أغسطس ١٨٢٢ لينزل بها الضربة القاصمة. لم تنته جماعتا (الأشراف والإنكشاريّة) لكنّهما فقدتا القدرة على تنظيم المعارضة للحكم العثمانيّ.

جناحا حزب الأعيان المدينيّان

أظهرت الانتفاضات «القومات» بين أعوام ١٧٧٠ و١٨٠٥ الدور الفاعل الذي أدّاه الإنكشاريّون والأشراف ضدّ ممثّلي السلطة المركزيّة. لكن لم تتمثل الجماعة المسيحيّة، التي تبلغ نسبتها العدديّة نحو عشرين بالمئة من سكّان المدينة، في أيّ من التشكيلين سابقَي الذكر، كما لم تجد لنفسها تمثيلاً آخر، لأسباب ذات علاقة بالصيغة الحقوقيّة التي اعتمدتها السلطة العثمانيّة التي تتعلّق بالرعايا والذمّية والتمثيل الملّي. يمكن اعتبار هذه الحركات انتفاضاتٍ للجماعات المحرومة، التّوّاقة للعدل ورفع مستوى العيش وتخفيف الضغوط السلطويّة السياسيّة والاقتصاديّة، رغم افتقارها إلى القيادة السياسيّة الطبقيّة، وعجزها عن إنتاج قيادة تعبّر عن طموحاتها وآمالها. ذلك أنّ الأشراف والإنكشاريّين، لم يكونوا معنيّين قطّ بتخفيف آلامها بقدر عملهم على زيادة

الامتيازات التي تعزّز مكانتهم الاجتماعيّة، ممّا أظهر تبايناً دائماً بين هذه الحركات الشعبيّة وبين ممثّليها.

ذلك أنّ السقف التاريخيّ الذي طمح إليه «الأعيان» لم يكن إلّا الحلول محلّ الباشوات العثمانيّين، والحصول على امتيازاتهم. كما حالت عوامل موضوعيّة دون وصول «أعيان مدينة حلب» إلى ما وصلت إليه امتيازات الولاة والأعيان في الأقاليم العثمانيّة الأبعد عن المركز علي بك الكبير ومحمد أبو الذهب في مصر وآل العظم في ولاية دمشق وآل الجليلي في ولاية الموصل أو لمستوى حركات تمرّد ذات سيرورة انفصاليّة كما في الحركة الوهّابيّة في شبه الجزيرة العربيّة وحكم محمد علي باشا في مصر.

اعتمدت الجماعتان على تنظيمين شرعيّين، قويّين ومتماسكين، ساهما في فاعليّة عملهما، حيث الإنكشاريّون جماعة عسكريّة منضوية تحت أمرة ضبّاطها، بينما خضع الأشراف لسلطة نقيب الأشراف الذي تعيّنه إسطنبول ويمارس ضبطاً قويّاً على جماعته. واتّخذ آغا الإنكشاريّة ونقيب الأشراف مجلسيهما في ديوان الوالي الباشا، أي في الحيّز السلطوي، الذي تتّخذ فيه القرارات الهامّة التي تخصّ المدينة، ممّا زاد من نفوذهما. وكانت الامتيازات التي يحقّقانها لأعضائهما هامّة، كالإعفاء من بعض الضّرائب ومن بعض الالتزامات المفروضة على المهن، فضلاً عن تمتّعهم بالحصانة الشخصيّة والحقوقيّة. ولم تكن هاتان الجماعتان مغلقتين، فكان الحرفيّون والتجّار يشترون التحاقهم بـ(الأوجاق) بالمالا، ولم يكن لتسجيلهم أيّة تبعات فيما يتعلّق بالخدمة، التي كان عليهم أداؤها افتراضيّاً في الجيش.

أمّا الأشراف، المنتسبون إلى آل البيت، فنقيبهم هو المعني بقبول طلبات الانضمام والتّدقيق في ادّعاءات النّسَب. وكان يقبل شجرات نسَب زائفة مقابل المال، وطالما حصل أبناء انحدروا من زواج مختلط، على لقب ومكانة «شريف»، ما ساهم في توسيع قاعدة هذه النّخبة لتشمل أصحاب دكاكين وحمّالين في الأسواق. لذلك تضخّمت الجماعتان ومثّلتا قوّة بشريّة قادرة على أداء دور هامّ في الحركات الشعبيّة. أفقدتهما هذه الأعداد الكبيرة في المقابل تكوّنَ بنية اقتصاديّة متجانسة. فمعظم الإنكشاريّين من الأكراد والتركمان ونسبة أقلّ منهم من البدو والفلّاحين المهاجرين إلى المدينة، توزّع سكنهم على الأحياء الشرقيّة والجنوبيّة من حيّ باب النّيرب إلى حيّ بانقوسا، في الحيّز الذي شغله التوسّع المديني خارج الأسوار. فسيطروا على بعض المهن بما يشبه الاحتكار، القصابة وبيع اللحوم والحبوب والدباغة، ومالوا في معاملاتهم إلى العنف وسرعة الهياج.

ينتمي الأشراف إلى عموم السكان، لكنّهم تمركزوا في مهن النسيج والأقمشة وصناعة الحرير. ووفّروا بفضل نفوذهم حزمة من الامتيازات المدينيّة وكوّنوا ملكيّات ريفيّة واسعة في إطار قوانين «المالكان»، فمعظم القرى المحيطة بحلب كانت من أملاكهم، وشكّلوا رأس الرّمح في الدّفاع عن مالكي الأراضي.

انتمى أغلب الأشراف في موقع سكنهم إلى المدينة داخل الأسوار، فيما انتمى الإنكشاريّون إلى الضواحي وعالم الأرياف المتعدّد عرقيّاً. خاضت الجماعتان صراعات عنيفة ودمويّة فيما بينهما. وقعت بينهما في عام ١٧٧٠ مواجهة كبرى، جرى خلالها هدم «قيساريّة العرب» وهي سوق بدوي تحت القلعة، وانتهت بنفي عدد من الأشراف. جرت حرب شوارع في تموز / يوليو ١٧٧٨، قتل وجرح على أثرها عدد من الأشراف، ولجأ الإنكشاريّون إلى أمير «عشيرة الموالي» في ريف حلب. وفي صراع العام ١٧٩٨ الدمويّ، احتمى الأشراف «بمسجد الأطروش» فحاصرهم الإنكشاريّون داخله، وذبحوا عدداً منهم. وانتصر الإنكشاريّون في النّهاية بعد إمدادهم بمقاتلين من الأرياف الكرديّة. وهجم الأشراف في عام ١٨٠٥ على الإنكشاريّين بموافقة ضمنيّة من والي حلب محمد باشا الذي كانت غايته ضرب الجماعتين بعضهما ببعض وإضعافهما معاً وإعادة القوّة إلى السلطة المركزيّة التي مثّلها الولاة العثمانيّون. خرج الأشراف بعد تلك المعركة مغلوبين. فتمّت السيادة للإنكشاريّين لعدّة سنوات حتى جاء الوالي جلال الدين باشا عام ١٨١١ وأعدم بأمر من الباب العالي حوالي عشرين من زعماء الإنكشاريّة.

تصدّر الأشراف والإنكشاريّون معاً من سكّان المدينة، في أنشطتهم وبنيتهم الاجتماعيّة الاقتصادية، ومالوا إلى التعاون وتمثيل المدينة في ردود فعلها ضدّ الاضطهادات والاقتطاعات السياسيّة والماليّة للسلطة العثمانيّة. ووجدوا أنفسهم، في الغالب، جنباً إلى جنب في صراعات أهل المدينة ضدّ السلطة وممثّليها، أكثر منهم واقفين في مواجهة بعضهم البعض، في ما يمكن اعتباره تمثيلاً للجماعات المحلّيّة في مواجهة الهيمنة الخارجيّة، وحين انهارا، انهارا معاً في الحركة التي جمعتهما في قومة العام ١٨١٩ في مواجهة الوالي خورشيد باشا وأعلن على أثرها استسلام المدينة. فمضى أهلها يترقّبون أفقاً تاريخيّاً جديداً، سوف يكون أفق انتظارهم الطويل.

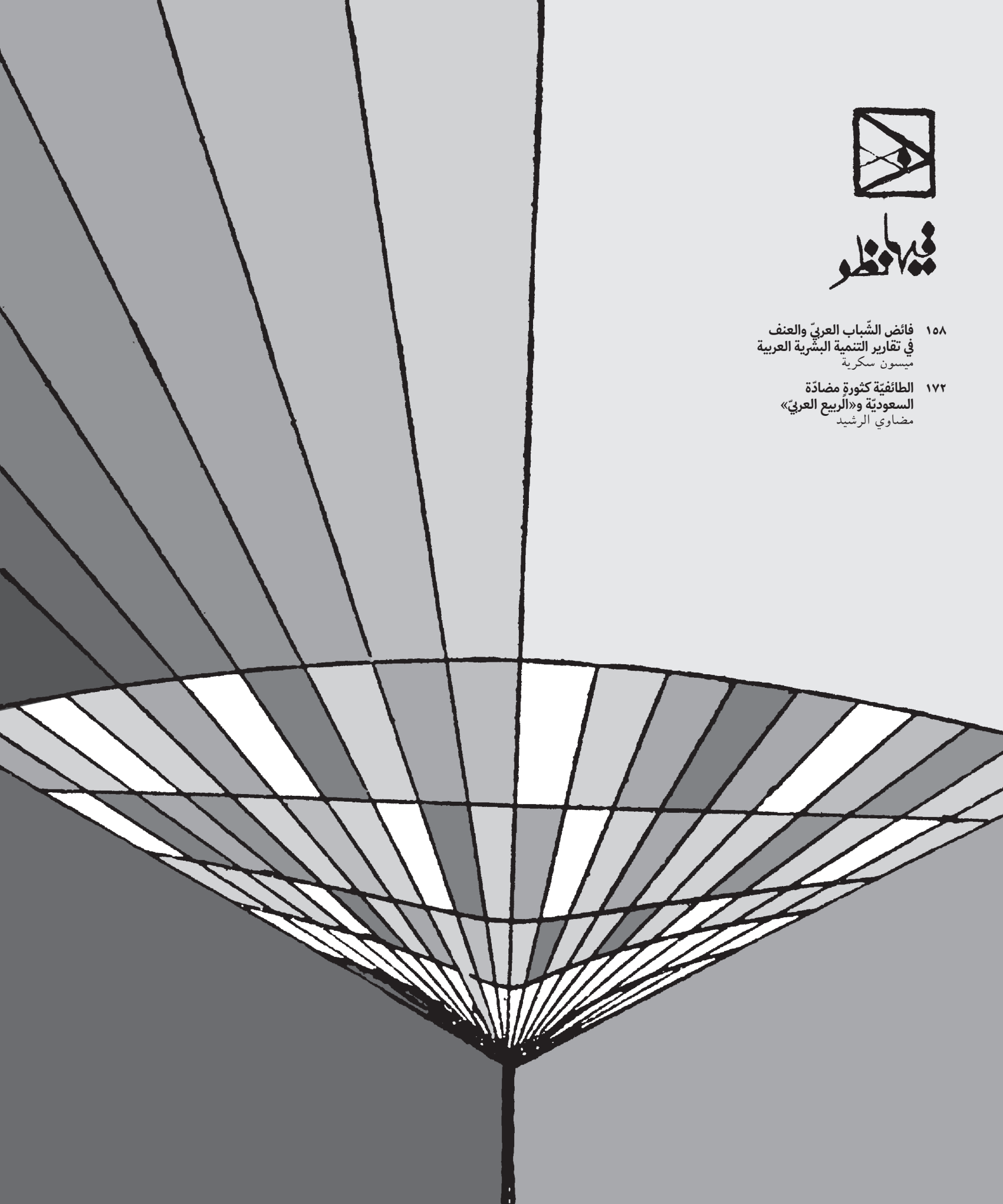

قيد النظر

١٥٨ **فائض الشّباب العربيّ والعنف في تقارير التنمية البشرية العربية**
ميسون سكرية

١٧٢ **الطائفيّة كثورةٍ مضادّة السعوديّة و«الربيع العربيّ»**
مضاوي الرشيد

فائض الشّباب العربيّ والعنف
في تقارير التنمية البشرية العربية

ميسون سكرية

أستاذة جامعية، لبنان، تدرس مادة الانثروبولوجيا في كلية كينغز كولدج، لندن. ترجمة يزن الحاج.

في تشرين الثاني/ نوفمبر، صدر تقرير التنمية البشرية العربية لعام ٢٠١٦ أخيراً بعد انتظار طويل، وبعنوانه الفرعيّ «الشباب في المنطقة العربيّة: آفاق التنمية الإنسانيّة في واقعٍ متغيّر». وكان أوّل تقرير تنمية إنسانيّة عربيّة يركّز حصريّاً على مسألة الشباب في المنطقة، وعلاقة الشباب بالمشاركة المدنيّة، والتعليم، والعمل، والجندر، والصحّة، والحرب والنزاع، والحراك والهجرة. وبحسب صوفي دو كاين، مديرة المكتب الإقليميّ للدول العربيّة في برنامج الأمم المتّحدة الإنمائيّ، في تصديرها للتقرير: «بيّنت موجة الانتفاضات التي اجتاحت المنطقة العربيّة منذ عام ٢٠١١ أنّه لم يعد بوسعنا معاملة الشباب العربيّ في المنطقة على أنّهم عالة سلبيّة أو جيل ينتظر دوره».

وقد حظي التقرير بتغطيةٍ واسعة في وسائل الإعلام، لكن من دون انتقادات كبيرة. إذ صُدّر بكونه أوّل تقرير تنمية إنسانيّة عربيّة يركّز على الشباب، ما يعني الاعتراف بالأهميّة المحوريّة للشباب في المنطقة العربيّة. يركّز التقرير على الشباب كمنظارٍ للتحدّث عن الوضع الشاسع في العالم العربيّ اليوم. ويمثّل التقرير، وهو آخر ستّة تقارير تركّز على التّنمية البشرية في العالم العربيّ، استمراراً لتركيزٍ متنامٍ على الشباب في المنطقة خلال العقود الأخيرة. إذ كانَ ثمّة مجموعة تقارير مُكرَّسة للشباب العربيّ.

انطلاقاً من تقرير التنمية البشرية العربية ٢٠١٦، تتناول هذه المقالة نقديّاً صعود أنموذج الشباب العربيّ في سياسة التنمية في المنطقة وخطابها، ومغزاه من أجل صياغة السياسات بشأن التنمية في المنطقة، والتي لا تؤثّر على حيوات الشباب فقط بل على النّاس من جميع الأجيال في العالم العربيّ. وتحاجج الورقة بأنّ التقرير يجسّد أنموذج الشباب العربيّ الذي تنامى تأثيره في تأطير خطاب التنمية والأمن في المنطقة. ومع أنّ هناك تفاصيل معتادة في التقرير، إلّا أنّ ثمّة تطوّرات مرتبطة بهذا السياق: مراجعة تاريخيّة تحمّل الشباب العربيّ المسؤوليّة عن الربيع العربيّ، والربيع العربيّ المسؤوليّة عن الشتاء العربيّ الذي أعقبه، ونزعةً جديدةً لا تكتفي بإظهار مواطن عجز الشباب العربيّ بوصفها تهديداً للأمن الإقليميّ والعالميّ فحسب، بل لقدرات الشّباب العربيّ وفوائضه كذلك.

موضعة تقارير التنمية البشرية العربية

بدأ إصدار تقارير التنمية البشرية العربية منذ عام ٢٠٠٢، حيث وصل عددها إلى ستة تقارير خلال الخمسة عشر عاماً الماضية، فيما كرّس التقرير الأخير للشباب. هذه التقارير تفرّعات إقليميّة من تقارير التنمية الإنسانيّة العالميّة التي أصدرها برنامج الأمم المتّحدة الإنمائي منذ عام ١٩٩٠. صدر تقرير التنمية البشرية الأوّل بتكليفٍ مباشر من حكومة الولايات المتّحدة ضمن سياق الحرب على الإرهاب. وتلقّى التقرير تغطيةً صحافيّةً واسعةً، مع تنزيل أكثر من مليون نسخة عن الإنترنت. ووفقاً لمجلّة تايم، كان التّقرير أهمّ إصدارات العام (AHDR ٢٠٠٣: ٣). واستُخدم كمنصّةٍ للتدخّل الدوليّ في المنطقة، كما اقتُبس بزخم على لسان قادة ومسؤولين أميركيّين ومن الاتحاد الأوروبيّ لشرعنة ودعم البرامج والإصلاحات المتنوّعة في السياسة التي كانوا يرعونها في أرجاء العالم العربيّ. وعلى سبيل المثال، اقتبس كولن باول، في خطابه عام ٢٠٠٢ لإطلاق «مبادرة الشّراكة في الشّرق الأوسط» MEPI التابعة لوزارة الخارجيّة الأميركيّة، من التقرير قائلاً: «تلك ليست كلماتي. إنّها كلمات صادرة عن خبراء عرب أمعنوا النّظر في هذه القضايا» (يعقوبيان، ٢٠٠٥). وبذلك، وهكذا فالتقارير، منذ البداية، مُسيَّسةٌ ومُؤدلجةٌ بدرجةٍ كبيرة.

دور المثقفين العرب في التقارير

ومنذ إصدار تقرير التنمية البشرية العربية الأوّل عام ٢٠٠٢، صدرت خمسة تقارير أخرى يركّزَ كلٌّ منها على موضوع مختلف يخصّ القضايا الإنمائيّة: المعرفة (٢٠٠٣)، الحرّيّة (٢٠٠٤)، الجندر (٢٠٠٥)، والأمن الإنسانيّ (٢٠٠٩). وكان برنامج الأمم المتّحدة الإنمائيّ يكلّف مثقّفين عرباً بارزين لتحرير التّقرير وكتابة فصول خاصّة فيه. وعادةً ما يترافق إصدار كلّ تقرير مع حملات إعلاميّة ضخمة. كما يُحمَّل كلٌّ منها أكثر من مليون مرّة عن الإنترنت، تبعاً للأمم المتّحدة، كما تُقتبَس وتُستخدَم التقارير بكثافة من جانب نخب سياسيّة عربيّة وغربيّة، علاوةً على أكاديميّين يعملون في المنطقة العربيّة. وكان الاستشهاد بهذه التقارير من جانب سلطات نيو-كولونياليّة علاوةً على نخب نيوليبراليّة يضعها في بؤرة الاهتمام الشعبيّ والسياسيّ أكثر من أيّ تقارير تنمية بشرية أخرى تصدرها الأمم المتّحدة. وبهذا، فإنّ تقارير التنمية البشرية العربية ليست تقارير عابرة لا يقرؤها أحد، بل هي في مركز التّكوين السياسيّ للمعرفة في المنطقة العربيّة وعنها. وهذا لا يعني الادّعاء بأنّ تقارير التنمية ذات تأثير مستقلّ وحرّ على صناعة السياسة في المنطقة؛ الأحرى، أنّ إنتاجها واستخدامها، على حدٍّ سواء، يُصاغان بفعل أجندات سياسيّة وأيديولوجيّة في العالم العربيّ منذ انطلاق الحرب على الإرهاب.

يركز تقرير التنمية البشرية العربية على مجموعة نواقص مؤسساتية وثقافيةيقال إنها تفصل العالم العربي عن أية منطقة أخرى.

ساهم هذا الانتشار الواسع للتقارير بجعلها موضوعاً صغيراً ولكن متنامياً لمدرسةٍ نقديّةٍ من الأكاديميّين والناشطين على السّواء. والنقاط المحوريّة للانتقادات الموجَّهة للتّقارير هي:

- أولاً، معظم هذه التقارير تحلّل العالم العربيّ من خلال إطارٍ واسعٍ من الثقافويّة، حيث تكون الثقافة مركزيّةً وتكوينيّةً في تفسير انتفاء التنمية البشرية في المنطقة العربيّة (أبو لغد، ٢٠٠٩؛ سكرية، ٢٠١٢). وتُحيل معظم التّقارير إلى مجموعة قيم وممارسات «تقليديّة» ثابتة يُقال إنّها تتعارض مع ممارسات الحداثة وضغوط وقوى عالم متعولم. لكنّ هذه النّزعة تتجاهل المدى الذي تتمّ فيه إعادة تخيّل وإعادة ابتكار «التّقاليد» بحدّ ذاتها، بما هي جزء من العالم المعولم الحديث واستجابة له (لافيرن، ٢٠٠٤).
- ثانياً، يركّز تقرير التنمية البشرية العربية على مجموعة نواقص مؤسّساتيّة وثقافيّة يُقال إنّها تفصل العالم العربيّ عن أيّة منطقة أخرى وتدّعي أنّ هذه النواقص تُشكّل مركز تخلّفها الاجتماعيّ، والاقتصاديّ، والسياسيّ. ويُزعَم أنّ هذه النّواقص هي في المعرفة، والحرّيّة، والديمقراطيّة وتمكين المرأة. لكنّ الاستدعاء الكاسح للفجوات والنّواقص بين العالمين العربيّ والغربيّ يكرّس تنميطات استشراقيّة لا أساس لها في المنطقة. ويبقى نقد أبو لغد (٢٠٠٩) لتقرير التنمية البشرية العربية بكون الجندر فيه ثقافويّاً، إضافةً إلى اللوم الخاطئ للتّقاليد العربيّة المزعومة بشأن التفاوت الجندريّ، ذا صلةٍ وثيقةٍ بالفصل المُكرَّس للجندر في التقرير الحاليّ.
- ثالثاً، نلحظ في التقريرغياباً تامّاً للاهتمام بالتدخّلات الخارجيّة وبنقدها، أكانت من الولايات المتّحدة أم من قوى أخرى في الحقبة الحاليّة، أم من القوى الكولونياليّة خلال حقبة الكولونياليّة والامبريالية الأوروبيّتين.
- رابعاً، التقارير شديدة الارتباط بنموذجٍ أيديولوجيٍّ للتنمية النيوليبراليّة. وحين تُطرَح إصلاحاتٌ مقترحة، يروّج تقرير التنمية البشرية العربية لنيولبرلة للاقتصاد لتأمين حُكم ونموٍّ جيّدين:

> إنّ دور الدولة [في المنطقة العربيّة] يروّج، ويُكمّل، وينظّم أسواقاً للسّلع والخدمات وعوامل الإنتاج التي تكون مُقيَّدةً ومُقيِّدةً في آن واحد ... وتؤدّي الإخفاقات غير المُصحَّحة في السوق إلى نتاجاتٍ غير فعّالة. كما أنّ اعتبارات النموّ والعدالة على السواء تجعل من ترويج تنمية القطاع الخاصّ الديناميكيّ أولويّةً أساسيّةً في السيطرة الاقتصاديّة في البلدان العربيّة. (AHDR ٢٠٠٢، ١٢٣)

وثمّة نقطة مشتركة في جميع هذه التقارير وهي أنّها تبدو قد خضعت إلى تعديلٍ كبيرٍ بعد إدخال الفصول التي يكتبها أكاديميّون. فتقرير عام ٢٠٠٩ عن الأمن البشري عُدّل بقدرٍ كبير إلى درجة أنّ محرّر التقرير نفسه اعترض على الصيغة الأخيرة (كارنيغي، ٢٠٠٩). وفي التّقرير الأخير المُكرَّس للشباب العربيّ، كتب مؤلّفو الفصل المخصّص للجندر أنّهم «فوجئوا بالتّعديلات الأخيرة» لفصولهم، مدّعين أنّهم سمعوا أنّ «سفراء بلدان عديدة اشتركوا في تعديل التقرير» (العلي، علي ومارلر ٢٠١٦).

صعود أنموذج الشباب العربيّ

تقرير التنمية البشرية العربية ٢٠١٦ بحاجة إلى موضعة لا ضمن سياق تقارير التنمية البشرية العربية السابقة فحسب، بل على نحوٍ أعمّ ضمن سياق خطابٍ سياسيٍّ وأيديولوجيٍّ واسع ركّز، بل وساعد فعليّاً، على تكوين فكرة الشباب العربيّ وأهميّته المركزيّة في السجالات حيال سياسة المنطقة والتنمية. وكما لاحظتْ أبحاث دراسات الشباب، التصنيف والهويّة الاجتماعيّة للشباب ليسا عالميَّيْن، بل مالا إلى أن يكونا أكثر ارتباطاً بالبلدان الثريّة في نصف الكرة الشماليّ (سكرية وتنوك، ٢٠١٥). وحتى العقود القليلة الماضية، كان للتصنيف الاجتماعيّ للشباب صلة ضئيلة جداً بمعظم بلدان المنطقة العربيّة. أمّا التصنيفات الأخرى كالطّبقة والعائلة فكانت أكثر أهمّيّة، وفي ما يخصّ العمر، لم يُعطَ عمر الشباب والمراهقة أولويّةً كبرى. وبالتأكيد، كان من النادر رؤية اهتمام أكبر منصبٍّ على قضيّة الشباب في البرامج الإنمائيّة أو سجالات السياسة العامّة. وبالطّبع، كان ثمّة مصلحة حزبيّة سياسيّة في ضمّ أعضاء من الشباب، ولكن ليس على مستوى رسم السياسة الشبابيّة، ولم يُستخدَم الخطاب الشبابيّ في تغيير السياسات على مستوى الدّولة. لم يُشدَّد على الشباب كتصنيفٍ اجتماعيٍّ مميَّز في الدعوة إلى التّغيير، حتى داخل الأحزاب السياسيّة التي أولت اهتماماً للعمل مع الشباب (سكرية وتنوك، ٢٠١٥).

لم ينطلق خطاب الشباب مع ارتباطه بالتنمية والأمن إلا بعد هجمات الحادي عشر من أيلول وبعد تنفيذ الهجمات مباشرة. صدرت تقارير كثيرة تتحدث عن تضخم عدد الشباب وتهديده لأمن الولايات المتحدة الأميركية.

ولم يصبح الشباب في الواجهة في العالم العربيّ إلّا مع حلول التسعينيّات، مع صعود المجتمع المدنيّ كحلبة للتّغيير وصعود النيوليبراليّة بوجهٍ إنسانيّ. وقد حُرّض هذا الصعود بمعظمه بفعل موجة جديدة من القادة الذين ورثوا السلطة من والديهم: الملك عبد الله والملكة رانيا في الأردن، الملك محمّد السادس في المغرب، إضافةً إلى الشّيخ محمّد بن راشد آل مكتوم في دبيّ. الشباب يعني التّغيير، وما كان بحاجة إلى تغيير في العالم العربيّ هو استبدال الحكّام القديمين بأبنائهم الذين روّجوا لأنفسهم بكونهم شباباً وداعمين للتغيير الذي دُفعت من خلاله السياسات النيوليبراليّة (أوتاوي ودون، ٢٠٠٧؛ سكرية، ٢٠١٥).

وفي جميع الأحوال، لم ينطلق خطاب الشباب كما يُستخدَم الآن مع ارتباطه بالتّنمية والأمن إلّا بعد هجمات الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١. كان هذا نتاج ثلاثة تطوّرات مترابطة. أوّلاً، تمّ التناقل على نحو واسع بأنّ منفّذي الهجمات كانوا كلّهم من الشباب، شبابٍ متعلّمين من الطبقة الوسطى في العالم العربيّ. وبذلك كان ثمّة صلة تكرّست بين المخاوف الأمنيّة الغربيّة بشأن الإرهاب العربيّ والإسلاميّ من جهة، وأفعال وهويّات الشباب العربيّ من الجهة المقابلة. وبعد تنفيذ الهجمات مباشرةً، صدرت تقارير كثيرة تتحدّث عن تضخّم عدد الشباب وتهديده لأمن الولايات المتّحدة الأميركيّة، نكتفي بذكر بعضها على سبيل الإشارة: أصدر معهد بروكنغز تقريرين عن تضخّم أعداد الشباب، واستضافوا عدة ورشات تناقش الأعداد المتعاظمة للشباب في المنطقة. وبالمثل، يفسّر تقرير التنمية البشرية العربية ٢٠١٦ تركيزه على الشباب عبر الإشارة إلى أنّ ثمّة «موجةً»، «كتلة»، و«زخماً» ديمغرافيّاً «غير مسبوق» في العالم العربيّ تسبّبه حقيقة أنّ «الشباب بين عمري خمسة عشر وتسعة وعشرين يشكّلون قرابة ثلث سكّان المنطقة [العربيّة]، [بينما] لدينا ثلث آخر تحت سن الخامسة عشرة... ولم تشهد المنطقة من قبل مثل هذه النّسبة الكبيرة من الشباب؛ فالشباب بين عمرَيْ ١٥ - ٢٩ يشكّلون نحو ٣٠٪ من عدد السكّان، أو ما يقارب ١٠٥ ملايين نسمة... وقد خلق النموّ السكّانيّ السريع ضغوطاً هائلةً على المجتمعات وعلى كامل البنية التحتيّة للدّول العربيّة. والشباب، في الغالب، هم مَن يترجمون المشكلات الاجتماعيّة الأوسع إلى مزيجٍ متفجّر وراديكاليّ» (AHDR ٢٠١٦، ص ٢٢).

الخوف من الطفرة الشبابية

يعكس هذا الاقتباس نزعةً سائدةً في تقارير أخرى تعكس بدورها إحساساً بالقلق حيال الأعداد الكبيرة من الشباب في المنطقة العربيّة، والإحباط الاقتصاديّ والسياسيّ الذي يعيشونه؛ وتنتهي معظم هذه التقارير والخطابات بإحساسٍ بتهديدٍ يشير إلى أنّك إذا لم تتعامل مع هذا الجيل المُحبَط، فسندفع كلّنا الثّمن (سكرية، ٢٠١٢). وفي الواقع، فإنّ الطفرة الشبابيّة أحد أهمّ الطرق التي يُربَط بها الشباب العربيّ، أو الشباب في الجنوب عموماً، بمخاوف الأمن العالميّ: أي الفكرة القائلة إنّ بلداناً كثيرةً

من الجنوب العالميّ تضمّ عدداً غير متناسب وغير مسبوق تاريخيّاً من الشباب، وأنّ هذا التفاوت الديمغرافيّ قد يؤدّي في نهاية المطاف إلى مستويات متصاعدة من العنف، والنّزاع، والاضطراب السياسيّ إذا لم يُعالَج الأمر بفاعليّة. وهذا الخطاب عن الطفرة الشبابيّة استمرارٌ لخطابات سابقة داخل الجهاز الأمنيّ الأميركيّ الذي رأى أثناء الحرب الباردة أنّ عدد السكّان المتعاظم في الجنوب العالميّ قد يُفضي إلى فوضى سياسيّة واقتصاديّة، وبالتالي سيساعد على انتشار الشيوعيّة. والخطاب عن الطفرة الشبابيّة اليوم هو ذاته لكنّ الرّابط بات بين الطفرة الشبابيّة وانتشار الأصوليّة الإسلاميّة. وكانت نظريّة الطفرة الشبابيّة قد انتُقدت بسبب اعتمادها على ادّعاءات تنميطيّة لا أساس لها في الواقع عن الشباب - على الأخصّ الشباب الذّكور الملوّنين في الجنوب العالمي.

وعلى أيّة حال، وبرغم أهميّة هذه الانتقادات، إلّا أنّ نظريّة الطفرة الشبابيّة، على هذا النّحو أو ذاك، ليست خاصةً بالشباب في حدّ ذاتها.

- أولاً، ثمّة تنويع كبير في كيفيّة تعريف الطفرة الشبابيّة: فمنظّرو الطفرة الشبابيّة لا يكتفون باستخدام مجال من الأعمار من أجل تعريف الشباب، بل عادةً ما لا تُؤخذ هذه الشريحة العمريّة بالاعتبار إلّا وفقاً لعلاقتها بالسكّان العاملين البالغين، لا بالنّسبة إلى السكّان ككلّ. وبذلك يمكن استخدام «الطفرة الشبابيّة»، بل وغالباً ما تُستخدَم، كاختزال للإحالة إلى الشرائح السكّانيّة الفتيّة والمتزايدة على نحو أعمّ، ويمكن أن تشمل كلّ من هو تحت سنّ الثلاثين.

- ثانياً، وفي الغالب الأعمّ من الحالات، يتمّ التطرّق إلى مغزى الطفرة الشبابيّة في مدى ارتباطه بمشكلة الافتقار إلى الفرصة الاقتصاديّة. وفي هذه المواقف، يُحاجَج بأنّ الارتفاعات المتعاظمة للشباب (أو البنى العمريّة الفتيّة) يمكن أن تؤدّي أحياناً إلى اضطراب اجتماعيّ ونزاع سياسيّ، من دون أن يكون هذا بفعل سمات متأصّلة في الشباب بالضرورة، بل بفعل المنافسة على الموارد والفرص المحدودة. وفي الحقيقة، وفي سياقات أخرى، لوحظ أنّ الشرائح السكّانيّة الفتيّة الكبيرة «قد تشكّل نعمةً للاقتصاد» و«يمكنها فعليّاً تعزيز النموّ الاقتصاديّ، في حال إمكانيّة استيعاب الشباب في وظائف جديدة». وبالتّالي حاجج البعض بأنّ الطفرة الشبابيّة قد يكون «مكسباً ديمغرافيّاً» و«فرصةً» أو، على العكس، «قنبلةً ديمغرافيّة» أو «تحدّياً».

وما يتمحور حوله مفهوم الطفرة الشبابيّة فعليّاً هو مشكلة الفائض السكّانيّ في حقبة دولة ما بعد الرّفاه وما بعد التنمية الحاليّة. وخلال العقد الماضي، عاد عدد من العلماء الاجتماعيّين إلى فكرة ماركس بشأن «الفائض السكانيّ النسبيّ»، محاججين بأنّ إحدى السّمات المميّزة للرأسماليّة النيوليبراليّة العالميّة كانت ارتفاع أعداد النّاس الذين «يُعتبَرون غير لازمين بنيويّاً في اقتصاد تكثيف رأس المال»، والذين «يفتقرون إلى كونهم ذوي قيمة كعمّال ومستهلكين»، والذين «يتمّ إقصاؤهم من الأنظمة الاجتماعيّة والاقتصاديّة الجوهريّة في زمننا». وقد نوقشت هذه الفكرة بتنويعات كثيرة، كـ «فاقد بشريّ» (بومان، ٢٠٠٤)، «إذلال اجتماعيّ» (تايلر، ٢٠١٣)، «هامشيّة نامية» (واكانت، ٢٠٠١)، «حياة بلا أجور» (دينينغ، ٢٠١٠) و«إقصاءات» (ساسن، ٢٠١٦). وغالباً ما يُفسَّر هذا الانتقال في المجتمع الرأسماليّ نحو الإنتاج المتنامي لفوائض سكّانيّة كنتاج للتنحية التكنولوجيّة لقوّة العمل من الإنتاج الرأسماليّ، انتقال الرأسمال إلى قطاعات ذات متطلّبات قوّة عمل محدودة، وعولمة الرأسماليّة التي أفضت إلى إقصاء وسلب النّاس الذين كانوا يتمتّعون في ما مضى بسبل رزق بديلة، والارتداد النيوليبراليّ ضد نموذج دولة التنمية والرفاه الساعي نحو شملٍ اجتماعيّ واقتصاديّ تامّ، ولو متفاوتاً.

يؤمّن مفهوم الطفرة الشبابيّة للنّخب طريقةً مشروعةً سياسيّاً للتحدّث عن مشكلة الفوائض السكّانيّة، إذ يُحوّل الانتباه من التّعارضات الداخليّة في المجتمع الرأسماليّ العالميّ إلى تحدّيات خارجيّة ظاهريّة تنتج بفعل اجتماع معدّلات الخصوبة العالية، الإدارة السيّئة والتنمية المحدودة في بلدان ضمن الجنوب العالميّ. وما أنْ نسلّم بإمكانيّة استخدام الطفرة الشبابيّة كإطار بلاغيّ للتشديد على المخاوف بشأن الفائض السكّانيّ، سيصبح أسهل علينا فهم إحدى المفارقات الجوهريّة لسياسة التنمية الشبابيّة العالميّة أخيراً التي غالباً ما تنبّهَ إليها الباحثون: بالرّغم من القلق الجليّ حيال بطالة الشباب وإقصائهم الاقتصاديّ، ليس لدينا أدلّة كبيرة بشأن أيّ انتقال من الأجندات الإنمائيّة النيوليبراليّة التي عادةً ما تُربَط بإنتاج هذا الإقصاء والبطالة، أو من أيّ برامج إنمائيّة شعبيّة جديدة يمكن توقّع إمكانيّة معالجتها لهذه المشكلات. وإنّ هدف الدولة الأمنيّة ما بعد الرفاه، ما بعد التنمية، كما يحاجج هولزورث ولي وآخرون، ليس «إشراك جميع الطبقات الاجتماعيّة ضمن الدولة»، بل «إدارة التشظّي

الاجتماعيّ و«الهامشيّة المتطوّرة» لفائضٍ سكّانيٍّ عالميٍّ متنامٍ يُعتبَر «غير لازمٍ بنيويّاً» لتراكم رأس المال».

يخفق تقرير التنمية البشرية العربية في التمييز بوضوح بين النزاعات العنيفة في انتفاضات الربيع العربي والنزاعات المسلحة للثورة المضادة التي صعدت بقيادة النخبة. وبدلا من هذا، يخلط التقرير بين هذين النمطين من النزاعات. حيث يحمل الشباب المسؤولية عما حدث ويدعو إلى تدخلات لكبح إمكانية اندلاع أي نزاع عنيف مجددا.

الشاغل الأهمّ في أجندة الشباب، والسلام، والأمن العالميّة هو أنّ الشباب - على الأخصّ تلك الفوائض السكّانيّة من الشباب التي تجد نفسها مقصاةً عن الفرص الاقتصاديّة - في موقع خطر الرّدكلة والانجذاب إلى الأشكال العنيفة (وغيرها) من التطرّف. ويحذّر قرار مجلس الأمن رقم ٢٢٥٠ بأنّ «صعود الرّدكلة إلى مستوى العنف والتطرّف العنيف، بين الشباب على الأخصّ، يهدّد الاستقرار والتّنمية». ويدّعي تقرير التنمية البشرية العربية ٢٠١٦ أنّ «الرّدكلة العنيفة أصبحت مصدر قلقٍ خاص - بل سمةً محدِّدة - عبر أرجاء المنطقة العربيّة، بين الشباب على الأخص» حيث «أظهرت نفسها بطرق رهيبة وتسبَّبت بخطرٍ كبير على المجتمعات في المنطقة وأرجاء العالم». وإنّ المحرّض المباشر لهذا القلق هو «وجود خلفيّةٍ من المجنّدين الشباب في ... الدولة الإسلاميّة في العراق والشام ... وجماعات أخرى في مناطق النزاع والبلدان الأكثر استقرارًا خارج النزاع».

اللوم على القطاع العام

والاستجابة الأساسيّة لخطر ردكلة الشباب والتطرّف في هذه التقارير والمؤتمرات هي السعي نحو إشراك الشباب مباشرةً كـ«بناة سلام» بأنفسهم، حيث يضطلعون بواجب مجابهة التطرّف ومناهضة الردكلة على المستوى المحليّ، والوطنيّ، والعالميّ. وهنا، تتلاءم أجندة الشباب، والسلام، والأمن العالميّة بشدّة مع التأمين الأوسع للتنمية: إذ يُحاجَج بأنّ الاستجابات الضيّقة والتقليديّة للدولة على ردْكلة الشباب غالباً ما تكتفي بتناول «أعراض المشكلة بدلاً من معالجة العوامل التي تدفع إلى المشاركة في التطرّف العنيف»، وبذلك يمكن أن تسهم في «مفاقمة التوتّر، وتحريض دعم أكبر لأيديولوجيات العنف»، وستكون هناك، بالنتيجة، حاجةٌ إلى مقاربةٍ أكثر اتّساعاً ومشاركةً تُشرك الشباب «كحلفاء أساسيّين في بناء المرونة ضدّ التطرّف العنيف». والهدف الأكبر هو دفع الشباب - كلّ الشباب - إلى اعتناق «ثقافة سلام، وتسامح [و] حوار» ورؤية حيال «مجتمع عالميّ آمن» في المقام الأوّل، حيث لا سلام بلا تنمية.

وقد يبدو كلّ هذا شديد الجاذبيّة. كما أنّ من الأرجح أن تتمكّن هذه الأجندة من فتح المجال لعمل شبابيّ قيّم في بناء السلام. ومع هذا، من المهمّ إلقاء نظرةٍ نقديّةٍ قريبةٍ على ما يُقال ويُفعَل حقّاً باسم خطاب «الشباب كبناة سلام» الجديد هذا. أوّلاً، تتبنّى أجندة الشباب والسلام والأمن رؤيةً جوهرانيّةً عن السلام بكونه مرغوباً على نحوٍ بديهيٍّ غير إشكاليّ، حيث العنف والنزاع سيّئان وغير مرغوبين بالمطلق وبلا أدنى تحفّظات. وتميل التصريحات بشأن السعي نحو التزام الشباب العالميّ بـ«ثقافة سلام» إلى طرحها من دون تقييم. ومشكلة هذه المقاربة هي أنّها: «تتغاضى عن أنّ بعض النّزاعات قد تكون ضروريّةً كما... حين تتصارع الجماعات الاجتماعيّة من أجل المساواة والعدالة الاجتماعيّة... كما أنّ بعض الجماعات في المجتمعات المتأثّرة بالنّزاع قد تؤمن بشدّة بأنّها عاجزةٌ عن التفكير بالسلام قبل تحقّق «العدالة»».

كما يُخفق تقرير التنمية البشرية العربية ٢٠١٦، مثلاً، في التمييز بوضوح بين النّزاعات العنيفة في انتفاضات الربيع العربيّ التي جابهت الأنظمة التسلّطيّة على طول المنطقة العربيّة عام ٢٠١١، والنّزاعات المسلّحة للثّورة المضادّة التي صعدت بقيادة النخبة. وبدلاً من هذا، يخلط التقرير بين هذين النمطين من النّزاعات، حيث يحمّل الشباب المسؤوليّة عمّا حدث ويدعو إلى تدخّلات لكبح إمكانيّة اندلاع أيّ نزاع عنيف مجدداً. وضمن هذا السياق، يمكن اعتبار الدعوة التي يقدّمها تقرير التنمية البشرية العربية ٢٠١٦ من أجل «التعليم [الذي] يساعد الشّباب على تثمين قيمة السلام» و«برامج إعادة التوجيه التي تغرس قيمة التعايش السلميّ» في الشباب، إشكاليّةً وباعثة على القلق بشدّة. وبما أنّ هذه الدعوة تستند إلى ادّعاءات تحمّل الشباب العربيّ مسؤوليّة أكبر ممّا تحمّله لباقي الجماعات بشأن النّزاع العنيف في المنطقة، فإنّها تُخفق في معالجة العنف البنيويّ الإقليميّ والعالميّ، والتفاوت والظلم الذي يجعل إلزامات السلام مستحيلةً ضمن السياقات الحاليّة (بجاج وهانتزوسبولوس، ٢٠١٦)،

كما تسعى فعلياً نحو كبح أو إعادة توجيه أنواع التحدّيات المُواجِهة للوضع القائم السياسيّ والاقتصاديّ والتي انطلقت على نحوٍ مؤثّر في الربيع العربيّ.

ثانياً، قُدّمت ممارسة الشباب لـ«بناء السلام» بحدّ ذاتها، وبرغم التأكيد عليها بتكرار في أجندة الشباب، والسلام، والأمن العالميّة بكونها «بديهيّة» و«غير إشكاليّة»، بتعريفٍ ضبابيّ. وحين تُعرَّف، فإنّ نموذج بناء السلام المُروَّج له في أجندة الشباب، والسلام والأمن العالميّة يكون هو المقاربة الليبراليّة لبناء السلام المرتبطة بالأمم المتّحدة، والبنك الدوليّ، ومنظّمات التنمية الدوليّة منذ التسعينيّات. وتُكرّس هذه المقاربة أنّ «أرسخ أساس للسلام... هو ديمقراطيّة السوق»، وترى بناء السلام بكونها «تحوّل النماذج الغربيّة في التنظيم الاجتماعيّ، السياسيّ والاقتصاديّ إلى دول تمزّقها الحرب» وتُواصل «اللبرلة السياسيّة والاقتصاديّة». فعلى سبيل المثال، يدعو إعلان عمّان للمنتدى العالميّ للشباب والسلام والأمن الحكومات إلى «إفراد الأولويّة لفرص تشغيل الشباب وسياسات العمل الشاملة»، وتعليم الشباب «المهارات لتحقيق مطالب العمل»، والعمل مع القطاع الخاصّ «كشركاء في تشغيل الشباب وبرامج العمل الحرّ». ومع أنّ هذه النّقاط تبدو طرقاً واعدةً لمعالجة التهميش الاقتصاديّ والإقصاء للشباب عالميّاً، فإنّ الدعوة من جانب المنظّمات الدوليّة في الفترة الحاليّة لفتح فرص العمل أمام الشباب باتت مرتبطةً بشدّة بالمجموعة المعتادة من المطالب النيوليبراليّة بشأن الخصخصة، ورفع القيود عن السوق وتأمينات العمل للعمّال الأكبر سنّاً - وهي إصلاحات تؤثّر سلباً فعليّاً لا إيجاباً على الوضع الاقتصاديّ للشباب وغيرهم من العمّال على السواء. وهذا الرّبط واضح في تقرير التنمية البشرية العربية ٢٠١٦ الذي يضع اللوم على برامج تنمية الشباب في العالم العربيّ بسبب الحجم الكبير للقطاع العامّ، ويدعو إلى انتقال إلى توظيف أكثر في القطاع الخاصّ، وإزالة «القيود الضيّقة» والأنظمة الجمركيّة التي تمنع «الحركة [الحرّة] للبضائع والبشر ورأس المال» في المنطقة.

تعليم منسجم مع حاجات الأسواق

ثالثاً، وفي الوقت ذاته، ثمّة تنام أعمّ في الاهتمام بالشباب في الخطاب الإنمائيّ والسياسيّ الذي لم يقتصر فعله على المنطقة العربيّة بل كان عالميّاً بطبيعته. وبات الشباب كتصنيف اجتماعيّ، والهويّة والفاعليّة ذا حضور متزايد في الدوائر الإنمائيّة بطريقةٍ غير مسبوقة

RAW

من قبْل. وجزئيّاً، كان هذا أيضاً بفعل استشعار الطفرة الشبابيّة على امتداد الجنوب العالميّ. ولكن أيضاً، خلال العقدين الماضيين، بات الشباب على نحو متزايد في مركز الخطاب السياسيّ، ودوائر الحُكم، والإنمائيّ والإعلاميّ والشعبيّ في جميع أرجاء بلدان ومناطق العالم. كما بات الشباب على نحو متزايد شاغلاً أساسيّاً بالنسبة إلى الولايات المتّحدة في سياستها الخارجيّة.

ويُسهم صعود الخطاب الشبابيّ العالميّ في خدمة وظائف عديدة: يساعد في تحويل الانتباه من المشكلات في الاقتصاد إلى المشكلات لدى الشباب وفي المدارس، ينشر خطاب الافتقار إلى الشباب عبر تركيز الانتباه على ما نحتاج إلى إصلاحه في الشباب كي نُدخلهم إلى سوق العمل: مهارات دنيا، توقّعات عالية جدّاً بشأن الأجور والوظائف الفعليّة، والموقف البائس. وبالنتيجة، سيروّج لمحاجّات من أجل انخراط عمل أكبر في المنظومة التعليميّة ومحاجّات من أجل تخفيض مبالغ الخدمة الاجتماعيّة وتأمينات العمل للعمّال الأكبر سنّاً. كما يروّج لخطاب صراع أجيال. وبدلاً من التركيز على التّفاوتات والنّزاعات بين الأثرياء والفقراء، رأس المال وقوّة العمل، الشمال والجنوب العالميّين، ركّزت وسائل الإعلام والمعلّقون السياسيّون على توتّرات مزعومة بين المسنّين والشباب بكونها هي جذر الأزمة الاقتصاديّة (سكرية وتنوك، ٢٠١٥).

وحين نضع تقرير التنمية البشرية العربية ٢٠١٦ ضمن هذا السياق، سيكون بوسعنا إدراك كيف أنّه يجسّد مثالاً مشابهاً للحالات السابقة. إذ يُحثّ الشباب ومشاغل الشباب من أجل مواصلة الترويج لمزيد من البرامج الإنمائيّة النيوليبراليّة. وبمعزل عن الاهتمام بخطاب الطفرة الشبابيّة، ليس ثمّة محاولة لتقديم سياسات قد تعالج هذا الأمر على نحو جذري: برامج تشغيل شعبيّة، أو تخفيض القيود على الهجرة. بدلاً من هذا، تدعو الوثيقة الى أيديولوجيا نيوليبراليّة تتمحور حول التوظيف الذاتيّ وريادة الأعمال وتعزيز القطاع الخاصّ في جميع فقراتها. كما تلقي الوثيقة باللوم بشأن فشل التّنمية في البلدان العربيّة على قطاع عام يُزعَم أنّ حجمه أكبر من اللازم. ونجد أنّ الهجوم على القطاع العام مستمرّ حتى نهاية الوثيقة. ويُزعَم أنّ هيمنة القطاع العام هي السّبب في الافتقار إلى مشاريع قويّة والى ثقافة ريادة أعمال: إذ عمد القطاع العام إمّا إلى مزاحمة القطاع الخاصّ أو التّلاعب به أو إلى تزييف تحالفات غير تنافسيّة واحتكاريّة، مع استمراره في كبح تنمية منظومات متنوّعة من التمويل العام. وعلاوةً على ذلك، وعلى نحو يماثل تقارير أخرى عن بطالة الشباب، تُرى مشكلات البطالة بكونها كامنةً في وزارة التعليم التي تُخرّج طلّاباً لا يمتلكون مهارات العمل في الاقتصاد العالمي (AHDR، ٧٥).

وإذ تكمن المشكلات في النظام التعليميّ، ستكون الحلول كامنةً أيضاً في إصلاح النّظام التعليميّ نفسه. يتحدّث التّقرير عن محاولات جديدة من جانب الحكومات على طول منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لإصلاح المناهج الجامعيّة لمواجهة تحدّيات السوق الجديدة، وهنا مجدّداً يتحدّث التقرير عن «إعادة تنظيم المناهج الجامعيّة، التشديد على جودة التعليم العالي، وتوسيع برامج التدريب المهنيّ» (AHDR ٢٠١٦، ٧٦). وإلى جانب الإصلاحات في التعليم، يدعو التقرير إلى تغيير في سياسة العمل الجديدة لتسهيل انتقال الجيل الأصغر من المدرسة إلى العمل. ولا تقتصر التغييرات في السياسة على مجرّد تفعيل قوانين عمل أكثر عدالة فقط، بل - مجدّداً - تكون التغييرات تعليميّة بطبيعتها وتتضمّن أشياء مثل «الإرشاد المهنيّ وتحقيق الخدمات» و«دعم مهارات ريادة الأعمال ضمن صفوف الشباب» (AHDR ٢٠١٦، ٨٣). وفي كلّ هذا، ثمّة تفاصيل قليلة تفصل هذا التقرير عن تقارير التنمية الخاصّة بالبنك الدوليّ، أو مئات التقارير الأخرى التي تروّج لنموذج تنمية نيوليبراليّ بشأن الشباب. ويتوقّع المرء تغيّراً في النّبرة والسياسات أو بعض المراجعة على الأقلّ بعد الأزمة، لكنّ تقرير التنمية البشرية العربية ٢٠١٦ يقع، بدلاً من ذلك، على يمين تقرير البنك الدوليّ عن الشباب فيما يتعلّق بالحثّ على تبنّي سياسات نيوليبراليّة.

«الربيع العربيّ» والمراجعة التاريخيّة

مع أنّ قدراً كبيراً من تقرير التنمية البشرية العربية ٢٠١٦ مماثل لتقارير أخرى، ثمة مجالان يمكن لنا فيهما التقاط عدة تطوّرات جديدة ومهمة. أوّلها يتعلّق بموضعة التقرير ضمن سياق «الربيع العربيّ». التقرير واضح في أنّ أحداث «الربيع العربيّ» ونتائجها تقع في محور اهتمامه بل وفي تركيزه وصياغة خلاصاته. وفيه عدد من التفاصيل الخطابيّة الجوهريّة والإشكاليّة بقدر كبير. أولاً، يعتبر التقرير أنّ الربيع العربيّ ظاهرة يقودها الشباب (ص٧). وهذا ليس جديداً على نحو خاصّ: ففي الواقع، اعتُبر الربيع العربيّ ظاهرةً يقودها الشباب من جانب مراقبين غربيّين وعرب منذ البداية.

لكنْ، ومع أنّ الشباب كانوا مشاركين محوريّين بكلّ تأكيد، إلا أنّ جماعات وفاعلين اجتماعيّين كثيرين آخرين كانوا أيضاً في قلب انتفاضات الربيع العربيّ: لعبت جماعات الشباب دوراً في هذه الانتفاضات العالميّة كجزءٍ من طيفٍ واسع من منظّمات المجتمع المدنيّ. في الربيع العربيّ، ثمّة دور جوهريّ لعبتْه المنظّمات العمّاليّة، والحركات الفلّاحيّة، ومنظّمات الفقراء، والجمعيّات النسائيّة، والأحزاب السياسيّة، والحركات الإسلاميّة والدينيّة (ضاحي، ٢٠١٢؛ جويا وآخرون، ٢٠١٢؛ كوراني والمهدي، ٢٠١٢؛ سليمان، ٢٠١١). وتجاهلُ حضور وقيادة هذه الجماعات الأخرى سيُسهم في اقتراح مجموعة أضيق من الاستجابات (سكرية وتنوك، ٢٠١٥).

تحميل الشباب مسؤولية العنف

ثانياً، يخلط التقرير كذلك بين الربيع العربيّ ونتيجته. فما هو أدهى من اعتبار انتفاضات الربيع العربيّ ظاهرةً شبابيّةً في تقرير التنمية البشرية العربية ٢٠١٦، هو التعمية في التقرير على كلٍّ من الربيع العربيّ ونتائجه العنيفة في الغالب - تعمية تحمّل الشباب المسؤوليّة عن الربيع العربيّ علاوةً على الثورة المضادّة وما سُمّي الشتاء العربيّ الذي تبعه على حدٍّ سواء. ونجد هذه التعمية الثنائيّة منذ بداية التقرير، حين يفسّر المؤلّفون سبب تركيز التقرير على الشباب العربيّ حصراً (ص ٥).

يقصر تقرير التطرف على أيديولوجيا الحركات الإسلامية. ويرتبط تفكيك التطرف بشدة بتعليم السلام وتضمين الشباب داخل الوضع القائم.

وتحدث التعمية الثنائيّة مرةً أخرى، على نحوٍ أشدّ وضوحاً، في الخلاصة الأخيرة من التقرير أيضاً:

يدرس هذا التقرير المشكلات والتحدّيات التي تواجه الشباب في ضوء انتفاضات [الربيع العربيّ] الأخيرة... منذ عام ٢٠١١، شهدت عدّة بلدان في المنطقة انتفاضات، وعايشت المنطقة أسرع عمليّة توسّع للحرب والنّزاع العنيف من بين جميع المناطق في العالم خلال العقد الماضي... إقصاء الشباب منتشر في أرجاء المنطقة العربيّة... [و] وقد أشعل انتفاضات في بلدان عربيّة كثيرة نهاية عام ٢٠١٠ وبداية عام ٢٠١١، متسبّباً بانحدار بعضها إلى فوضى اجتماعيّة وسياسيّة وغموض اقتصاديّ شديد (ص ١٧٠).

والأمر الوحيد الذي يفعله هذا الكلام هو إعادة تأطير الربيع العربيّ بحدّ ذاته. ثمّة سيرورة من المراجعة التاريخيّة للربيع العربيّ ولدور الشباب أيضاً. فبعد الاحتفاء به بكونه ربيعاً كان الشباب مصدره، بات يُعاد تغليف الربيع العربيّ بكونه شتاءً عربيّاً. وبدلاً من أن يُرى إلى الربيع العربيّ بكونه مصدراً للأمل، والديمقراطيّة والتّغيير، أعيد تأطيره كمصدرٍ للعنف وكحدث تسبَّب بالاضطراب في المنطقة. ويتسبّب هذا التصوير الإسقاطيّ لتطوّر الربيع العربيّ بتسطيح تحليل الحركات الاجتماعيّة والانتفاضات ويصم أيّ تحدٍّ للمنظومة بكونه سيّئاً وخطراً. وعلاوةً على ذلك، يُقدَّم النّزاع بكونه خطراً لأنّه يُفضي إلى ما أنتجه الربيع العربيّ: العنف والحرب الأهليّة.

يؤدّي هذا الافتقار إلى التمييز بين الأشكال المشروعة للاحتجاجات إلى الخلاصة التي تقول إنّ على التّغيير أن يحدث دوماً داخل المنظومة، وعلى أن يكون مُسيطَراً عليه من النّخبة لتجنّب العنف. وفي الواقع، فإنّ الطريقة التي يُعرّف بها التقرير الراديكاليّة تعكس هذا التحليل. يُعرّف تقرير التنمية البشرية العربية ٢٠١٦ الرَّدكلة [التطرّف العنيف] بأنّها «عمليّة يجري فيها تبنّي فردٍ أو مجموعةٍ أفكاراً أو طموحات سياسيّة أو اجتماعيّة أو دينيّة متزايدةً التطرّف ترفض أو تقوّض الوضع الراهن، أو أفكاراً أو تعبيراتٍ أو مؤسّسات سائدة» (ص ٣٦). وتُرى الرّدكلة بكونها مدفوعةً بسبب ديموغرافيّ بفعل وجود طفرة شبابيّة: «فالمنطقة العربيّة اليوم أكثر سكّاناً وذات متوسّط عمر أصغر من أيّ وقتٍ مضى على حدٍّ سواء، ما يعني ببساطة أنّ ثمّة مخزوناً من الشباب يمكن تجنيدهم أكبر من ذي قبل» (ص ٣٨). ويَقْصر تقرير التنمية البشرية العربية ٢٠١٦، كما تقارير التنمية البشرية العربية السابقة، التطرّف على أيديولوجيا الحركات الإسلاميّة. ويرتبط تفكيك التطرّف بشدّة بتعليم السّلام وتضمين الشباب داخل الوضع القائم. ومن الواضح أنّ ثمّة قُصوراً في التسامح والتقدّم، يُوصَف بأنّه معيق للديمقراطيّة: «هذا القصور الإقليميّ الواسع والافتقار إلى التقدّم في قيم التسامح مقلقان بشأن مستقبل الديمقراطيّة في المنطقة» (ص ٧٠).

كما أنّ قسم التوصيات في تقرير التنمية البشرية العربية ٢٠١٦، مثلاً، «يشدّد على الدور المحوريّ لمهمّة بناء السّلام في معالجة الظّروف والعوامل التي تُفضي إلى تفاقم الرّدكلة إلى العنف والتطرّف العنيف بين الشباب،

ما قد يساعد على خلق الإرهاب، وذلك عبر اشتمالها في نصائحها وتوصياتها من أجل بناء السلام على طرق استراتيجيّة لإدخال الشباب على نحو فعّال خلال وأثناء عواقب النزاع المسلّح» كما يشجّع [التقرير] على تعزيز تعليم من أجل السلام.

وعلاوةً على ذلك، فإنّ اعتبار الربيع العربيّ ظاهرةً شبابيّةً وبالتالي إلقاء اللوم على الشباب بشأن العنف الناتج سيُفضي إلى محوٍ تامّ لمسؤوليّة الفاعلين الآخرين: مسبّبي الثورة المضادّة في المجتمع، بمن فيهم الأنظمة القديمة، والنّخَب وطبقة رجال الأعمال، والفاعلين الإقليميّين والعالميّين على السّواء. وبدلاً من رؤية الانتفاضة بكونها عمليّة انطلقت بسبب مظالم مشروعة بفعل المشكلات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة في المنطقة، تُرى التطوّرات الأخيرة نتيجةً للبداية السّيّئة التي بدأها الشباب في الربيع العربيّ. كما أنّ تحليل الانتفاضة كعمليّة مُقسّمة سيفتح الطريق أمام فهم التحدّيات التي أغلقت الطريق أمام التغيير الحقيقيّ. فمصادر هذه التحدّيات متنوّعة، نشأت من: أوّلاً، الأنظمة القديمة التي نظّمت تظاهرات مضادّة في جميع الساحات كان الشباب هم الشريحة الأكبر فيها أيضاً، من مبارك إلى الأسد، إلى صالح. ثانياً، طبقة رجال الأعمال التي استفادت من السياسات النيوليبراليّة. ثالثاً، الفاعلون الإقليميّون مثل المملكة العربيّة السعوديّة وقطر في مصر، إيران علاوةً على دول الخليج في سورية واليمن.

رابعاً وأخيراً، الفاعلون العالميّون، مثل الولايات المتّحدة الأميركيّة، والاتّحاد الأوروبيّ علاوةً على اللاعب الجديد في السياسة العالميّة، روسيا، كما حدث في سورية (الرشيد، ٢٠١١؛ كامرافا، ٢٠١٢؛ نويهض ووارن، ٢٠١٢).

تحويل المشاغل من النواقص إلى الفوائض

ثمّة مجال ثانٍ قد يحمل تطوّرات جديدة في تقرير التنمية البشرية العربية ٢٠١٦. خلال العقود القليلة الماضية، كان إطار العمل المعتمد في مناقشة كلٍّ من الشباب والمنطقة العربيّة هو اعتبار أنّ سبب المشكلات الاجتماعيّة والسياسيّة نابعٌ من وجود قصور ما: افتقار إلى التعليم، تخلّف ثقافيّ، افتقار إلى التحديث، افتقار إلى الاندماج مع باقي الاقتصاد العالميّ. وتُقدَّم المنطقة بكونها متخلّفةً عن باقي أنحاء العالم، في جميع المجالات - الاقتصاد، المجتمع، الثقافة (طرابلسي، ٢٠١٢؛ سكرية، ٢٠١٢).

وقد كان هذا هو الإطار الأساسيّ لتقرير التنمية البشرية العربية السابق، مع تركيزٍ مكثّف على الفجوات، ومواطن النقص والقصور بين العالَمَين العربيّ والغربيّ حيث يرسّخ تنميطات استشراقيّة لا أساس لها عن المنطقة (أبو لغد، ٢٠٠٩؛ طرابلسي، ٢٠١٢؛ سكرية، ٢٠١٢). ويكمن هذا التّمثيل في قلب الأيديولوجيا الثقافويّة التي يمكن اقتفاء جذورها في حقبة الكولونياليّة الأوروبيّة التي كانت فيها نظريّة الاختلاف الثقافيّ بين المحتلّين والخاضعين للاحتلال إضافةً إلى الافتقار والتخلّف الثقافيّ لمن هم تحت الاحتلال تُشرعن الحكم الكولونياليّ. كما أنّه إطارٌ يُوصَف من خلاله المجتمع والاقتصاد العربيّ في تقرير التنمية البشرية العربية الحاليّ. توصَف المنطقة على طول التقرير بـ:الزواج المبكّر، المجتمعات البطريركيّة، قواعد السلوك، والممارسات الثقافيّة، الافتقار إلى التنبّه والإرشاد، ندرة النّساء في مواقع القيادة في الوزارات وهيئات صنع القرار الأخرى، الافتقار إلى الثّقة (ص ٦١)، انعدام السيطرة على حيواتهنّ (ص ٦٤)، الافتقار إلى فرص العمل (ص ٢٤)، الافتقار إلى الفرص الاقتصاديّة (ص ٩٧)، الافتقار إلى الوعي، الافتقار إلى الوظائف، الافتقار إلى التسامح (ص ٦٧)، الافتقار إلى تقبّل الاختلاف الدينيّ (ص ٦٧)، الافتقار إلى المرونة في النظام التعليميّ، الافتقار إلى الاستثمارات الخاصّة، الافتقار إلى الاستيعاب الشامل داخل النظام التعليميّ (ص ٧٥)، الافتقار إلى الاستقرار لتعزيز المشاريع الصغيرة والمتوسّطة (ص ٨١)، كما أنّ المنطقة متخلّفة عن معظم أنحاء العالم في ما يخصّ التكنولوجيا: «مع أنّ حريّة الوصول إلى المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات في المنطقة متخلّفة عن المعدّل العالميّ في حقول عديدة، إلّا أنّ ثمّة تقدّماً ملحوظاً» (ص ٦٠). كما تسجّل مستوىً أدنى من المعدّل العالميّ في مؤشّرات التنمية الإنسانيّة وتتخلّف أساساً عن ثلاثٍ من مناطق العالم الستّ (ص ٢٤)، وفي النظام التعليميّ «في التعليم، تتأخّر البلدان العربيّة في الإنجاز بالتناسب مع أدائها في السعي نحوه» (ص ٨٤)، وهذا التخلّف في «الدّخل، والاقتصادات المُتحكَّم بها عبر رعاية الدّولة، والمحسوبيّة والافتقار إلى التعبير السياسيّ»، يُنظر إليه بكونه سبباً لهجرة الشباب من المنطقة. ووفقاً لخوري: «حظي التقرير بانتشار هائل لعدّة أسابيع، ويعود هذا بقدرٍ كبير إلى بعض الأشكال الإنفوغرافيّة الدراماتيكيّة التي أظهَرت كيف أنّ العرب الذين يشكّلون نسبة ٥٪ من سكّان العالم مسؤولون عن ٤٥٪ من الهجمات الإرهابيّة العالميّة، ونسبة ٥٧٪ من اللاجئين، و٦٨٪ من حالات الموت

مخيم
شباب
مديرية خولان
لأسقاط النظام

التي تسبّبها المعارك، و١٧.٦٪ من النّزاعات، و٤٧٪ من المُهجّرين داخليّاً» (خوري ٢٠١٧).

على أيّة حال، حين يأتي ذكر الشباب في التقرير، يتمّ اعتبار أنّ مشكلات الشباب العربيّ والمشكلات المتعلّقة به ليست بسبب القُصور بل بسبب الفائض. أوّلاً، يُحال إلى الشباب العربيّ على نحو متكرّر بكونهم الجيل الأكثر تعليماً في المنطقة. يبدأ تقرير التنمية البشرية العربية بالزّعم بأنّ الجيل الجديد من الشباب «أكثر تعليماً، وفاعليّةً، واتّصالاً بالعالم الخارجيّ، وبذلك هو يمتلك وعياً أكبر بواقعه وتطلّعات أكبر نحو مستقبل أفضل» (ص٨). ثانياً، يُحال إلى الشباب العربيّ على نحو متكرّر بأنّهم شديدو الاطّلاع على الإنترنت، وواعون تكنولوجيّاً وفاعلون على وسائل التواصل الاجتماعي، ومرتبطون بقوّة على طول المنطقة وبباقي العالم أيضاً: «شباب المنطقة اليوم أكثر مدنيّةً، أكثر اطّلاعاً على الإنترنت واتّصالاً بالمعرفة العالميّة والمعلومات مقارنةً بالأجيال السابقة» (ص ١٧٦). وارتباط الشباب بالعالم المتعولم فيما هم يعيشون في «بيئة نابذة» خلق فضاءً تحرّريّاً يمكنهم من خلاله التعبير عن أنفسهم بحريّة، وتبادل الأفكار، وتقديم اعتراضات، و«إسماع آرائهم وتحدّي بُنى السلطة، ما يؤدّي إلى تحوّلهم من أعضاء منفعلين في المجتمع إلى أفراد فاعلين، وواعين ذاتيّاً، ومدفوعين إلى الإصلاح».

ثالثاً، وعلى نحو أعمّ، يُحال إلى الشباب العربيّ بكونهم شديدي الوعي، والطموح، وذوي مستويات توقّعات عالية (ص ٢٤).

وتُقدَّم هذه النّقاط بكونها مشكلة يمكن أن تتسبّب باضطراب وفوضى اجتماعيّة وسياسيّة، ما يجعل الاقتصادات العربيّة والبنى السياسيّة عاجزةً عن توليد ما يكفي من الفرص لجميع الشباب في المنطقة. ومَواطن «النّقص» و«القصور» هذه التي تسم جميع مظاهر الحياة في العالم العربيّ كما يردُ في تقرير التنمية البشرية العربية الحاليّ وما سبقه من تقارير، إلى جانب جيل جديد من الشباب أكثر اتّصالاً، وأعلى تعليماً، متمدّناً وواعياً، تُرى بكونها مسبّباً لعدم الاستقرار والاضطراب، وكتهديد للمنظومة. وجميع الاقتباسات السابقة تُتبَع بتحذيرات بأنّ هذا «الوعي» و«التعليم العالي» و«الاتصال» الذي يميّز الشباب العربيّ سيؤدّي إلى عدم الاستقرار بالنتيجة. وفي الواقع، وبعد كلّ إحالة إلى مظاهر إيجابيّة أو فائضٍ ما يتعلّق بالشباب في المنطقة، نجد «ومع ذلك» أو «ولكن» تنتهي بإحالةٍ إلى الربيع العربيّ وعواقبه (AHDR ٢٠١٦، ١٧٠).

وهذه المجموعات الكبيرة من الشباب العربيّ من المتعلّمين، المتمدّنين، التواصليّين، والواعين يعيشون في منطقة متخلّفة على جميع المستويات، ما يؤدّي بهم إلى فقدان الأمل وإقصائهم من سوق العمل، ومن دوائر صنع القرار، ومن مظاهر أخرى من الحياة الاجتماعيّة، والاقتصاديّة والسياسيّة، ويصبحون بالتّالي تهديداً أمنيّاً، تُفضي إلى نمط بعينه من الحلول. الحلّ والاستجابة لهذه النّقاط معتادة: المطالبات القديمة ذاتها بالخصخصة، وإشراك القطاع الخاصّ، وارتباطات أكثر للنّظام التعليميّ بسوق العمل، خصخصة وريادة أعمال ومشاريع صغيرة ومتوسّطة أكثر.

أمّا الجديد والمثير للاهتمام في هذا التقرير فهو اللوم المتواصل الموجّه للقطاع العامّ الذي يؤمّن وظائف أفضل، وأماناً أكبر، وأجوراً أعلى، ولكنّه يُصوَّر بكونه عقبةً أمام التوظّف في القطاع الخاصّ. فعلى سبيل المثال، لا تتوفّر الأعمال بسرعة تكفي لتوظيف هذا العدد الهائل من الشباب في المنطقة. أمّا الاعتماد المفرط على القطاع العامّ من أجل تأمين الوظائف على حساب القطاع الخاصّ، والافتقار إلى تمويل للأعمال، وحريّة الوصول الضئيلة إلى الأسواق الخارجيّة، والسياسات الاقتصاديّة المُضلِّلة، فقد تسبّبَ بقطاع خاصّ ضعيف لا يؤمّن عدداً كافياً من الوظائف (AHDR، ٧١).

لكن ليس ثمّة إشارات كبيرة بشأن الكيفيّة التي ستعالج فيها هذه السياساتُ التحدّياتِ المذكورة. وكذلك، ثمّة إدراك ضئيل للكيفيّة التي ستتمكّن بعض أكثر النبرات مثاليّةً في هذا التقرير - إشراك وتوظيف الشباب وما إلى ذلك - من التلاؤم مع مواصلة اتّباع النّماذج الإنمائيّة النيوليبراليّة. لكنّ الحقيقة هي أنّ مستويات التعليم العالية، والاندماج التكنولوجيّ والطموح التي تشكّل الآن تحدّياً شبابيّاً أساسيّاً تطرح أحد أهمّ الأسئلة في المنطقة العربيّة، بل الجنوب العالميّ، خلال العقد القادم: كيف ستُعالَج هذه التحدّيات بفاعليّة؟ وما المغزى الأخير الذي يشكّله هذا الانتقال من انشغالٍ بمواطن قصور الشباب إلى ادّعاءات بوجود حالاتٍ فائض شبابيّة بالنسبة إلى المنطقة العربيّة بل وأبعد منها؟

خُلاصة

شهد العقد الماضي صعود خطابات مختلفة بشأن الشباب في العالم العربيّ، من الحرب على الإرهاب والخطاب القائل إنّ الشباب إرهابيّون، إلى الربيع العربيّ

واعتبارهم ثوريّين، إلى الحقبة الحاليّة حين يُصوَّرون في التقرير بأنّهم مسؤولون عن عواقب الربيع العربيّ، أي الحرب الأهليّة. وما هو موجود في هذه التكوينات المختلفة للشباب العربيّ طوال العقد الماضي هي حقيقة أنّ الشباب شكّلوا مجازاً تُقدَّم من خلاله مصالح النّخب. وبهذا المعنى، فإنّ التقرير المتعلّق بالشباب والذي تركّز عليه هذه الورقة، هو التقرير الأخير ضمن سلسلة تمتلك البنية ذاتها: الشباب تهديد، لذا شجّعوا على سياسات نيوليبراليّة أكثر. وما يعكسه التقرير الأخير هو صلةٌ متزايدة بين الأمن والشباب في المنطقة العربيّة، وما يعكسه أيضاً هو أنّ محاربة التطرّف مقصورةٌ على بناء السلام، وانتشار أيديولوجيا سلام بلا عدالة. وبعد إلقاء اللوم على نظام التعليم التقليديّ وارتباط الشباب بعُرفٍ مستمرّ وبسعي إلى وظائف في القطاع العامّ، تقتصر الحلول في التقرير الحاليّ، كما في التقارير السابقة، على تعليم الشباب، وتزويدهم بمهارات تؤهّلهم للدّخول في اقتصاد السوق، ما يسهم في تعزيز الثّقافة العربيّة والمجتمع العربيّ ليتوافقا مع الإصلاحات النيوليبراليّة السياسيّة والاقتصاديّة. وفي التقارير السابقة، كان يُوجَّه اللوم إلى الثقافة العربيّة لكونها تقبع متأخّرةً في الخلف، وبذا كان الخطاب يتمحور حول تغيير الثقافة العربيّة، بينما كان تركيز تقرير عام ٢٠١٦ على الشباب، ولذا كان الخطاب متمحوراً حول تغيير هؤلاء الشباب، وتحديثهم، وتزويدهم بمهارات جديدة، ومساعدتهم على التمرّد على العُرف العربيّ الذي ما يزالون مرتبطين به بقوّة، كي يساعدوا أنفسهم ويساعدوا العالم العربيّ على المضيّ في طريق التنمية الإنسانيّة. وإنْ كانت العقبات أمام التنمية قد عُبّر عنها في تقارير مختلفة بكونها متعلّقة بالثّقافة والمواقف، والارتباط بعُرف تقليديّ، والافتقار إلى أخلاقيّات العمل، ومقاومة التغيير، فإنّ العقبات في التقرير الأخير مُعبَّر عنها بوضوح بكونها إخفاق النّظام التعليميّ في تحضير الشباب من أجل العمل في السوق العالميّة. وكما كانت عليه الحال في التقارير السابقة، سيؤدّي هذا التّحليل لمشكلات العالم العربيّ إلى حلول من غير المرجّح أنّها ستتمكّن من المعالجة الفعّالة للظلم الاجتماعيّ أو التفاوت الاقتصاديّ، إذا كانت العوامل المُحدِّدة الحقيقيّة لهذه المشكلات ستُتجاهَل أو تُنسى.

وربّما حان الوقت من أجل كسر هذا القيد، والعمل باتّجاه دراسات أكثر نقديّة حول الشباب تأخذ بالاعتبار محنة الشباب في المنطقة، والدفع من أجل إيجاد سياسات تسعى نحو العدالة الاجتماعيّة، والمساواة، وإعادة توزيع الموارد، سياسات لن يقتصر نفعها على الشباب وحدهم بل لجميع مَنْ في المنطقة. وربّما حان الوقت من أجل نبذ التطرّف والدعوة إلى تغييرات بنيويّة ستخلق عالماً أكثر عدالةً للشباب وللجميع.

المراجع

Abu Lughod, Lila. (2009). «Engaging the Arab Human Development Report on Women». *International Journal of Middle East Studies,* 2009

Al-Rasheed, M. (2011). «Sectarianism as Counter-Revolution: Saudi Responses to the Arab Spring». *Studies in Ethnicity and Nationalism*, 11(3), 513-526

Kamrava, M. (2012). «The Arab Spring and the Saudi-led counterrevolution». *Orbis*, 56(1), 96-104

Al-ali, Nadje; Ali Zahra & Isabel Marler (2016). «Reflections on Authoring the Chapter of Young Women for 2016 Arab Human Development Report on Youth». Available online at: http://www.jadaliyya.com/pages/index/25627/reflections-on-authoring-the-chapter-on-young-wome. Accessed, March, 13, 2017

Jafari, Safa (2016). «Youth as shapers of development in the region». Available online at: https://www.aub.edu.lb/news/2016/Pages/undp-ahdr.aspx. Accessed, April 1, 2017

Nader, L. (1990a). *Harmony ideology: Justice and control in a Zapotec mountain village*. Stanford: Stanford University Press

Nader, L. (1996). «Coercive Harmony: The Political Economy of Legal Models: Essays on Controlling Processes». *Kroeber Anthropological Society Papers*. Number 80

Nader, L. (1997). Controlling Processes: Tracing the Dynamic Components of Power. Current Anthropology 38(5): 711-735

Noueihed, L., & Warren, A. (2012). *The battle for the Arab Spring: Revolution, counter-revolution and the making of a new era*. Yale University Press

Ottaway, Marina& Michelle Dunne (2007). *Incumbent Regimes and the «King's Dilemma» in the Arab World: Promise and Threat of Managed Reform*. Available online at: http://carnegieendowment.org/files/cp88_ruling_parties_final1.pdf Accessed on January 12, 2017

Sukarieh, M. (2012) «From Terrorists to Revolutionaries: Representations of Arab Youth from 9/11 to the Arab Spring.» *Interface Journal* 4(2): 34-50

Sukarieh, M. (2012) «The Hope Crusades, Harmony Ideology and Reform in the Arab World». *Political and Legal Anthropology Review* (PoLAR) 35 (1): 115-134 (Hope Crusades was featured in the summer 2015 as 7 of the groundbreaking works in Legal Political Anthropology, reposted with a new postscript)

Sukarieh, M. and Tannock, S. (2011) «The Positivity Imperative: A Critical Look at the 'New' Youth Development Movement». *Journal of Youth Studies* 14(6): 675-691

Sukarieh, M. and Tannock, S. (2008) «In the Best Interests of Youth or Neoliberalism? The World Bank & the New Global Youth Empowerment Project». *Journal of Youth Studies* 11(3): 301-312

Sukarieh, M. & Tannock, S. (2015) *Youth Rising? The Politics of Youth in the Global Economy*. London: Routledge. http://www.routledge.com/books/details/9780415711265/

Traboulsi, Fawwaz (2012). «Production of Knowledge in the Arab World», Unpublished Paper

الطائفيّة كثورةٍ مضادّة
السعوديّة و«الربيع العربيّ»

مضاوي الرشيد

استاذة علم الانثروبولوجيا الديني في قسم اللاهوت والدراسات الدينية في كلية كينغز في جامعة لندن؛ السعودية، من كتبها «مساءلة الدولة السعودية: أصوات إسلامية من الجيل الجديد» (٢٠٠٩). ترجمة يزن الحاج.

العربيّة السعوديّة بلدٌ ثريٌّ منتجٌ للنّفط، سكّانه قليلون لا يتجاوزون ٢٥ مليون نسمة، ثلثهم أجانب. كانت أسرة آل سعود التسلّطيّة الحاكمة قد سيطرت على البلاد منذ عام ١٩٣٢. تاريخيّاً، استخدمت الدولة السعوديّة الريعيّة الهبَات الاقتصاديّة مقابل إبداء الولاء للنّظام. ومع ذلك، لا تُبيّن الأدبيّات حول الدولة الريعيّة الاستراتيجيّات الأخرى التي تُستخدَم غالباً لاكتساب الولاء وإرغام السكّان على الخضوع. أمّا الطائفيّة كاستراتيجيّةٍ يستخدمها النظام، فغالباً ما يتمّ تجاهلها في الأدبيّات التي تتناول الدولة الريعيّة، خصوصاً في البلاد التي تضمّ تنوّعاً دينياً.

الطائفيّة بما هي استراتيجيّة

باتت الطائفيّة استراتيجيّةً ثوريّةً مضادّةً وقائيّةً يُطبّقها النظام السعوديّ لتضخيم الاختلاف الدينيّ والكراهية والحيلولة دون تطوّر السياسة الوطنيّة غير الطائفيّة، وذلك كردّ فعلٍ على الربيع العربيّ. ومن خلال الخطاب والممارسات الدينيّة، لا تقتصر الطائفيّة في السّياق السعوديّ على تسييس الاختلافات الدينيّة، بل تعمل أيضاً على خلق صدعٍ بين الأكثريّة السنّيّة والأقليّة الشيعيّة. على المستوى السياسيّ، يشير الصّدع إلى أنّ السنّة والشيعة عاجزون عن تشكيل منصّات مشتركة من أجل الحراك السياسيّ. ولا يمكن للمحاجّات الجوهرانيّة بشأن مرونة الطوائف أو الإحالات التاريخيّة إلى المعارك السنّيّة - الشيعيّة منذ القرن السابع حول الخلافة أن تفسّر استمراريّة الخصومة والافتقار إلى منصّات سياسيّة مشتركة تضمّ السنّة والشيعة في بلدٍ كالعربيّة السعوديّة. ولا يمكن بحالٍ من الأحوال فهم الصّراع الطائفيّ بين السنّة والشيعة من دون أن نأخذ بالاعتبار الدّور الذي يلعبه فاعلٌ أقوى من الطوائف بحدّ ذاتها: أي، النظام التسلّطيّ. وعلاوةً على العائدات النفطيّة الهائلة، يمسك النّظام السعوديّ في قبضته أيديولوجيا دينيّة قويّة، باسم سائدٍ هو الوهّابيّة، معروفة برفضها الاعتراف بالشيعة كجماعةٍ إسلاميّةٍ شرعيّة.

ويُسهم الاضطهاد الذي يمارسه النظام السعوديّ على الأقليّة الشيعيّة بدوره في تعزيز الهويّة الطائفيّة لتلك الأقليّة: تفعيل سيرورة التّطييف. لكنّ اختزال العلاقات بين النّظام والأقليّة الشيعيّة إلى الاضطهاد وحده سيكون تبسيطاً شديداً للأمور. إذ يوظّف النظام التسلّطيّ السعوديّ استراتيجيّات عديدة حيال أقليّاته الدينيّة وقيادتها. وقد يكون التّمييز المُنهج الشّامل ضدّ الشيعة سمةً للحظةٍ تاريخيّةٍ واحدةٍ بعينها، ولكنّ هذا الأمر قابل للتّصحيح، فالوضع السياسيّ قد يستلزم بدائل للقمع. وأحياناً يترافق القمع مع استيعابٍ للأقليّة بل وحتّى تعزيزاً لمصالحها وحقوقها. وعلاوةً على ذلك، قد يقمع النّظامُ الشيعةَ بهدف معالجة قضايا تتعلّق بالأكثريّة السنّيّة، كأن يستميلهم مثلاً، ويستجيب لمظالمهم، أو كي يسعى ببساطة لاكتساب ولائهم في وقتٍ لا يكون فيه هذا الولاء مضموناً. ولذا، من المهمّ الإشارة إلى عدم وجود استراتيجيّةٍ اعتياديّة ومتوقّعة يستخدمها الاستبداد السعوديّ ضدّ الشيعة. فكلُّ لحظةٍ تاريخيّةٍ تستلزم تعاملاً محدَّداً تجاه هذه الجماعة، يراوح من القمع المباشر إلى الاستيعاب والتّساهل. وقد دفع الربيع العربيّ وأثره المُحتمَل على البلاد النّظامَ إلى إعادة تنشيط الخطاب الطائفيّ ضدّ الشيعة بهدف تجديد ولاء الأكثريّة السنّيّة.

أفسّر في هذا النصّ كيف استخدم النظام السعوديّ الانقسامات الطائفيّة لتوسيع الهوّة بين الجماعتين خلال الربيع العربيّ. ادّعى النّظام أنّ الفاعلين الخارجيّين كانوا

مصمّمين على تقويض استقرار البلاد وأمنها. فاستعيدت التأويلات الدينيّة الوهّابيّة - بالأخصّ، الخطاب الطائفيّ ضدّ الأقليّة الشيعيّة الناشطة سياسيّاً بقوّة، والتي تُقدَّر بمليونَيْ نسمة - كي تُجهض تطوُّر «سياسة وطنيّة» عابرةٍ للحواجز الطائفيّة، والمناطقيّة، والأيديولوجيّة، والقبَلية. ومن خلال اعتبار دعوات التّظاهر في «يوم الغضب» في ١١ آذار / مارس ٢٠١١ مؤامرةً شيعيّةً ضدّ الأكثريّة السنّيّة تهدف إلى نشر النّفوذ الإيرانيّ في الوطن السنّيّ، عمَّقَ النّظام التوتّرات الطائفيّة وقوّض محاولات حراك الشّباب في مدن عديدة، بما فيها تلك التي يقطنها الشّيعة. خوَّفَ النظام السعوديّ أكثريّته السنّيّة عبر التهويل من المشروع التوسّعيّ الإيرانيّ في المنطقة وتأثيره المتصاعد لدى شيعة العالم العربيّ، بما فيها العربيّة السعوديّة ودول الخليج.

نجحت بروباغاندا النّظام في إحباط الاحتجاج الذي لم يكن ليصل إلى مستوى ثورةٍ كاملةٍ على غرار النّموذج المصريّ بأيّ حال من الأحوال. إذ أنّ الاحتجاجات السلميّة الصغيرة جدّاً التي اندلعت عام ٢٠١١ في المدن السعوديّة كانت مجرّد إشارةٍ إلى بداية حراك سياسيّ لم يبلغ مستوى الثورة. وحتى مع عدم وجود الشّروط الممهّدة لثورةٍ في العربيّة السعوديّة، كان النّظام التسلّطيّ سيسارع إلى المباشرة بإجراءاتٍ ثوريّة مضادّة وقائيّة لاستباق تأثير الدومينو في الربيع العربيّ.

في الخمسينيات والستينيات أنتج الحراك العمالي في المجال النفطي احتجاجا لم يكتف بكونه عابرا للانقسامات الطائفية، والقبلية، والمناطقية السعودية، بل امتد عبر الجنسيات.

ولا بدّ من أن تُفهَم الطائفيّة السعوديّة أخيراً في ضوء الأحداث التي جرت في جزيرة البحرين المجاورة، حيث تحكم عائلةٌ ملكيّةٌ سنّيّةٌ أكثريّةً شيعيّةً. وقد أثبت الخطاب الطائفيّ نجاحه في قمع الحركة البحرينيّة المطالبة بالديمقراطيّة. إذ دخلت القوّات السعوديّة إلى البحرين في شباط / فبراير ٢٠١١ دعماً لآل خليفة ضدّ المحتجّين. وقد أتاح هذا الأمر للنظام السعوديّ إرسال إشارات قويّة لا إلى أقليّته الشيعيّة المُضطهَدة سياسيّاً فحسب، التي يشترك كثيرٌ من أفرادها بصلات دينيّةٍ، واجتماعيّةٍ، وقربى مع البحرينيّين، بل أيضاً - وعلى نحوٍ أهمّ - لأكثريّته السنّيّة داخل العربيّة السعوديّة. فالنّظام السعوديّ يُرغم أكثريّته السنّيّة، التي تربّت طويلاً على خطاب طائفيّ يعتبر الشّيعة أهل بدَع، على اعتبار حكومتهم حامياً لهم ضدّ المؤامرات الشيعيّة والعملاء الأجانب المزعومون الذين يعملون لحساب إيران، القوّة الإقليميّة المنافسة. وكان النّظام يأمل أن تتخلّى الأكثريّة السنّيّة عن المطالبات بتغيير سياسيّ، على الأقل في هذه اللحظة الحرجة من الربيع العربيّ. وتحت ضغط سياقٍ إقليميٍّ حادّ وحراكٍ فعليٍّ وافتراضيٍ داخليٍّ، بدا أنّ سعوديّين كثيرين أجّلوا مواجهتهم مع النّظام ولكنّهم واصلوا المطالبة بإصلاح سياسيّ. وكذلك، بدا أنّ العطايا الاقتصاديّة التي منحها الملك في آذار / مارس ٢٠١١ قد أنهت المظالم الاقتصاديّة والاجتماعيّة المباشرة للسكّان، من دون تقديم إصلاحٍ سياسيّ.

السياسة الطائفيّة السعوديّة: عرض تاريخيّ

دفع الإقصاء السياسيّ المُوثّق والتمييز الدينيّ المُمنهجُ ضدّ الشيعة في العربيّة السعوديّة إلى اصطفاف الجماعة حول قيادتها الطائفيّة، إذ تؤمّن لها الدّعم والموارد الممنوعة عليها في الساحة الوطنيّة. ويُسهم كلٌّ من الإقصاء والتمييز في تعزيز التّلاحم والتّخوم الطائفيّة الداخليّة الشيعيّة. وعلاوةً على ذلك، بما أنّ حريّة التجمّع مُقيَّدة إضافة إلى وجود حظر على تأسيس أحزاب سياسيّة وفي غياب مجتمع مدنيّ، يبقى المجال الدينيّ مفتوحاً نسبيّاً. وإضافةً إلى كونه مكاناً للعبادة، تعاظمَ دور المسجد كمنصّة من أجل الاحتشاد الشعبيّ حول الرموز والهويّات الدينيّة.

ومنذ السبعينيّات، حلّت نزعةٌ إسلامويّةٌ سنيّة وشيعيّة كبيرة محلّ التسيّس المحدود السابق الذي كان يشجّع أيديولوجيّات يساريّةٍ ووطنيّةٍ علمانيّة في العربيّة السعوديّة. وقد كان هذا متوافقاً مع حالٍ بلدان عربيّة أخرى حيث انحسرت الحركات الوطنيّة واليساريّة العلمانيّة مع بداية صعود الإسلامويّة. وقد وجد كلٌّ من السنّة والشيعة السعوديّين في الإسلامويّة مصدر إلهام من أجل سياسة وحراك في المعارضة.

بقيت الجماعتان مقسَّمتَيْن في معارضتهما السياسيّة، وعجزت كلتاهما عن عبور الهوّة الطائفيّة واحتواء الجماعة الثانية. وكان الاستثناء الوحيد هو الفترة القصيرة في الخمسينيّات والستينيّات حين أنتجَ الحراك العمّاليّ في المجال النفطيّ احتجاجاً لم يكتفِ بكونه عابراً للانقسامات الطائفيّة، والقبَلية، والمناطقيّة السعوديّة، بل امتدّ عبر الجنسيّات، بما أنّ صناعة النفط اجتذبت عمّالاً

من جميع أنحاء العالم العربيّ. وإثر تلك الاحتجاجات العمّاليّة القصيرة والمبكّرة، حظرت الحكومة نشاط النقابات العماليّة والتّظاهرات.

ومنذ السبعينيّات فصاعداً، لم يعد أيّ حراكٍ عماليٍّ ممكناً في ظلّ اللجوء المتصاعد إلى الإسلامويّة السنيّة والشيعيّة. وقد كان هذا نتاجاً لاجتماع عوامل عدّة. إذ أفضت الثورة الإيرانيّة عام ١٩٧٩ وانتصار الإسلامويّة في إيران، وترويج النّظام السعوديّ للإسلامويّة كأيديولوجيا مضادّة للقوميّة وللنّزعات السياسيّة اليساريّة، إلى تقوية الإسلام السياسيّ لا في العربيّة السعوديّة فقط بل في أرجاء العالم العربيّ. وأصبحت السياسة والحراك الوطنيّان اللذان يجسّران الهوّة السنيّة - الشيعيّة مستحيلَيْن مع صعود الإسلامويّة وضعف جماعات المعارضة اليساريّة والقوميّة.

مُستلهمين نجاح الثورة في إيران عام ١٩٧٩، حشد الشيعة السعوديّون أنفسهم كأقليّة دينيّة مُضطهَدة وضحيّة للتمييز. وقد كانوا ناشطين بقوّة في المطالبة بحقوق دينيّة وسياسيّة واقتصاديّة، وفي وضع نهايةٍ للتّمييز في التوظيف والتعليم. إذ كانوا محرومين، لفترة طويلة، من الحريّة الدينيّة وإمكانيّة الوصول إلى مجال واسعٍ من المهن في السّلكَيْن التعليميّ والعسكريّ. ولم يكن فقههم الدينيّ مُمَثّلاً في التشريعات القضائيّة. وكانوا يمتلكون خبرةً أكبر في تنظيم التظاهرات من الأكثريّة السنّيّة بما أنّ بعض نشطائهم كانوا قد شاركوا في الاحتجاجات القوميّة واليساريّة في المنطقة الشرقيّة في الخمسينيّات والستينيّات. مدفوعين بنجاح الثورة الإيرانيّة وإقامة جمهوريّة إسلاميّة عام ١٩٧٩، بدأ الشيعة السعوديّون انتفاضةً قُمعت بوحشيّة. وتوجّه كثيرٌ من قادتهم في المعارضة إلى المنفى إثر موجةٍ من القمع في المنطقة الشرقيّة حيث يقيمون.

في عام ١٩٩٣، جرت تسويةٌ مع الحكومة، تلتها عودة شخصيّات المعارضة الشيعيّة البارزة من المنفى. حدثت التّسوية بعد أن وعدت الحكومة بالسّماح للشيعة بحريّة دينيّة أكبر وبزيادة دمجهم في الاقتصاد. ومع ذلك، بقيت جماعة من الناشطين الشيعة في الخارج واصلوا حشد أنصارهم داخل العربيّة السعوديّة. وبإلهام من الربيع العربيّ، بدأت المعارضة الشيعيّة المنفيّة، إلى جانب ناشطين ورجال دين داخل البلاد، بالدعوة إلى تظاهرات للمطالبة بإطلاق سراح السجناء السياسيّين. كما دعوا أيضاً إلى دعم الحركة البحرينيّة المطالبة بالديمقراطيّة

مسيرة «أين حقوقي في وطني» في القطيف في ٢٣ أيلول / سبتمبر ٢٠١٣

رفع التمييز الطائفي

في نضالها ضدّ النظام السنّيّ البحرينيّ، وإلى انسحاب القوات السعوديّة من البحرين. وفيما يشكّل الشيعة أقليّةً في السعوديّة، إلا أنّهم أكثريّة في البحرين.

قبل «يوم الغضب». استخدمت الجماعات السنية والشيعية مواقع التواصل الإجتماعي لإيصال رسالتهم لدعم الاحتجاج الافتراضي. كانت المرة الأولى التي تقوم بها المعارضتان السنية والشيعية بالدعوة إلى التظاهر في اليوم نفســــــــــــه.

ظلّت المعارضة الإسلاميّة السنّيّة في العربيّة السعوديّة، المعروفة منذ التسعينيّات باسم «الصحوة»، متجذّرةً ضمن الخطاب السلفيّ، بخاصّة ذاك الذي يُؤبلس الشيعة ويعتبرهم أهل بدَع، وبذا فهم يناصرون التعاليم الدينيّة الرسميّة. ومع أنّ الإسلاميّين السعوديّين يشجبون الدعاة الرسميّين بسبب تبعيّتهم للدولة وفقدانهم للاستقلاليّة، إلا أنّهم يتّفقون معهم حيال المسألة الشيعيّة، إذ يعتقدون أنّ الشيعة يتمتّعون بحريّات دينيّة وفرص عمل كافية في المجال النفطيّ. وبحسب رجل دين سلفيّ مرتبطٍ بمعسكر «الصحوة» الإسلامويّ، فإنّ وضع الشيعة ليس هو الأسوأ في البلاد. فوضع السنّة في المنطقة الجنوبيّة الشرقيّة المُهمَّشة في عسير هو الأسوأ في قراهم الفقيرة. ويعتقد بعض الإسلاميّين أنّ السجناء السياسيّين الشيعة غالباً ما يُطلَق سراحهم بفعل الضغط الداخليّ والخارجيّ، أمّا الإسلاميّون السنّة فيبقون في السجن لفترات طويلة. ويتصاعد هذا الحنق السنّيّ كلّما يطلق النّظام سراح سجناء سياسيّين شيعة، إذ يعتبرون هذه الخطوة تنازلاً أمام أقليّة من أهل البدع. وفي هذا السّياق، تبقى الدّولة، والمؤسّسة الدينيّة الرسميّة، والإسلاميّون متّفقين حيال المسألة الشيعيّة. وبينما تُفضّل أقليّة صغيرة من الإسلاميّين عدم المناقشة صراحةً، لا تتردّد الأكثريّة في شجب الشيعة علناً.

احتجاج خجول

في ضوء موجة عام ٢٠١١ من احتجاجات الربيع العربيّ، دعا الناشطون الافتراضيّون السعوديّون إلى «يوم الغضب» في ١١ آذار / مارس ٢٠١١. ظهرت جماعات شبابيّة جديدة على الإنترنت تحت أسماء مثل حركة الشباب الوطنيّ وحركة شباب الأحرار. وقد دعت كلتاهما إلى التّظاهر ضدّ النّظام. وتركّزت مطالبهما على الحريّة، محاربة الفساد والقمع والظلم والبطالة، وإطلاق سراح السجناء السياسيّين، ومظالم أخرى كانت جميعها غير طائفيّة. وقد اجتذبت كثيرٌ من هذه المنابر الافتراضيّة داعمين من دون أدنى دليلٍ على مناصرين فعليّين على الأرض. لم يكن أحدٌ في العربيّة السعوديّة قادراً على التصريح علناً بمسؤوليّته عن التصريحات الافتراضيّة المناهضة للنّظام من دون أن يعرّض نفسه لخطر الاعتقال. نشر محمد الودعاني، وهو ناشط شابّ، فيديو لنفسه وهو يشجب النّظام ويعلن نيّته في التّظاهر في ١١ آذار / مارس ٢٠١١. اعتُقل حين سارع إلى المشاركة في احتجاج صغير بعد صلاة الجمعة يوم ٧ آذار / مارس.

جماعتان فقط من المعارضة السنّيّة دعمتا يوم الغضب. إذ أصدرت الحركة الإسلاميّة للإصلاح وحزب الأمة الإسلاميّ المؤسّس حديثاً بيانات تناصر الدّعوة إلى التّظاهر. منذ عام ٢٠٠٥، كانت الحركة الإسلاميّة للإصلاح تدعو أنصارها عادةً إلى الاستعداد لاحتجاجات صغيرة بعد صلاة الجمعة في مدن عديدة. وفي مناسبات نادرة، كانت تلك الدّعوات تُثمر عن تجمّعات صغيرة جداً تنطلق بعد انتهاء صلاة الجمعة مع ترديد «الله أكبر». وقد أملت الحركة الإسلاميّة وحزب الأمّة أن تنتشر حركة احتجاج شبابيّة عفويّة في جميع المدن السعوديّة يوم ١١ آذار / مارس ٢٠١١.

ضمن صفوف الشيعة، دعت المعارضة المنفيّة في الخارج - تحديداً حركة «خلاص» التي تقودها شخصيّات مثل المعارضَيْن المخضرمَيْن الشيعيَّيْن المقيمَيْن في لندن حمزة الحسن وفؤاد إبراهيم - أنصارها إلى الاستجابة لدعوة التظاهر يوم ١١ آذار / مارس ٢٠١١. وعلى أيّة حال، أتى الزّخم الأساسيّ من الناشطين الشّيعة داخل البلاد. فقبل ١١ آذار / مارس، حشد هؤلاء النّاشطون جماعتهم للتظاهر دوريّاً إثر القمع الشديد للاحتجاجات السلميّة في البحرين بمساعدة القوّات السعوديّة.

قبل «يوم الغضب»، استخدمت الجماعات السنّيّة والشيعيّة مواقع يوتيوب، وفيسبوك، وتويتر لإيصال رسالتهم لدعم الاحتجاج الافتراضيّ. كانت تلك المرّة الأولى التي تقوم بها المعارضتان السنّيّة والشيعيّة بالدّعوة إلى التّظاهر في اليوم نفسه. ويوم ١١ آذار / مارس ٢٠١١، مُني يوم الغضب بفشل كبير، ما يشير إلى الحدود التي تصل إليها ما تُسمّى ثورات فيسبوك وتويتر في غياب التنظيم الحقيقيّ والمجتمع المدنيّ المستعدّ للانخراط في الاحتجاج.

أقصت «الصحوة»، الحركة الإسلاميّة السنّيّة البارزة والأكبر داخل البلاد التي أشرنا إليها سابقاً، علاوةً على جماعات سياسيّة حديثة التأسيس، نفسها عن الدعوة إلى الاحتجاج. وبما أنّ شعار التظاهرات كان «الشعب يريد إسقاط النّظام»، الذي اشتُهر في ميدان التحرير في القاهرة، لم يكن بمقدور أيّ سعوديّ التصريح بدعمه من دون المجازفة باعتقاله. وفي الواقع، جدّد ناشطون إسلاميّون سنّة كثيرون داخل البلاد ولاءهم للنّظام وشجبوا الفوضى التي تترافق مع التظاهرات. وأشاروا إلى الحاجة إلى الإصلاح، ولكن ليس إسقاط النظام. ومع امتناع حركة «الصحوة» الإسلاميّة عن دعمها، لم تتحقّق التظاهرات على أرض الواقع.

وبرغم الإخفاق التام الذي مُني به يوم الغضب الوطنيّ، واصلت الأقليّة الشيعيّة التحضير لتظاهراتها في المنطقة الشرقيّة الغنيّة بالنفط، مطالبين بالمساواة وإنهاء التمييز ضدّ جماعتهم. استقطبت التظاهرات الشيعيّة مئات الدّاعمين الذين طالبوا بإطلاق سراح سجنائهم السياسيّين. وانضمّت النّساء إلى الاحتجاج ومشين وهنّ يحملن الشموع عدّة ليالٍ للفت الانتباه إلى مأساة السجناء. وطالبنَ بإطلاق سراح النُّشطاء السياسيّين المُعتقَلين منذ أكثر من ستّة عشر عاماً ضمن حملة لدعم «السجناء المنسيّين». كما دعون إلى انسحاب القوّات السعوديّة التي أُرسلت لقمع الانتفاضة المطالبة بالديمقراطيّة في البحرين التي كانت قد بدأت يوم ١٤ شباط / فبراير ٢٠٠١. كان القمع أشدّ وضوحاً في المناطق الشيعيّة كردّة فعل على حجم التظاهرات. كان الشيعة قادرين على حشد أنصارهم دعماً لمطالبهم الخاصّة، وبذلك فقد تبنّوا أجندةً شيعيّةً ضيّقة، وكذلك تعاطفاً مع جيرانهم في البحرين التي تبعد مسافة ستة عشر ميلاً فقط من العربيّة السعوديّة عبر جسرٍ يصل بينهما. وسارعت قوّات الأمن إلى قمع المتظاهرين.

بعد ١١ آذار / مارس ٢٠١١، وفي المناطق ذات الأغلبيّة السنّيّة، كان سعوديّون وسعوديّات يتجمّعون دورياً في أيّام مُحدَّدة حول وزارة الداخليّة مطالبين بإطلاق سراح السجناء السياسيّين. وتجمّع متخرّجون جامعيّون عاطلون من العمل حول الوزارات المعنيّة معبّرين عن مظالمهم الاقتصاديّة ومطالبين المسؤولين الحكوميّين بتنفيذ وعود الملك التي نصّت على زيادة فرص العمل وتسريع تعيين المتخرّجين في وظائف القطاع العامّ. وكان الملك قد أطلق هذه الوعود في شباط / فبراير حين عاد إلى البلاد بعد تلقّيه للعلاج الطبّيّ في الولايات المتّحدة. ومع أنّ أياً من تلك الاحتجاجات المحليّة لم تتبلور ضمن تظاهرات فعليّة، بات ثمّة وضعٌ جديد في بلادٍ كانت تحظّر التّظاهرات كلّيّاً. وباستثناء الاحتجاج السنّيّ الداعم للسجناء السياسيّين، سمح النّظام لهذه التجمّعات الصغيرة بالتحرّك. ولكن بين شباط / فبراير وآذار / مارس انتشرت تقارير بأنّ قوات الأمن نفّذت أكثر من ١٦٠ اعتقالاً، اثنان منهما كانا المتظاهرين الوحيدين اللذين استجابا للدّعوات من أجل يوم الغضب، وكان هناك ناشطٌ سياسيٌّ معروفٌ واحد منخرط في قضايا حقوق الإنسان. وفي تموز / يوليو احتُجزت امرأتان في وزارة الداخليّة بسبب مشاركتهما وتنظيمهما لتظاهرة دعماً للسّجناء السياسيّين. وكانت التظاهرات التي تندلع في المنطقة الشرقيّة الشيعيّة تُقمَع بوحشيّة أكبر. سمحت الحكومة باحتجاجات صغيرة بشأن مظالم اقتصاديّة، لكنّها كانت سريعةً في التّعامل مع المتظاهرين الذين يعبّرون عن مطالب سياسيّة أو ينتقدون قمع النّظام.

الطائفيّة كثورةٍ مضادّة

بالرغم من أنّ إسلاميّين سنّة منفيّين معروفين، مثل أعضاء حركة الإصلاح، وحزب الأمّة المؤسّس حديثاً، وناشطين شيعة دعوا كلّهم من أجل الاحتجاج يوم ١١ آذار / مارس ٢٠١١، أصرّ النظام على اعتبار هذه الدعوات مؤامرةً وانتفاضةً شيعيّة مدعومة من قوى خارجيّة، أبرزها إيران. وسعت استراتيجيّة الدّولة نحو تحقيق هدفين. أوّلاً، سمحت للأجهزة الأمنيّة بالتحرّك بسرعةٍ إلى المناطق الشيعيّة لقمع بوادر الاحتجاج الأولى، الذي اعتُبر تمرّداً لجماعة الشيعة، المنفصلة كلياً عن الجماعات الوطنيّة الأخرى وفئات المعارضة الداعية إلى إصلاح سياسيّ. وحقيقةُ أنّ غالبيّة الشيعة يقيمون في المنطقة الشرقيّة، وكانت تظاهراتهم قد اندلعت في الماضي في مدن ذات أغلبيّة شيعيّة مثل القطيف، وسيهات، والعواميّة سهّلتْ إمكانيّة تصديق الرواية الحكوميّة. كما أتاحت لأجهزة الأمن اعتبار أنّ الشيعة هم مَنْ بدأوا بإطلاق دعوات التّظاهر.

— أولاً، عبر استحضار خطاب احتجاجٍ مناطقيٍّ شيعيٍّ مدعوم من إيران في المنطقة الغنيّة بالنفط، حشدت الدولة الأكثريّة السنّيّة، بمن فيهم أصحاب المظالم الجديّة الذين كانوا قد دعوا إلى إصلاح سياسيّ. وعمدت آلة بروباغاندا الدولة إلى توصيف الدّعوات إلى الاحتجاج بأنّها محاولة أجنبيّة لإحداث الفوضى، وتقسيم البلاد، وتقويض أمنها. ودُفع السكّان لتصديق أنّ أيّ احتجاج سيؤدّي إلى تقسيم العربيّة السعوديّة وانبعاث المناطقيّة،

والطائفيّة، والقبَلية. ولم تكن ردّة الفعل هذه خاصّة بالدولة السعوديّة. فخلال الربيع العربيّ، لجأت أنظمة عربيّة أخرى إلى الخطاب ذاته حين واجهت احتجاجاً شعبياً، كما بيّنت سلوى إسماعيل.

كان الدّين الرسميّ السعوديّ الاستراتيجيّة الأساسيّة الموظّفة ضدّ إمكانيّة الاحتجاج. حشد النظام شخصيّاته الدينيّة البارزة لدعمه في هذه اللحظة الحرجة المتمثّلة في الربيع العربيّ بطريقتين مختلفتين.

ثانياً، استخدم الدعاة الوهّابيّون المآذن للتحذير من غضب الله الذي سيُسلَّط على المؤمنين المتّقين إن شاركوا في التظاهرات السلميّة التي خُطّط لانطلاقها بعد انتهاء صلاة الجمعة مباشرةً يوم ١١ آذار / مارس ٢٠١١. وفي ٧ آذار / مارس، أصدرت هيئة كبار العلماء، وهي أعلى السلطات الدينيّة الرسميّة، فتوى تُحرّم التظاهرات. ونشرت جميع الجرائد المحليّة تلك الفتوى باحتفاء، ووُزّعت آلاف النّسَخ من الفتوى في المساجد والأحياء، عدا عن نشرها على الإنترنت. وتسلّلت أجهزة الاستخبارات السعوديّة إلى منابر النّقاش في الإنترنت ونُشرت الفتوى في منتديات عديدة مع عدّة بيانات داعمة لها. وتشير مشاهداتي لمنابر نقاش عديدة على الإنترنت خلال فترة يوم الغضب بوضوح إلى وجود بروباغاندا رسميّة متعاظمة. كانت الفتوى التي تحرّم التظاهرات بياناً سياسيّاً أكثر من كونه دينياً لدعم النّظام بمواجهة الدّاعين إلى الاحتجاج.

ثالثاً، حذّر الدّعاة الرسميّون من مؤامرة شيعيّة - صفويّة - إيرانيّة يقودها السنّة والشيعة السعوديّون المنفيّون في لندن وواشنطن لإشعال فتنة وتقسيم المملكة العربيّة السعوديّة. واعتمدوا على آراء دينيّة طائفيّة تهاجم الشّيعة، الموصوفين تاريخياً بكونهم أهل بدع، ومنذ وقتٍ أقرب بكونهم طابوراً خامساً من عملاء إيران. وذكّروا المؤمنين بالحاجة إلى الإجماع على حكّام البلاد الثّقاة، وحذّروا من أنّ التّشرذم، والتناحر القبليّ، والحرب الأهليّة والمجازر الدمويّة ستحدث إن استجاب الناس لدعوات التّظاهر. أمّا الدّعاة الوهّابيّون غير المرتبطين مباشرةً بهيئة كبار العلماء الرسميّة، والمعروفون باسم الوهّابيّين الجدد، كمحمد العريفي ويوسف الأحمد على سبيل المثال، فقد كان لديهم حريّة أكبر في مهاجمة الشيعة في المساجد المحلّيّة، وفي المحاضرات، والخطب التي كانت تُسجَّل وتُنشر على يوتيوب. وانضمّ الداعية المخضرم في حركة الصّحوة الشيخ ناصر العمر إلى المعركة ضدّ الشيعة، ما أسهم في تقوية آراء العلماء من الجيل الأصغر. وإذا كانت مواقف كثيرٍ من هؤلاء الدعاة ناقدةً للملك في ما يخصّ سياساته الجندريّة الجديدة التي خفّفت من قيود القوانين المتعلّقة باختلاط الجنسين في التعليم والعمل، إلّا أنّهم دعموه ضّد الشيعة الذين اعتُبروا غرباء، وأهل بدع، وموالين لإيران. وكان تصويرُ الاحتجاج المحليّ بكونه مؤامرةً أجنبيّةً سياسةً مُجرَّبةً خلال الربيع العربيّ.

كرّر النظام السعوديُّ وعلماؤه الخطاب المتقن الذي سبقهم إليه طغاة عرب آخرون مثل زين العابدين بن علي في تونس، وحسني مبارك في مصر، وحمد آل خليفة في البحرين، ومعمّر القذّافي في ليبيا، وبشّار الأسد في سورية، وعلي عبد الله صالح في اليمن. وحشد النّظام السعوديّ أجهزة استخباراته الرقميّة لنشر شائعات تقول إنّ الإيرانيّين هم القائمون وراء التظاهرات، ولو كان السنّة يأملون الانتصار فلا بدّ لهم من رفض التجاوب مع الدعوات الخارجيّة المشبوهة للاحتجاج. وأظهرت معاينتي لعدد من منابر النقاش على الإنترنت مثل الساحة والشّبكة الليبراليّة السعوديّة، بوضوح، وجود مشاركات غير معتادة مناصرة للنظام تؤبلس الشيعة وتحذّر من المؤامرات الأجنبيّة. وتكوّنت الاستراتيجيّة الدينيّة السعوديّة من التهديد بالغضب الإلهيّ، والتحريض على الاختلاف الطائفيّ والكراهية لتشويه مشهد الاحتجاج السلميّ المطالب بإصلاحات سياسيّة حقيقيّة. أمّا الدعاة الدينيّون المستقلّون المزعومون فقد خدموا مصلحة النظام بقدر ما خدمته البيروقراطيّة الرسميّة. فبينما لعب العلماء الرسميّون دوراً، انتهز الدعاة الآخرون الفرصة على الإنترنت ليرفعوا من شعبيّتهم بين الشباب عبر مهاجمة الشيعة. وأصبحت مواقع فيسبوك، وتويتر، ويوتيوب هي الحلبة الرقميّة الجديدة ضدّ الشيعة «أهل البدع» وداعميهم الإيرانيّين المزعومين.

ومع انتشار الاستراتيجيّة الدينيّة المزدوجة القائمة على طاعة الحكّام والطائفيّة، كانت الصحافة «الليبراليّة» التي تتحكّم بها السعوديّة تنشر مقالات تشجب الطائفيّة. هاجم مفكّرون ليبراليّون مَنْ سمّوهم دعاة الكراهية الطائفيّة، وتغنّى صحافيّون وناشطون كثر بالوحدة الوطنيّة - أي، الانتماء إلى أمّة، لا إلى طائفة أو قبيلة. وأصبحت صفحات الجرائد المحليّة الرسميّة مثل الرياض، الجزيرة، والوطن، إضافةً إلى الجريدتين العربيّتين الحياة والشرق الأوسط منصّات لشنّ الهجمات على تلك القوى الرّجعيّة التي تقوّض الوحدة الوطنيّة. ولكن هذا لا يعني، بحال من الأحوال، أنّ أولئك الكتّاب الليبراليّين كانوا يرغبون بوجود

علاقات قويّة مع الشيعة أو دعم للاحتجاج السياسيّ الحقيقيّ كوسيلة للإصلاح السياسيّ. بل كانوا يدافعون عن النظام بطريقة مختلفة، تحديداً عبر تقسيم وبلبلة الرأي العام السعوديّ، وهي استراتيجيّة مهمّة في إجهاض أيّ توافق وطنيّ لمصلحة الحراك والاحتجاج.

يرسخ النظام في أذهان الناس أنه هو وحده القادر على التوسط بين المعسكرات المتنوعة. حيث يكبح تطرفات الليبراليين. والإسلاميين. والشيعة. والسنة.

خلال الربيع العربيّ، تعرَّض السعوديّون لخطابين متعارضين، كلاهما تموّله الدولة: خطاب دينيّ داعم للوحدة السنّيّة ضدّ أهل البدَع من الشيعة، وخطاب ليبراليّ مزعوم يشجب الدعاة الدينيّين وطائفيّتهم. فوقع السعوديّون في حيرة وانقسام بين هذين التأويلين المتعارضين للأزمة. ولا تخدم هذه البلبلة إلّا مصالح النظام عبر تأخير الحاجة إلى إجراء تنازلات سياسيّة. وتحافظ الاستراتيجيّة على الانقسامات في المجتمع بين مثقّفين ليبراليّين مزعومين، ودعاة كراهية، وبين السنّة والشيعة. وخلال هذه البلبلة، يُرسّخ النظام في أذهان النّاس أنّه هو وحده القادر على التّوسّط بين المعسكرات المتنوّعة، حيث يكبح تطرّفات الليبراليّين، والإسلاميّين، والشيعة، والسنّة. كما يعزّز الانطباع بأنّ تدخّله هو ما يمنع البلاد من الدّخول في حالة الطبيعة الهوبزيّة حيث تُفلت القبائل والطوائف والمناطق عقال تطرّفها وعنفها ضدّ بعضهم البعض، وتقوّض أمن السعوديّين جميعهم، ما قد يفتح مجالاً لتدخّل عسكريّ أجنبيّ لحماية مصادر الطاقة ذات الأهميّة الكبيرة لا للسعوديّين وحدهم، بل لباقي العالم أيضاً.

وفي بلدٍ يتّسم بنزعة وطنيّة ضعيفة، وإسلامويّةٍ قويّة، وتوتّرٍ طائفيّ، نجحت استراتيجيّة الدولة في تصوير الاحتجاج على أنّه مؤامرة شيعيّة حيث دفعت السنّة إلى تجديد اصطفافهم مع النظام. وبما أنّ السعوديّة تخلو من مجتمع مدنيّ وطنيّ منظّم، مثل نقابات عمّاليّة، وجمعيّات مهنيّة، أو أحزاب سياسيّة، لم تتمكّن جماعات المعارضة فيها من العمل على طول الانقسام الطائفيّ في الفترة الأخيرة. عملت المعارضة الشيعيّة لوحدها منذ السبعينيّات، بينما لم يتقارب الإسلاميّون السنّة مع جماعات غير سنّيّة على الإطلاق، كالإسماعيليّين في

وقفة احتجاجية على احتجاز جثامين وللمطالبة بوقف أحكام الإعدام الصادرة بحق بعض المعتقلين في آذار / مارس ٢٠١٦

الجنوب الغربيّ والشيعة في الشرق. وإنْ كان الإسلاميّون السنّة السعوديّون قد عايشوا نهضةً إسلاميّةً خاصّة بهم، فإنّ الشيعة أيضاً طوّروا معارضتهم السياسيّة ملتفّين حول فقهائهم الدينيّين وناشطيهم السياسيّين.

وكان الشاغل الوحيد للتسلّط السعوديّ هو السيطرة على السكّان السنّة والشيعة على حدٍّ سواء، ومنعهم من السعي نحو حقوقهم السياسيّة التي ستُفضي في نهاية المطاف إلى الإطاحة بالحكم التسلّطيّ. وفي المستقبل المنظور، سيواصل النظام السعوديّ تخويف الأكثريّة بالخطر الشيعيّ / الإيرانيّ لتأخير الإصلاح السياسيّ. أمّا الخطر الذي يهدّد النظام التسلّطيّ فعلياً فهو تطوّر معارضة وطنيّة تتكوّن من السنّة والشيعة، والإسلاميّين والعلمانيّين. وكان هذا قد بدأ يلوح في منتديات محدودة، ما حثَّ الحكومة على المسارعة إلى تضييق الخناق على الاحتجاج الافتراضيّ السنّيّ والتظاهرات الشيعيّة الصغيرة ولكن الفعليّة. وفي حال تمكّنت حركة الملكيّة الدستوريّة الجديدة، التي تضمّ ليبراليّين سنّة وشيعة، من التطوّر أكثر لتصبح قوّة يُعتدّ بها، سيتضاءل الخطاب الطائفيّ ويبقى محصوراً ضمن دوائر سلفيّة رسميّة متشدّدة، لا تزال تحافظ على ولائها للنظام. إذ سيكون من الصعب قمع المعارضة الوطنيّة الرافضة للطائفيّة، بالرغم من الخطاب الطائفيّ المتواصل لعقود برعاية من الدوليّة التسلّطيّة.

الخطر الذي يهدد النظام التسلطي فعليا فهو تطور معارضة وطنية تتكون من السنة والشيعة، والإسلاميين والعلمانيين.

ومن دون وجود حركة طلّابيّة، وحركة نسائيّة مستقلّة، وجمعيّات مهنيّة، من المستبعد أن تتمكّن ثورةٌ سعوديّةٌ من الخروج من العالم الافتراضيّ إلى الواقع. وفيما يترقّب الطلّاب الذين يتلقّون إعانات حكوميّة ومنحاً سخيّة تحقُّق فرص التوظيف، لا تزال الحركة النسائيّة تعتبر الدولة راعيتها الأساسيّة ومن المستبعد أن تسحب دعمها للملك الحاليّ. إذ تعتبر ناشطات سعوديّات كثيرات أنّ الدولة هي الفاعل الوحيد القادر على ضبط سلطة العلماء. أمّا الجمعيّات المهنيّة الضعيفة، مثل غرف التجارة وهيئة الصحافيّين السعوديّين، فلا تزال محافظة على ولائها للدّولة التي تحميها من السياسات الشعبويّة.

وترتبط النخبة الاقتصاديّة والتكنوقراطيّة بالقطاع العام وتتلقّى مكافآت كبيرة لقاء ولائها. وعلاوةً على ذلك، فإنّ الجماعات القبليّة الرئيسة مستفيدة من النظام عبر التوظّف في القطاع العسكريّ والإعانات والهبات الدوريّة. كما ترتبط قبائل كثيرة بالنظام عبر علاقات مصاهرة. ووحده الانهيار الاقتصاديّ الحادّ والمديد هو الذي سيشعل احتجاجاً شعبيّاً. وإذا كان ثمّة إشارات إلى وجود احتجاج شعبيّ سعوديّ أساساً، فستُوظّف استراتيجيّات ثورة مضادّة، عدا عن الطائفيّة، لقمع أيّة حركة وطنيّة واسعة تطالب بتغيير سياسيّ حقيقيّ وجديّ. وتُبيّن الحالة السعوديّة أنّ الطائفيّة أداة قويّة تحت تصرّف الأنظمة، بخاصّة خلال فترات الاضطراب. من مصر إلى العراق، اعتُنقت استراتيجيّات مماثلة خلال الانتفاضات العربيّة عام ٢٠١١.

الدكتاتوريّة والطائفيّة عربيّاً

تعجز الطائفيّة كترتيب دائم وبدئيٍّ لمجتمعات الشرق الأوسط عن تفسير الاضطراب الحاليّ في العالم العربيّ. وبالأحرى، فإنّ توظيف الاختلافات، والتنوّع، والتعدديّة الدينيّة في الصراعات السياسيّة للأنظمة ضدّ شعوبها هو الذي يُذكي الطائفيّة القاتلة التي نشهدها في أرجاء المنطقة. وفي الواقع، فإنّ العدسات الطائفيّة المسلّطة على الانقسام السنّيّ - الشيعيّ المزعوم تُعمّي بدلاً من أن تُوضح الوقائع المعقّدة على الأرض. إذ تُخفي التغيّرات السياسيّة والاقتصاديّة المُعترضة التي تكتسح المنطقة، عدا عن التدخّلات الأجنبيّة المتواصلة وتأثيراتها. كما أنّ تصوير صراعات السلطة في المنطقة كحروب طائفيّة سيُخفي الحرمان والتفاوت الاقتصاديّ المتجذّر الناتج من عقود من الهجرة الريفيّة - المدينيّة، وإفقار الأرياف، واستيلاء النّخب الجديدة في المدن على الأراضي. ويُضاف إلى هذا التّنافسُ الإقليميّ بين إيران والعربيّة السعوديّة، وهما بلدان مهمّان، يدّعي كلٌّ منهما دعم مصالح جيرانه الإقليميّين. وقد تسبَّب التنافس السياسيّ بين البلدين، والتّسابق على مجالات التأثير في لبنان، وسورية، والعراق، والبحرين، وـ مؤخراً - اليمن، في جعل الطائفيّة سرديّةً قويّةً تُخفي التّفاوتات السياسيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة الفعليّة، والتنافسات بين الجماعات، والدول، والفاعلين غير الحكوميّين البارزين. وصحيحٌ أنّ الهويّات الدينيّة تُواصل حضورها، لكنّ الطائفيّة أمرٌ مختلفٌ تماماً: إنّها التسيّس المفرط لهذه الهويّات الدينيّة.

وبهدف تبيُّن لمَ أصبح معظم العالم العربيّ أرضاً يباباً ممزَّقةً بفعل العنف الذي يُقترَف باسم الهويّة والتّضامن الطائفيّ، لا بدّ لنا من الالتفات إلى الحقائق الخفيّة التي يرفض معظم المراقبين رؤيتها.

إحدى هذه الحقائق هي السطوة المتواصلة لرؤساء وملوك متوحّشين أقرب إلى رجال العصابات ولا يتمتّعون بأيّ شعبيّة. فبالرغم من انتخاب الرؤساء وتتويج الملوك والأمراء، عارضَ قادة العالم العربيّ الاندماج الحقيقيّ وتابعوا سعيهم في السياسة عن طريق القوّة أو الرشوة. وقد أدركوا جميعاً أنّ شرعيّتهم الضئيلة لا يمكن أن تتعزّز إلّا عبر تحويل شرائح السكّان إلى تابعين ينتفعون من الفرص الاقتصاديّة السخيّة مقابل الولاء المطلق.

فصدّام حسين، السنّيّ، جعل المسيحيّين يمثّلونه في الخارج، فيما كان شيعة كثيرون يهيمنون على حزب البعث، تاركاً المسائل الأمنيّة والاستخباراتيّة بيد أقربائه السنّة الأكثر ولاءً. ويُبقي الرئيس العلويّ بشار الأسد المناصب الرفيعة في سلاح الطيران وأجهزة الاستخبارات لعصبته المُخْلصة، فيما يسمح للعائلات التجاريّة السنّيّة الجديدة بالانتفاع من انفتاحاته الاقتصاديّة النيوليبراليّة. وكان الرئيس حسني مبارك يستمتع بفكرة التحدّث باسم السنّة قبل أن يُطاح به، فيما كانت مشاغله تتركّز في الحقيقة على تحويل عائلته الصغيرة إلى عصابة قويّة مقتفياً مسيرة نظرائه من الرّؤساء والملوك العرب.

ولا يمكن بسهولةٍ اعتبار هذه القيادات الأقرب إلى العصابات طائفيّةً. إذ لا يمتلك الحكّام هويّةً أو انتساباً طائفياً، لكنّ كلاً من خصومهم - الشعوب المُقصاة أغلب الأحيان - والعالم الخارجيّ يريد رؤيتهم عبر منظورٍ طائفيّ. وقد عمل هؤلاء الرؤساء على افتراض أنّ على المرء، إذا أراد الحفاظ على السيطرة، أن يصنّف الشعب بكونه منتمياً إلى وحدات بدئيّة وأبديّة، محرّضاً كلّ جماعةٍ على الأخرى في لعبة سياسيّة وحشيّة وطويلة. فالنّخب الحاكمة لم تكن سخيّةً على الدوام مع أبناء جماعاتها، ولا يمكن اعتبارهم مخلصين لطوائفهم على نحوٍ أوتوماتيكيّ. ففي الواقع، هم يعبدون عصاباتهم ويُكافئون تابعيهم بصرف النظر عن هويّتهم الطائفيّة.

طمس التناقضات الاقتصاديّة والاجتماعيّة

إنّ الملوك والأمراء السنّة المزعومين مرتبطون بعصاباتهم أكثر من طوائفهم. خذ الملوك السعوديّين العديدين الذين كانوا يطمحون إلى قيادة العالم السنّيّ، من الملك فيصل (الذي توفي عام ١٩٧٥) إلى الملك عبد الله بن عبد العزيز (تسلّم الحكم بين عامي ٢٠٠٥ و٢٠١٥) والآن الملك سلمان، والذين غالباً ما كانوا يُتَّهمون بالسماح للخطاب الطائفيّ المناهض للشيعة بالانتشار. منذ الثمانينيّات، أشار الناشطون الشيعة إلى القَدْر الضئيل الذي بذله النظام السعوديّ للسيطرة على الخطاب المناهض للشيعة الذي يطلقه الدّعاة الدينيّون السعوديّون. فعلى سبيل المثال، كانت الفتاوى التي تهاجم المصاهرات بين السنّة والشيعة حاضرةً بقوّة، عدا عن تلك التي تمنع السنّة من أكل اللحوم التي يذبحها اللحّامون الشيعة. واتّهم النّاشطون الشيعة النّظامَ بتهميش سكّان المنطقة الشرقيّة، حيث تركوا بلداتهم وقراهم بلا تنمية اقتصاديّة وحرموهم من إمكانيّة إيجاد فرص العمل ومن حريّتهم الدينيّة.

لكنّ الملوك السعوديّين كأفراد لاعبون سياسيّون تلاعبيّون، مدفوعون بغريزة البقاء أكثر من التضامن الطائفيّ. فلنأخذ الملك فيصل الذي كان قد دعم في الستينيّات العائلة الملكيّة الزيديّة الشيعيّة في اليمن ضد الجمهوريّين المدعومين من الرئيس المصريّ جمال عبد الناصر. أمّا داخلياً، فقد استمال الملك عبد الله وأميره الحاكم للمنطقة الشرقيّة الغنيّة بالنفط عدداً من الوجهاء ورجال الدين الشيعة حيث كانوا يجتمعون أحياناً لإبداء الولاء للملك بعد التظاهرات المتقطّعة واندلاعات العنف. استخدم الملك الشيعة والعنف في المنطقة لإخافة الأكثريّة وكبحها عن المطالبة بأيّة تغييرات سياسيّة. وكلّما تظاهرَ الشيعة، كانت الأكثريّة تُلقَّن بخطاب أنّهم مُستهدَفون من قوى خارجيّة وعملائها المحليّين. وحين خَلَفَ سلمانُ الملك عبد الله عام ٢٠١٥، سارع مباشرةً إلى شنّ حرب على اليمن، تحت اسم عاصفة الحزم، لاحتواء التوتّر والاستياء في الداخل اللذين تسبّبت بهما سياسات سلفه التي بدت ضعيفة وفاترة. وواصلت السرديّة السعوديّة عن الحرب الدائرة التّمظهر في لغة طائفيّة حيث صُوّرت بكونها محاولةً لتدمير نفوذ إيران في شبه الجزيرة العربيّة ونفوذ وكلائها في المنطقة، الحوثيّين الزيديّين في اليمن، ما يُظهر مؤهّلات القيادة كراعٍ للمصالح السنّيّة.

وفي الوقت ذاته، يرى النظام المنفعة المنحرفة الناجمة عن الاعتداءات على المصلّين الشيعة على يد جماعات سنّيّة متطرّفة، ما يُرهب الأقليّة. ثمّ يقدّم النظام نفسه بوصفه الحامي الأفضل للشيعة، فالبديل هو الجهاديّون المتطرّفون. وبعد سنوات من التحذيرات الصحافيّة السعوديّة ضدّ الشيعة المتسبّبين بالاضطرابات الذين

يُزعَم أنّهم مدعومون من إيران، يهيمن الحديث عن الوحدة الوطنيّة على المجال العام فيما يُهاجَم المصلّون الشيعة خارج مساجدهم. ويضع النظام تحت تصرّفه أصواتاً متعدّدة، يُقدَّمون كمثقّفين وكتّاب قادرين على التنقّل بين الخطاب الطائفيّ الحادّ وشعارات الوحدة الوطنيّة، بالتوافق مع حاجات العصابة الحاكمة المهيمنة في لحظةٍ محدَّدة. وتستلزم المناورة السياسيّة من النّظام أن يلعب على مخاوف كلٍّ من الأقليّة الشيعيّة والأكثريّة السنّيّة بدلاً من انتحال هويّةٍ طائفيّة ثابتة. وتبقى نجاة آل سعود، بدلاً من حماية عالمٍ سنّيٍّ كامل، هي المشروع الأكثر قداسة.

لا الملكيّات السنّيّة الصريحة مثل العربيّة السعوديّة وملحقاتها ولا الجمهوريّات الرئاسيّة العربيّة منغمسةٌ حقاً في خنادق طائفيّة دائمة، بالرغم من الخطاب الصارخ المُصمَّم بغرض الاستهلاك الشعبيّ وحشد النّاس. وينطبق الأمر ذاته على المجتمعات التي يُفترَض أنّ الطائفيّة منتشرة فيها - كما في لبنان مثلاً، وسورية، والعراق والبحرين. وأن نعتبر أنّ هذه المجتمعات غارقة كلياً في الهويّات الطائفيّة والعنف الناتج منها سيُؤدّي بنا إلى طمس انقسامات سياسيّة واقتصاديّة أخرى ضمن كلّ جماعة، كالتباينات الطبقيّة مثلاً. تصبح الطائفيّة مظلةً تتخفّى تحتها هذه الانقسامات بهدف تعزيز تضامنات وهميّة. نعم، ربّما كانت المنطقة العربيّة تضمّ وجه الطائفيّة القبيح، ولكن لا ينبغي أن يكون هذا عذراً لعدم الكشف عن وقائع أكثر مرارةً من الفقر، والإقصاء، والتهميش، وطغيان الجماعة الطائفيّة للمرء ومحيطه الخارجيّ على السواء. غالباً ما يُتجاهَل هذا الأمر مع أنّه بُعدٌ مهمّ ينبع من الجماعاتيّة حيث لا تتوافق مصالح المرء مع مصالح الجماعة على الدوام. هذا مهمّ في مجالات مثل المساواة الجندريّة، حيث قد تعمل الطائفة كجماعة على تعزيز التمييز الذي يبقى خفياً وتُفسَّر كلّ مقاومةٍ بوصفها خيانةً للجماعة بأكملها.

وإنْ عجزت الطائفيّة عن تفسير السلوك السياسيّ للأنظمة والتنوّع الداخليّ ضمن الجماعات الطائفيّة، لمَ إذاً يُواصل العالم الخارجيّ رؤية المنطقة وسياساتها عبر موشور طائفيّ؟ اكتشفت القوى الغربيّة التي كانت تاريخياً قد سيطرت على العالم العربيّ أنّ الهويّات البدئيّة المشحونة عاطفياً مثل الطوائف مفيدةٌ للغاية كأدوات لتقسيم ورسم تفاصيل السكّان. وعمدوا إلى تصوير الجماعات بكونها ركائز متوازية وصلبة، وبنوا عليها تصوّراتهم بكونها حقائق تاريخيّة عصيّة على التلاشي. وكانت الحلقة الأخيرة في هذه الرؤية هي التصوّر الأميركيّ للعراق بكونه بلداً من الشيعة، والسنّة، والكرد. وأثبتت عواقب هذه الرؤية كارثيّتها على المواطنين كلّهم. وبعد تصنيمها ومأسستها، لم يكن لدى الجماعات المُهمَّشة خيارٌ سوى الانخراط في رؤيةٍ ثوريّة مضادّة.

كذلك فإنّ تصوُّر العالم العربيّ بكونه محيطاً هائلاً تكون لأسماك القرش اليد الطولى فيه يزيد في تأكيد الاستثنائيّة المزعومة التي يُعتقَد أنّها السمة الأساسيّة للمنطقة، أي، مكاناً تكون فيه المواطَنة والديمقراطيّة ومقارعة الطائفيّة أموراً عصيّةً على التحقّق. ولا يزال كثير من المراقبين في الغرب يفضّلون مثل هذه الكليشيهات الاستشراقيّة القديمة. في كتابه «المجتمع المسلم»، يصرّح الفيلسوف والأنثروبولوجيّ البارز إرنست غلنر بوضوح أنّ المجتمعات المسلمة عصيّةٌ على العلمنة لأنّها تواصل تخندقها في الهويّات الدينيّة والقبليّة، عاجزةً عن تشكيل تجمّعات على أساس مصالح أخرى، كالطبقة، والفكر المشترك، أو مظاهر غير بدئيّة أخرى من هويّتها.

في العالم العربيّ، وفي جميع أرجاء العالم، ستستمرّ الهويّات الدينيّة في احتلال موقع الصدارة، مُرمَّزةً على نحوٍ صريح، ومُغذّاة ثقافيّاً لكنّ الطائفيّة هوّة مظلمة تحفرها عوامل داخليّة وخارجيّة كثيرة. قد يعمد القادة العرب إلى إيقاد التصوّرات الطائفيّة، لكنّ ولاءهم موجَّهٌ في المقام الأول لعُصبتهم وتابعيهم، بصرف النّظر عن انتماءاتهم. وبقَدْرٍ مماثل، تنشغل المجتمعات العربيّة ببؤسها الاقتصاديّ وتهميشها، برغم أنّها تعلّمت مؤخّراً كيفيّة إبراز إقصائها عبر أفعال طائفيّة. الطائفيّة ليست سمةً تاريخيّةً متأصّلة لدى الشعوب العربيّة. وسيواصل المقاولون الطائفيّون ورجال الدين الانتعاش والانتفاع من هذه السرديّة. الطائفيّة، بمعنى آخر، ظاهرةٌ سياسيّة حديثة تتغذّى على يد الدكتاتوريّين الدائمين الذين يعتمد حكمهم على تحريض هذه الهويّات الدينيّة القديمة التي ستصبح مُسيَّسةً على نحوٍ قاتل.

ولا بدّ أن يبتعد تفكيرنا حيال العالم العربيّ والحروب المستعرة ضمن الطوائف وبينها عن الانقسام السنّيّ - الشيعيّ التاريخيّ، ويتركّز على الاستراتيجيّات العميقة الخاصّة بدكتاتوريّات الوليّ - التابع وعلى التفاوت الاقتصاديّ بين الجماعات المتنوّعة وضمنها. وكذلك، فإنّ إعادة النّظر في النموذج الطائفيّ الأبديّ المزعوم للعالم العربي واجبٌ قد تأخّر طويلاً.

كتاب

١٨٤ **أنا القارئ وهذه كتبي**
ابن خلدون, إمام المؤرّخين
طريف خالدي

١٩٥ **وردة اليازجي**
امرأةٌ صدمت الرّجال
عماد الدين رائف

أنا القارئ وهذه كتبي
ابن خلدون, إمام المؤرّخين

طريف خالدي

مؤرّخ وأستاذ جامعي فلسطيني. من أعماله «الإنجيل برواية المسلمين» وترجمة القرآن إلى الإنكليزيّة.

جاء ذكرُ للطّبري (ت. ٩٢٣ م.) في المقال السابق بشكل مختصر لكنّه بدون شكّ إمام مؤرّخي قبّة الحديث. ولم تصدر عنه حتّى اليوم دراسة عميقة تليق بمقامه الفكريّ الشامخ. لم يترك لنا فقط تاريخاً لا تزيده الأيّام إلّا منفعة وعمقاً لمؤرّخي اليوم بل تفسيراً جليلاً للقرآن أشبه بسجلّ كاملٍ لآراء العلماء وتفاسيرهم حتّى أيّامه هو.

التأريخ من الإسناد إلى الرّواية

سبق أن استشهدنا بالطّبري الذي يقول إنّ المعرفة التاريخيّة لا تأتي إلّا من «أخبار المُخبرين ونقْل النّاقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النّفوس». كان أهل الحديث أيّام الطّبري عُرضةً لهجمات شديدة من جانب علماء الكلام بوجه خاصّ الذين عابوا عليهم منهجيّتهم في تمحيص الأخبار، وطعن بعضهم بنظريّة الإسناد فجاء الطبري ليقول إنّ الأخبار لا يمكن أن تُستخرج بالعقل بل هي معلومات ترِد إلينا عن طريق واحد فقط هو طريق المخبرين. لذا فإنّ فضيلة المؤرّخ الكبرى عند الطّبري هي الأمانة في النّقل عن كافّة المخبرين بدون استثناء مع ذكر الإسناد بدقة. وإذا أردنا أن ندخل في خضمّ هذا الجدل حول الحديث والأخبار بشكل عامّ لن نجد في رأيي دفاعاً عن الحديث ومنهجيّته أشدّ عوداً وصلابةً من تاريخ الطبري ثمّ خصوصاً من كتاب «تأويل مختلف الحديث» لابن قُتيبة.

لكنّ هذه المنهجيّة لم ترقْ لمن جاء بعد الطبري من أجيال المؤرّخين.

- أوّلاً: الإسناد الذي هو بمثابة العمدة في علم الحديث لم يكن متوفرّاً ولا ملائماً لتواريخ الأمم الأخرى التي بدأ يهتمّ بها جيلٌ آخر من المؤرّخين.

- ثانياً: مع بروز علم الأدب عند كتّاب الدّولتين الأمويّة والعبّاسيّة، وجد الأدباء أنّ الإسناد من التّثقيل والتّطويل خصوصاً أنّ مادّة الأدب الأساسيّة هي الرّواية المنفردة التي لها مغزى أخلاقيّ أو هي للتّسلية وشحْذ الذّهن ثمّ طبعاً رواية الشّعر على أنواعه من قديم وحديث: كلّ هذه الموادّ لا ضرورة تدعو لذكر إسنادها.

- ثالثاً: مع مجيء الفلسفة وعلم الكلام وعلوم الطّبيعة لم يعُد للإسناد مكانٌ بينها فهي كلّها علوم مستنبَطة من العقل. لذا انتقلت الكتابة التاريخيّة التي تأثّرت بكلّ هذه العوامل من قبّة الحديث إلى قبّة الأدب ثمّ قبّة الحكمة حيث النّثر المتسلسل هو الأسلوب السّائد وحيث تُستقى وتُمحّص المعلومات لا من سلاسل الإسناد بل من مؤلّفاتٍ معيّنة أو من راوٍ معيّن أو من مشاهدات شخصيّة أو من استنتاجات عقليّة.

- رابعاً: لا شكّ لديّ في تأثير الجاحظ العميق في انتقال أسلوب الكتابة عامّةً من الجمع إلى التّأليف. بكلام أبسط، المؤرّخ أصبح مؤلّفاً بالمعنى الحديث للكلمة ولم يعدْ مجرّد جمّاعٍ للرّوايات، أي إنّه أصبح يُرجّح ويحذف ويلخّص ويركّب وينسّق ويُجمّل ويقرّب ويباعد ويسرد ويربط ويعلّل ويوجب، أي يفعل ما يفعله أيّ مؤرّخ في زماننا هذا. وهكذا عندما نقرأ اليعقوبي أو المسعودي أو الدّينوري أو غيرهم نجد أنّنا قد انتقلنا من دهاليز الطّبري وأسانيده إلى رحاب التاريخ المتّصل الذي تُوجّهه وتَصوغه يدٌ واحدة وروحٌ واحدة هي يد وروح المؤرّخ المعيّن. لا يمكن أن نزعم أنّ قراءة تاريخ الطّبري متعةٌ للقارئ لكنّنا نجد متعةً لا شكّ فيها عندما نقرأ المسعودي مثلاً فنجده يسرد التّاريخ أمامنا وكأنّه بساط من الرّوايات متعدّدة الألوان والأمزجة. أمّا الإسناد فإنّه لم يختف طبعاً بين ليلة وضُحاها إذ نجده حاضراً حتّى في كتب الأدب

ككتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني (ت. ٩٦٧م.). لكنّ ضمور الإسنادبات واضحاً في كتب التّاريخ بدءاً من القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد.

انفتاح التّاريخ على العلوم العقليّة

أمّا القبّة الثّالثة أي قبّة الحكمة فهي تلك التي بنَتْها العلوم الفلسفيّة والكلاميّة (أي اللاهوتيّة) والطبيعيّة والتي استظلّها عدد من كبار المؤرّخين في القرون اللاحقة. نلمح ظلال هذه القبّة بدءاً باليعقوبي الذي يذكر بانتظام «الطّالع» عند ابتداء كلّ خلافة فيقول مثلاً: «وكانت الشّمس يومئذ في الدّلو ستّاً وعشرين درجة وعشرين دقيقة، والقمر في السّنبلة خمس درجات والمرّيخ في الجدْي أربع درجات. والزهرة... وعطارد إلخ.». وهذه كلّها مأخوذة من علم أحكام النّجوم الذي يحدّد مآل ومسار الزمن كالرّخاء أو الكوارث في تلك الآونة. ثمّ نجد ظلالها قد امتدّت بعيداً عند المسعودي والمطهر بن طاهر المقدسي حيث يلعب علم الكلام المعتزليّ كما العلوم الطبيعيّة دوراً بارزاً في قبول الرّوايات وتمحيصها. وثَمّة نصٌ في المسعودي أراه جديراً بالتأمّل عند الحديث عن تأثير علم الكلام والعلوم الطبيعيّة على التّاريخ. ففي صدد كلامه عن وجود أو عدم وجود بعض الكائنات الخرافيّة كالنّسناس والعنقاء يقول أوّلاً إنّ الأخبار عنه تتضارب في الشّرق والغرب فأهل الشّرق يرَوْن أنّه موجود في الغرب وأهل الغرب أنّه في الشّرق، ثمّ يستطرد على النّحو الآتي: «ونحن لم نُحِلْ وجود النّسناس والعنقاء وغير ذلك ممّا اتّصل بهذا النّوع من الحيوان الغريب النّادر من طريق العقل فإنّ ذلك غير ممتنع في القدْرة (أي القدرة الإلهيّة) لكنْ أحلنا ذلك لأنّ الخبر القاطع للعذر لم يَرد بوجود ذلك في العالم. وهذا باب داخل في حيّز الممكن والجائز... ويحتمل هذه الأنواع من الحيوان النّادر ذكْرها... أن تكون أنواعاً من الحيوان أخرجتْها الطّبيعة من القوّة إلى الفعل فلم تُحكمه... فبقي شاذّاً فريداً ...طالباً للبُقاع النّائية من البرّ مبايناً لسائر أنواع الحيوان... ممّا قد أحكمتْه الطّبيعة وعدم المشاكلة والمناسبة التي بينه وبين غيره من أجناس الحيوان».

نجد عند ابن حزم الأندلسي ذاك المفكر النابغة، تحليلاً لمشكلة التواطؤ في تلفيق الأخبار إذ يرى أن الكذب والتواطؤ يجوز على الواحد والكثرة.

هذا النّص يمثّل أحسن تمثيل انفتاحَ التّاريخ على العلوم العقليّة إذ يستخدم أوّلاً علم الكلام ليثبت أنّ الخَلق على أنواعه ممكن في القدرة الإلهيّة ثمّ يُتبع ذلك باستخدام مفهوم الخبر «القاطع للعذر» ليصل أخيراً إلى نظريّة أرسطو حول القوّة والفعل فيستخدمها لتفسير محتمَل لوجود النّسناس أو ما يشابهه من غريب الحيوان.

هذا الاهتمام المتزايد عند المؤرّخين بالعلوم الطبيعيّة والعقليّة يقابله اهتمامٌ متزايدٌ بالأخبار وتمحيصها وتحقيقها عند علماء الكلام وعلماء الطّبيعة. فنحن نجد عند القاضي عبد الجبّار المعتزلي (ت. ١٠٢٤ م.) مثلاً تحليلاً مفصّلاً لأصناف الأخبار متفاوتة الصحّة وتعريفات دقيقةً للخبر المتواتر وخبر الآحاد وما يُعرف صدقُه بالضّرورة وما يُعرف بالاستدلال. أمّا أبو الحسين البَصري (ت. ١٠٤٤ م.) وهو تلميذ عبد الجبّار، فهو يفحص بدقّة الأحوال المحيطة بالخبر والمُخبر وينتقل بالتّحليل من المجال الفقهيّ إلى المجال اليوميّ أي الحوادث اليوميّة فيقول: «أمّا أحوال المخبِر فنحو أن يكون له صارفٌ عن الكذب في ذلك الخبر ولا يكون له داعٍ إليه... نحو أن يكون رسولاً من سلطان يذكر أنّ السّلطان يأمر الجيش بالخروج إليه فعقوبة السّلطان تصرِفه عن الكذب (...) ونحو أن يكون الإنسان مهتمّاً بأمر من الأمور متشاغلاً به فيُسأل عن غرّة فيخبر عنه في الحال فيعلم أنّه لم يفكّر فيه (...) وهذه الأمور تقتضي أن لا غرض للمخبر في الكذب». لكنّه يستطرد ليقول إنّ مثل تلك الأحوال لا تقطع بصحّة الخبر بل هي من صنف الظّنّ الغالب. وهذه الأمثلة المختارة من الحياة اليوميّة هي بالطّبع أقرب إلى ما يتعاطى به المؤرّخ العاديّ.

ونجد عند ابن حزم الأندلسيّ (ت. ١٠٦٤ م.) ذاك المفكّر النّابغة، تحليلاً لمشكلة التّواطؤ في تلفيق الأخبار إذ يرى أنّ الكذب والتّواطؤ يجوز على الواحد والكثرة، لكنّه يعرّف الخبر الموجب للعلم كما يلي: «إذا جاء إثنان فأكثر من ذلك وقد تيقّنا أنّهما لم يلتقيا ولا دسَسَا ولا كانت لهما رغبة في ما أخبرا به ولا رهبةٌ منه ولم يعلم أحدهما بالآخر، فحدّث كلّ واحد منهما مفترقاً عن صاحبه بحديث طويل لا يمكن أن يتّفق خاطرُ إثنين على توليد مثله، أخبرتْ عن مثلها بأنّها شاهدت، فهو خبرُ صدقٍ يضطرّ بلا شكّ مَن سمعه إلى تصديقه... وهذا الذي قلنا يعلمه حساً مَن تدبّره ورعاه في ما يرد كلّ يوم من أخبار زمانه من موت أو ولادة أو نكاح أو عزل أو ولاية أو وقعة وغير ذلك» . ولعلّ الجدل الدّائر

بين المتكلّمين حول تعريف العادات والمعجزات من أمتع أوجه الفكر التّاريخيّ في ذلك الزمن. ما هي العادة وما هو خرق العادة؟ وما هي المعجزة وما علاقة الأنبياء بالمعجزات؟ وما المعجزات التي يمكننا أن نقبلها وما تعريفها؟ هذه كلّها أسئلة حظيت بالكثير من التحليل عند علماء الكلام ووصلت أصداؤها إلى بعض المؤرّخين كالمسعودي كما في النّصّ أعلاه أو كالمطهر بن طاهر المقدسي الذي يعرّف المعجزة على النّحو الآتي: «قد يكون الشّيء معجزة في وقت وهو بعينه غير معجزة في وقت آخر، ويكون معجزةً لقوم وغير معجزة لقوم، ويكون الشّيء باجتماع أجزائه معجزة ويكون جزءٌ منه على الانفراد غير معجزة». لن أسترسل هنا في الحديث عن موضوع المعجزات لكن لاجدال في أنّ للمعتزلة دوراً رئيسيّاً في تعريف المعجزات وحصرها بالأنبياء وإنكارها عند باقي البشر ككرامات الأولياء مثلاً. وأنكَر بعض الفلاسفة كأبي بكر محمّد بن زكريّا الرازي (ت. ٩٢٥ م.) المعجزات بالكامل واستمسكوا بما تمليه القوانين الطبيعيّة. أمّا الفيلسوف مسكوَيْه فقد ورد أعلاه كيف نبَذ من كتابه «تواريخ الأنبياء» إذ هي تزخر بالمعجزات وليس فيها من التّدبير والتّجارب ما قد يفيد أصحاب الحكم في يومه الرّاهن. ولعلّ البيروني العظيم (ت. ١٠٤٨ م.) أوضحُ مثالٍ على قبّة الحكمة، ففي كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية» يستخدم آخر ما توصّل إليه علم الفلك والرياضيّات لتحديد تواريخ الأمم وضبْطها على أساس تماسكها الدّاخليّ، وفي كتابه ذائع الصّيت عن الهند يكشف الأباطيل المحكيّة عن الدّيَانة الهنديّة استناداً إلى المصادر الهنديّة الموثوقة والأصليّة وذلك بتجرّدٍ علميّ تامّ وبالدّراسة المقارنة للثّقافات المختلفة.

قبّة السياسة

ونصل اخيراً إلى قبّة السياسة. نحن الآن في عصر السّلاطين من السّلاجقة والزّنكيّين والأيّوبيّين ومن ثَمّ المماليك، أي القرون ١١ إلى ١٦ ميلاديّة. هذه الحقبة خلقت على ما أعتقد خطاباً فكريّاً واجتماعيّاً جديداً ترك أثره العميق عند المؤرّخين. فقد بنى هؤلاء السلاطينُ دولاً من صنف جديد قوامها حشد كافّة طاقات المجتمع وتركيزها وعسكرتها في دولة مركزيّة واحدة تمتلك أيديولوجيّةً دينيّة معيّنة كثيراً ما يكون الجهاد ضدّ الأعداء محرّكَها الأساسي. ولعلّ كتاب «سياست نامه» (أي كتاب الحكم) للوزير السّلجوقيّ الشّهير نظام الملك (ت. ١٠٩٢ م.) هو أفصح تعبير عن هذه الدّولةَ السّلطانيّة الجديدة، بل قد نعتبره الشّعار السياسيّ لتلك المرحلة في التّاريخ. وهذا الكتاب بمثابة دستور ينبغي للسلطان أن يتبعه حتى تستقيم أمور الدّولة، فهو يتطرّق إلى تدبير الجيوش والإقطاع واستخدام الشُرَط والعيون ومراقبة الأموال، ثُمّ يتطرّق إلى الأمور الأخلاقيّة والدينيّة وإلى تعريف العدل والاهتمام بكافّة طبقات المجتمع وإلى مسؤوليّة السّلطان تجاه الله والدِّين. هذه الدّول الجديدة التي قد نسمّيها شموليّة هي التي خلقت خطاباً ساد عمران تلك الدّول. وهذا العمران (بالمفهوم الخَلدونيّ) نلمح ظلاله ليس فقط في أدبيّات تلك العصور بل أيضاً في فنونها المختلفة ومنها مثلاً فنّ العمارة الضّخمة التّذكاريّة التي عكست هيبة الدّولة، كما نلمح تلك الظّلال في سعي الدّول السّلطانيّة للسّيطرة على التّعليم وخلق «كادر» جديد من موظّفي الدّولة من خلال المدارس (كالنّظاميّة في بغداد مثلاً) ولتدبير وتنظيم المذاهب الفقهيّة ولدمج الطّرُق الصوفيّة في المجتمع وحشدها للدّفاع عنه كما وللسيطرة التامّة على نظام الإقطاع من جانب السّلطان. ولا ريب أنّ هذا التّحوّل نحو الشموليّة كان في جزء منه على الأقلّ ردّة فعلٍ على خطرين عظيمين دهما العالم الإسلاميّ في تلك العصور هما الخطر الصليبيّ في الأندلس أوّلاً ثمّ في الشرق الأدنى ولاحقاً الخطر المغوليّ الأعظم والأكثر ديمومة في شرقنا العربيّ. ونجد عند ابن الأثير (ت. ١٢٣٢ م.) مثلاً تحليلاً إستراتيجيّاً عميقاً لتزامن هذين الخطرين وانقضاضهما على ممالك الإسلام كالكمّاشة، الواحد من الغرب والثّاني من الشّرق.

هذه باختصار وتبسيط هي المكوّنات الأساسيّة لعصور السلاطين والتي استظلّها الأدباء والمؤرّخون. فقد عزّزت تلك المكوّنات تراتبيّة المجتمعات وهرميّة بنيانها من جهة، كما عزّزت إحساس أهل الأدب والتّاريخ بأنّهم يعيشون في زمن تاريخيّ عميق المغزى لا يقلّ شأناً عن تاريخ ما مضى من الأيّام. فهذا مثلاً عماد الدين الأصفهاني (ت. ١٢٠١ م.) يصف في مقدّمة تاريخه المعقود لاستعادة القدس على يد السّلطان صلاح الدّين الأيّوبي كما يلي: «وإنّما بدأنا بالتّأريخ به (أي بالفتح القدسي) لأنّ التّواريخ معتادها أن تكون مُستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى وإما مستفتحة بمعقب من الدول... وأنا أرّختُ بهجرة ثانية تشهد

للهجرة الأولى... وهذه هي هجرة الإسلام إلى بيت المقدس وقائمُها السّلطان صلاح الدّين... وعلى عاتقها يُحسن أن يُبنى التأريخ... وهذه الهجرة أبقى الهجرتين».

السياسة وبمعناها الأوسع الذي يشمل فيما يشمل السيطرة البيرقراطية والنظم الإقطاعية العسكرية هي القبة التي أظلت الكتابة التاريخية إبان تلك العصور.

وهذا كلام جريءٌ للغاية! وواكب هذا الإحساس بقدوم عصرٍ جديدٍ بروزُ تواريخ موسوعيّة ضخمة، شاملة في تغطيتها. ونحن عندما نتصفّح هذه التّواريخ نجدها تشبه إلى حدٍّ بعيد النظام البيرقراطيّ السّلطانيّ السّائد أو «المسح الإقطاعيّ» الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة من الحوادث دون تدوينها بدقّة. ولعلّ التّواريخ التي كُتبت في العصر المملوكيّ هي من أوضح الأمثلة على ما نسمّيه اليوم «التّغطية الشاملة» للأخبار في الكتابة الصحافيّة، ومن أكثر هذه التّواريخ شهرة كتاب «السّلوك لمعرفة دول الملوك» للمقريزي (ت. ١٤٤٢ م.) الذي يعتمد التأريخ على السّنين ثمّ يسرد ضمنها ليس فقط حوادث الشّهور والأيّام بل حتّى الساعات في بعض الأحيان، ويُرفق ذلك ببعض المعلومات الاقتصاديّة كغلاء الأسعار أو انخفاضها، ثمّ أيضاً الحركات الشعبيّة والرسائل المتبادلة بين الملوك المأخوذة من سجلّات الدّواوين، وأخبار الزّلازل والبراكين والأوبئة والطواعين، وصُورٍ وصفيّة دقيقة لبعض الشخصيّات الهامّة كتلك التي رسمها مثلاً لشخصيّة الملك الصّالح أيّوب وهو أحد آخر سلاطين بني أيّوب قبل قيام دولة المماليك. وكما عند المقريزي كذلك الأمر عند العديد ممّن سبقه من مؤرّخي تلك العصور كابن الجوزي (ت. ١٢٠١ م.) وابن واصل (ت. ١٢٩٨ م.) وسبط ابن الجوزي (ت. ١٢٥٦ م.) وأبو شامة (ت. ١٢٦٧ م.) وابن تغريبردي (ت. ١٤٦٩م.) وغيرهم. السياسة إذاً وبمعناها الأوسع الذي يشمل فيما يشمل السّيطرة البيرقراطيّة والنّظم الإقطاعيّة العسكريّة هي القبّة التي أظلّت الكتابة التاريخيّة إبّان تلك العصور.

ابن خلدون إمام المؤرّخين

هكذا إذاً كان التقسيم الذي اقترحتُه في كتابي «فكرة التاريخ عند العرب». وأنا عندما أعود في هذه الأيّام

إلى ذاك الكتاب الذي بلغ من العمر اليوم ما يزيد عن العشرين عاماً أجد فيه بعض التعسّف في التّقسيمات لكنّني ما زلت أرى أنّ من المفيد لنا أن نطرح ما يشبه ذاك التقسيم كي نربط كتابة التّاريخ بما حولها من المناخات الاجتماعيّة والفكريّة، ولا نكتفي بسرد أسماء المؤرّخين وكأنّها سلسلة إسنادٍ أو فهرس أو «كاتالوغ» حيث يتسلّم اللاحق الرّايةَ من السابق وحيث التركيز هو على التّأثير الذي مارسه زيد على عمرو. وقد يكون من المفيد أيضاً أن نحاول أن نفعل الشيء ذاته مع الأدباء والفلاسفة والمتكلّمين وعلماء الطبيعة وغيرهم. كما قد نستلهم في هذا الصّدد المقولة التي يردّدها ابن خلدون: «النّاس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم».

يقول الكاتب الإيطالي إيتالو كالفينو إن الكتاب الكلاسيكي هو الكتاب الذي «لم ينته قط من قول ما أراد أن يقوله» وهذا ما يشجع المرء على أن يدلي بدلوه حتى ولو كانت البئر مكتظة بالدلاء.

لا مفرّ لي الآن من أن أصل إلى إمام المؤرّخين عبد الرحمن ابن خلدون (ت. ١٤٠٦ م.) الذي تناوله عدد ضخم جداً من الكتّاب في الشرق والغرب، فماذا يمكن أن يُقال فيه ما لم يكن قد قيل من قبل؟

تتملّكني الحيرة في هذا الموقف فهو بدون شكّ يحتلّ في تاريخنا الفكريّ مكاناً يشبه ما يحتلّه كارل ماركس مثلاً في الفكر الغربيّ. غير أنّني أجد أنّه، وبسبب هذه المكانة الفكريّة الكبرى بالذّات، يوحي لكلّ جيل بتفسيرات متنوّعة المناحي والدّلالات، بل لربّما من الواجب أن يحاول المرء أن يصوغ لجيله نظرات جديدة في بنيانه الفكريّ الشاهق. يقول الكاتب الإيطالي إيتالو كالفينو إنّ الكتاب الكلاسيكيّ هو الكتاب الذي «لم ينته قَطّ من قول ما أراد أن يقوله» وهذا ما يشجّع المرء على أن يُدلي بدلوه حتّى ولو كانت البئر مكتظّةً بالدّلاء. وفي أثناء محاولاتي المتكرّرة لإيصال فكره إلى التّلامذة وجدت في نهاية الأمر بعض الفائدة في أن تكون نقطة الانطلاق هي أن نتأمّل ببعض التّفصيل عنوان تاريخه الذي هو على النّحو الآتي: «كتاب العبَر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومَن عاصَرهم من ذوي السلطان الأكبر».

أوّلاً: كلمة العبر

هي طبعاً جمع عبرة وتعني الدّروس المستفادة من التّاريخ أو الماضي، وهي كلمة كثيراً ما ترِدُ في القرآن مصحوبة بلفظة «أولي الأبصار» أي أنّ العبرة لا يفهمها سوى الذين يتأمّلون حوادث الزّمن ويستخلصون منها مغزاها العميق. والكلمة مشتقّة من المصدر ع-ب-ر وتعني فيما تعنيه العبور أو الانتقال من ضفةٍ إلى أخرى من النّهر مثلاً. فإذا دمجنا المعنى القرآنيّ بالمعنى الحرفيّ نصل إلى ما يريد ابن خلدون لنا أن نفعله وهو أن نعتبر بالماضي ونقطع من ضفّة التّاريخ إلى ضفّة مغزاه الحقيقيّ، من ظاهر التّاريخ إلى باطنه، من موج التّاريخ المتلاطم إلى حقيقته الثّابتة، من أحداثه السّطحيّة المتلاحقة إلى أعماقه التي لا تتغيّر. فالتّاريخ بحدّ ذاته عند ابن خلدون ليس إلّا سلسلة من الحوادث التي تمرّ من أمامنا فلا نعرف لها وجهة ولا معنىً، ولا فائدة تُرجى منها سوى لربما التسلية التي نجدها في القصص. أمّا إذا أردنا أن نحمِل التّاريخ على محمل الجدّ فلا بدّ من العبور إلى ما وراءه لاستكشاف مبادئه التي تحدّد مساره وتعرّجاته. وهذا ما يفسّر هجومه الماحق على المؤرّخين الذين يرى أنّهم مجرّد قُصّاصٍ ليس إلّا.

ثانياً: ديوان المبتدأ والخبر

لفظة الديوان في المغرب وهو مسقط رأس ابن خلدون، تعني عملاً موسوعيّاً شاملاً، الأمر الذي توضّحه لفظة المبتدأ والخبر. من هنا فإنّ ابن خلدون يوحي لنا أنّ كتابه سوف يكون شاملاً ومكتملاً، تماماً كما يكمّل الخبر المبتدأ. فالتّاريخ بحدّ ذاته ليس سوى المبتدأ ولا يُفهم إلّا إذا فهمنا خبره. وهذا الفهم يتطلّب في رأي ابن خلدون الإحاطة بكوكبة واسعة من العلوم التي يحدّدها على النّحو الآتي: «يحتاج صاحب هذا الفنّ إلى العلم بقواعد السّياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السّيَر والأخلاق والعوائد والنِحل والمذاهب... والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب... حتّى يكون مستوعباً لأسباب كلِ خبرَه وعندئذٍ يعرض خبر المنقول على ما عنده منَ القواعد والأصول»، فيصحّح الخبر أو يرفضه. وإذا أردنا أن نترجم هذا الكلام إلى لغة الحاضر لقلنا إنّ الذي يتنطّح لكتابة التاريخ عليه أن يكون قد حصل على درجة الدكتوراة في العلوم الآتية: العلوم السياسيّة، الاقتصاد، علم البيئة، علم الاجتماع، علم الأحياء،

الفلسفة والمنطق، علم الكلام، العلوم الفقهيّة، التّاريخ المقارن، علم الجغرافيا والأدب، ولوجَب أن يسمّي نفسه «الدكاترة فلان الفلاني»!

لو أردنا تشبيها عصريا لقلنا إن ابن خلدون يغلب التطبع على الطبع إذ كثيرا ما يردد أن «الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم» أي أن البيئة هي التي لها التأثير الأكبر في تكوين الإنسان. لا المصـــــــــــــدر والنسب والطبع والوراثة وإلى ما هنالك.

أمّا الاسم الذي اختاره ابن خلدون لعلمه الجديد والذي يقول إنّه لم يسبقه إليه فهو «علم العمران البشريّ». لكنْ قبل الحديث عن هذا العلم تجدر الإشارة إلى أنّ ابن خلدون قد قلب كتلة مفاهيم الحضارات القروسطيّة الشرقيّة والغربيّة رأساً على عقب من خلال هذا العلم. إذ إنّ النّصوص الأدبيّة والدينيّة حتّى أيّامه هو كانت، في الغالب الأعظم منصبّة على الإنسان الفرد، على الروح البشريّة، والمصير، على العبادات والمعاملات والواجبات الإنسانيّة، على الخير والشرّ، على معنى البطولة، على الحبّ، وإلى ما هنالك من الأمور التي محْورُها الإنسان الفرد. أمّا ابن خلدون فهو يرى أنّ العمران البشريّ هو الأمر الجدير بالفحص والتّدقيق. فإذا أردنا أن نفهم الإنسان الفرد يجب أوّلاً أن نفهم بيئته ومجتمعه، أن نفهمه في الدائرة الكبرى لا في الدائرة الصغرى، وما إن تتّضح صورة الإطار الأوسع حتّى تتّضح صورة الفرد. لذا فالإنسان الفرد ما هو إلّا «مبتدأ» أمّا بيئته فهي «الخبر» الذي يضفي عليه معناه الشامل. قد نقول إذاً إنّ ماهيّة الإنسان أو جوهره (المبتدأ) تجد معناها الحقيقيّ والكامل في كيانه ووجوده (الخبر). ولو أردنا تشبيهاً عصريّاً لقلنا إنّ ابن خلدون يغلّب التطبّع على الطّبع إذ كثيراً ما يردّد أنّ «النّاس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم» أي أنّ البيئة هي التي لها التأثير الأكبر في تكوين الإنسان، لا المصدر والنسَب والطبع والوراثة وإلى ما هنالك.

ما هي هذه البيئة في نظر ابن خلدون؟ ثمّة بيئتان أساسيّتان إحداهما البيئة البرّية أو القفر (ويسمّيها ابن خلدون العمران الوحشيّ) والأخرى البيئة المدينيّة (العمران الحضري). هاتان البيئتان تقعان خارج الزمن بمعنى أنّهما لا تواكبان الزّمن العاديّ بل هما نوعان من الوجود الذي يتغيّر ببطء واستناداً إلى قوانين معيّنه لكنّه يبقى في جوهر ذاته كما هو. والعلاقة بينهما علاقة ديالكتيكيّة نوعاً ما، أي علاقة التّفاعل بين المتناقضات. وهذا يعني أنّ ثمّة ما يحمل العمران الوحشيّ إلى أن يتوق دوماً إلى أن يصبح عمراناً حضريّاً إذا سمحتْ له الظروف بذلك. غير أنّ الإنسان الفرد في كلّ بيئة يختلف جذريّاً عن الإنسان في البيئة المقابلة. فالإنسان الوحشيّ يتميّز عن الحضري سياسيّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً، بل ونفسياً، تميّزاً تامّاً. ولو رجعنا إلى المبتدأ والخبر لقلنا إنّ العمران الوحشيّ هو المبتدأ والحضريّ هو الخبر. فالوحشيّ يمكنه أن يستمرّ في الوجود غير المكتمل بمعزل عن الحضريّ، لكنّ معناه ومغزاه لا يكتملان إلّا حين ينقلب إلى الحضريّ. كيف يتمّ هذا التحوّل والانتقال؟ الجواب هو في قوانين علم العمران التي نصل إليها بعد حين.

ثالثاً: «في أيّام العرب والعجم والبربر»

أيّام العرب هي طبعاً ذلك التّراث من القصص الشّعبيّ والشّعريّ الذي صاغ لأيّام الجاهليّة ما قد نسمّيه تاريخاً ملحميّاً من الغزوات والحروب التي تذكّرنا من حين لآخر بملحمة الإلياذة لهوميروس. لكنّ ابن خلدون لا يستعمل تلك اللفظة بهذا المعنى بل يعني بها على ما أعتقد الحوادث الجسام التي مرّت على هذه الأمم. العرب هم بالطّبع قومه الذين بنَوا تلك الإمبراطوريّة العظمى لكنّ نجمهم السياسيّ كان قد خبا وأتت أمُمٌ أخرى لتقود أمّة الإسلام. والعجَم هم كافّة الأمم التي عاشت إمّا حول البحر المتوسّط أو في الشّرق، أي مجموع ما كان يعرفه ابن خلدون عن عالمه. أمّا البربر فهم سكّان أفريقيا الشّماليّة الذين كان ابن خلدون على اطّلاع عميق على تاريخهم وسلالاتهم الحاكمة. لذا قد نقول إنّ ابن خلدون ينوي أن يطبّق قواعد وقوانين علمه على أوسع رقعة ممكنة من التّواريخ المحيطة به.

رابعاً: «ومَن عاصرَهم»

نعود مجدّداً إلى مقولة «النّاس بأزمانهم» فنرى أنّها لا تعني فقط طغيان بيئة معيّنة بل تعني أيضاً طغيان زمنٍ معيّن أي أنّ العمران البشريّ أمر نسبيّ يتكيّف حسبَ الزّمان والمكان. ففي صدد هجومه على المؤرّخين يسرد ابن خلدون بعض الأسباب التي تحمل المؤرّخين على إدخال الأخبار المستحيلة إلى تواريخهم كالتّعصّب

للمذاهب المختلفة والثّقة المفرطة بناقلي الأخبار والجهل بمغزى الخبر والتقرّب إلى الحكّام طمعاً بالمكافأة. لكنّ السّبب الأهمّ في رأيه هو «الجهل بطبائع الأحوال في العمران فإنّ كلّ حادث من الحوادث... لا بدّ له من طبيعة تخصّه في ذاته وفيما يَعرض له من أحواله».

يبدو إذا وكأن ابن خلدون يوصينا بأن نفهم المعاصرة أولا كي نستطيع لاحقا أن نميز الممكن من المستحيل في الأخبـــــــار.

وبما أنّ تحوّلات العمران البشريّ هي التي تحدّد مسار الحوادث التّاريخيّة وما ينبغي لنا أن نقبل أو نرفض من هذه الحوادث، فإنّ تلك التحوّلات هي التي يجب على المؤرّخ أن يفهمها، فالحوادث معاصرة لزمانها. لذا ينبغي أن نفهم التّاريخ ليس بالمعنى التسلسليّ للحوادث المنفردة بل بمعنى تسلسل الأزمنة المتعاصرة. التّسلسل هذا أفقيٌ وليس عموديّاً. لنأخذ مثلاً مجتمعين متعاصرين: أليس ما يجمع هذين المجتمعين المتعاصرين أكثر بكثير ممّا يجمعهما بتاريخهما؟ وعلى سبيل المثال، وهو بالطبع ليس مثالاً خلدونيّاً، أليس ما يجمع لبنان باليونان اليوم أقرب بكثير ممّا يجمع لبنان مع قرنه العاشر أو اليونان مع قرنها العاشر؟ أليست المؤسّسات المختلفة وأنماط المعيشة وعلاقات الإنتاج بل وحتّى أنماط الفكر في لبنان اليوم أقرب إلى ما يقابلها في اليونان اليوم ممّا يقابلها في أزمنة سابقة من تاريخه، والعكس بالعكس طبعاً؟ يبدو إذاً وكأنّ ابن خلدون يوصينا بأنْ نفهم المعاصرة أوّلاً كي نستطيع لاحقاً أن نميّز الممكن من المستحيل في الأخبار. كيف ينتقل زمن متعاصر إلى زمنٍ متعاصر آخر؟ الجواب عند قوانين علم العمران التي نصلُ إليها بعد قليل.

خامساً: «من ذوي السلطان الأكبر»

العديد من قوانين علم العمران له صلة وثيقة بـ«السّلطان» أي ما نسمّيه اليوم السّلطة والقوّة: السّلطة السياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة والنّخبويّة والديمغرافيّة والأيديولوجيّة والقبليّة وإلى ما هنالك من أشكال القوّة والتسلّط. وهذه القوى تتجلّى أكثر ما تتجلّى بالدّول، فالدّولة القويّة المتسلّطة هي التي تمتلك القدْر الأنسب من تلك القوى. والعصبيّة أي التّلاحم الاجتماعيّ هي من أهّم مكوّنات تلك القوى. ولعلّ المثال الآتي ينال رضى ابن خلدون: لنأخذ مثلاً رجلاً أو امرأة رياضيّة. هذا الإنسان يكون في أحسن حال حين يكون قويّ العضلات، سريع الجري، حادّ النّظر والسّمع والذّهن، صحيح القلب والمعدة، شديد التركيز، سريع التكيّف، مع التناسق والتكافؤ بين كافّة تلك القوى. وهذا المثال ليس بعيداً عن الفكر الخلدونيّ إذ كثيراً ما يشبّه الدّول ومسارها بتشبيهات مأخوذة من علم الأحياء. هذه إذاً هي الدّولة حينما تكون في أوج سلطانها.

فالدّولة تمرّ بأطوار تشابه أطوار الشّباب والبلوغ والهرم وكما أنّ الشابّ يختلف في تصرّفه عن البالغ وعن الهرِم كذلك الأمر عند الدّول. والتسلّط يكون على أشدّه عندَ البلوغ، تماماً كما في حال الرياضيّ الشابّ. ويصيب الهرمُ الدّولَ بأمراض كالتّرهّل والتّباطؤ وفقدان التّركيز وانحلال العصبيّة، ممّا يعني الاعتماد المفرط على المرتزقة كما يعني كنزَ المال واحتكار الأسواق، وكلّ ذلك يؤْذن بقرب نهاية الدّولة. فإذا مرّ بنا حادث تاريخيّ وجب علينا عرضه على ما يقابله من هذه الأطوار: هل يُحتمل أن يكون هذا الحدث قد حصل فعلاً في مثل ذاك الطّور؟ والمثال الأشهر لقانون التطوّر هذا عند ابن خلدون هو ما يحكى في التّواريخ عن سبب نكبة البرامكة. هل كان السّبب هو حقّاً ما يورده المؤرّخون من أنّ جعفر البرمكيّ والعبّاسة أخت الرّشيد علقا بحبٍ جارف خلافاً لرغبة الخليفة ممّا أوغر صدر الرّشيد علىٰ البرامكة فأمر بتدميرهم؟ كلّا، يقول ابن خلدون، إذ إنّ حدثاً كهذا لا يمكن أن يحدث في تلك الفترة بالذّات من الخلافة العباسيّة التي كانت في أوج سلطانها آنئذٍ، بل السّبب الحقيقيّ هو أنّ الدّولة التي تكون في أوجٍ سلطانها لا تسمح بقيام دولة اخرى ضمن دولتها كما فعل البرامكة.

لذا وحين نسأل كيف ينتقل عصرٌ ما إلى عصرٍ آخر فالجواب الخلدوني هو أنّ نميّز العصور بالنّسبة إلى ما قد نسمّيه مقياس التطوّر وأنْ نقارن الدّول الفتيّة والبالغة والهرمة بعضها ببعض فنصل في نهاية الأمر إلى مقياس علميّ يميّز الصّواب من الخطأ في قبول الأخبار.

عِلم العمران الخلدوني

وماذا عن قوانين علم العمران الخلدوني؟ لا مجال هنا لسرد كافّة تلك القوانين التي يبلغ عددها قرابة المئة والعشرين قانوناً. لكنّ القوانين التّالية قد تكون من أهّمها:

أوّلاً: الأمم الوحشيّة من شأنها أن تتغلّب على الدّول الحضَريّة إذا توفّرت لها الظروف المناسبة وذلك لأنّ عصبيّة التّوحّش غالباً ما تكون أقوى من عصبيّة التمدّن.

ثانياً: الأعمار الطّبيعيّة للدّول لا تتعدّى أشكال متعدّدة من العصبيّات لكنّ أقواها هي عصبيّة الدّم والعصبيّة الدينيّة. والدِّين لا يمكن أن ينتشر بدون عصبيّة قويّة.

ثالثاً: الدّول في طور الهرم تصبح عرضة للسّقوط أمام هجمات أعداء أقوى منها عصبيّةً.

رابعاً: العلوم والآداب والفنون تزدهر في المدن لكنّها لا تختلف في الجوهر عن باقي الحِرف والصناعات أي إنّها تخضع لقانون العرض والطّلب، فالعالم أو الفقيه أو الفيلسوف هو صاحب حرفة تماماً كالنّجّار أو الحدّاد أو الخبّاز وما شابه.

أكتفي بهذا القدْر من الحديث عن ابن خلدون راجياً من قرّاء هذه السّطور أن يشاطروني الإعجاب اللامتناهي بهذا الكتاب الذي «لم ينته قطّ من قول ما أراد أن يقوله». كلمة أخيرة لا بدّ منها. كثيراً ما يقال إنّ تاريخ ابن خلدون لا يليق بالمقدّمة أي أنّه لا يستخدم القوانين الواردة في المقدّمة ولا يوجد فيه ما يميّزه عن التّواريخ الأخرى في عصره. وهذا رأيٌ شاع خصوصاً بين أوساط المستشرقين. لا أدري كم من هؤلاء قد قرأ تاريخ ابن خلدون بتمعّن ودقّة لكنّه رأيٌ لا يستقيم أبداً عند كلّ مَن تفحّص تاريخه، فهو مليءٌ بنفحات خلدونيّة وتفسيرات مستمدّة من فكره ونظريّاته والقوانين التي وضعها لعلم العمران.

عودة إلى التاريخ الحديث: المذكّرات

وما إن وضعتُ كتاب «فكرة التاريخ عند العرب» جانباً، مودّعاً ومتمنّياً له التّوفيق، حتّى عدت إلى التّاريخ الحديث من خلال دراسةٍ عن حياة النّاس اليوميّة في العالم العربيّ خلال الحربين العالميّتين. وصدرتْ تلك الدّراسة لاحقاً في كتاب شامل بالإنكليزيّة يغطّي حياة النّاس العاديّة من مختلف الأمم في الشّرق والغرب خلال تلك الفترة. تردّدت كثيراً قبل أن أقبل دعوة محرّري الكتاب إلى المساهمة فيه إذ لم أكن على اطّلاع واف بتلك الحقبة من التّاريخ، لكنْ سرعان ما تبيّن لي أنّ مادّة البحث الأساسيّة سوف تنحصر في الذّكريات التي كتبها أولئك الذين عاشوا تلك الأيّام. وكنت في الماضي أجد متعة في قراءة هذا الصنف من الأدب، الأمر الذي سهّل قبولي للدّعوة. وليس في التّراث العربيّ قبل الحداثة الكثير من السّيَر

الذّاتيّة، وإذا استحضرتُ في الذّهن ما يمرّ منها أمامي الآن فقد أستحضر «المنقذ» لـ«الإمام» الغزالي و«التعريف» لابن خلدون وسيرة ابن سينا، ولا بدّ من أنّني نسيت البعض الآخر. غير أنّ السّيرة الذاتيّة ليست على كلّ حال صنفاً أدبيّاً شائعاً أو مألوفاً في تراثنا القديم، بل قد أجزم فأقول إنّه ليس صنفاً مألوفاً كذلك في تراث أمم ما قبل الحداثة بوجه عام. فهل الحداثة هي التي فتحت الباب واسعاً أمام هذا الصنف الأدبيّ، وكيف، ولماذا؟ لا أملك الجواب عن هذا السؤال بل أتركه عالقاً أمام الدّارسين. ولعلّ الجواب يكمن في التّعريف الدقيق لمفهوم الحداثة وعلاقته بالأنسنة، ولا سبيل هنا للولوج في هذا الموضوع.

السيرة الذاتية ليست على كل حال صنفا أدبيا مألوفا في تراثنا القديم. بل قد أجزم فأقول إنه ليس صنفا مألوفا كذلك في تراث أمم ما قبل الحداثة بوجه عام.

أقبلتُ إذاً على قراءة هذه الذّكريات بلذّة وفضولٍ عميقين وحاولت أوّلاً أن أجعل الدّراسة تشمل كتّاب بلاد الشام ومصر والعراق. ومن خلال دراستي السابقة عن مجلة العرفان كنت قد اطّلعت على ما جرى في لبنان في خلال الحرب الأولى من وَيْلات، لكنّني وجدت أيضاً أنّ تلك الويلات لم تعمّ البلاد بأسرها بل انحصرت في مناطق دون أخرى. وعلى سبيل المثال فالمجاعة التي حلّت بجبل لبنان لم تتكرّر في الجنوب اللبنانيّ كما أنّ فلسطين لم تشهد كوارث تشبه كوارث الجبل اللبنانيّ. وفي العراق يبدو أنّ بغداد لم يُصبْها ما أصاب الموصل من النّكبات، كما يبدو أنّ المدن الساحليّة الشاميّة عانت من الحرب أكثر ممّا عانته المدن الداخليّة. لذا فنحن نجد تفاوتاً في التجارب التي شهدها أصحاب هذه الذّكريات. ونحن لا نملك بالطّبع سوى ذكريات أُناسٍ من طبقات اجتماعيّة لم تتأثّر بشكلٍ فادح بتلك الفواجع، كما أنّ معظم الذّكريات مدينيّة الطّابع. لكنْ يخيّم على أصحابها في الغالب ما يشبه اليأس، والشعور بالعجز التام أمام الأحداث، والخوف من المستقبل، والجهل العميق لأسباب ما يجري حولهم وكأنّهم يعيشون وسط غيوم داكنة، فثمّة الصّدمة العنيفة لدى اقترابهم من هياكلَ الجياع العظميّة أو غيرها من المشاهد المروّعة، والغضب العارم من مسبّبي تلك الويلات وعلى رأسهم جمال باشا السفّاح في بلاد الشّام، والمحاولات المُستميتة التي بذلها بعضهم لتخفيف تلك الآلام. وكان من شأن الحرب الأولى أن أدّت إلى تفتيت المنطقة بالمعنى الاجتماعي والنفسي للكلمة حيث انكمش السكّان ضمن مناطقهم الضيّقة فأصبح السّفَر محفوفاً بالصّعوبات والمخاطر وأضْحت تلك المناطق مكتفية ذاتيّاً، فتقلّصت الآفاق واقتصر النّظر والاهتمام على ما هو فوريّ وعاجل ومباشر ويوميّ وذلك بسبب تقلّص الزّمان والمكان.

بدأتُ بمذكّرات الوالدة رحمها الله وهي بعنوان «جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين». كانت الوالدة كغيرها من أصحاب الذّكريات تنتمي إلى أسرة لم تعانِ من ويلات الحرب العالميّة الأولى بشكل خطير لكنّ المجاعة كانت تحوّم حولها باستمرار بالإضافة إلى المشاعر المذكورة أعلاه أي اليأس والعجز والخوف وإلى ما هنالك. وفي تلك الذّكريات مشاهد وصور للجوع والموت عاينتْها فتاة بيروتيّة في السّابعة عشرة من عمرها، وانطبعت في ذهنها على مرّ الأيّام. وتكتسب هذه الذّكريات بعض أهمّيتها لكونها ذكريات كتبتْها فتاة ضمن صنف أدبيّ سيطر عليه الرجال على نحو تامّ. فقد عانت تلك الفتاة ليس فقط من محيط حرب مأحقة بل أيضاً من محيطٍ اجتماعيٍّ خانق يجبر الفتيات على خوض معارك مستمرّة لنيل أبسط الحقوق. ووصل الأمر معها إلى ذروته حين شنق جمال باشا خطيبها الشهيد عبد الغني العريّسي ثمّ أجبرتْ هي على الوقوف أمامه لتلقي خطاباً حول أعمال الإغاثة التي يجب القيام بها في زمن الحرب، وهو مشهد «سوريالي» بامتياز. لا يتسع المجال هنا لذكر كافّة تلك الذّكريات فهي متفاوتة في قيمتها الأدبيّة وفي الصّراحة عن الذّات، وهذه الصراحة هي على أوضح ما يكون في مذكّرات الزعيم المصريّ سعد زغلول التي هي أقرب إلى الاعترافات الشخصيّة منها إلى المذكّرات الاجتماعيّة، فهو يسجّل وبأدقّ التفاصيل عذابات روح استهوتْها السياسة لكن مزّقها إدمان خطير على القمار. والحرب ليست من اهتماماته المباشرة، كما أنّه بالكاد يشير إلى ما كان يجري في بلاد الشّام وذلك بسبب تقلص الآفاق المذكور أعلاه. ويبدو أنّ مصر نجت على العموم من فظائع الحرب كما نجا السودان أيضاً من تلك الويلات كما يرد في مذكّرات بابكر بدري بعنوان «تاريخ حياتي». وهذه مذكّرات شيّقة للغاية لكنّ الحرب لم تكن فيها سوى حدثٍ بعيدٍ جداً احتفل بنهايتها كلٌ من المحتلّ البريطانيّ وأهل السودان

تحت الاحتلال. أمّا في اليمن، كما في مذكّرات عبد الواسع ابن يحيى الواسعي بعنوان «تاريخ اليمن»، فقد عانت البلاد في البدء من انقطاع وسائل الاتّصال برّاً وبحراً لكنّها سرعان ما أضحت مكتفية ذاتيّاً، وتحسّن الإنتاج الزّراعي، ويضيف عبد الواسع أنّه لم يكن ينقصهم سوى السكّر والكاز.

بدأت بمذكرات الوالدة رحمها الله وهي بعنوان «جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين». وفي تلك الذكريات مشاهد للجوع والموت عاينتها فتاة بيروتية في السابعة عشرة من عمرها. وانطبعت في ذهنها على مر الأيام.

من الجليّ إذاً أنّ ويلات الحرب الأولى كانت على أفدحها في مدن بلاد الشام والعراق، أمّا في الرّيف فالذّكريات الريفيّة متفاوتةٌ في أهوالها. فذكريات جبرائيل جبّور بعنوان «من أيّام العمر» تصف حياة سيف البادية السوريّة وقرى زراعيّة لم تتأثّر بالمجاعة، وكانت بعيدة عن أعين السّلطات فسلِمت محاصيلها من المصادرات، ولم يسمع النّاس أخبارَ الحرب سوى لماماً ومن الزوّار القليلين. أمّا المذكّرات الريفيّة الأخرى فهي مذكّرات أنيس فريحة بعنوان «قبل أن أنسى» والتي تصف الحياة في قرية في الجبل اللبناني الذي كان أقرب بكثير إلى ويلات الحرب من غيره من المناطق في المشرق العربيّ. وهنا أيضاً نقف وجهاً لوجه أمام فظاعة الجوع وهيكل عظمي لطفل اعتنت به عائلة الكاتب ريثما يفتح الميتم أبوابه. لكنّ القرية ذاتها نجحت في التغلّب على معظم المصاعب من خلال الاستخدام الذّكيّ للموارد، وتحويل كافّة الأراضي المتاحة إلى الزّراعة، والعودة إلى صناعات تقليديّة كانت قد اندثرت مع الزمن فجعلتْها الحرب مرغوبة من جديد. وتسجّل هذه الذّكريات بالتّفصيل ما كان يردُ على لسان القرويّين من آراء حول مسيرة الحرب المستعرة حولهم، وهي ذات قيمة للمؤرّخ لدى مقارنتها مع المذكّرات المدينيّة.

المذكّرات المدينيّة

وفي المدن، وخصوصاً بيروت، نلمح من ذكريات يوسف الحكيم بعنوان «بيروت ولبنان في عهد آل عثمان» كيف أدّى الجوع إلى فتور الهمّة تماماً لدى الجياع، فلم يكلّفوا أنفسهم حتّى بالتحوّل إلى السرقة أو إلى مهاجمة مستودعات الأطعمة بل استسلموا للأقدار وماتوا ومِن حولهم بيوت العظماء والميسورين وموائدهم التي كانت تزخر بأشهى أصناف الطّعام. كيف شوّهت الحرب أنماط العيش والحياة العاديّة؟ يأتي الجواب السّاخر إلى حدّ ما في مذكّرات خليل السكاكيني بعنوان «كذا أنا يا دنيا» الذي يصف الحرب من نافذة القدس فيقول إنّ من بين «حسنات» هذه الحرب أنّها حملت النّاس على الاقتصاد في كلّ شيء فاقتصر الطّعام على الخبز والعنَب والخضرة واختفى اللحم، ثمّ اختفت أيضاً وسائل التسلية والألبسة الفخمة. أمّا الخوف الذي واكب نشوب الحرب فقد انحسر وأصبح النّاس لا يكترثون لشيء بل ازدادوا شجاعةً وعنفواناً. ثمّ ينتقل وبأسلوب ساخر أيضاً إلى عالم القراءة والكتابة ليقول إنّ النّاس أضحتْ لا تقرأ سوى البرقيّات، فمعظم الصّحف المحلّيّة أغلقت أبوابها ومُنعت الصحف المصريّة من الدّخول، لذا سوف يعتاد النّاس على الأسلوب التلغرافي، الأمر الذي يعزّز فضيلة الاختصار والإيجاز في الكلام والكتابة، وهذا لربّما هو أيضاً من «حسنات» هذه الحرب.

وفي دمشق تصف «مذكّرات» خالد العظم، وهو من أسرة كانت موالية لآل عثمان، أنّه وفي سنّ الثّالثة عشرة كان هو وأترابه قد فقدوا الثّقة تماماً ببلاغات الدولة العثمانيّة العسكريّة المتلاحقة والحافلة بانتصارات وهميّة، الأمر الذي حمل النّاس على الاعتقاد أنّ الحرب ستنتهي بالهزيمة. وفي العراق الذي كان أوّل بلد عربيّ يسقط في يد الحلفاء، يصف سليمان فيضي في «مذكّراته» سقوط البصرة وكيف غيّر هذا الاحتلال أنماط السّلوك جذريّاً وكيف برزت إلى الوجود طبقات جديدة من التجّار والمتعهّدين الذين تودّدوا للمحتلّ طمعاً في الكسب فيما عمد المحتلّ إلى إبعاد كلّ من لم يتزلّف إليهم.

ومع سقوط أمبراطوريّة آل عثمان عند نهاية الحرب سقطت كذلك الهويّة العثمانيّة فأصبح من الضّروريّ إعادة صياغة هويّة تلك الولايات العربيّة ضمن تساؤلات قد نسمّيها وجوديّة: هل نحن عربٌ أم مسلمون أم سوريّون أم لبنانيّون أم فلسطينيّون أم عراقيّون أم ماذا؟

لم أذكر في هذا المقام سوى البعض القليل من المذكّرات التي عدْت إليها عند كتابة تلك المقالة، كما لم أذكر مذكّرات وذكريات الحرب العالميّة الثانية التي لم تشهد من الأهوال ما شهدتْه الحرب الأولى، لكن لا بدّ

من التّنويه والإشادة بإثنتين من هذه المذكّرات التي هي في رأيي أوسعها فائدةً وأعَمقها فكراً، ليس فقط فيما يختصّ بالحرب الأولى بل لأهمّيّتها الفائقة في كتابة تاريخ العرب الحديث. الأولى هي مذكّرات رستم حيدر البعلبكي (ت. ١٩٤٠) والثانية مذكّرات محمّد عزّت دروزة النّابلسي (ت. ١٩٨٤).

يصف رستم في بداية مذكّراته رحلةً خفيّة قام بها مع بعض أترابه من القوميّين العرب من سورية إلى الحجاز للالتحاق بثورة الهاشمّيين وعلى الأخصّ بالأمير فيصل. والغرابة في تلك المذكّرات تبدأ منذ الصفحات الأولى إذ يصف فيها رستم ما مرّوا به من مناطق وقبائل في الرّحلة من سورية إلى الحجاز وصفاً قد نسمّيه «أنثروبولوجياً» لما فيه من صورٍ للعادات وأنماط العيش والتفكير والطعام والشراب وإلىً ما هنالك من أمور كأنّنا في حضرة عالم اجتماعيّ رصين. وننتقل بسرعة إلى باريس حيث كانَ رستم في عداد وفد الأمير فيصل إلى مؤتمر فرساي للسّلام، وما تبع ذاك المؤتمر من محادثات ومفاوضات ومؤامرات وخيانات وإخلال بالعهود ومطامع المستعمرين الفرنسيّين والبريطانيّين فكأنّنا في بلاط أميرٍ إيطاليّ من آل بورجيا مثلاً أو آل مديتشي تملؤه الإشاعات والكذب والدّسائس والطعن بالظّهر والاغتياب. وهنا يبرز رستم كمراقب وشاهد ثاقب النّظر على الأحداث التي تدور من حوله، إذ يرى بثاقب بصيرته ما يخبّئه المستقبل لأمّته العربيّة من تجزئة وويلات، ويرى في الوقت عينه كيف انساق فيصل تدريجيّاً إلى تنازل إثر تنازل، فتتمزّق روحه أسىً لإيمانه من جهة بصدق فيصل وصدق عروبته، وشكوكه العميقة بفهم فيصل لمغزى الأحداث من جهة أخرى. أمّا تحاليله السياسيّة لما كان يجري في أوروبّا فهي تضع القضيّة العربيّة في حلبةٍ أوروبيّة أوسع إذ يراها رستم بمنظار شبيهٍ بمنظار المؤرّخ اليونانيّ ثيوسيديدس، أي بمنظار موازين القوى بين الدول العظمى، فالدّول الضعيفة ما هي إلّا أحجار شطرنج في لعبة الموازين هذه. ولا يتّسع المجال هنا لذكر ما تحفل به هذه المذكّرات من وصفٍ حادّ الذّهن وبيّن الفطنة للّقاءات المتتالية مع ثعالب السّياسة مثل لورنس البريطانيّ أو كليمنصو الفرنسيّ والعديد من أمثالهم، وما تحفل به من لمحات وتحليلات ثاقبة للأمور السياسيّة، فنحن هنا في حضرة مفكّرٍ سياسيّ عَزّ نظيره بين أصحاب المذكّرات السياسيّة العربيّة. وقد بلغني أنّ بقيّة مذكّرات رستم ما زالت مخطوطة ومخفيّة، وهذا الإغفال لها هو في رأيي جريمة بحقّ التّاريخ العربيّ الحديث.

أمّا مذكّرات محمّد عزّت دروزة بمجلّداتها الستّة، وبعموديها الإثنين على كلّ صفحة، وبسنواتها المؤرَّخة التي تقترب إلى قرنٍ من الزمن، فهي من صنف مشابه من المذكّرات. إنّها سجلّ يوميّ لما مرّ بدروزة من أحداث، فمنها السياسيّ ومنها الشخصيّ، وذلك بتفصيلٍ دقيق للغاية يكاد لا يغفل شيئاً، إذ لا يغفل كلاماً قاله أو سمعه ولا يغفل شعوراً شعر به ولا يغفل رحلةً قام بها ولا يغفل وثيقةً هامّةً مرّت أمام ناظرَيْه ولا يغفل وصف شخصيّة التقاها من الخاصّة والعامّة، ولا يغفل رسالة كتبها أو تلقّاها ولا يغفل خبراً قرأه في صحيفة ثمّ علّق عليه بإسهاب. وهذا التّكثيف الشّديد والشّامل في الوصف يقرّب دروزة إلى القارئ فيحسبه بعد حين أحد أصدقائه، فالمذكّرات تتميّز بصراحةٍ تامّة في التّعبير عن الأفكار والعواطف وتضع القارئَ في صلب الحدث. ولا ينبغي للقارئ أن يجفل من مجلّداتها الستّة، إذ ما إن يبدأ المرء بقراءتها حتّى تستحوذ على اهتمامه وإعجابه الكامل. وكان دروزة قد انتمى في شبابه إلى جمعيّة «العربيّة الفتاة» السرّيّة أواخر العهد العثمانيّ وكان رفاقه فيها ينتمون إلى شتّى أرجاء الوطن العربيّ، وكانت الوحدة العربيّة من أهمّ مطالبهم بالإضافة طبعاً إلى الاستقلال. من هنا شموليّة مذكّراته التي تغطّي أخبار كافّة أقطار المشرق العربيّ، وأخبار شبكته الواسعة من الأصدقاء في جميع تلك الأقطار، ومن هنا أيضاً صلابة عقيدته القوميّة التي واكبته حتّى وفاته. فقضيّة فلسطين بالنّسبة إليه لا يمكن فصلها بتاتاً عن الأحداث في باقي الأقطار العربيّة، لذا نجد في مذكّراته عن فلسطين والعراق وسورية والأردن ومصر معلومات في غاية الأهمّيّة لتاريخ تلك الأقطار لم تُستخدم بعد بما فيه الكفاية من جانب المؤرّخين، وخصوصاً المحادثات الشخصيّة التي أجراها مع أهمّ السياسيّين العرب والتي سجّلها بأدقّ تفاصيلها. أمّا تقييمه للشخصيّات التي يردُ ذكرها، وهم جمٌّ غفير من فلسطينيّين وعرب، فهو متّزن إلى أبعد الحدود ونقديّ بل جارح إذا اقتضى الأمر، ومعيار التّقييم السياسيّ والأخلاقيّ عنده هو إمّا الثّبات على المبدأ أو المراوغة والعمالة للمستعمر. لكلّ هذه الأسباب وغيرها كثير، لن أتردّد في وصف مذكّرات دروزة بأنّها أهمّ مذكّرات سياسيّة عربيّة على الإطلاق في القرن العشرين.

وردة اليازجي
امرأةٌ صدمت الرّجال

عماد الدين رائف

كاتب وصحافي، لبنان. من اعماله «قصص بيروتية لاغاتانغل كريمسكي» ٢٠١٦.

حظيت الشّاعرة اللبنانيّة وردة اليازجي (١٨٣٨ - ١٩٢٤) بمزايا لم تحظ بها امرأة أخرى في القرن التاسع عشر. نشأت وترعرعت في بيت علم وأدب، فوالدها الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١)، كان قد نمّى مواهبها وعلّمها أسس اللغة العربيّة ونظْمَ الشعر ببحوره ومراميه، ذلك في حين لم يكن التعلّم متاحاً للفتيات، بلْ كنّ حبيسات المنازل، وعندما فتُحت أبواب التعلّم لهنّ، لم يكن أمامهنّ سوى مدارس الإرساليّات الأجنبيّة، التي لم تكن لتُعنى بالتّراث الأدبيّ العربيّ وأسسه.

يومَ نظمتْ وردة الشعر صدمت أترابها من الرّجال، فقد كانت قصائدها شعاع نور وسط ظلام الجهل المتراكم، وذلك الشّعاعَ الذي حملتْه فتاة. وكان يفترض، على نطاق واسع آنذاك، أنّ الشعر المنظوم ليس من طبيعة المرأة واهتماماتها. وعند استعادتنا لشعر وردة المنظوم، نتحدّث عن جذوة النّهضة وسبل الحداثة. إذ إنّ الشعر العربيّ التقليديّ يمثّل الموطن الأوّل للّغة نفسها وكنز ثروتها الخلّاقة لدى العرب. فأولئك الذين يختزنون الصوَر الشعريّة في صدورهم كان يتحتّم عليهم أن يعودوا إلى قواعد اللغة الصارمة لإتقانها، والإلمام بالبلاغة بديعاً وعروضاً، قبل بناء الهيكل الرسميّ للقصيدة العربيّة العموديّة. وكان ديوان وردة «حديقة الورد»، الذي نشرتْه في العام ١٨٦٧، إعادة إحياء العصر الذهبيّ لجماليّات الشعر العربيّ وتراثه. وقد شكّل سمة من سمات عصرها، وشرطاً من شروط أسس نهضة الشّعر العربي الحديث. غير أنّ تأريخ الآداب العربيّة الحديثة يركّز أكثر على الشعراء الذّكور ويهمل وردة اليازجي، مع أنّها عاصرتْهم[1].

ويمكننا أن نتصوّر لمَ كان من الصّعب على المجتمع البطريركيّ الذّكوريّ تقبّل وردة الشاعرة في ذلك الزّمن. ومع ذلك، يظهر أنّ شخصين على الأقلّ، تحدّثا عنها ولم يبخساها حقّها: الأكاديميّ الأوكرانيّ أغاتانغل كريمسكي في كتابه التأسيسيّ «تاريخ الأدب العربي الحديث»، والكاتبة الكبيرة ميّ زيادة، التي اعتقدت أنّ راية ريادة الأدب النسائيّ المعقودة لوردة، لم تخترق الحُجب الذكوريّة الكثيفة فحسب، بل دعّمت حقّ المرأة العربيّة في التحرُّر من القيود على نطاق واسع. لذلك كانت ميّ تدرّس تراث وردة وأدبها في المجالس النسائيّة. ويصادف العام الحاليُّ الذكرى الـ ١٥٠ لنشر ديوان وردة اليازجي «حديقة الورد»، الذي استمرّ لعقود في وجدان كثيرات من النّساء في المشرق العربيّ. فهل يمكننا استغلال هذه المناسبة لإعادة تقديم اليازجي اليوم، عبر عيون أغاتانغل كريمسكي وميّ زيادة؟

وردة المحظوظة

ولدت وردة ناصيف عبد الله اليازجي في بلدة كفرشيما، وتُوفّيتْ في مدينة الإسكندريّة في مصر. ألحقها والدها بأوّل مدرسة للبنات في بيروت، وهي الإرساليّة الإنجيليّة الأميركيّة، فتلقّتْ مبادئ القراءة والكتابة، ثمّ لقّنها أصول الصّرف والنّحو والعروض والقوافي، وأقرأها بعض قصائده. وعملت وردة الشابّة معلمةً في مدارس بيروت، ثمّ بعد زواجها وارتحالها إلى مصر عملت، منذ العام ١٨٩٩، كذلك في مدارس الإسكندريّة، منها: «مدرسة راحيل عطا» زوجة المعلّم بطرس البستاني، و«مدرسة عبد الله الوَتْوات» للموحّدين الدّروز، و«مدرسة سُعدَى كركور» الموسويّة اليهوديّة. وقد تعلّمت اللغة الفرنسيّة خلال عملها.

وأحد أهمّ الشّهود على تلك الحقبة المعلّم بطرس البستاني، الذي ارتقى منبرَ «الجمعيّة السوريّة» في ١٤

كانون الثاني/ يناير ١٨٤٩، محاضراً بعنوان «خطاب تعليم النساء». فقد كان المناخ الاجتماعي ضاغطاً جدّاً على المرأة، وكانت «في حالة يرثى لها من المهانة، لا تُذكر إلّا بالتّحقير، ولم يكن يُسمح لها بأن تظهر أمام الرّجال أو في الأماكن العموميّة». كانت «المرأة المسيحيّة تتمتّع من الحرّيّة بنصيب أوفر من أختها المسلمة، إلّا أنّها أيضًا كانت تخضع لنظام الاحتجاب، وكلتاهما تتساويان بالجهل العام، وتعانيان كثيراً من هضم الحقوق».

كان المناخ الاجتماعي ضاغطا جدا على المرأة. لا تذكر إلا بالتحقير. ولم يكن يسمح لها بأن تظهر أمام الرجال أو في الأماكن العمومية... كانت المرأة المسيحية تتمتع من الحرية بنصيب أوفر من أختها المسلمة.

لقد تنبّه المعلّم البستاني والشيخ اليازجي وأترابهما باكراً إلى مساوئ هذا الواقع، كما وعيًا أهمّيّة نصرة المرأة، وضرورة رفع الغبن والظّلم اللاحقَين بها. وأقصر السّبل وأيسرها لذلك، هو مكافحة الجهل الذي ترسف فيه، وتمكينها من ارتياد المدارس. فتَح البستاني في خطابه «تعليم النساء» باب الحوار حول الموضوع، وأسّس لعهدٍ جديد من النّضال لتمكين المرأة من نيل أبسط حقوقها. وبالفعل بادر المتنوّرون من الرجال إلى إلحاق بناتهم بأولى المدارس التي فتحتْ أبوابها في بيروت، وكانت وردة إحداهنّ.

ولعلّ سلسلة مقالات بقلم وردة اليازجي نفسها بعد نحو نصف قرن من الزمن تحت عنوان «المرأة الشرقيّة»، خيرُ دليلٍ على الغرس الطيّب الذي تركه والدها الشّيخ ناصيف في جيلٍ متنوّر من النّساء، كانت وردة رائدتَه. فإلى جانب دفاعها عن عروبتها ولغتها، توجّه أنظار نساء الشّرق نحو نساء الغرب، ليلمسن اهتماماتهنّ في الأمور الجدّيّة والبراعة في العلوم والفنون وسائر دوائر النّشاط الإنسانيّ، وتدعوهنّ إلى ترك القشور والنّظر إلى أنّ المرأة الغربيّة على الرّغم من تأنّقها الدّائم تقوم بواجباتها نحو الأسرة والمجتمع واللغة والوطن[٢].

تفتّح الورد بعد الرّحيل

يبدو أنّ حال المرأة في الشّرق تبعها الانتقاص من حقّها لا إراديّاً من قبل النقّاد والكتّاب وأصحاب التراجم، فتكاد تكون وردة اليازجي منسيّةً في مصر والشّام، إلّا إذا كان الحديث عن الأسرة اليازجيّة، فتُلحق بأبيها الشيخ ناصيف أو أخيها إبراهيم، على الرغم من أنّ أترابها من الكتّاب والشّعراء الرّجال حظوا بالإضاءة على سيَرهم وأعمالهم وآثارهم. وكي نستشفّ أهمّيّة محور بحثنا وهو تناول كلٍّ من أغاتانغل كريمسكي وميّ زيادة لحياة وردة وشعرها، يمكننا الإشارة إلى مرجع، على سبيل المثال لا الحصر، تناول سيرة وردة اليازجي ونشاطها الثّقافي الأدبيّ، هو الأب لويس شيخو اليسوعيّ، الذي ذكَرها في كتابه «تاريخ الآداب العربيّة»، على عادته في ذكر وفيّات كلّ عام من الأدباء والشعراء، بدءاً من العام ١٨٠٠ إلى العام ١٩٢٥، وكان نصيبها نبذة مقتضبة قال فيها: «وفي أوائل السنة ١٩٢٤، هصرت المنون غصناً من الدوحة اليازجيّة في مصر، نريد بها السيّدة وردة اليازجي ابنة الشيخ ناصيف... أخذت الآداب العربيّة عن والدها فبرعت فيها وصارت تصنّف الرسائل والقصائد في زمن لم يُعهد ببنات جنسها شيء من ذلك. ومن آثار قلمها في «الضياء» مقالة في تعريف المرأة الشرقيّة». وقد ذكر الأب شيخو ثلاثة نماذج من شعرها، وهي ثلاثة أبيات من قصيدة افتتاح ديوانها «حديقة الورد» - بعنوان «رسالة إلى وردة الترك»، وسبعة أبيات من مرثاة البطريرك مكسيموس مظلوم، وبيتان في وداع سليمان بك البستاني لمّا انتخب بعد الدستور عضواً في مجلس النّواب عن بيروت[٣]. وفي المحصّلة، نرى أن مجموع ما انتقاه الأب شيخو هو عنوان سلسلة مقالات لوردة اليازجي في مجلّة «الضياء» واثنا عشر بيتًا توزّعت بين المراسلات والرّثاء والوداع. وعلى الرّغم من أنّ هذه المحاور هي في صلب التفاعل الاجتماعيّ، إلّا أن الأب شيخو لم يُشر إلى ذلك.

ولم تحظ وردة، والشاعرات المعاصرات لها، سوى بالإضاءة على نتاجهنّ بعد رحيلهنّ حيث ظهر في العام ١٩٢٩، كتيّب بعنوان «الشعر النسائيّ العصري وشهيرات نجومه»، وفيه مختارات من ديوان وردة اليازجي، احتلّت عشر صفحات منه، إلى جانب قصائد لشاعرات عاصرْنها[٤].

حديقة الورد

صدر «حديقة الورد» للمرّة الأولى في بيروت سنة ١٨٦٧، في ٥٨ صفحة من القطع الكبير. ظهر على غلافه «نظم السيّدة وردة بنت المرحوم الشيخ ناصيف

حديقة الورد
نظم السيدة وردة
بنت المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي
عُفي عنها
طبعة ثانية
تطلب من ادارة ديوان الفكاهة
الضياء
مجلة
علمية ادبية صحية صناعية
لصاحبها
الشيخ ابرهيم اليازجي
السنة الثامنة
مصر سنة ١٩٠٥ — ١٩٠٦

اليازجي عُفي عنها» وفي الطبعة الثانية أضيفت قصائد ممّا نظمتْه بعد الطّبعة الأولى. وأشير إلى أنّها طبعتْ في مطبعة القدّيس جاورجيويس في بيروت سنة ١٨٨٧: «تطلب من إدارة ديوان الفكاهة (حقّ إعادة الطبع محفوظ للنّاظمة)».

في تصدير الناشر للديوان يقول: «بسم الله الفتاح. الحمد لله الذي تفرَّد بالعزَّة والجلال. وأفاض مواهبه على النساء كما أفاضها على الرجال. ولذلك رأينا أن ننشر ما وقفنا عليه من أشعارها تنبيهاً لأمثالها على اقتفاء آثارها. فنقول وبالله التوفيق». ولا يوجد أيّ توقيع تحت هذا التصدير، كما أنّ المتكلّم على عادة النّشر في ذلك الزمان الذي يفترض أنّه اختار من أشعار وردة ما ضمّنه الطبعة الأولى وأضاف إلى الثانية شيئاً ممّا نظمته بينهما، وهي فترة عقدين من الزمن، يتابع مخاطبة القارئ فوق كلّ قصيدة، ومثال ذلك: «قالت في جواب أبيات وردَتْ إليها من وردة بنت المعلّم نقولا الترك الشاعر... وقالت وقد عادت صديقةٌ لها من سفر... وقالت ترثي البطريرك مكسيموس مظلوم حين تُوفّي بالإسكندرية سنة ١٨٥٥».

وفي الديوان قصائد عديدة في رثاء الراحلين من أهلها، مما رشحها لتلقب بخنساء العصر، حيث رثت أقاربها ووالدها وأشقاءها وشقيقتها، وابنيها، الذين ماتوا جميعا في حياتها.

وجدير بالذّكر أنّ الدّيوان طُبع بهذه الصيغة ثلاث مرّات[٥]، حيث لا عناوين للقصائد إنّما تصديرٌ بسطر واحد أو سطرين. وقد اختتمت الطّبعة الثّالثة (القاهرة، ١٩١٤) بقصيدة جاء في تصديرها «وقالت تمدح الأميرة نظلة خانم أخت خديوي مصر وقد قدِمت إلى لبنان سنة ١٨٩٤». وتنتهي أشعار وردة اليازجي في الصّفحة ٥٤ من الدّيوان، حيث يقول مصدّر الديوان «هذا ما استطعنا جمعه في هذا الدّيوان من نظم باكورة هذا الزّمان. ولمّا كان يُعدُّ من نفائس هذا العصر أقبل عليه الشّعراء فزيّنوه بتقاريظ عديدة أدرجناها في الطّبع حسب ترتيب ورودها من أصحابها». ويدرج الناشر ما ذكَره عدد من الشّعراء نظماً عن ديوان السيّدة وردة على خمس صفحات (ص ٥٤ - ٥٨).

ضمّ ديوان «حديقة الورد» بطبعته الثّالثة والأخيرة في حياة وردة ٧٩ قصيدة وقطعة شعريّة، تراوحت أبياتها بين بيتين لأصغرها و٣٢ بيتاً لأطولها. ووردة في ديوانها شاعرة مناسبات، على قوّة لغتها وتطلّع عصرها إلى التجديد، فهي شكلاً لم تغادر المألوف من أغراض الشعر السائدة الذي يتنوّع موضوعيّاً بين الإطراء والغزَل والرّثاء والتّأريخ، والمناسبات من احتفال بزواج وتنصير وترحيب، وتُهيمن عليه الطّلاوة اللفظيّة، وبساطة المحتوى كما كان سائداً في عصرها. وفي الديوان قصائد عديدة في رثاء الرّاحلين من أهلها، ممّا رشّحها لتلقّب بخنساء العصر، حيث رثت أقاربها ووالدها وأشقّاءها وشقيقتها، وابنيها، الذين ماتوا جميعاً في حياتها. كما تتضمّن قصائدها ذَمّ الجهل، والدعوة إلى العلم، والفخر بعروبتها، ومقاصد أخرى. ومجموع عدد الأبيات التي ضمّها الديوان ٧٩٠ بيتاً، وقد التزمت وردة بتفعيلات بحور الشعر الأكثر رواجاً في قصائد الشعراء المجايلين لها (٧٥ قطعة وقصيدة)، واستخدمت المجزوء في أربع قصائد، ولم تستخدم المشطورات والمخلّعات.

وقد جاءت القصائد والقطع الشعريّة في ديوانها على النّحو الآتي: في التّأريخ لحادثة أو لوفاة ١٤ قصيدة، في التقريظ لكتاب أو ديوان ٤، في الرثاء ١٥، في المجاملات الاجتماعيّة ١٠، في المديح ٩، وفي المراسلات والمنادمات ٢٧ قصيدة. ونلحظ هنا أنّ الرّثاء الذي قيل إنّه صبغ شعر وردة احتلّ حيّزاً مهمّاً منها، حيث إنّ أطول قصائدها كانت في المراثي. وبذلك يحتلّ الرّثاء ٣٢٠ من أصل ٧٩٠ بيتاً. أمّا باقي الأغراض الشعريّة فقد جاءت كالآتي: في المراسلات ٢٢٩ بيتاً، والمديح مئة، والمجاملات ٨٣، والتأريخ ٣٤ وفي التأريخ ٢٤ بيتاً.

كريمسكي يدافع عن وردة

وصل أغاتانغل كريمسكي إلى بيروت بحراً في أواخر تشرين الأوّل/ أكتوبر ١٨٩٦، وتركها أواسط أيّار / مايو ١٨٩٨، وقد قضى بينها وبين جبل لبنان نحو سنة ونصف السنة باحثاً منقّباً في العلوم اللغويّة واللهجيّة والإنثروبولوجيا والإثنوغرافيا. وفي بيروت ولدَت مجموعته الشعريّة الأولى «سعف النخيل» وقصصه الاجتماعيّة الأولى «قصص بيروتيّة»، كما تسنّى له فيها أن يجمع موادّ مؤلّفه التأسيسيّ «تاريخ الأدب

العربي الحديث»، الذي طُبع بعد عمله الطّويل عليه، فخرج مادّة منهجيّة مرجعيّة في مضمونه[٦].

بعد ذكْره أعمالَ الشيخ ناصيف اليازجي ومُعاصريه، يتحدّث كريمسكي[٧]، عن أشخاص حملوا الإرث الكبير لهذا العالم الموسوعي، يقول «كان الشيخ ناصيف اليازجي قَد جمع حوله حلقة متينة من الأدباء الشباب، الذين تميّزوا عن سواهم من الأدباء البيارتة بالالتزام بمعاييره الأدبيّة. وقد تألّف معظم أفراد هذه الحلقة من أقربائه: أولاده وصهره سليمان حدّاد. والشيخ ناصيف الذي كنّ لهم حبّاً جمّاً تلمذهم على يديه فعلّمهم العربيّة الكلاسيكيّة النقيّة. لكنّهم لم يتمكّنوا من معاندة القدَر، الذي خطفهم واحداً تلو الآخر. وانفردت بينهم ابنته الكبرى وردة اليازجي، التي كانت قد ظهرت كشاعرة في حياة أبيها».

وبعدما لحظ كريمسكي مكانة وردة الفتاة في حياة أبيها، يضيف «وردة اليازجي، مثل أخيها الأكبر الراحل، ولدت في لبنان حيث كان أبوها يسكن (سنة ١٨٣٨). تلقّت وردة علومها العامّة لدى المبشّرين الأميركيّين في بيروت، أمّا دراستها الأدبيّة فتتلمذت فيها على يد أبيها نفسه. حين كانت وردة في الثالثة عشرة من عمرها، بدأت تنْظم الشعر مقلّدة في أشعارها أشعارَ أبيها. وفي ستّينيّات القرن التاسع عشرنشرت وردة ديوانها الشعري بعنوان «حديقة الورد»، الذي أعادت طبعه مع إضافات».

ثمّ يشرح كريمسكي للقارئ عن مضمون الديوان، يتابع «إحدى قصائد وردة اليازجي تتضمّن لعباً على الكلام، بما يتلاءم مع منهج أبيها البلاغي، وهي عبارة عن رسالة شعريّة إلى وردة الترك... ولديها كذلك مراسلاتٌ شعريّة مع شاعرة أخرى من تريباتها وهي الشاعرة عائشة تيمور (المولودة في العام ١٨٤٠)، التي تعتبر من أوليات الكاتبات في الدّيار المصريّة. وتلفت الانتباه هنا المراسلات الشعريّة بين اللبنانيّة المسيحيّة وردة والمصريّة المسلمة عائشة، التي تتضمّن تحيّات على شكل قصائد منمّقة، ومنها قصيدة وردة التي حملت عنوان «بسمة النيل». ومع أنّ هذه القصيدة عبارة عن مجاملات منظومة، إلّا أنّ كلمات وردة لعائشة تترك انطباعاً لطيفاً لدى القارئ إذ تكتنز تشابيه بلاغية مستمدّة من عناصر اللوحات الطبيعية».

ثمّ يبحث كريمسكي عن الصوَر الشعريّة التي تتمظهر فيها الطبيعة في كثير من أشعار وردة اليازجي. يقول: «ويلفت القارئ عنوان إحدى قصائدها «فرح الطبيعة»، فهنا، وبلا أيّ تكلّف، ترسم وردة سعادة حديقة مزهرة تغتسل بمطر صباحيّ، يتشكّل منه جدول جذل ذو لحن مُسكِر. في الواقع، إنّ هذه الصوَر الشعريّة ليست مبتكرة، وعند قراءتها تتبادر إلى الذهن بلا إرادة من القارئ قصيدة «المزهرات» التي نظمها والد وردة في سنوات صباه. ذلك وتكثر أشعار وردة المتعلقة بالأمور العائليّة مثل التهاني والرّثاء...».

ومن المفارقات المهمّة في تناول كريمسكي نتاج وردة اليازجي الشعريّ، دفاعه عنها في وجه المستشرق النّمسوي ألفرد فون كريمر (١٨٢٨ - ١٨٨٩). يقول: «قبل سنة واحدة من نشرها ديوانها الشعريّ حديقة الورد، تزوّجت وردة اليازجي (سنة ١٨٦٦) وانتقلت مع زوجها [فرنسيس شمعون] للعيش في مصر. ويلاحظ أ. فون كريمر بهذا الخصوص، ولا ينسى أن يبثّ سمومه: أعتقد أنّ زواجها لم يترك لها وقت فراغ للإبداع الأدبيّ، وبغضّ النّظر عن تقييمي لمستواها الشعريّ، فإنّ ذلك ليس مدعاة للأسف أبداً». يردّ كريمسكي فيقول: «لكنّ توقّع كريمر ذاك دحضه صدورُ ديوانها «حديقة الورد»، الذي أعادتْ إصداره بطبعة ثانية بعد عشرين عاماً (في بيروت، سنة ١٨٨٧)، مع إضافة بعض القصائد الجديدة إليه، ومنها مرثاة لابنها الميّت، وقصيدة في ذكرى أخيها الراحل، إلخ. وبعد ربع قرن من الزّمن، صدرت الطبعة الثّالثة للديوان في القاهرة، سنة ١٩١٤. وفي الواقع، كانت هذه الكاتبة مع تقدّمها في السنّ تجد من يقرأ أشعارها دائماً».

مي: وردة فتحت لنا الطريقَ

في مقدّمة كتابها «وردة اليازجي»[٨]، تقدّر ميّ زيادة وردة وزميلاتها «اللواتي سبقن جيلنا ففتحن لنا الطريق... فبقي علينا أن نستكشف طبيعة المرأة الشرقيّة لنسجّلها في الوجود، ونسعى بعدئذ لإنمائها وصقلها فنبرزها كما هي في جوهرها تحفة وينبوعاً وذخيرة». ثمّ تعرض ميّ بيسْر لحياة الشاعرة وما خبرتْه من أخلاقها. وعن ديوان وردة «حديقة الورد» تضيف: «إنّه الديوان الوحيد الذي طُبع ثلاث مرّات لشاعر معاصر. ففي حديقتها ورود باهتة في اللطف والمجاملة، وأخرى حمراء قانية في المودّة والشوق، والقسم الطّامي هو ورود قاتمة. ورود الفراق والحداد، ورود الرّثاء والنّحيب المبلّلة بدموع العيون المضمّخة بزفرات القلوب».

وكنّا قد خبرنا الورود الباهتة والقاتمة، كما تسمّيها ميّ، إلّا أنها تفتح العيون على تلك الورود الحمراء القانية، وتدعو القراء إلى قراءة أخرى لديوان «حديقة الورد» على نحو لم تعهده المرأة الشرقيّة قبل وردة اليازجي. ولم يكن بمقدور أحدٍ في ذلك العصر سوى ميّ زيادة أن يفتح العيون على هذا الموضوع المهمّ. فعن النّوع الثاني من ورود الحديقة - أي ورود المودّة والشّوق، تعبّر ميّ عن شكّها المنهجيّ في أن تكون تلك الأشعار التي نظمتْها وردة تتوجّه فيها إلى «صديقة» أو «صاحبة من صويحباتها»، أو إلى «فتاة» بشكل عام! ومن ذلك قول وردة: «علّمتني قولَ النسيب وهجت بي - ما هاج حبّ بثينةٍ بجميلِ».

هـــــــــــي وإن أخطرتنا في العنوان أن القصيدة قيلت في «صديقة» فنحن ندرك أن منها ما هو موجه إلى «صديق» وإنما أخفيت وراء برقع التأنيث في العنوان مجاراة لحكم المجتمع الذي كان يقضي على المرأة بكتمان عواطفها حتى في الشعر.

تقول ميّ: «وأرجّح أنّها ككلّ قلب حسّاس تعلّمت ذلك القول من احتياجها إليه، لأنّ الحبّ لغة طبيعيّة لا بدّ أن تستوفي حقّها من الوجود بصورة من الصوَر». وتُدرج ميّ بعضاً من أبيات وردة في هذا السياق معزّزةً طرحها بأنّ المخاطب رجل وليس امرأة. ومنها: ما زال يصبُو إلى ربعٍ أقام به/ قلبٌ له ساقَهُ الشوقُ يشيّعه. تعلّق ميّ: ليسَ هذا البيت من أجمل أبيات وردة اليازجي ولكنّه أصدقها. وهي وإن أخطرتْنا في العنوان أنّ القصيدة قيلت في «صديقة» فنحن ندرك أنّ منها ما هو موجّه إلى «صديق» وإنّما أخفيت وراء برقع التّأنيث في العنوان مجاراةً لحكم المجتمع الذي كان يقضي على المرأة بكتمان عواطفها حتى في الشّعر. ثم تسأل ميّ سؤالًا استنكاريّاً: أيمكن أن يكون هذا الخطاب لصديقة! وتتابع:

رحل الحبيب وحسن صبري قد رحل
فمتى يعود إلى منازله الأول

وتضيء أرضٌ أظلمت من بعده
وتقرّ عيني باللقا قبل الأجَل؟

يا غائباً والقلب سار بإثره
شوقي مقيمٌ في فؤادي كالجبل

إن كنت غبت عن العيون مهاجراً
فجميل شخصك في فؤادي لم يزل.

أمّا عن كيفيّة سَير القلب في إثر الغائب، وإقامة الشّوق في ذلك القلب - باسم «الفؤاد»، كالجبل، وكيف يذهب القلب ويبقى في آن واحد وفي بيت واحد، فمن الأمور التي لا يعرف أسرارها إلّا الشعراء والعاشقون - كما تقول ميّ. ثمّ تستكمل رحلتها بين دفّتي «حديقة الورد» باحثةً عن العشق المكنون لوردة الأنثى، ذلك العشق الذي ترجمتْه شعراً لكنّه يختفي خلف عنوان «إلى صديقة».

الهوامش

١ *Arab Women Writers - A Critical Reference Guide (1873 - 1999)*, Edited by: Radwa Ashour and others (Cairo: The American university in Cairo press, 2008). Article: «Lebanon - The Pioneers» by Yumna al'-Id. Pages 44 - 45

٢ **الضياء**، مجلّد السنة ١٩٠٥ - ١٩٠٦، سلسلة مقالات «المرأة الشرقيّة» بقلم وردة اليازجي، الصفحات: ٣٥٧، ٣٩٢، ٤٢٢، ٤٥٣، وما بعدها مجلة «الضياء» (١٨٩٨ - ١٩٠٦) لصاحبها الشيخ إبراهيم اليازجي، هي واحدة من المنابر الثقافية في القرن التاسع عشر، نشرت أفكار التنوير في المجتمع العربي ككل، ومصر على وجه الخصوص. هويّة المجلة «علمية أدبية صحية صناعية»، وكانت تطبعها مطبعة المعارف بشارع الفجالة بالقاهرة، وهي المطبعة التي أسسها نجيب متري سنة ١٨٩٠. وقد عملت منذ بدايتها على ترقية فنّ الطباعة العربية والنهوض بها

٣ انظر: **تاريخ الآداب العربية** (١٨٠٠ - ١٩٢٥)، الأب لويس شيخو (بيروت: دار المشرق، ط٣: ١٩٩١) ص ص ٤٢١ - ٤٢٢

٤ **الشعر النسائي العصري وشهيرات نجومه** (القاهرة: مكتبة الوفد لصاحبها محمد محمود - مطبعة الترقي، ١٩٢٩). يقع الكتيّب في ٥٦ صفحة، وجاء على غلافه الخلفي: «الأشعار الواردة في هذه المجموعة مقتبسة من ديوان وردة اليازجي وعائشة عصمت تيمور وأمينة نجيب وملك حفني ناصف وفي صدر كل من هذه المختارات ترجمة الشاعرة، والطبع حسن وقد أحسن الجامع في انتقاء القصائد الواردة في هذه المجموعة ولا شك في أنها من أبلغ المقاطيع التي يتحتم حفظها على طالبات المدارس في جميع الديار التي يتكلّم أبناؤها بلغة الضاد، فنحثّ بنات بلادنا على اقتنائها وحفظ ما فيها»

٥ الطبعة الرابعة والأخيرة من الديوان كانت عن دار مارون عبّود، سنة ١٩٨٤. وقد أتت مطابقة للطبعة الثانية له (بيروت: مطبعة مار جاورجيوس، ١٨٨٧)

٦ للاستزادة انظر: **١٨٩٧ - قصص بيروتية، أ. كريمسكي**، دراسة وترجمة عماد الدين رائف (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط١: ٢٠١٧) القسم الأول

٧ **تاريخ الأدب العربي الحديث**، أ.ي. كريمسكي (موسكو: إدارة تحرير الآداب الشرقية، ١٩٧١). ص ٤٢٦ وما بعدها

٧ انظر: **وردة اليازجي**، ميّ زيادة (بيروت: مؤسسة نوفل، ط٢: ١٩٨٠)، المقدّمة وص ص: ٢٤ - ٣٩. والكتيّب الذي يقع في ٦٣ صفحة، عبارة عن محاضرة طويلة ألقتها ميّ زيادة في «جمعية الشبابات المسيحيّة» بالقاهرة، بتاريخ ١٥ أيّار / مايو ١٩٢٤، ثم نشرتها تباعاً على حلقات في مجلة «المقتطف» في العام نفسه

نهوند

٢٠٢ **نقد نقد الموسيقى في بلاد العرب**
فادي العبد الله

٢٠٧ **المؤلف الموسيقي عبد اللّه المصري**
تجديد سمعي من صميم المزاج العربي
حاوره أكرم الريّس

٢٢٢ **أصوات من الضفّة الثانية**
نزار مروة

نقد نقد الموسيقى في بلاد العرب

فادي العبد اللّه

شاعر وكاتب مهتمّ بشؤون الموسيقى والصوت والفنّ المعاصر، لبنان. من أعماله الشّعريّة «يؤلّفنا الافتتان»، ٢٠٠٥ و«أشاطركم الألم برهة والودّ طويلاً»، ٢٠١٥.

عمل غوستاف فلوبير طويلاً على جمع وصياغة الكليشيهات المنتشرة في زمنه بشأن كلّ شيء تقريباً في كتابه «قاموس الآراء الشائعة». طبعاً لم يُنه فلوبير هذا الكتاب إذ إنّ جَمْع التّافه الشائع والمتشبّه بالعميق عملٌ لا ينتهي. غير أنّه أشار في ذلك إلى الطبيعة الغفلة، اللاشخصيّة، للسّخافة. ليس من ضرورة أن يُنسب هذا القول أو تلك العبارة إلى فلان من الكتّاب أو من الأرستقراطيّين، بل إنّ هذا القول يجد في إغفال قائله وفي شبهة الصّحة فيه ما يوضح مدى فداحته وشيوعه.

في النّقد الموسيقي المكتوب بالعربيّة، والذي يتسنّى الاطلاع عليه في الصحفات الثقافيّة وبعض الدوريّات والكتب ولكن أيضاً على صفحات الإنترنت والمنتديات وموقع فيسبوك، أيضاً آراءٌ شائعة لعلّها تشكّل القوام الأساسي لكلّ ما يُكتب، وقد اكتست بقوّة التّكرار والشّيوع شبهةً من حقيقة ومن عمق موهوم. وقد يكون من الممكن إسناد هذه الآراء إلى أقسام خمس. ولعلّ أولى مهامّ النّقد الآن توجيه مبضعه نحو النّقد نفسه، والتفكير في هذه الآراء الشائعة وأصولها، ومن ثمّ النّظر في ما لا يزال يفسح بعض المجال ويضفي بعض المغزى على هذا النّقد.

أثر الشّفاهة وهوس التّأريخ

في مفارقة لطيفة، يبدو النّقد العربيّ مهجوساً بالتّأريخ فقليلاً ما نعثر على كتاب لا يبتدئ إمّا بذكر النّقوش السومريّة والرسوم الفرعونيّة، أو وهو الأكثر ذيوعاً باعتبار عروبته بذكر دخول الغناء إلى الحجاز وذكر القيان والمغنّيات في قصور بني العبّاس وأخبارهنّ المذكورة في «كتاب الأغاني». غير أنّ هذا النّقد عينه هو ما ينتقل بشكلٍ حاسمٍ إلى تجميع الحكايات والأساطير عن المغنّين والمغنّيات وقليلٍ من الموسيقيّين الملحّنين وغالباً عازفي العود كأنّه هو آلة العرب الوحيدة ما إن ننتقل إلى القرن العشرين.

هكذا يبدو أنّ المادّة التوثيقيّة المكتوبة والمحفوظة والمدروسة إنّما تنتمي إلى عالم الماضي السّحيق الذي تكاد تكون علاقات الممارسة الموسيقيّة معه منقطعة، في حين أنّ مثيل هذه المادّة مفقودٌ في عالمنا المعاصر. ولا يفلت من أثر هذا الفقد إلّا القليل من الباحثين الذين يحاولون العثور على مصادر متنوّعة وأصليّة كسجلّات شركات الأسطوانات أو مذكّرات المعاصرين، ومن ثَمّ تمحيصها بدقّة. ولا يندر أن نرى النّاقد ينتقل من تدقيق في كتب الأقدمين إلى ذكر حادثة رواها له فلانٌ أو علّانٌ وتصديقها من دون تفكير رغم عيوبها الظّاهرة في الصّياغة وفي الوقائع، وهذا من أثر الشفاهة في بلادنا وتاريخها المعاصر.

ومن جهة أخرى لا يندر أن نرى من يحسب أنّ التثبّت من تواريخ الأغاني أو من أسماء المؤلّفين شغلٌ نقدي يستحقّ الاكتفاء به. والحقّ أنّ التّأريخ بالطّبع ليس نقداً وليس بكافٍ كي نتفكّر في الموسيقى المعروضة على أسماعنا وهذا لا يمنع من أنّه مادّة أوّليّة هامّة يستطيع النّقد أن يشتغل عليها شرط أن ينأى بنفسه عمّا يستتبعه التّأريخ المعتاد من تثبيتٍ لبؤرة النّظر على العبقريّات الفرديّة (سيّد درويش، عاصي الرحباني، إلخ.) وإهمالٍ لشروط التّأريخ الحديث الأغنى والأكثر تعقيداً المتابعِ لحركة الغفل في التّاريخ ولما يسمح للعبقريّة الفرديّة بالظّهور وبالإنتاج والتّأثير في ما يليها.

الافتتان بغربٍ لا يُعْثَر عليه

الغرب هو، في هذا النّقد، مصدر الشّرور والنّازع إلى تدمير رأسمالنا الفنّيّ وسرقته، بدليل سرقة أحد «الرّابرز» لبعض

موازير من أغنية لعبد الحليم مثلاً. لكنّه هو أيضاً، وفي النّقد نفسه، الحكم القاطع في الاعتراف بالعبقريّة والأصالة. أفلم يشهد هذا الغرب لفريد الأطرش، أو لعبد الوهّاب، أو لأمّ كلثوم، أو لرياض السّنباطي؟ هل من كلام بعد كلام هذا الغرب؟ فتصبح جائزة «اليونيسكو» التي نالها السّنباطي دليلاً لا يُردّ على تفوّقه على عبد الوهّاب وعلى أصالته التي سمحت له بهذا التّفوّق، فلو كان سارقاً كغريمه لما كان حاز مثل هذا الاعتراف، رغم أنّ أحداً لم يكلّف نفسه عناء البحث عن هذه الجائزة، جائزة المجلس الدّولي للموسيقى المشتركة مع اليونيسكو، ليكتشف أنّ السّنباطي في العام **١٩٧٧** حازها كمؤدٍّ، كما حازها منير بشير ومحمّد القبنجي وغيرهم، وليس كملحّنٍ أو مؤلّفٍ موسيقي!

وهذا الغرب هو بالطّبع كلّ غربيّ وأيّ غربيّ، سواء كان على علاقة بالموسيقى أو لا. فيكفي الاحتفاء بواحدٍ منّا في مدينة في ألمانيا أو فرنسا مثلاً لنقول إنّ الألمان وضعوه في مصافّ بيتهوفن والباريسيّين فتحوا له معاهدهم لينهلوا من علمه. فتجتمع هاهنا افتراضاتٌ ثلاثة فانتازيّة في الغرب كتلة واحدة صمّاء، وشرٌّ مطلقٌ ثابتٌ، وحكمٌ أعلى عادلٌ ونزيه.

قليلا ما نجد باحثا يتحدث عن الموسيقى العربية ولا يكون حديثه في الواقع عن الموسيقى المصرية مضافا إليها حيث لزم بعض الحواشي اللبنانية أو السورية باعتبار قرابتها الفنية من مصر.

في المقابل هنالك أيضاً عالمٌ عربيٌ، هو أيضاً مفترضٌ وموهوم، فقليلاً ما نجد باحثاً يتحدّث عن الموسيقى العربيّة بل ويضعها عنواناً لكتابه ولا يكون حديثه في الواقع عن الموسيقى المصريّة مضافاً إليها حيث لزم بعض الحواشي اللبنانيّة أو السوريّة باعتبار قرابتها الفنّيّة من مصر. بل إنّ الحديث قد لا يتجاوز الموسيقى القاهريّة وموسيقى الدلتا، ويتجاهل موسيقات النّوبة والصّعيد وسيوة والكنيسة القبطيّة فضلاً عن موسيقات ليبيا والعراق واليمن والكويت والمغرب والجزائر وسائر البلدان بتنوّع اتّجاهاتها وقواعد موسيقاها وممارساتها.

جدل الأوهام: التعبير والتّطريب، التّجديد والأصالة

ينقسم النّقد العربيّ، بل ينقسم النّاقد العربيّ نفسه، إلى معسكرين في شكلٍ تلقائيّ: أنصار «القديم» أو «الطّرَب» أو «الأصيل» في مواجهة أنصار «الحديث» أو «التّعبير» أو «التّجديد». فالقديم هو هويّتنا، أمّا الحديث فهو عصرنا، والطّرَب غايتنا لكنّ التّعبير هو القيمة التي أنقذتنا من براثن الموسيقى البدائيّة للقرن التّاسع عشر، والأصالة معيارنا لكنّ التّجديد هو الهواء الضروريّ للتّنفّس وللاعتراف بعبقريّة موسيقيّي القرن العشرين تحديداً (مَن في النّقد يبالي بموسيقيّي القرن الحادي والعشرين؟). ولا يندر أن يكتب كاتبٌ في مديح أمّ كلثوم وملحّنيها، أو في مديح عبد الوهّاب، أو في ذمّهما بنفس العبارات ونفس المعايير: أي الجمع والتوفيق والتلفيق ما بين هذه الأقطاب المتعارضة فيمدح المطرب وصوته المعجز مثلما يمدح استدخال آلات جديدة أو بناء القصيدة الملحّنة بناءً درامياً كثيفاً مأخوذاً في العمق عن روح الموسيقى الأوروبيّة.

وقد ساجلتُ من قبل في سخافة فكرة التعبير وتصيّدها لثوانٍ في أغنيةٍ طويلةٍ لإبراز ما تقول، حين يصبح الصّباً راية الحزن والبيّات للرّقص والعجم للحماسة، ويكون تخافض اللّحن دليلاً على عمق الألم ويصبح تصاعده دليلاً على حدّة الألم وشدّته، في حين يغفل أنّ التخافض سبقه تصاعدٌ في نفس الكلمة أو العكس، مثلما يغفل أنّ مثل هذه المصادفة وإن مقصودة لا تعني جماليّاً شيئاً هامّاً عدا استتباع الموسيقى لسطوة اللغة وتحويلها إلى خادمة. كما ساجلتُ من قبل أيضاً في سخافة فكرة الأصالة نفسها وانعدام أصلها وكونها في بواكيرها غطاءً لتمويه الجديد الذي كان يقدّم آنذاك. وسيولة مثل هذه المفاهيم تسمح بالقول من دون أن ينتبه القائل ولا القارئ إلى أيّ فوارق فنّيّة أنّ سيّد درويش والسّنباطي وعبد الوهّاب وزكريّا أحمد والقصبجي، إذا ما لزمنا جانب مصر وحدها، كلّهم أصلاء وكلّهم مجدّدون فلا نرى أيّ عبقريّ لا يملك الصّفتَين السّائلتين معاً، وإنّ تفاوت النقّاد في تعيين نصيب كلّ منهم من هذه السّيولة وفي قدرتهم على الجمع بين وهمَيْن أو أكثر من أقطاب تفكيرنا.

إيديولوجيّة اللغة والنسب العربيّ الشريف

تسيطر اللغة عموماً على كتابة النّاقد العربيّ هذا إذا افترضنا أنّه تخلّص من وهْم كتابة الشّعر في موضوع الموسيقى حيث تنساب شلّالات النّغم وتتلألأ أنهار الطرب فيقضي ردحاً طويلاً من كتابته في متابعة كلام الأغاني وتصيّد لحظات انطباق تصاعد اللحن أو

تخافضه أو تغيير الإيقاع على جريان الشعر، والتّصيّد لا يخلو من التّعسّف ولا من جرّ الطّريدة مقتولة. وحين لا تكون عين النّاقد وأذنه على حركات الفريسة، يكون ذهنه في صدد محاكمة الشّعر إسفافاً أو علوّاً (في مقارنات مدرسيّة متكلّسة)، أو في صدد محاسبة موقفه (أو موقف الشّاعر أو المغنّي أو الملحّن) من الثّورة والشّعب والعمّال وحركة التّاريخ حساباً عسيراً. وللمرء أن يسأل في كلّ حين آنذاك: وما ذنب الموسيقى؟

تلوح بوادر مستوى ثان من التحليل في اختزال المنتج الموسيقي إلى بنية أصلية وأصيلة طبعا يزعم بأنها كانت متضمنة في التراث الفصيح بحيث لا نرى في الإنتاج الجديد المعترف به إلا تنويعا جديدا على بنية أصلية لا تخرج غالبا عن كونها تتابع أبسط التتابعات وأكثرها بداهة واستعمالا.

بيد أنّ اللغة تسيطر أيضاً على مستوىً ثانٍ من التحليل، كما ذكرنا في معرض الإشارة إلى الظّنّ بالموسيقى أنّها خادمة لها تنحصر وظيفتها في المحاكاة القاصرة ذات الوسائل الفقيرة للمعنى الشّعري (تخافضاً وترافعاً، أو تسارعاً وتباطؤاً، أو تغيّراً في الآلات والمقامات، بما قد يوحي بالتّعارض أو الحركة في الموقف من دون أن يقول لنا ما هو الموقف نفسه الذي تفترض محاكاته) كما يحاكي القرد حركات معلّمه. فقليلاً ما يخرج ناقدنا من إسار الأغنية إلى رحاب الأنواع الموسيقيّة الأخرى، وإنْ فعل فسيستعير من برنامج موسيقى القرن التاسع عشر الأوروبيّ معانيَ مضمرةً ويلصقها بالموسيقى المعروضة أمامه.

ثمّ أيضاً على مستوى ثالث يرى في الموسيقى لغة فيبحث فيها دائماً عن مفردات وجمَل ومعانٍ وتفاعيل خليليّة. وقد يكون في ذلك بعض المنفعة إذا استعمل أداة لا مندوحة عنها للوصف وللتّقريب من الأفهام لكن مع التّشديد على محدوديّة مثل هذه المقاربة. فعلى سبيل المثال لا يجوز في العربيّة التقاء ساكنين، فكيف نحسب السّكون المتمادي في الموسيقى إذا استخدمنا أسلوب العروض، وليس فيها التقاء أكثر من أربع حركاتٍ متحرّكة فكيف نحلّل جملة موسيقيّة سريعة؟ وقد يكون هذا المستوى أحياناً أكثر ضرراً حين يتمّ لَيّ عنق الموسيقى للخضوع إلى علم العروض لإثبات نسَبها العربيّ وفصاحتها، علماً أنّ معظم «مفرداتها» وتراكيبها مشترك مع موسيقى الأتراك مثلاً!

بقايا الشكلانيّة ونوايا الاختزاليّة

يكون العازف سلطاناً على آلته إذا عزف بسرعةٍ كبيرةٍ أو إذا انتقل بين مقاماتٍ كثيرةٍ شأنه في هذا شأن الملحّن الواعي المعلّم والمتمكّن الذي يُجري انتقالاتٍ مقاميّةً مع كلّ «كوبليه» في الطقطوقة مثلاً، وهذا بغضّ النّظر عن طبيعة هذه الانتقالات نفسها وهل كان فيها جدّة أم أنّها تسلك مسالك مطروقة ومعروفة غالباً في الموشّحات منذ عقود إن لم تكن مئات من السّنين! لكنّ العازف نفسه وكذلك الملحّن يُظهران تمكّنهما وفهمهما لحاجة الجمهور إلى أن يسكن إلى مقام واحدٍ فيبحر فيه ويستكشف أرجاءه المختلفة وغير المستَكشفة! ويسري على الانتقالات المقاميّة ما يسري أيضاً على الانتقالات الإيقاعيّة!

مثل هذا الشّغف بموضوع الانتقالات المقاميّة ويوازيه أيضاً شغفٌ بتحليل بنية الأغنية (نوع القوافي وعددها وترتيب تكرارها وعودتها، وكذلك عدد الكوبليهات في الطقطوقة ومقاماتها أو موضع الآهات في الدور على سبيل المثال) وفقاً للقوالب الموروثة رغم أنّ أعمال مُبدع حقيقيّ كزكريّا أحمد لا تختزل في مثل هذا التّحليل (تنويع ألحان الأغصان أو الكوبليهات في الطقطوقة) وهي أصلاً لا تقيم كبير وزنٍ للتميّز بين القوالب المختلفة ولا تدخل في تصانيفها المعتمدة. ويلوح لي أنّ أصل هذا الشّغف ليس إلّا من بقايا البنيويّة التي ذاعت ذات يوم في فرنسا في الستينيّات قبل أن تندثر، ومن مقاربة شكلانيّة في التّحليل تغنيك بأسماء أعضاء الفريسة عن متعة تذوّق الطبخة.

هنا أيضاً تلوح بوادر مستوى ثانٍ من التّحليل، المستَقى من أكاديميّات الموسيقولوجي ومناهجها، في اختزال المنتَج الموسيقيّ إلى بنية أصليّة وأصيلة طبعاً يزعم بأنّها كانت متضمّنة في التّراث الفصيح بحيث لا نرى، آخر الأمر، في الإنتاج الجديد المعترف به (وبأنّه ليس ملوّثاً بالغرب) إلّا تنويعاً جديداً على بنية أصليّة لا تخرج غالباً عن كونها تتابع ثالثات أو ائتلافاً تقليديّاً (كالدّو والمي والصّول) يتناثر عقده، أي بعض أبسط التتابعات وأكثرها بداهة واستعمالاً. وليس في هذا عيب، إذ إنّ المعوّل عليه هو بالتّحديد الغائب عن مثل هذا التّحليل، أي تفاصيل تركيب الميلودي وأماكن مخاتلتها للمتوقّع وتلاعبها بالزّمن وزخرفاتها ومن ثمّ

Adlibi

تفاصيل تطويرها ومعانقتها لميلوديات أخرى، ومعالجتها الهرمونيّة المعلنة أو المضمرة، وكلّ ذلك ممّا لا يظهر لدى اختزالها المخلّ والمتعسّف.

النقد يشير إلى لذّة الموسيقى

بعد كلّ هذا، إذا كان النقد غير معنيّ بالدّفاع عن هويّة العروبة السّافرة ولا بتصيّد مصادفات التعبير عن المعاني المضمَرة ولا بوصف أشكال البنى الظّاهرة ولا هو معْنيّ بالتّأريخ للأفذاذ الفلْتات العباقرة ولا لنزعات الأسطرة ولا بمنافحة أفكار الغرب وتأثيراته الكافرة، فماذا يظلّ للنّقد الموسيقي أن يقول؟

في تقديري أنّ النّقد أوّلاً يُكتب من أجل القارئ الغفل، لا القارئ الأكاديميّ الذي يقرأ ليكتب، وإن كان النّقد يبني لدى قارئه الغفل هذا معرفةً تتراكم مع الوقت وهدفها زيادة قدرته على الاستمتاع الحسّيّ والعقليّ بالموسيقى التي يشير إليها، فالمعرفة هاهنا شرطٌ لاكتمال المتعة الفرديّة والذوقيّة بمنحها إمكانيّة فهم ما يمتّعها في ما تسمعه (جدّته الراهنة، تلاعب الجملة الموسيقيّة بالزّمن والإيقاع، مفاجآته المقاميّة أو خصوصيّة أبعاد نوتاته، جرأته على النّشاز أو على إدماج عناصر موسيقيّة من سياقات مختلفة، استخدامه لتقنيّات تنتج أصواتاً غير مسبوقة، الأنساق التي ينتمي إليها والسياق الذي يغلّفه، علاقته بالصّمت... إلخ.). مثل هذا النّقد يشير إلى القارئ على «لذّة الموسيقى»، وعلى ملامح خَفِرة أو خفيّة تستحقّ الانتباه إليها، مثلما كان رولان بارت يشيرإلى «لذّة النّص».

في النقد الموسيقى إعلان لموقف شخصي سيزيفي ومتمرد يعلن في الوقت عينه أضداد ونقائض كثيرة: حتمية التغير وضرورة الحفاظ على ما تقطر في مئات من السنين. الاقتناع بأن في الموروث موارد كثيرة ظلت طي الاحتمال وتستحق التفعيل والاكتشاف والاقتناع.

وفي تقديري ثانياً، أن النّقد، سواء غلبتْ عليه أسئلة الفلسفة أو عناصر التّحليل التقني أو هواجس التّأريخ أو حتى المواقف السياسيّة، لا يصير نقداً إلّا متى انضمّت إلى هذه المسائل قضايا أخرى تسأل عن موقع الموسيقى من أنفسنا وسببها، وعن أثر الزّمن في الموسيقى، وأثر العنف في الصّمت، وأثر حركات المجتمع ومواقع قواه المتغيّرة واختلافات التقنية والانتقال من نموذج اقتصاديٍّ إلى آخر ومن صالوناتٍ خاصّةٍ إلى قاعاتٍ عامّة، في نسيج الموسيقى المسموعة نفسه، أي في الصّوت والأبعاد والخيارات المتاحة أو المستعمَلة في تركيب بنية العمل والعلائق ما بين عناصره وآبائه الكثر (ليس من عمل موسيقيّ، وإن كان كتابة سيمفونيّة، يكتفي بأبٍ واحد). فيبنغي بمثل هذا النّقد أن يستمرّ في حركةٍ دائريّةٍ ما بين تتبّع آثار كلّ هذه العوامل في المسموع، وبين استقرائها على ضوء هذا المسموع نفسه، فتقول لنا هذه العوامل الكثير عن الموسيقى، وتقول لنا الموسيقى الكثير عن هذه العوامل.

ثمّ إنّ النّقد أيضاً، آخر الأمر، تساؤلٌ عمّا يستحقّ الدّفاع عنه والتّرويج له في هذا المسموع، وحسابٌ للعمق التاريخيّ والجغرافيّ الذي صاغ موسيقى ما خلال قرون طويلة وصاغ لها مواردها الخاصّة (أنماطها وأبعادها وإيقاعاتها وإيحاءاتها وحلياتها وتفضيلاتها). وفي الوقت عينه الذي يدرك المرء أنّ تحجير الزّمن على لحظة ما واعتبارها قُدس الأقداس وسدرة المنتهى مستحيلٌ ومخالفٌ حتّى لفعل صياغة هذه الموسيقى التي يهواها على مرّ بطيءٍ لتلك القرون، فإنّه أيضاً يدرك أنّ فيها ما يستحقّ ألّا يُترك للنّسيان والهباء والاندثار. وينطلق مثل هذا النّقد ممّا هو أمامنا وحولنا وقد تلاشى في نفس الوقت، أي من المسموع أو ينتهي إليه. وفي كلا الحالين يكفيه ثوريّةً ألّا يقع في براثن طبقات الخطاب المتعدّدة التي تقف غشاءً حاجزاً على آذاننا وتضع لنا أنصاباً على الطّريق لنتعبّد لها أو لنرجمها، لا فرق.

بكلمات أخرى، في النّقد الموسيقيّ إعلانٌ لموقف شخصيّ سيزيفيّ ومتمرّد يعلن في الوقت عينه أضداداً ونقائض كثيرة: حتميّة التغيّر وضرورة الحفاظ على ما تقطّر في مئات من السنين، الاقتناع بأنّ في الموروث موارد كثيرة ظلّت طيّ الاحتمال وتستحقّ التفعيل والاكتشاف والاقتناع بالقوّة عينها بأنّ موارد كثيرة سوف تتمّ استعارتها لتخصيب الموجود وفتح آفاق الممكن غير المسبوق أمامه، وجدل الألفة والحنين في المعهود واحتمالات الممكن في الراهن وأفق الأمل في الآتي. ومن هذا الجدل يتولّد التمرّد الدائم في النّقد، حتى وإن كان هامساً وهذا ما لا ينتقص من فاعليّته، مثلما يكون كلّ عمل فنّيّ جدّي وراهن عملاً متمرداً على سياق مسيطر سابق عليه وعلى هيمنته على وقتنا ومخيّلتنا وإنْ تسمّت هذه الهيمنة بأسماء كثيرة.

المؤلف الموسيقي عبد اللّه المصري
تجديد سمعي من صميم المزاج العربي

حاوره أكرم الريّس

باحث في انتروبولوجيا الفنون، لبنان.

ارتبطت جهود مؤسّسات تعليم الموسيقى التي تمّ تأسيسها في الرّبع الأوّل من القرن الماضي بشكل وثيق برفد الحداثة الموسيقيّة في لبنان كما في دول المنطقة من خلال تطبيق مناهج الموسيقى الغربيّة، كالمعهد الموسيقيّ في الجامعة الأميركيّة في بيروت (١٩٢٩) ومدرسة وديع صبرا الموسيقية (١٩٢٥) التي أصبحت فيما بعد «الكونسرفاتوار الوطني». وقد ظهر على أثرها أربعة أجيال من المؤلّفين الموسيقيّين في القرن الماضي: الجيل الأوّل في بداية مرحلة الانتداب ويمثّله وديع صبرا (١٨٧٦ - ١٩٥٢)، وتبعه أنيس فليحان (١٩٠٠ - ١٩٧٠) وهو من رموز الجيل الثّاني. أمّا في الخمسينيّات والستّينيّات فبرز توفيق سكّر (١٩٢٢-)، وتوفيق الباشا (١٩٢٤ - ٢٠٠٥)، وجورج باز (١٩٢٦ - ٢٠١٢)، وبوغوص جلاليان (١٩٢٧ - ٢٠١١)، والأب يوسف الخوري (١٩١٨ - ٢٠٠٨) ومن ثمّ عبد الغني شعبان (١٩٢٧ - ١٩٧٧) ووليد غلميّة (٩٣٨ - ٢٠١١). في مسار متوازٍ، ترسّخت النّهضة الغنائيّة التي بدأت مطالعها في لبنان بعد نيله استقلاله واستمرّت لحين بداية الحرب في العام ١٩٧٥. وقد برزت كوكبة من الملحّنين والشّعراء والمغنّين والمؤسّسات والمهرجانات الفنّيّة على رأسها الإذاعة اللبنانيّة ومهرجانات بعلبك الدّوليّة وهيئات داعمة أخرى عملت على تقديم أعمال غنائيّة مسرحيّة وإذاعيّة ذات طابع محلّيّ ومعاصر في آن واحد. وتغرف هذه الموسيقى الغنائيّة من مناهل متعدّدة تشمل التّراث الرّيفي، والبدوي، والمُدني المحترف في القاهرة وحلب، والموسيقى الدينيّة البيزنطيّة، والسّريانيّة، والإسلاميّة.

شهدتْ مرحلة الحرب اللبنانيّة ظهور جيل رابع من المؤلّفين، ومن أعلامه في لبنان والخارج بشارة الخوري (١٩٥٧-)، وناجي الحكيم (١٩٥٥-)، وجمال أبو الحسن (١٩٥٧-)، وغبريال يارد (١٩٤٩-)، وعبد الله المصري (١٩٦٢-)، وهتاف خوري (١٩٦٧-)، وقد انضمّ إليهم مرسيل خليفة (١٩٥٠-) في مرحلة جديدة من مسيرته الفنّيّة. وبرزت وجوه جديدة بعد انتهاء الحرب ومنها جويل خوري (١٩٦٨-)، وزاد ملتقى (١٩٦٧-)، وهبة القواس (١٩٧٢-)، ومحمود تركماني (١٩٨٤-)، وبشرى الترك (١٩٨٢-). كما نشطتْ مبادرات فرديّة عدّة تهدف إلى الإضاءة على أعمال موسيقيّين معاصرين من لبنان والدّوَل العربيّة، لعلّ أبرزها كتابات النّاقد نزار مروّة وبرنامجه الإذاعي «أصوات من الضّفّة الثانية» (١٩٩٠). وكان لكلّيّة الموسيقى في جامعة الكسليك مساهمات متعدّدة المستويات، خصوصاً في توجيه طلّابها إلى كتابة أطروحاتهم عن أعلام التّأليف والتّلحين في لبنان ومنهم بوغوص جلاليان وتوفيق الباشا ووليد غلميّة.

أمّا بعد انتهاء الحرب اللبنانيّة وبدْء مرحلة إعادة الإعمار، فكان للدّكتور وليد غلميّة دور فعّال على صعيد المؤسّسات وذلك في تنمية المعهد الموسيقي الوطني وتوسيع نطاقه الجغرافي بالإضافة إلى إنشاء الفرقة الفلهارمونيّة اللبنانيّة. توالت المبادرات الفرديّة في تلك الفترة لمواكبة هذا القطاع الموسيقي الإبداعي ومبدعيه الذين «اختاروا الطّريق الصّعب المثير للجدل والنّزاع ولمسألة التقبّل والانتشار» كما وصفهم النّاقد نزار مروّة[١]، فأطلقت المؤلّفة جويل خوري نشاطاً تواصليّاً تحت عنوان «لقاء مع المؤلّف» (Meet the Composer) (٢٠٠٩ - ٢٠١٠) يهدف إلى «اكتشاف المشهد الموسيقي اللبناني المعاصر، الذي قد يؤدّي بدوره إلى تنظيم

مهرجان للموسيقى المعاصرة في لبنان». وأنشأ المؤلّف هتاف خوري صفحة خاصّة على الفيسبوك مع قناة خاصّة على اليوتيوب بعنوان «المؤلّفون اللبنانيّون»[٢] (Lebanese Composers)، مستفيداً من ميزات منابر التّواصل الاجتماعي للتعريف بأعمال هؤلاء المبدعين، وسعى نحو إصدارات موسيقيّة لبعض رموز التّأليف الموسيقي. كما عملت زينة كيّالي على إصدار كتاب باللغة الفرنسيّة يعرّف بالمؤلّفين والملحّنين اللبنانيّين وتأسيس مركز التّراث الموسيقي اللبناني[٣] في مدرسة الجمهور.

يتألّف هذا اللقاء مع المؤلّف الموسيقي عبد الله المصري من أربعة محاور تنطلق مع البدايات الأولى والدراسة في روسيا لتضيء من ثَمّ على أعماله، وتنتقل إلى محاور أخرى لتناقش قضايا وشؤوناً راهنة تتعلّق بمسيرة التّأليف الموسيقي في لبنان والمنطقة عبر تجربته الفنّيّة والعلميّة. حصل المصري على الدكتوراه في التّأليف الموسيقي من كونسرفتوار تشايكوفسكي العريق في روسيا، ويقيم حاليّاً في الكويت حيث يدرّس في جامعة الكويت. قُدّمت أعماله في قاعة البولشوي في موسكو، وليفربول فلهارمونيك ودار الأوبّرا المصريّة والقَطريّة وغيرها مع أوركسترا راديو موسكو، وغلوباليس موسكو، والقاهرة السيمفوني، وليفربول الملكيّة، ونانسي السيمفوني، وقطر السيمفوني، والأوركسترا الفلهارمونيّة اللبنانيّة. وقد أنهى المصري أخيراً تأليف سيمفونيّته الثّالثة، وكرّمه العام الماضي كلٌّ من وزارة الثّقافة اللبنانيّة وأكاديميّة الفنون في مصر مع نخبة من الرّموز الأكاديميّة المصريّة وذلك في ختام الملتقى العلمي العربيّ الثّاني. تتميّز لغة المصري الموسيقيّة بالتّجديد السمعي المستوحى من صميم المزاج العربيّ اللبنانيّ، بعيداً عن موجة الموسيقى التجريبيّة السّائدة، وتتنوّع في عدّة قوالب موسيقيّة.

«أنا شخصيّاً مع من اختاروا الطريق الصّعب، معهم دون تحفُّظ، ومع إعادة تربية موسيقيّة شاملة للأذن الشائعة والذّوق العامّ. إنّنا نراهن على زمنٍ آتٍ تحتلّ فيه الموسيقى الجادّة المكان اللائق في ثقافة الجمهور ووجدانهم. وإلى ذلك الوقت أعتبر أنّنا جميعاً أفراداً ومؤسّسات مقصّرين في جعل هذا الآتي يبدو قريباً»
(نزار مروّة ١٩٨٨)

البدايات

ما هي أولى ذكرياتك عن الموسيقى خلال طفولتك و«ملاعبها»؟

منذ الصّغر كنتُ أغنّي في صالون المنزل في صليما حيث كان الصّدى يكفي ليجعل من صوتي في خيالي أثناء غناء فيروز أحلى من صوت فيروز نفسها. وكانت مخيّلتي وثقتي تزيداننني شغفاً وحبّا لصوت فيروز بتوليفته الرحبانيّة. كانت المصاحبة وقتها الدّربكّة على المَساند الخشبيّة لفرش الصّالون العتيق وكلّ شيء آنذاك بدا رائعاً. كان ذلك في سنّ ٦ أو٧ سنوات. ومن ذكرياتي أنّي كنت أطارد بائع البوظة في كلّ أحياء ضيعتي مستمعاً إلى تسجيلات فيروز والأخوَين رحباني التي تصدح من ميكروفون معلّق على أعلى سيّارته. كنت من الأطفال الذين «فاتلة معهن عالموسيقى». كان مغناطيس الموسيقى يسحبني ويجعلني وقحاً لدرجة أنّي أجد نفسي أمام أحد شبابيك الجيران حيث تصدح الموسيقى من مذياعهم.

في سنّ ٨ سنوات شاركتُ في حفلة المدرسة التي أعدّها أستاذ فيها عمل في فرقة الرّقص التّابعة للأخوَين رحباني. وكان يستغلّ مكانته العريقة لتعليمنا الدبكات وإعادة المسرحيّات الرّحبانيّة. وكان عنده «واسطة» الحصول على الثّياب الأصليّة للفرقة. وأذكر أنّنا أعدنا تقديم «البعلبكيّة» على ما أظنّ. وقتها كنت أسترقُ النّظر على التّدريبات لأنّ المشاركين كانوا من الصّفوف العليا، بينما أنا أقلّ عمراً من المطلوب. لكنّني فاجأتُ المُدرّس برقص كلّ ما تعلّموه بإتقان، وقد أبهره ذلك فأصبحت «صوليست» الدّبكة بثياب «مبهبطة» نظراً لحجمي الصّغير. سافر أخي الكبير طليع إلى الاتّحاد السّوفييتي وكان كريماً معي في تزويدي بالأسطوانات الكلاسيكيّة وحتّى النوتا التي لم أكنْ وقتها على أيّ صلة معها.

لاحَظَ أبي شغفي بالموسيقى وحاول مساعدتي، فصنع لي غيتاراً خشبيّاً وزوّده بأوتار النّايلون التي كان يستخدمها في مهنة البناء. أخذ هذا الغيتار «الهاند ميد» شهرة كبيرة في الضّيعة ولاموه على مسايرتي في جنوني. كان والدي نحّات أحجار وعازفاً سابقاً على آلة الترمبيت في فرقة النّوبة في الضّيعة، كما كان ممثّلاً في فرقة الضّيعة حيث قدّم مع فنّاني جيله الكثير من

❖
كونشرتو البيانو
مع الاوركسترا
الفيلهارمونية اللبنانية
بقيادة لبنان بعلبكي
ومشاركة رامي خليفة

مسرحيّات شكسبير عبر نصوص شعريّة. ولا زلت أذكر المبارزات الشعريّة فيما بينهم على نصوص شكسبير.

مع بداية الحرب الأهليّة اشترى لي أخي منصور أوّل غيتار حقيقيّ، وهذا الغيتار شهد ويلات الحرب والحريق الذي تعرضَت لهما قريتي، لكنّه بقي دون سليماً برغم احتراق منزلنا بكامله، فقد كان فراش الصّوف السّميك كفيلاً بحمايته من الحريق. وبعد عودتنا من التّهجير المؤقّت كانت فرحتي لا توصف عندما وجدت الغيتار سالماً رغم الخراب.

ماذا بقي أيضاً من ملامح بيئتك الاولى في جعبة الذّاكرة؟

ليست تلك الملامح جميعها موسومة بسياقات الفرح. في البداية لم أثمّن القيمة المطلقة لجمال طبيعة بلدتي صليما وأبنيتها الأثريّة وغابات الصّنوبر والسّنديان المحيطة بها، حيث كنّا نمضي جزءاً كبير من وقت الطّفولة «بالهوشلة والعفرتة» في ربوعها. كنت في لحظات الوحدة أشعر بالحزن ولا أعرف مصدره. وقد اتّهمت جرّاء ذلك بالنّكَد وأصبحت انطوائيّاً أفضّل البقاء داخل البيت وأميل للشعور بالطّمأنينة داخله، حتى وصلت لمرحلة أكره فيها الطبيعة وضجيجها. وللتّوضيح أكثر، لا أنسبُ أيّاً من أعمالي إلى جمال طبيعة المكان حيث إنّ محتوى هذه الأعمال ينبض بالحزن والتّراجيديا. كما رافقتْ طفولتي أصوات فرقة النّوبة[٤] وتفاصيلها الغريبة. كان ظهورها في المناسبات الاجتماعيّة مصدر رعب لا يُصدَق. في أحد المآتم مثلاً، اصطحبتْني والدتي إلى العزاء وكنت في الخامسة أو أقلّ من عمري. وفي لحظة تاريخيّة مشؤومة دخلت النّوبة إلى الغرفة حيث تتواجد النّساء والأمّهات وأولادهنّ بالطّبع، وقاموا بأداء أحد الأناشيد الصاخبة الحزينة مع قرع طبول مرعب، ممّا جعل كلّ أطفال المناسبة يقومون بالفرار خوفاً إلى الخارج. كانت النّوبة بحدّ ذاتها جزءاً رئيسيّاً من اهتمامات أهل القرية بما فيها من تمارين ممزوجة بالصّراخ والآراء المتناقضة، لكنّ كلّ هذا مع وعيٍ موسيقيّ يشهد له. ولا تغيب عنّي قصص الهجرة، خصوصاً سيرة أنطونيوس البشعلاني[٥] وهجرته التي كانت مفخرة لضيعتنا التي وصفتْها كتب التّاريخ على أنّها أوّل هجرة لبنانيّة إلى العالم الجديد. ما زلتُ أذكر بيت ذلك المهاجر الطّموح وحجارته القليلة، ممّا لا يزال يثير مخيّلتي لتجسيد عمل موسيقيّ متكامل عن حياته وهجرته التي ترتبط أيضاً بواقعنا الحاليّ وما فيه من آلام ومعاناة الحبّ والفراق ومن المعاني الوطنيّة.

ما هي فرص الدّراسة الموسيقيّة التي كانت متاحة لك في لبنان خلال مراحل الدّراسة قبل الجامعيّة؟

بسبب الحرب لم يتسنّ لي إلّا متابعة الدّروس الخاصّة مع أستاذي عيسى السّكاف ثمّ في المركز الثّقافي الإسباني في بيروت. في عمر ١٣ سنة بدأت دراسة آلة الغيتار بنفسي ولكنّ بعدها بسنة تعرّفت إلى أستاذي الأوّل عيسى السّكاف الذي علّمني فنون الموسيقى والغيتار لعدّة سنَوات، وهو من بلدة حمّانا التي لا تبعد كثيراً عن مقرّ سكني. وقد ساعدني كثيراً من خلال تسهيل عمليّة شراء غيتار بسعر رخيص وإعطائي بعض الحصص المجّانيّة، بالإضافَة إلى إدراجي في أمسيات موسيقيّة كان ينظّمها حيث كنت أقوم بعزف العديد من المقطوعات. وبعدها تابعت مع أستاذ الغيتار الشّهير جوزيف أشخانيان في المركز الثّقافي الإسباني في بيروت. لم تربطني بأشخانيان علاقة خاصّة برغم نصيحتهِ لي بالدّراسة في المركز الثّقافي الإسباني. ويعود السّبب إلى أنّني حاولت مِراراً الدّخول إلى الكونسرفتوار، وكنت أحصل منهم على مواعيد خاطئَة لتقديم طلبات الدّراسة، وينتهي الأمر بقدَم قبول طلبي لانتهاء مهلة التّسجيل إلى أنْ لاحظَني أشخانيان وأنا في حالَة أسى وحزن، فوضّح لي اللّعبة التي اتّبعوها حينها في الكونسرفتوار.

في أيّ مرحلة عمريّة بدأت بالعزف والاشتراك مع فرق موسيقيّة محليّة؟ ما هي الأعمال التي كنتم تقدّمونها؟

أودّ أن أذكر بعض المناسبات الهامّة في بداية مسيرتي الموسيقيّة. الأولى هي تأسيس فرقَة الجبل (أنا وبسام ومروان وبشير ضوّ وفيصل وندوى القنطار وتميم وناجي هلال وصادق ملاعب) التي استمَرّت حتى سفري لِروسيا. أنتجنا «كاسيتْ» تضمّن عشرة أعمال موسيقيّة غنائيّة معظمها من ألحاني وتوزيعي الموسيقي. وسجّلناها في استوديو زياد الرّحباني، وكنّا أوّل من سجّلَ في أستديو زياد سنة ١٩٧٩، وقد شارَكَ معنا حينها في العزف على البيانو. ومن نشاطاتي في الضّيعة التي جمعت بين فرقَة الجبل والكَشّاف التّقَدّمي هي إعادة تقديم مسرحيّة «جبال الصّوّان» في أداء حيّ عام ١٩٧٨، وطبعاً التّجربَة لم تأخذ حظّها لأسباب كثيرة أهمّها الإنتاج.

وماذا عن تجربتك مع فرقة الميادين؟

تَعرّفت إلى الفنّان مرسيل خليفة سنة ١٩٧٩ وكنت أحد أعضاء فرقة الميادين حتى ١٩٨٢. كما شاركتُ بشكل متقطّع في الأعمال التي كانت تُقام خلال الصّيف الذي هو فترة إجازتي الدِراسيَة السَنويَة، وذلك حتى العام

١٩٩٢. كانت أجواء حميميّة ونضاليّة بكلّ معنى الكلمَة. قدّمنا مجموعة حفلات في مخيّمات النّضال وفي ظُروف متواضعة جدّاً. وفي هذه الحفلات رافَقْت مرسيل وأميمة في أوّل مشاركتها مع الميادين. وكنّا ثلاثة فقط: أنا، ومرسيل، وأميمة. كما قمنا بجولات عالميّة عديدة في أوروبّا وأميركا وشمال أفريقيا. رحلة أميركا استمرّت لشهرين تقريباً في سنة **١٩٨٢**، ورحلة أوروبّا لمدّة أربعة أشهر. كنت شاهداً على ظهور أجمل إنتاج لمرسيل خليفَة: «الجسر»، «منتصبَ القامة أمشي»، «إنّي اخترتك يا وطني» والكثير منَ الأعمال. وكنت عازفاً على غيتار باص وغيتار أكوستيك وكورال. أمّا في بعض رحلات الجزائر، فقد شارَكت في توزيع بسيط لبعض الأغاني. وهذه التّجربة أكسبتني خبرة واسعة إلى أن سافرت لمتابعة الدّراسة في الخارج.

الدراسة في روسيا

سافرت إلى موسكو عام **١٩٨٢** ومكثت فيها **١٢** سنة طالباً في كونسرفتوار تشايكوفسكي[٦] إلى أن حصلْت على دكتوراه في التّأليف الموسيقيّ. كيف تمّ اختيار روسيا للتّحصيل الدّراسي الموسيقيّ؟

لم أختر روسيا، بل كانت فترة حرب. تقدّمت بطلب للدّراسة في الخارج عبر القنوات المتاحة، وبعد انتظار عدّة سنَوات جاءتني الموافقة على الدّراسة في روسيا. وكانت الموافقة تتمّ عبر إرسال الأعمال الموسيقيّة (المؤلّفات) إلى روسيا وبعدَها تأتي لجنة لمقابَلَة المرشّحين واختيارهم في السّفارة الرّوسيّة في سورية. وهذا ما حصل. وطبعاً كان دعم مرسيل خليفة لأنّه أصرّ على متابعة دراستي. كانت تأتي البعثات عبر الحزب الشّيوعي اللبنانيّ وكنت مُستَبعداً لأنّ أخي خريج بعثة، وقالوا إنّه لا يُفترض إرسال شخصين من بيت واحد! مرسيل فصل الأمر بحيث تكون الأولويّة للموهبة والتّخصّص النّادر.

وما الذي دفعك لاختيار معهد تشايكوفسكي بالتّحديد، وهو أحد أهمّ معاهد الموسيقى في العالم الذي يرتبط اسمه أيضاً بـخاتشاتوريان، وبركوفيف، وشنيتكه؟

أيضاً، لم أختر كونسرفتوار تشايكوفسكي. لقد صادف أنْ أُرسلتُ إليه ربّما بعد دراسة الأعمال الموسيقيّة التي كنت قد أرسلتها لهم مسبقاً. هناك خضعت لامتحان قدرات وتصنيف، وبقيت في موسكو للدّراسة في الكليّة الأكاديميّة التّابعة للكونسرفتوار لمدّة ثلاث سنوات. وبعدها خضعت لمسابقة ثانية للدّخول في معهد تشايكوفكسي، وكنت الأجنبيّ الوحيد ضمن ستة طُلّاب مقبولين لقسم التّأليف.

ما هي مميّزات معهد تشايكوفسكي من حيث المنهج وأسلوب التّعليم؟

هو جامعة نموذجيّة تحمل التّقاليد العَريقة للثّقافة الموسيقيّة النّخبويّة العالميّة والرّوسيّة. وهو تصفيَة قاسيَة لنخبة النّخبة من الذين يرغبون بمتابعة التّحصيل الموسيقيّ في الاتّحاد السّوفييتي سابقاً، وروسيا قبل وبعد. تسقط كلّ القوانين على عتبة الدّخول، حيث كلّ من يدخله يجب أن يحمل ملامح مبدع. وإذا استعرضنا الأسماء التي ارتبطتْ بهذه المؤسّسة، نرى أنّ أغلبيّة الثّقافة العالميّة الرّوسيّة هي من مخَرّجاته من عازفين ومؤلّفين.

تتلمذت على يد عمالقة مدرسة التّأليف الموسيقيّ المعاصر في روسيا، ودرست تحديداً مع نيكولاي راكوف[٧] (Nikolai Petrovich Rakov) التّوزيع الأوركسترالي، رومان ليدينييوف[٨] (Roman Ledenyov) التّأليف الموسيقيّ، ويوري خولوبوف[٩] (Yuri Nikolaevich Kholopov) الهارموني الحديث. كيف كانت طبيعة العلاقَة بينك وبين أساتذتك وكيف تطوّرتْ عموماً؟

نعم، لحسن الحظ أنّني كنت آخر منَ درس التّوزيع الأوركستر الي مع نيكولاي راكوف. وهو صاحب منهج معروف وله شهرة خياليّة في كونه من أحفاد ريمسكي كورساكوف علمياً. تميّز بقسوته العادلة في توضيح مبدأ المادّة. يوري خولوبوف أيضاً من أساطين نظريّات الموسيقى. وتمحورتْ علاقتي به من حول المثابرَة على محاضراته في الهارموني المعاصر وغيرها من الموادّ. أمّا العلاقة الأساسيّة فدائما تكون مع أستاذ التّخصّص وهو في هذه الحالة رومان ليدينيوف، شخصيّة عادلة مرهفة ويتعاطى بكثير من التّفاني، لكنّه لا يفرض أيّ وجهة نظر فيما يتعلّق بأسلوب وأفكار التّأليف. كان يشجّع اللكنة القوميّة في الموسيقى، ودائما أستاذ التّأليف (الشّيف) له المكانة الأكبر بين كلّ الأساتذة.

وماذا عن زملائك في الدراسة؟

علاقتي مع الطّلاب الرّوس كانت ممتازة. فمنذ وصولي إلى موسكو كوّنت أوركسترا مصغّرة جمَعَت الكثير من الآلات وكان أعضاؤها من طلّاب الكونسرفتوار. كما أسّست فرقة أخرى سمّيناها «الولّادة». لعلّ هذه التّسمية غريبَة، ورمزيّة، ومتطرّفة بقدر تطرّفنا للفكر الإنسانيّ المناضل. كانت تضمّ مجموعة من الطّلّاب اللبنانيّين من خارج الكونسرفتوار، وهم: محمود تركماني، وبيار خليفة، وناصر حسين. شاركْنا في الكثير من المهرجانات ومنها ما كان عالميّاً مثل مهرجان الأغنية السّياسيّة في برلين.

كان أسلوب فرقة الولادة نمطيّاً متأثّراً بفرقة الميادين، ومرسيل خليفة، وخالد الهبر. كنت رئيس الفرقة ولحّنت مجموعة من الأغاني من ضمنها أغنية «حنّا»[١٠].

س كيف تصف علاقتك الثقافيّة بروسيا عبر تجربتك الدّراسيّة؟ وما هي «زوّادة العِبَر» التي تكتنزها من تلك المرحلة؟

ج هي مرحلة فاصلة وأساسيّة تحديداً في علاقتي مع الثّقافة الكلاسيكيّة من موسيقى، ومسرح، وفنون تشكيليّة وحبّي لها جميعها. بلورت في مخيّلتي فلسفة ثابتة وعميقَة مختصرُها أن الإبداع يأتي من الجذور ويتخلّى عن البهرجَة والوصوليّة ويكون ممزوجاً بمعاناة الإتقان والمعرفة. هي تراكمٌ مرجعيّ في تكوين شخصيّة موسيقيّة مستقلّة ونظرَة شاملَة إلى الجمال والحياة.

س هي أيضاً مرحلة تمتاز بالتّحوّلات الكبيرة ونهايَة الاتحاد السّوفييتي.

ج كانت مرحلة التّحولات استمراراً للنّضال بكل معانيه القاسية: من الحرب في لبنان، إلى الانتقال من مرحلة السّوفييت إلى الرّوس وما تبعها من حرمان، وصعوبة حياة، ومشاقّ لإكمال الدّراسة. ولكن لا شيء يؤثّر في الانغماس في تفاصيل الدّراسة مهما كانت الأزمات. هذا ما ميّز الكونسرفتوار الذي مرّ بمراحل الثّورة البولشفيّة، والحرب العالميّة العظمى، والنّصر على الفاشيّة، ومَعاناة المبدعين واتّهامهم بالابتعاد عن أمور الإنسان الواقعيّة، إلى البيروسترويكا. الكونسرفتوار له تقاليده العميقة والمتجذّرة والمستقلّة عن بقيّة الأنظمة المعمول بها في دول أخرى أو في روسيا، حتّى في طريقة تقسيم المراحل الدّراسيّة ومتطلّباتها وعدد سنوات الدّراسة لكلّ منها. على سبيل المثال، كلّ من يريد أن يحصل على شهادة الماجستير عليه أن يدخل إلى المعهد من خلال القنوات الدّراسيّة التّابعة له، وهي إمّا المدرسة الموسيقيّة المتخصّصة وتتطلّب ٨ سنوات دراسيّة، أو الأكاديميّة الموسيقيّة وتتطلّب ٤ سنوات دراسيّة. رفضوا مفهوم ثَلاث سنوات بكالوريوس وسنتين ماجستير، باعتبار أنّ الأساس هو فيَ التّقاليد والتّراكم العلميّ والمعرفيّ، وليس في عدد وتفصيل السّنوات.

الأعمال الفنيّة

س أخبرنا عن عملك التّأليفي الأوّل الذي قمت به خلال سنوات الدّراسة؟

ج كتبت أوّل عمل في صيغة موسيقيّة تقليديّة بسيطة، وهي عبارة عن مجموعة مقطوعات للبيانو «بريلود» لم أصدرها من ضمن نتاجاتي الموسيقيّة.

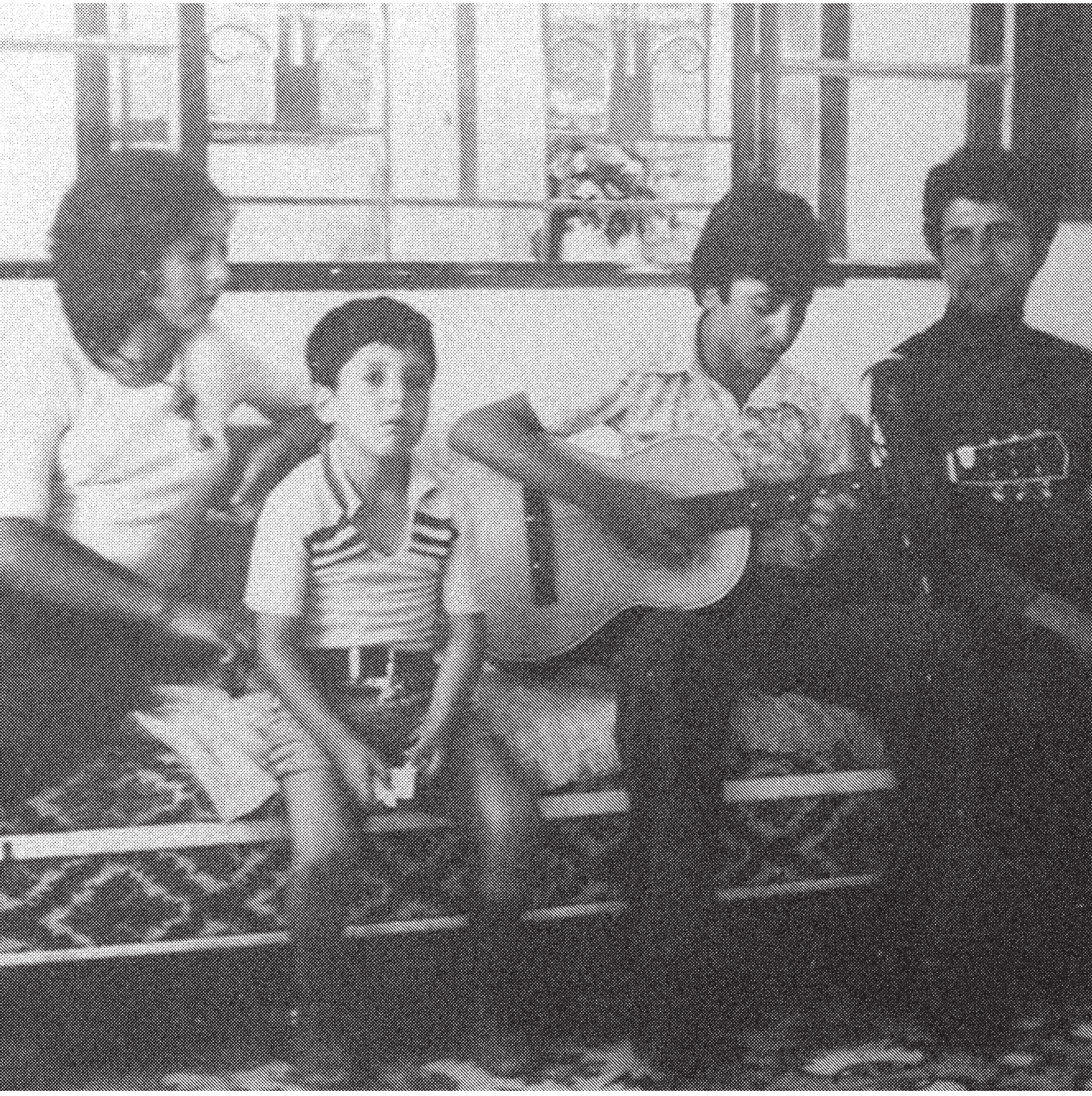

كيف كانت ظروف هذه التّجربة وردود الفعل التي تلقّيتَها؟

هي من أصعب المراحل وبداية تكوين الشّخصيّة والتّفتيش عمّا هو مقْنع في محيط الأعمال الخالدة، وتسود فيها حالة من التّردّد وعدم الثّقة. بُليت بانتقادات حادّة من البروفسور المُشرف قسطنطين بطاشوف (Konstantin Batashov). وملخّص نقده المفيد كانَ أنّه لا يمكن أنّ تغيّر داخلك، لونَك، عرقَك وغيره إذا ارتديت ثياب موّهتْ حقيقتَك. كما أصرّ على رجوعي لأصول وجذور المكان كي أعطي الإبداع الحقيقيّ والمقْنع. كانت صدمة قاسية وتوقّفت لشهور عن التّأليف، وكنت حينها أضع المنطلقات الفكريّة والفلسفيّة لمستقبل مسيرَتي الموسيقيّة.

كيف تبدأ عمليّة التّأليف؟

أكوّن الفكرَة العامّة للعمل، وهي عادّة تكوينٌ فلسفيٌّ سيكولوجيّ، ترتبط برؤية معيّنة أثّرت بي. وتتمحور هذه المرحلة حول ابتكار البذرَة السّمعية الأساسيّة للعمل الذي هو مسار معقّد وطويل دائماً ما يكون قابلاً للتّغيير والتّعديل.

عملك الأخير هو السّيمفونيّة الثّالثة. أخبرنا عن ظروف هذا العمل ومساره.

نعم، كتبتُ السّيمفونيّة الثالثة خلال صيف ٢٠١٦. وهي مكوّنة من حركتيْن هما على التّوالي «نهايات» (Cadences) و«الرّقصات الضّائعة»، وأردْتُ أن تكون لهاتَين التّسميتين أبعاد ودلالات مزدوجة. الحركة الأولى لها خلفيّات فلسفيّة حول مفهوم نهايات الأشياء والمراحل، وهي مرتبطة بتلميحات الصّيغ التّقليديّة لخواتيم الجمل اللحنيّة. فيها الحزن مع هروب مفتعل من الدّراما. أمّا الحركة الثّانية فتحوي أيضاً تلميحات على حافّة السّخرية والتّجديد. فيها صخب وحماسة، وفيها شفافيّة ورقّة. أظنّها سيمفونيّة استفزازيّة بالمنحى الإيجابيّ قد تكون صدمة من ناحية اللّغة الموسيقيّة المتّبعة، على أمل الاستماع إلى أدائها قريباً مع إحدى الفرق السّيمفونيّة في العالم. سنرى ما ستحمله الأيّام! كالعادة أكتب أعمالي في فترة العطلة الدّراسيّة ودون أيّ تشتّت في الوقت المخصّص لإكمال العمل. مع العلم أنّ فكرة السّيمفونيّة راودتني لسنوات طويلَة وضعت خلالها العديد من الأفكار، لكنْ أثناء الكتابة تحصل التّغييرات وربّما إلى الأفضل.

يرى بعض المؤلّفين أنّ السّيمفونيّة هي قمّة الأنواع الموسيقيّة الكلاسيكيّة. هل عندك نزعة نحو نوع معيّن من القوالب الموسيقيّة؟

السّيمفونيّة هي العمل الموسيقيّ الصّرف الذي لا يختبئ خلف ظلال قصّة معيّنة أو برنامج صوَريّ (Programme Music). لذا فيها الكَثير لقول الذّات المشبّعة بالعواطف، والجَمال، والدّراما. إنتاجي السّيمفونيّ هو قليل مقارنة مع غيري من المؤلّفين والأسباب عديدة أهمّها انعدام الوقت الكافي والمتتابع لإنهاء العمل السّيمفونيّ.

عملت كثيراً على قالب الكونشيرتو خلال فترة زمنيّة طويلة نسبيّاً. وتعدّدت الآلات التي اخترتها، سواء كانت من مرتكزات التّراث الكلاسيكيّ الأوروبّي أو أخرى مشرقيّة. وهذه الأعمال هي: كونشرتو الكمان (٢٠٠١)، كونشرتو البيانو (٢٠٠٣)، كونشرتو العود (٢٠١١)، وكونشرتو التشيلّو (٢٠١٢). ما هي علاقتك مع تلك الآلات؟ وهل هناك آلات أخرى تطمح للعمل عليها في هذا الإطار؟

البيانو، والكمان، والتشيلّو من الآلات الأساسيّة لتكوين أيّ عمل موسيقيّ قيّم، لذا لها النّصيب الأوفر من الأعمال الخالدَة. أمّا آلة العود فاخترتها بعد الكثير من الدّراسة والاقتناع بضرورَة الكتابَة لها، بما فيها رمزيّتها وموقعها في ثقافتنا العربيّة. طبعاً، عندي رغبَة شديدة في كتابَة أعمال لآلات أخرى، ولكن الوقت الضّيق بسبب عملي الأساسيّ يجعلني أكمل الأهمّ. أودّ الكتابَة لآلة الفلوت مثلاً.

كيف كانت مقاربتك التّأليفيّة في التّعامل مع العود وتاريخه العريق في موروثنا الموسيقيّ والغنائيّ المشرقيّ، بالأخصّ مع محمّد القصبجي في تقاسيمه المُبكرة، ورياض السّنباطي في «لونغا رياض» ومجموعة التّقاسيم التي سجّلها في خريف العمر والتي تحمل خلاصة تجربته الموسيقيّة وحكمتها، بالإضافة إلى أعمال جميل بشير من العراق؟

هي بعيدة عن كلّ موروث هذه الأسماء. الآلة فيها تفاصيل موسيقيّة غريبَة وقاسية من جهة وطربيّة وتعبيريّة من جهة أخرى. فيها ملامح الارتجال المدروس. إنّها في هذا العمل لا تنتمي لمجموعة آلات الأوركسترا السّيمفونيّة، فهي تواجه هذه المجموعة. هي صوت عربيّ جريح في زمن آلام هذا الشّعب وتخبّطه بثورات مُصدّرة بشعارات رنّانة نتيجتها الخراب. وقد كتبت صيغة أخرى لنفس الكونشرتو مع آلة البزق إلى جانب العود لإضافة رنين وبريق أظنّه إيجابيّاً ويناسب زخم الأوركسترا السّيمفونيّة.

لك عدد من الأعمال في إطار موسيقى الحجرة والتي كان «رباعي الغيتار» آخرها منذ عشر سنوات في العام ١٩٩٦. لماذا إبتعدَت عن تأليف هذا النّوع من الأعمال؟

مع الأسف معظم أصدقائي الموسيقيّين يطلبون أن اكتب لهم عملاً معيّناً خاصّاً بهم. وقد طلب أحدهم منّي رباعيّاً وتريّاً فقلت له تَفَضّل هذا الرّباعي من أعمالي القديمة، تلك هي أعمالي وليست ممّا «يطلبه المستمعون».

وبصراحة كلّ أعمالي نفّذتها من إنتاجي المادّي الخاصّ. لذا أكتب ما أراه مناسباً لِرغبتي في التّعبير. أضف إلى ذلك أنّ المجاميع الموسيقيّة المطلوبَة ليست دائماً متوفّرة.

س قدّمت متتالية الفلوت والبيانو مراراً وهي من أكثر أعمالك أداءً. عزفت في التشيلي، وفي مهرجان سلوفينيا الحادي عشر للفلوت مع وسام البستاني وآخرين. كيف تفسّر هذا الإقبال من قِبل عازفين بارزين من بلدان وثقافات مختلفَة؟

ج لا أعلم. لربّما لتلقائيتَها وصدْق رسالتها الإنسانيّة. أضف إلى ذلك جماليّة البساطة التي تميّز هذا العمل.

س ما دمنا نناقش موسيقى الحجرة، يخطر في بالي موضوع ذو صِلة لكنّه غير مرتبط بشكل مباشر، وهو عن التّخت في إرثنا الموسيقيّ المشرقيّ، والذي يرتكز على مهارة العازفين وترسّخهم في مسالك وأسرار المقامات، وبالتّالي القدرة على الارتجال المبدع. برأيك، لماذا انحسر هذا الإرث لصالح الأوركسترا الموسيقيّة من ثلاثينيّات القرن الماضي في التّسجيلات والعروض الموسيقيّة، كما في المناهج الموسيقيّة؟

ج أظنّ أنّه لعدم وضوح رؤية جماليّة المجموعات الآليّة واختلافها. برأيي التّخت يشبه إحدى مجموعات موسيقى الحجرة في الثّقافة الغربيّة الكلاسيكيّة ولها طعمها الجماليّ الخاصّ، وبالتّالي لا يفترض مقارنته بغير كيان آلي مثل الأوركسترا. أمّا في مجتمعنا فتختلط كلّ المقوّمات بعضها ببعض: الجاز مع الشّرقي مع الكلاسيك مع البوب مع الفلامنكو إلخ... وتبدأ المقارنات غير المجدية. لنعُدْ إلى منحى السّؤال لكي أؤكد أنّ التّأليف لا تكبر قيمته مع ازياد عدد الآلات. علينا الاتّفاق على تصنيف أنماط الموسيقى وعدم خلط المعايير والمفاهيم ببعضها أو حتّى المقارنة فيما بينها. الموسيقى التّقليديّة يجب أن تستمرّ بمدارس تلقينها للأجيال القادمة، والمحافظة على خصوصيّة جماليّتها وفي الوقت نفسه عدم تأليفها.

س صدر لك عمل منذ أعوام قليلة عدّه الكثيرون محطّة محوريّة في المشهد الموسيقيّ العربيّ الآن، هو القصيد السّيمفونيّ «مطر» للسّوبرانو والبيانو والأوركسترا مع أميمة الخليل، ورامي خليفة، والأوركسترا السّيمفونيّة «كابيلا روسيا»، بقيادة المايسترو الرّوسيّ فاليري بوليانسكي. كيف تمّ اختيار قصيدة «مطر» للسّيّاب التي قدّمها صاحبها بأنّها «من أيّام الضّياع في الكويت، على الخليج العربيّ»وهي من رموز الحداثة الشّعريّة منذ أن نشرتها مجلّة الآداب اللّبنانيّة للمرّة الأولى في حزيْران / يونيو ١٩٥٤؟

ج سمعت عن القصيدة ولمست أهمّيّتها في الخليج العربيّ. وقمت بدراسات مطوّلة عن حداثتها. وأخيراً أحببت هذه القصيدة بتجرّد وأدركت أهمّيّتها الفنيّة. وأظنّ أنّه اختيار موفّق.

س ما هي علاقتك بالكلمة؟ من هم الشّعراء والكتّاب العرب الذين تجذبك أعمالهم؟

ج قراءاتي ليست بالشغف الكبير بالنّسبة إليّ. ولكنّني أنكبّ في فتَرات معيّنَة على قراءة أعمال بعض الكُتّاب. أحبّ الأدب القصصي أكثر من القصيدَة، ولا أخفي عليك شغفي بالأدباء الرّوس وتشيخوف أوّلهم، وطبعاً ديستويفسكي وغوغول. في وطننا العربيّ أقف بدهشة عند قصيدة وشاعريّة محمود درويش العبقريّة وأتمنّى للتّأليف الموسيقيّ أن يحذو هذا الطّريق الثّوري الرّؤيوي. محمود درويش هو بيكاسو الشّعر العربيّ المعاصر.

س أخبرنا عن مراحل الكتابة والتّأليف؟ ومن ثمّ التّنفيذ والتّسجيل.

ج طلبت مني السّيدة أميمَة من موقع الصّداقَة القديمَة أوّلاً، وإعجابها بتأليفي الموسيقيّ ثانياً عمَلاً غنائيّاً، وأبدت استعدادها لخوض أيّة تجربة غنائيّة مهما كانت العواقب. استمرّ تأجيل تنفيذ وعدي لها لأكثر من ثلاثة أعوام حتى استقرّ اختياري على أنشودة المطر للسيّاب. في صيف ٢٠١٠ تفرّغت لمدّة ٣ شهور كاملة دون الخُروج من منزلي بالمطلق حتى أنهيت العمل بالكامل، ومدّته ٣٧ دقيقة. عرضْت العمل على أميمة في أوّل الخريف، وأخبرتها عن رغبتي بأن يكون رامي عازف البيانو، حيث كتبْتُ نصّاً موسيقيّاً بمثابة كونشرتو للبيانو، ووجدت جزءاً هامّاً من التّعبير الموسيقيّ مرتبطاً بدور البيانو. أميمة فنّانَة رائعة استطاعت في خلال أسبوع حفْظَ النّص الموسيقيّ المعقّد واستيعابه بعد صدمَة ليست بالسّهلة عليها. نفّذنا العمل بعد سنتين في موسكو حيث توفّقنا بأوركسترا عريقَة ومعها كورال عريق أيضاً. نفّذنا التّسجيل بشكل أداء حيّ بدون جمهور، مع الأوركسترا والكورال، حيث الخطأ غير وارد. وهذا ما أعطى التّسجيل قيمة دراميّة عاليَة.

س كيف تشكّلت العلاقة بين النّصين الشّعري والموسيقيّ خلال التّأليف؟

ج يمكن للموسيقيّ أن يكشف الملامح والمشاعر التي لا يستطيع أن يبرزها الشّعر في حدّ ذاته. وهنا تكمن قدرة إبداع المؤلّف الموسيقيّ. سعيت إلى هذا الأمر في «مطر» وحوّلتُه إلى قراءة سيمفونيّة للنّص الشّعري. ومن يستمع إلى العمل يلمس ذلك، وكلّما أعاد السّماع سيدرك خلفيّات جديدة وجديّة مرتبطة بالنّص الشّعري المعاصر.

يفيد العديد من الباحثين في الموسيقى العربيّة بأنّها تتمحور حول الصّوت الغنائيّ، وليست بموسيقى آليّة بشكل خاصّ. كيف كانت مقاربتك لهذه المسألة في«مطر» وكيف رسمت هويّة الغناء التّعبيريّ الفرديّ والجماعيّ ضمن البناء الدّرامي لهذا القصيد السّمفونيّ؟

كنت واثقاً من ضرورة وضوح النّطق العربيّ السّليم والمنطقيّ أوّلاً. من هنا المساحات الصّوتيّة لم تكن لإدهاش المستمع أبداً بقدر ما هي فكرة لبناء الجُمَل الموسيقيّة المتطابقة مع تعبير النّص الشّعري. وكنت أستعيد في ذاكرتي عبقريّة صوت فيروز. وكتبت هذا العمل لصوت أميمة العظيم الذي شكّل مع بيانو رامي خليفة ثنائيّاً إبداعيّاً متّحداً ذا خصوصيّة متفرّدة. أمّا الكورال، فكان له حيّز في القسم الثّالث من هذا العمل، وهو تصويري محض، يصوّر الصّدى المتكرّر من النّص: «أصرخ بالخليج: يا خليج... / يا واهب المحار والرّدى / فيرجع الصّدى / كأنّه النّشيج». أظنّ النّص واضحاً وهذا ما قدّمه الكورال.

ما هي الأعمال من رصيدك الفنيّ المتوفّرَة في الأسواق المحليّة أو الأقليميّة على أسطوانات مدمجة؟

صدرت في التّسعينيّات ضمن إنتاج وتسويق خاصّ أسطوانة تحمل السّيمفونيّة الأولى وثَلاثة أعمال لموسيقى الحجرَة، أحدها بعنوان «مرثاة» وهي مهداة لذكرى عاصي الرّحباني. وهذه الأسطوانة للأسف غير متوفّرة حالياً. صدر «رباعي الغيتار» مع شركة «إنيجا» (ENIJA) مع محمود التّركماني، ومتتاليّة الفلوت في أسطوانَة لنبيل مروّة وتانيا خوري، وجميعهم موسيقيّون نخبويّون وأصدقائي. كما صدر «كونشرتو البيانو» بأداء رامي خليفة ضمن أسطوانَة تحمل كونشرتو آخر لبروكوفييف، وكان آخر إصدار هو«مطر» مع أميمة الخليل ورامي خليفة. ولا يزال هناك أعمال أخرى لم تصدر حتى الآن وتنتظر ظروفاً متاحة للإنتاج مثل كونشرتو العود والكَمان والتشيللو وبعض مؤلّفات الحَجَرة.

قدّمت الفرقة الفلهارمونيّة اللّبنانية في السّنوات الأخيرة السّمفونيّة الأولى، وكونشرتو التشيللو ومؤخّراً كونشترتو البيانو حين منحك وزير الثّقافَة السّابق الأستاذ ريمون عريجي درع الوزارَة تقديراً لمسيرتك الفنيّة. كما قمت بقيادة الفرقة الشّرق عربيّة وبإعداد جديد لأعمال فيروز والاَخوين رحباني وأسمهان وسيّد درويش وأخرى من الخليج العربي. ماذا تعني لك هذه الإطلالات خصوصاً أنّك مقيّم خارج لبنان منذ سنوات طويلَة؟

انا أفضّل أن أكون مؤلّفاً موسيقيّاً بالدّرجة الأولى. فتكريمي من قبل وزير الثّقافة الأستاذ ريمون عريجي كان دافعاً معنويّاً رائعاً، لاسيّما أنّه جاء تحت عنوان «صنع في لبنان»، ويقصد بذلك كونشرتو البيانو الذي قمت بتأليفه ومشاركة رامي خليفة عزفاً على البيانو، ولبنان بعلبكي قيادة وطبعاً الأوركسترا الفلهارمونية اللّبنانية. أتمنّى أن تستمرّ تلك الفرَص للاستماع لأعمالنا الموسيقيّة التي نكتبها بدافع الإبداع وليس التّجارة. أمّا ظهوري مع الأوركسترا الشّرق عربيّة كقائد وموزّع لبرامج موسيقيّة فهدفه استعادة الذّاكرة الموسيقيّة الشّعبيّة للأغنية العربيّة برؤية متجدّدة فيها الاحترافيّة، ولكنّ ذلك لن يكون بديلاً عن دوري الأساسيّ وأهدافي كمؤلّف موسيقيّ.

التّأليف الموسيقي في لبنان والمنطقة

ما هي إنطباعاتك عن الأجيال المؤسِسَة وظروف عملهم الإبداعي لحين بدايَة الحرب اللبنانيّة؟

أظنّ يجب دراسة كلّ مؤلّف وظروفه على حدة. وصراحة ليست لديّ المعلومات الكافيَة عن الأجيال الأولى بقدر عدم الإضاءة عليهم إلّا نادراً. وأظنّ أنّ بعضهم هاجر وفرض نفسه بواقع مُشرِّف في الغَرب. وما زالت أعمال فليحان وباز تُعزف وتُقدّم، وفيها إبداع وعطاء كبيران، ويتوازيان مع معاصرَيْهما من المؤلّفين الأوروبيّين والغربيّين. أمّا توفيق سكر فلم ينل التّقدير الكافي ربّما لعدم توافر العازفين ومؤسّسات النّشر. الموسيقار توفيق الباشا كان نصيبه أفضل بقدر توجه إبداعه بين التّلحين والتّأليف الموسيقيّ الصّرف، حيث قدّم أعمالاً لاقت التّرحيب والدّعم في مصر تحديداً وأصبح من عمداء الموسيقى العربيّة في المؤتمرات العلميّة في مصر، وقدّموا أعمالَه بحبّ واهتمام. وطبعاً شهرته في لبنان جاءت نتيجة اهتمامه بالأغنية والمهرجانات وإنتاج إذاعة لبنان. إنّه أحد الأساطين الذي يبقى لديْنا ما ندرسه ونعرفه عنه. أمّا عبد الغني شعبان فمع الأسف لم نسمع إلّا عن شهرته وعن أنّه كتب أعمالاً سيمفونيّة ولم نسمعها.

وليد غلميّة له الفضل الكبير في أنّنا بدأنا من خلال جهوده نلمس واقعيّا ما هو التّأليف والموسيقى الكلاسيكيّة. قدّم الكثير من الأعمال السيمفونيّة المسجّلة، ووجد الدّعم ومصادر الإنتاج، وله باع طويلٌ في الأغنية اللبنانيّة والمهرجانات. أسلوبه الموسيقيّ يترك الحيرَة. قد نراه أحياناً ينتمي إلى مدرسة المينيمالية حيث التّكرار، والتّتابع، ووضوح الفكرة إلى حدّ البساطة. قد

يكون ذلك فكراً فلسفيّاً، لكنّ الأهمّ هو الملامح العربيّة في موسيقاه، إضافة إلى ما قدّمه في إنشاء الأوركسترا السّيمفونيّة اللبنانيّة التي بدأت تضيء على الموسيقى الجادّة. وللأمانَة، سمعت الكثير من المحاربة السّاخرة لفكرة تأسيسه للأوركسترا، وجاء ذلك ممّن هم في السّاحة الموسيقيّة المسيطرَة. بوغوص جلاليان مؤلّف بقمّة الجديّة انعتق قليلاً من القيود الموسيقيّة القوميّة، وعالج أعمالَه بكثير من الحداثة، والتّقنيّة العالية، والمُقْنعة.

س صدرت مجموعة تسجيلات مختارة لتوفيق سكر منذ سنوات قليلَة على أقراص مدمجة بعد رحلة طويلة في التّأليف الموسيقيّ بجهود شارك فيها المؤلّف هتاف خوري. هل قدَر المؤلّف الموسيقيّ الانتظار سنَوات طويلة أو أنْ يعمل وحيداً ضمن ظروف مادّيّة صعبة حتى تصبح أعماله متداولة أو متاحة للمهتمّين؟

ج أظنّ أنّها من أقدم القديم. تبقى نسبة متذوّقي الفنون الرّاقية، ومنها الموسيقى الكلاسيكيّة، نسبة لا تتجاوز ٢٪. فلا حزن على واقع طبيعي. أمّا قدَر المؤلّفين فهو كذلك منذ زمن النّهضة. الآن الوضع العامّ أسوأ لأنّه «اختلط الحابل بالنّابل» وضاعت المقاييس الصّادقة لتصنيف الإبداع الحقيقيّ. طبعاً، نشكر هتاف خوري وتاتيانا خوري التي بذلت مجهوداً خياليّاً وقامت بأداء كلّ أعمال البيانو للجيلين الأوّل والثّاني بتحدٍّ وعطاء لا يوصفان.

س بماذا تتميّز أعمال المؤلّفين الذين برزوا خلال وبعد الحرب الأهليّة عن أسلافهم، خصوصاً أنّ العديد منهم درس خارج لبنان، ومن ثمّ أقام أو عمل أيضاً في الخارج؟

ج افتتح جيلَنا بشارة الخوري بأسطوانَة أعمال سيمفونيّة كونه شخصيّة فريدة لمؤلّف لبنانيّ الجذور شاعريّ الهوى وعالميّ المصدر. يليه جمال أبو الحَسَن الذي أعتبرُه من الأهمّ، والذي جمع فكراً موسيقيّاً انفعاليّاً واضح المعالم العربيّة، مغامراً في الرّؤية، وملامساً للمشاعر الإنسانيّة. يكفي عظمة عمله البديع «الشّحرور» الذي أعتبره الإلهام الأوّل للفكر الموسيقيّ السّيمفونيّ اللبنانيّ. أيضاً لَه الأعداء الكثر والذين غابهم ذكاء تقييم البساطَة والحداثة الحقيقيّة مع موجة الحداثة غير المجدية لواقعنا، أقلّه في واقعنا. غبريال يارد نموذج مضيء يجمع الصّورة والمشهديّة مع البعد الموسيقيّ العلميّ بجماليّة عالية. له أعمال نتشرّف بها، من ضمنها باليه غاية في الإبداع والتّوازن الرّوحي السّيكولوجي. له طريقَه الخاصّ البعيد عن الهموم الموسيقيّة العربيّة.

مرسيل خليفة رمزٌ لتجسيد صدى الأغنية وعطر المناخات النّغميّة البسيطة في إطار أوركستراليّ واثق لا يشبه أحداً. صنع أسلوبه الأوركسترالي مازجاً بين حرفيّة الأوركسترا بكلّ تقاليدها وأُسُسها وبساطة بناء الألحان. دون شكّ سيبقى سفيراً محبّباً بين حزب المتشدّدين لتقاليد الموسيقى الكلاسيكيّة وبين صانعي ثقافَة وتاريخ الأغنية اللبنانيّة الحديث.

أعتبر هتاف خوري الفيلسوف الموسيقيّ حيث يكون النّموذج الحيّ والحقيقيّ للمبدع الذي رمى كلّ أنواع الزخرفة والوصوليّة الموسيقيّة وأضاء بهدوء على أسمى خلجات الآلام البشريّة المجرّدة. لكْنته القوميّة لا تعني لَه بقَدَر التّأثير السّيكولوجيّ العام.

جويل خوري ثائرة مثقّفة لا تتوانى في دمج الأنواع، من الآلة إلى الكلمة المجرّدة مع السّخريَة والواقع الأليم مع تقنيّات التّأليف وشفافيّة روحها الجميلَة والرّافضة. محمود التّركماني من أقسى المؤلّفين العرب الذين واجهوا بشدّة التّقاليد السّطحيّة، وزجّ آلتَي العود والغيتار ببعد موسيقيّ عالٍ. تعجبني الغرابَة وبعض تكويناتها السّمعيّة في أعماله التي تفرض آلاف علامات الاستفهام. هبة القوّاس من مدرسة التّأليف الموسيقيّ اللبنانيّ حيث خاضت تجربة مقْنعة وغنيّة بالكتابَة الأوركستراليّة مع تقنيّة الغناء الأوبّرالي العربي.

س ماذا عن المرحلة التي تلت جيلك من المؤلّفين؟

ج ألاحظ ابتعاد هؤلاء المؤلّفين عن التّكوين النّغمي اللّحني واستخدام الصّوت بتجرّد واستقلاليّة، وخاضوا رغبة التّجربة الأوروبيّة المعاصرة باتّجاه ما بعد التّجريديّة. ولهم أعمالهم الممتازة والتي تتوجّه إلى عالم ضيّق نسبيّاً يستمتع بهذه الأحاسيس الصّوتيّة التّجريديّة، وأهمّهم بشرى التّرك وإيلي كوسا. أمّا رامي خليفَة الذي يتميّز بثوريّة بنائه للقالب الموسيقيّ المتماسك، فهو يمزج بين أُسلوب المينيمالية والتّعدّديّة الأسلوبيّة من المدرسة المعاصرة والرّافضة للأسلوب التّجريديّ. إنّه استمرار لفلسفة فيليب غلاس بأنّ الموسيقى عنصرها الأوّل هو النّغمة والحقّ للإنسان باستشفافها.

س قدّم ابنك يانيس البالغ من العمر ٢١ عاماً أعماله الأولى أخيراً، كما فاز في مسابقة التّأليف الموسيقيّ - فئة الشّباب لمدينة موسكو عن مقطوعة للعود والبيانو. وفاز أيضاً بالمرتبَة الثّانية لمسابقة المؤلّف شنيتكي عن رباعيّة وتريّة. وهو حاليّاً يتابع دراسته الموسيقيّة في البرتغال. هل كنت من المشجّعين على أنْ يسلك يانيس درب التّأليف الموسيقيّ الصّعب والوعر؟

❖
في قاعة رخمانينوف مع زملاء الدراسة الذين أصبحوا من الاسماء المعروفة في الموسيقى الكلاسكية

ج اختار ذلك بنفسه، لكنّنا أمّنّا له الدّراسة الموسيقيّة المنتظمة مع خبراء ممتازين منذ كان في عمر خمس سنوات. كنت أظنّه سيختار شيئاً آخر بسبب تذمّره من التّمارين، لكنّه اختار الموسيقى وتحديداً التّأليف بنفسه. معرفته بأعمالي ضئيلة، لأنّ كلّ ما أكتبه وأنا أضع السماعات لا يسمع منه شيئاً. أتمنّى له التّوفيق وأعتبر أنّه اجتاز تحدّياً كبيراً بأن أصبح فائزاً بجوائز رفيعة. فهذا من دواعي الفخر ليس لأنّه ابني بل لأنّه بمستوى لائق وكبير. ولا يحبّ يانيس إعطاء هذا الأمر أيّة أهمّيّة وهو في طور اجتياز الطّريق الصّعب.

س هل أنت على اطّلاع على تجربة وأعمال مؤلّفين موسيقيّين في الدّول العربيّة، أمثال رفعت جرانة من مصر وغيره؟

ج طبعاً، لديّ كلّ المؤلّفات التي أصدرتْها دار الأوبرا المصريّة، وفيها نتاج موسيقيّ ضخم وأيضاً أجيال موسيقيّة محترفة ومتنوّعة التّوجه والأسلوب. معلوماتي أقلّ عن التّأليف الموسيقيّ في بقيّة الدّول. استمعنا أيضاً إلى صلحي الوادي ونوري إسكندر من سورية، وإلى سلفادور عرنيطة من فلسطين، والذي كتب عملاً غنائيّاً في غاية الأهميّة والدّراميّة والتّقنيّة على قصيدة محمود درويش «سجِّل أنا عربي».

س لا شكّ في أنّ إنشاء مؤسّسات تعليم الموسيقى وتطبيق المناهج الغربيّة في تدريس الموسيقى في الرّبع الأوّل من القرن الماضي ارتبط بشكل وثيق في رفد الحداثة الموسيقيّة في لبنان كما في دول المنطقة. بناءً على تجربتك في معهد الموسيقى في الكويت، ما هي مقترحاتك لتطوير الجهود الحاليّة في دعم القطاع الموسيقيّ في منطقتنا بالقدرات المطلوبَة بالأخص في مجال التّأليف الموسيقيّ؟

ج إنّها مسألة شاقّة جداً، حيث إنّ تخصّص التّأليف الموسيقيّ لا يُطعم خبزاً كما هو الحال مع تخصّص الآلات. ويتشابه الوضع في لبنان والكويت، حيث يُطبَّق النّظام ذاته. برأيي كان يفترض تغيير المبدأ الذي بُني عليه مفهوم تدريس الموسيقى. حتى الآن وبرغم ضخامة الأعداد التي تدرس في الكونسرفتوار في لبنان، تبقى لهذه الدّراسة صبغة الهوايَة. فالطّالب يمكن أنّ يأتي من أيّ تخصّص أو مرحلة دراسيّة ويسجّل الموادّ الموسيقيّة طبعاً ضمن المستوى المناسب له، ولكنّها تبقى دراسة موازية لعمله المهنيّ أو دراسته العلميّة الأخرى. كان من الأفضل تقسيم مراحل الدّراسة الموسيقيّة إلى مدرسيّة وجامعيّة. وتتألّف المرحلة المدرسيّة من ابتدائيّة وثانويّة وتطبّق مناهجها ضمن مدارس متخصّصة تعطي شهادة علميّة لكلٍّ من المرحلتيْن في تخصّص دقيق هو الموسيقى. وعند اجتياز المرحلة الثّانويّة بنجاح، ينتقل الطّالب لمتابعة تخصّصه الموسيقيّ الجامعيّ في الكونسرفتوار وبما يوازي أيّ تخصّص جامعيّ آخر. وحتى لا تُفهم وجهة نظري خطأً، يبقى مستوى الدّراسة مرتبطاً بمستوى الكادر التّعليمي، واختيار الطّلبة بناءً على المواهب الأقوى ودون «واسطة».

س هل تلحظ أيّة خطوات جديّة حاليّاً نحو تحفيز المواطنين على تذوّق الموسيقى على أنواعها ابتداءً من سنوات الطّفولَة المبكّرة عبر التّعليم العامّ أو الإعلام؟

ج هناك تفاوتٌ بين بلد وآخر، وبين مدرسة وأخرى، وبين منطقة وأُخرى. يبقى الأساس هو التّربية المنزليّة حيث الموسيقى جزء أساسيّ للثّقافة والوعي وتهذيب الذّات. أصبح العالم الآن أضْيق، ووسائل المعرفة صارت متوافرة أكثر. يبقى تطوير سياسة التّوجيه التّربويّة مع مساندة الإعلام النّظيف بالابتعاد عن التّزلّف والسّطحيّة وتقديس السّطحيّات ضمن تسميات رنّانة.

س فيما يتعلق بالفلكلور، هل أصبح لإنتاجنا الموسيقيّ والغنائيّ المنطلَق من الفلكلور موقع مرموق على خريطَة الأعمال الموسيقيّة القوميّة في العالم؟ وماذا عن المبادرات المماثلة في منطقة الخليج كون الكويت مقرّ إقامتك وعملك منذ أواسط التّسعينيّات؟

ج لا طبعاً. نحن مع الأسف نركب السّفينة ولا نصنعها. أظنّ أنّ أحد الإنجازات الأساسيّة للأمسيات اللبنانيّة في مهرجانات بعلبك قبل الحرب الأهليّة كان أرشفة الفلكلور الغنائيّ من خلال إدراجه في أعمال جميع الملحّنين من الأخوين رحباني إلى زكي ناصيف وتوفيق الباشا وغيرهم. وكان عنصراً لضمان نجاح تلك الحفلات. أمّا فيما يخصّ منطقَة الخليج العربيّ، فلا أرى آفاقاً في العَديد من هذه المبادرات، بل مشاريع ترضي بعض الجهات الحكوميّة والمؤسّسات الأوروبّيّة التي ترغب برويّة التّهجين السّطحيّ للمادّة المحلّيّة مع تقنيّات العالم المعاصر.

س ما هي برأيك الخطوات الضّروريّة نحو تعزيز الموسيقى التّعبيريّة الآليّة في لبنان والعالم العربي على أن تكون مرتبطة بثقافتنا المحلّيّة والإقليميّة؟

ج تتمتّع كلّ من الأجيال التي ذكرتها برصيد غنيّ وتجربة رائدة. هناك عدّة خطوات أو أسباب، لكن أظنّ أنّ السّبب الأوّل هو الثّقافة والعلم الموسيقيّ العميق، وليست الرّغبةُ السّطحيّة السّريعة في إنتاج ما نتأثّر

به من قبل كبار المدارس العالميّة. فالدّراسة الطّويلة وفهم التّاريخ الموسيقيّ العالميّ ومسبّبات الإبداع لدى العظماء يعطينا العبر لكيفيّة التّفكير المتوازن والمبنيّ على ابتكارات موسيقيّة مستقلّة دون أن ننسى جذورنا السّمعيّة القوميّة. وأكرّر: هذا لا يأتي إلّا من خلال عمر من التّحصيل الموسيقيّ، ولا يلمع دون موهبة وعبقريّة مكنونة داخل المؤلّف.

س يقول عاصي الرّحباني عن الالتزام إن «الفنّان يجب أن يكون ملتزماً مع الجماليّات أوّلاً، ومن ورائها تبرز كل إنسانيّته... أحبّ الفنّ ذا الحدود الشّاسعة الكبيرة، هذا الذي يمسّ قلوب العالم كلّه». ما رأيك في هذا الطّرح؟ وما بقي من مفهوم الفنّ الملتزم الذي كان سائداً خصوصاً خلال الحَرب اللبنانيّة؟

ج طبعاً موافق. وهنا يظهر تساؤل عمّا هي معايير الجماليّات؟ لا أفهم مقولة «الفنّ الملتزم». ولكن أعرف أنّها أصبحت شمّاعة لإنقاذ البَعض. الفَنّ هو الفَن الذي يبنيه الجمال، والثّقافة، والعلم، والتّقنيَة، والفلسفة، والعمق. ولو ضاع جزء لضاع العمل.

المراجع

سمحة الخولي، **القوميّة في موسيقى القرن العشرين**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت: المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، ١٩٩٢

نزار مروّة، أصوات من الضفة الثانية (برنامج اذاعي)، صوت الشعب، ١٩٩٠

نزار مروّة (إعداد وتنسيق وتقديم محمد دكروب)، **في الموسيقى اللبنانيّة العربية والمسرح الغنائي الرحباني**، بيروت: دار الفارابي للنشر والتوزيع، ١٩٩٨

كريم مروّة، **نزار مروّة في عوامله الثقافية وفي دروب حياته**، بيروت: دار الفارابي للنشر والتوزيع، ٢٠١٤

عزيز الشوّان، **الموسيقا للجميع**، القاهرة: الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ١٩٧٩

عبد الغني شعبان، **الموسيقى العربية وموقعها من الموسيقى العالميّة**، مجلة عالم الفكر، المجلد السادس، العدد الأوّل، أبريل - يونيو ١٩٧٥

حسام الدين الأنصاري، **تأريخ الفرقة السمفونية الوطنية العراقية في خمسين عاماً: ١٩٦٢ - ٢٠١٢**، بغداد: شركة الديوان للطباعة والنشر المحدودة، ٢٠١٢

ياسمين فراج، الموسيقيون يبحثون عن فرصة أيضا، **جريدة الأهرام**، السنة ١٣١، العدد ٤٣٨٦٢، ٢٠٠٧/١/٨

فتحي الخميسي، **٧٤ عاماً على ظهور الموسيقي السيمفونية المصرية**، السنة ١٢٦، العدد ٤٢٢٢٥، ٢٠٠٢/٧/١٦

توفيق سكر، مشكلات الموسيقى العربية، **مجلة الآداب**، العدد الرابع، السنة الثانية، ١٩٥٤

أكرم الريس (إعداد)، ملف عن توفيق الباشا، **مجلة بدايات**، العدد ١١، ربيع ٢٠١٥

جيزيل بو سمعان عيد، **الموسيقار وليد غلمية**، بيروت: دار نعمان للثقافة، ٢٠١٣

سحر طه، جوزيف أشخانيان بعد أربعة عقود من مسيرته: منهجي الوحيد لآلة الغيتار يدرّس في المعاهد العربية، **جريدة المستقبل**، العدد ١٤٧٤، ٢٠٠٣/١٢/١٣

بدر شاكر السياب، أنشودة المطر، **مجلة الآداب**، العدد السادس، السنة الثانية، حزيران ١٩٥٤

سحر جميل ملحم، الأسلوب الموسيقي لعبد الله المصري وتحليل الثلاثي للكمان، التشيلو والبيانو، **المجلة العربية للإنسانيّات** (الكويت)، الجزء ٢٤، العدد ٩٥، ٢٠٠٦

عبده وازن، مطر: حدث كبير في الحركة الموسيقية والغنائية العربية الحديثة والمعاصرة، **جريدة الحياة**، ٢٠١٤/٠٣/٢٠

أكرم الريس، «النهار» تحاور المؤلف الموسيقي عبد الله المصري: سعيتُ أن أكتب نفسي وأن أكتب وطني في جماله وحزنه وخصوصيته وتنوعه، **جريدة النهار**، ٢٠١٦/٧/٢

فيليب خوري د.ف.، **أنطونيوس البشعلاني أوّل مهاجر سوري إلى العالم الجديد: حقائق** سيرته مقتطفة من كتاب ظهر بالانكليزية في نيويورك على أثر وفاته، (الناشر وسنة الإصدار غير مذكورين)

صليبا من قيدبيه اللمعي إلى المغترب الأول أنطونيوس البشعلاني تاريخ يغفو بين قرميد وصنوبر، إعداد زهير دبس ونسرين جابر وليال خليل، **مجلة المغترب**، أيّار ٢٠١٥

Dossier special compositeurs et interpretes libanais de musique classique, «commusication». (*le magazine de la CD-Theque*), Beirut, 2004

Zeina Saleh Kayyali and Vincent Rouques, *Compositeurs libanais XX et XXI siecles*, Paris: Seguier, 2011

الهوامش

١ نزار مروة (إعداد وتنسيق وتقديم محمد دكروب)، **في الموسيقى اللبنانية العربية والمسرح الغنائي الرحباني**، بيروت: دار الفارابي للنشر والتوزيع، ١٩٩٨، ص ٢٠٨

٢ يمكن إيجاد صفحتهم على موقع فايسبوك عبر البحث عن Lebanese-composers

٣ Centre du Patrimoine Musical Libanais (CPML): http://www.patrimoinemusicallibanais.com/

٤ فرقة النوبة التابعة لآل المصري: هي من الفرق القليلة المتبقية التي تعزف في الأفراح والأتراح وشتّى المناسبات الاجتماعيّة إذا ما دُعيت إليها. شاركت في استقبال سلطان باشا الأطرش في جبل العرب بعد رجوعه من الأردن (١٩٥٤)، وفي مأتم فريد الأطرش حيث رافقت الجثمان إلى مطار بيروت الدولي لينُقل منه إلى مصر (١٩٧٤). تتألف النوبة كما يفيدنا د. علي جهاد الراسي من عشرة إلى خمسة عشر موسيقيّاً، وتتضمّن موسيقاها أنغاماً وألحاناً تقليديّة وأناشيد عسكريّة قديمة، منها العربيّة ومنها التركيّة، إضافة إلى ترجمة معرّبة لمؤلّفات موسيقيّة خاصّة بالموت. وتعتمد على آلات موسيقيّة نحاسيّة غربيّة

٥ أنطوان بن يوسف ضاهر صافي أبو عطا الله البشعلاني (١٨٢٧ - ١٨٥٦): تلقّى علومه في دير الآباء الكبوشيين في صليما، ثمّ انتقل إلى بيروت، حيث عمل كمترجم لدى قنصل إيطاليا. كان أول مهاجر لبناني إلى أميركا في العام ١٨٥٤، ومعه بدأ تاريخ الهجرة اللبنانية المعاصرة استناداً الى المؤرخ فيليب حتي. كانت بوسطن محطة الوصول، ومنها انتقل إلى نيويورك حيث درس اللغة الانكليزيّة ودرّس اللغة العربيّة. توفّي بعد وصوله أميركا بعامَين بعدما أصيب بمرض السلّ. وقد أصدر رئيس الجمهوريّة سليمان فرنجيّة مرسوماً في العام ١٩٧١ أصبح بموجبه ترميم منزل البشعلاني في صليما من المنافع العامة

٦ كونسرفتوار تشايكوفسكي: هو ثاني أقدم معهد موسيقي في روسيا بعد معهد سان بطرسبرغ. ويعتبر من الجامعات الموسيقية الرائدة في روسيا والعالم. تأسس في العام ١٨٦٦ وحمل اسم تشايكوفسكي منذ العام ١٩٤٠وقد كان أستاذاً فيه للنظريات الموسيقية والهارموني. موقع المعهد على الإنترنت: http://www.mosconsv.ru/en

٧ نيكولاي راكوف (١٩٠٨ - ١٩٩٠): مؤلف موسيقي روسي. تميز بأسلوبه المحافظ ومن ثم بالنيو- كلاسيكية في أعماله اللاحقة. كان لراكوف اهتمام خاصّ بموسيقى الحجرة وموسيقى الأطفال، كما له كونشرتو للكمان. هو صاحب منهجيّة في التوزيع الأوركسترالي في المدرسة الموسيقيّة السوفياتية المعاصرة

٨ رومان ليدينييوف (١٩٣٠-): مؤلف موسيقي روسي. هو أحد أبرز أعلام المؤلفين المؤسّسين الروس الذين ظهروا في الستينيات من القرن الماضي وسعى الى رفد ما أطلق عليه «المدرسة الجديدة». تولى تدريس التأليف الموسيقي في معهد تشايكوفسكي منذ عام ١٩٧٩

٩ يوري خولوبوف (١٩٣٢ - ٢٠٠٣): عالم موسيقي روسي. درّس في معهد تشايكوفسكي منذ العام ١٩٦٠ وكتب مئات الدراسات الموسيقية التي تناولت جميع نواحي النظريات الموسيقية، وعلى الأخص الهارموني. شكّلت دراساته مرجعاً ومعياراً في التعليم الموسيقي العالي في روسيا

١٠ يمكن إيجاد نسخة لأغنية «حنا» من أعمال فرقة الولادة تعود للعام ١٩٨٧ على موقع يوتيوب

أصوات من الضفّة الثانية

نزار مروة

ناقد موسيقي وفنّي وأدبي (١٩٣١ - ١٩٩٢)، لبنان.

تنشر «بدايات» في هذا العدد مقتطفاً من الحلقة الأولى من البرنامج الإذاعي «أصوات من الضفة الثانية» الذي بثّته إذاعة صوت الشعب لأوّل مرّة في موسم ١٩٨٩ - ١٩٩٠ وقدّمه نزار مروّة وكان يهدف إلى تعريف المستمع إلى تاريخ الموسيقى العربيّة والعالميّة ورموزها الكبيرة. ومروة هو مؤلّف كتاب «في الموسيقى اللبنانيّة العربية والمسرح الغنائي الرحباني». تعود كتاباته الأولى في النقد الموسيقي إلى أوائل الخمسينيّات في مجلّة «الثقافة الوطنية»، ومن ثمّ في مجلّة «الأخبار»، وجريدة «النداء». تولّى في السنوات الأخيرة من عمره إدارة التحرير في مجلّة «الطريق». وكان له براج موسيقيّة متخصّصة في إذاعتَي «صوت الوطن» و«صوت الشعب» في منتصف الثمانينيّات من القرن الماضي.

في رحلتنا هذه:

— أوّلاً: هؤلاء المؤلّفون اكتسبوا معارفهم وتقنيّاتهم إمّا من دراستهم في الغرب أو من مصادر محلّيّة ذات طابع غربي. إلّا أنّهم في الوقت ذاته مطّلعون على تراثهم ويكاد يكون اطّلاع بعضهم يقترب من الكمال، وهم متأثّرون أيضاً ببيئاتهم وتاريخهم ومكوّناتهم الحضاريّة. هكذا نتوسّم فيهم إمكانات للتّفاعل الحضاري المستمرّ والمتنوّع في جدواه فيما يتّصل بصفتهم الموسيقيّة.

— ثانياً: يتطلّب أداء هذه المؤلّفات عازفين ذوي تقنيّات عالية وبأعداد كبيرة أحياناً. هذه الحاجة باتت في بلادنا صعبة التحقيق. فلا نستغرب أن تظلّ تلك المؤلّفات أحياناً على شكل مخطوطات تنتظر التنفيذ. هذا واقعٌ ذو انعكاسات سلبيّة على نشاط هؤلاء الموسيقيّين وتطوّرهم التقني والرّوحي.

— ثالثاً: ليس الحكم على الحياة الموسيقيّة في بلادنا بالتخبّط حكماً قاسياً. ثمّة تجاذبٌ عنيفٌ بين القائلين بالأصالة والقائلين بالتطوّر والتحديث والتيار المندفع إلى الموسيقى الاستهلاكيّة الذي يزداد تسلّطاً متصاعداً. هذا التجاذب لا يختصّ بالحقيقة في الحقل الموسيقيّ فقط، وإنّما هو ظاهرة اجتماعيّة شاملة يصعب تبسيطها إلى المفاضلة بين الأصالة والتغرّب. ويصعب حصرها شأن النّقاش حول المقامات العربيّة أو استخدام تعدّد الأصوات. إنّ كلّ تحوّل اجتماعيّ كبير لا بدّ من أن يسايره تحوّلٌ في المفاهيم الموسيقيّة والفنّيّة على نحو عامّ. غير أنّ التحوّل في وجدان الشعب وثقافته أمرٌ أبطأ وأشقّ. وفي تأريخ الموسيقى شواهد عديدة على هذا النّبض المختلف. فعصر انحدار الدولة العباسيّة مثلاً كان في أزهى عصورها موسيقيّاً ولم تنعكس آثار التّدهور السياسي على الموسيقى إلّا بعد ذلك بقرن تقريباً. هذا النّبض المختلف للتحوّل الروحي إذاً هو أحد أسباب تصدّع موسيقانا وفصامها. نحن الآن بأمسّ الحاجة إلى صمّام أمان يحمينا خلال مراحل التحوّل والتطوّر من فقدان عناصر من روح ثقافتنا، ويحمينا في الوقت نفسه من تكبيل موسيقانا بأغلال المحلّيّة الضيّقة والمتعصّبة.

اهتمامنا بهذا التيّار من مؤلّفات الأوركسترا السيمفونيّة والمجموعات الأصغر من الآلات الموسيقيّة سنعتبره تيّاراً... في الوضع الموسيقيّ الحاضر / القائم وإلى المساهمة في رسم الاتجاهات الموسيقية في المستقبل. إذ لا نقدّم هذا التيار التحديثي... بذاته للتّطوير الموسيقي ولا نقدّمه أنّه علميّ لمجرّد استخدام التقنيّة الغربيّة. كذلك لا نقدّم هذه المؤلّفات على أنّها الأفضل في الموسيقى

العربيّة... بغير عربيّة أصلاً. وإنّما نقدّمها كتيّار موسيقيّ من ضمن التيّارات التي تشعّبت إليها الظّاهرة الموسيقيّة العربيّة نتيجةً لعوامل موضوعيّة وذاتيّة عديدة في الثقافة العربيّة الحديثة. هذا التيّار الذي يعتمد على الأوركسترا السيمفونيّة أو مجموعاتٍ أصغر من الآلات لم ينظر بعين الرضا إلى الموسيقى العربيّة ولم يجد فيها شيئاً من النّبض الرّوحي أو الثقافي أو الفنّي سمّه ما شئت. والغناء العربيّ الحديث أصيب بجراحٍ روحيّة بليغة.

ثقافة جماهيريّة مشوّهة

أيّاً كانت هذه الثقافة الاستهلاكيّة الغزيرة الموضوعة في تصرّف الجمهور بواسطة وسائل الإعلام الحديثة، فهي ثقافة ذات طبيعة تجاريّة، ثقافة معادية للثقافة المحترفة (الراقية) الرّفيعة ومعادية للتراث بفرعيه الفلكلوري والفنّي. لأوّل مرّة تنتظم الإبداعات الفنّيّة على مقياس الإنتاج بالجملة، كأيّ سلعة، ولأوّل مرّة، ينشأ سباق مجنونٌ من أجل الحصول على أقصى ما يمكن من الربح في الإنتاج الثقافي. إنّها ثقافة التّرفيه والتّسلية السطحيّة، طبعاً، الموجّه إلى الأذواق غير المتطلّبة. لقد تحوّلت هذه الثقافة إلى عاملٍ فاعلٍ في القولبة الأيديولوجيّة وأدّت إلى تمتين الأنماطِ الاجتماعيّة الثقافيّة والقيَم الوهميّة للوعي الجماعي العامّ. وأدّى الأمر إلى انحطاطٍ لا مثيل له في الإنتاج الفنّي وإلى هبوط التذوّق لدى مستهلكي الفنون ومطيعيها ومالكي صناعة الاتّصال الإعلامي على حدٍّ سواء.

وهذا الوضع يولّد قطيعة كبيرة بين الجمهور الواسع والثقافة الرفيعة. فإذا كان ثمّة ما يقال عن غربة تعيشها الموسيقى السمفونيّة العربيّة فتلك العزلة أو الغربة لا تنبع بالضّرورة من المؤلّفات السمفونيّة أو الأوركستراليّة التي نتناولها في برنامجنا هذا، وإنّما هي نابعة في الأساس من انحطاط الثقافة الجماهيريّة التي لا تسمح بالاختبار ولا بحرّية الاختيار. والدليل على ذلك هو النصيب البائس الذي وصلت إليه الموسيقى العربيّة التراثيّة والحسرة على الأشكال التراثيّة الموسيقيّة وهروب الأصوات العظيمة وتدهور الغناء العربيّ.

أعمال أصدقائنا السمفونيّة تواجه الكثير من المعارضة والمقاومة الشديدتين. فالدكتور حبيب حسن توما مثلاً، يعتبر أنّ من الخطأ أن يُدخل الملحّن العربي آلات موسيقيّة أجنبيّة في ألحانه بقصد التجديد أو التّطوير وإلّا لأدّى استخدام آلات أوروبّية وسلالم موسيقيّة أوروبيّة إلى صياغة قوالب موسيقيّة أوروبيّة وقد تندثر الحضارة الموسيقيّة العربية ونصبح جميعاً ضاحية موسيقيّة للمركز الأمّ. وترى الباحثة شهرزاد قاسم حسن أنّ من الخطأ طرح التخلّي عن التّراث والدعوة إلى الاستفادة من التكتيك الأوروبيّ والتأكيد على وجوب خلق السيمفونيّة العربيّة. ثمّ تسأل شهرزاد بحدّة: من قال إنّ على البشريّة أن تسلك طريق السّيمفونيّات والسّونتّات، ولماذا نلغي الاختلاف ونقدّم التوحيد الهزيل؟ أمّا الزميل سليم سحّاب فيرى أنّ في التيّار التأليفيّ عقدة نقص تقول بأنّ الموسيقى العربيّة متخلّفة والموسيقى الأوروبيّة متقدّمة. وإذا كان سليم سحّاب يقول بالتفاعل الحضاري ولا ينفي إمكان تلاقي الأشكال الموسيقيّة العربيّة مع الأشكال الأوروبيّة المناسبة لطبيعتها وشخصيّتها، فهو يرفض هذا الإسراع القسريّ في عمليّة التطوّر لأنّ هذا الإسراع سيؤدّي إلى تطوّرٍ مرتهن.

هذا بعض ما يقول المعارضون للموسيقى السمفونيّة والأوركستراليّة بوجهٍ عام. وقد لا يصحّ بالضرورة أن نضع هذه الآراء في خانة التقوقع، إنّما هي برأيي في باب التجاذب الفكريّ الذي سبق أن أشرت إليه في باب الحوار الحضاريّ العامّ الدائر على مساحتنا الثقافيّة. والواقع أنّ الأعمال الموسيقيّة التي سنعرض لها في برنامجنا هذا أعمالٌ متنوّعة ومتباينة في أساليبها وتقنيّاتها وأيضاً في ابتعادها أو اقترابها من الأصول الموسيقيّة التراثيّة. إنّ حملة الاعتراضات السابقة قد تصحّ بالنّسبة إلى بعض الأعمال ولا تصحّ للبعض الآخر. وتالياً، فهي اعتراضات ليست صحيحة في المطلق ولا هي مخطئة بالمطلق. على هذا الأساس يبدو برنامجنا هذا مبرّراً في منطلقاته، إنّه دعوة إلى الحوار والتّفاعل والدراسة.

وفي رأيي إنّه يحسن اعتبار هذا التيّار السمفوني جزءاً من الخارطة الموسيقيّة العامّة ونتاجاً فنّيّاً خاضعاً للتحليل والحكم الزمني أوّلاً وآخراً. هذه المؤلّفات الموسيقيّة التي نعرضٍ لها تَشَكّل له مستمعوه والآخذون بمنطلقاته التي تُشكّل تياراً قام بالتأسيس له عددٌ من الموسيقيّين المنتمين إلى أجيالٍ عديدة والمنتشرين في العالم العربي. إنّهم موسيقيّونَ على بيّنة من نشاطاتهم الموسيقيّة وغاياتهم الفنّيّة والتعبيريّة، وهم على ثقةٍ بأنّ خياراتهم الفنّيّة والموسيقيّة هي خيارات صحيحة. وإلى اللقاء أعزّائي المستمعين في ملفّاتٍ قادمة مع موسيقيّين في لبنان وسورية والعراق وتونس ومصر وغيرها من أعمال جديدة من بلدانٍ عربيّة أخرى.

توزيع المجلة

الاردن وكالة التوزيع الاردنية، عمان
تونس الشركة التونسية للتوزيع، تونس
فلسطين دار الايام للطباعة والتوزيع والنشر
العراق مكتبة منشورات المتوسط، بغداد
الكويت الشركة المتحدة للتوزيع، الكويت
المغرب الشركة الشريفية للتوزيع، الدار البيضاء
اليمن مكتبة ابو ذر الغفاري، صنعاء
مصر مؤسسة اخبار اليوم، القاهرة
فرنسا مكتبة معهد العالم العربي، باريس
إنكلترا مكتبة السّاقي، لندن
لبنان شركة الناشرون لتوزيع الصحف والمطبوعات
بيروت:
— مكتبات: مكتبات انطوان (الاشرفية، الحمرا، فردان، الاسواق، سن الفيل، ABC)، ABC Virgin (الاشرفية، الدورة)، مكتبة الشرقية، مكتبة واي إن، مكتبة الفرات، مكتبة بيسان (شارع الحمرا)، مكتبة انترناشيونال (جفينور)، مكتبة البرج (وسط البلد)، دواوين (الجمّيزة)، النديم (الظريف)
— اكشاك: زياد عباني (الكولا)، نعيم صالح (شارع الحمرا)
المناطق: مكتبة قشوع (كفرشيما)، قلم وورقة (عين الرمانة)، نيوبرس (الحدث)، مكتبة ساوا (قبر شمون)، حسام بوكشوب (بعقلين) ، مكتبة البستاني (زحلة)، مكتبة انطوان، مكتبة سمير حصني (طرابلس)، مكتبة طلال، مكتبة النقوزي (صيدا)، مكتبة نعمة (صور)، مكتبة الطليعة (النبطية) فواز غروب لتوزيع الصحف، مكتبة بيضون (بنت جبيل)، مكتبة جبل عامل (عيثرون)

الاشتراكات

لبنان	افراد ٥٠$	مؤسسات ١٠٠$
البلدان العربية	افراد ٨٠$	مؤسسات ١٥٠$
الإتحاد الاوروبي	افراد ٧٥$	مؤسسات ٢٠٠$
باقي البلدان	افراد ١٠٠$	مؤسسات ٣٠٠$

Bidayat SARL
Banque Libano-Française
Agence Gefinor - Beirut - Lebanon
IBAN: LB860010000000017101842001840
SWIFT: BLFSLBBX
Account: 017101842001840
صندوق بريد ١٣/ ٥٧٤٨
شوران - بيروت - لبنان

info@bidayatmag.com
www.bidayatmag.com
facebook.com/bidayatmag

الحقوق

- خالد فهمي، ص ٢٤ - ٢٥
- وكالة تسنيم الإيرانية، ص ٣٣
- عن موقع فليكر، ص ٣٤ - ٣٥
- تصوير أشولا مروان، ص ٣٨
- رسم لإليزابيث بلاكويل، ص ٤٣
- بورتريهات أوسكار نيماير لعمر خوري، وقد نشرت في العدد الخامس عشر من مجلة «السمندل» في كانون الثاني / يناير ٢٠١٣، ص ٤٨ - ٥٠
- مارتا بوغدانسكا، ص ٥٠ - ٥١، ٥٣، ٥٤ - ٥٥، ٥٧، ٥٩
- «وداعاً أوسكار نيماير» رسمها براق ريما وقد نشرت في العدد الخامس عشر من مجلة «السمندل» في كانون الثاني / يناير ٢٠١٣ ، ص ٦٢ - ٦٦
- صور من أرشيف رمزي حيدر، ص ٧٣ - ٩٢
- الصورة لنديم جرجورة، ص ٩٩
- تصوير ديك سوانسون، ص ١٢٦ - ١٢٧
- أرشيف جريدة «السفير»، ص ١٤٢ - ١٤٣
- ربيع علم الدين، ص ١٤٩
- Mideastimage، ص ١٥٤ - ١٥٥
- الصورة لجايمس باك عن موقع فليكر وتعود للاعتصامات التي حصلت في منطقة المحلة في نيسان / إبريل ٢٠٠٨، ص ١٦١
- الصورة لفيل روجرز عن موقع فليكر، ص ١٦٤ - ١٦٥
- Reproduced, with permission of the author and the publisher, from a chapter that appeared in «*Sectarianization: Mapping the New Politics of the Middle East*», edited by Nader Hashmi and Danny Postel, Hurst, London, 2017، ص ١٧٢
- صفحة حركة شباب الأحرار على فايسبوك، ص ١٧٤ - ١٧٥، ١٧٩
- جمال السعيدي، ٢٠١٦، ص ٢٠٩

إن الخط المستخدم في الشبابيك من تصميم جويل حداد، Jeem.

حاولنا جهدنا العثور على اصحاب حقوق النشر والتصوير المنشورة. الرجاء ممن أغفل إسمه الاتصال بنا.